مع المتنبّي

طه حسين

مع المتنبي



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً
لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ،
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

صدق الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ؛ ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذُرَى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول . وإن قلبى ليملؤه البر ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك ، من حث لى على الراحة ، ورغبة إلىّ فى التروض ، وإلحاح علىّ فى الاستمتاع بنعيم الحياة وجمال الطبيعة فى جبال (الألب) ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض ، وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والإشفاق . وإنى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسياً جافياً ، ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة وتلك القسوة بهذا الكتاب . فأذنى لى فى أن أقدمه إليك لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين .

الـكتاب الأول

١

لا أريد أن أدرس المتنبي ؛ فأنا لم أترك القاهرة ، ولم أعبر البحر ، ولم آو إلى هذه القرية للبحث والدرس ، وإنما اصطنعت هذا كله طلباً للراحة ، وإيثاراً للفراغ الذى أخلو فيه إلى نفسي . فقد طالما شُغلت عنها فى القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة . وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهاً لوجه ، وأدير بينها و بيني ألوان الحديث ، وأفر فيه من نفسي؛ فأنا كثير السأم لها والضيق بها ، كما قلت فى غير موضع ، لا أكاد أُقبل عليها حتى أنصرف عنها وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التى تدعونى وتلح فى الدعاء ، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين .

لا أريد إذن أن أدرس المتنبي ؛ فإنى قد فررت بنفسى وأهلى من الدرس والبحث والتحصيل . ولقد صحبت المتنبي طوال العام الجامعى أدرس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس ، حتى سئمت درسه والتحدث عنه .

وكما أكره لابنَيَّ أن يُقبِلا أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه فى عامهما الدراسى ، فأنا أكره لنفسى أن أمضى فى درس المتنبي بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالى والأيام .

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبي حين كان يجمع ما ينبغى أن نحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبي . ولم أطلب إليه أن يحمل ديواناً آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث ، وإنما طلبت ديوان المتنبي وحده . وأراد صاحبي أن يحمل ما فى مكتبي من الشروح التى كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هذا الديوان ، وأراد أن يحمل ما فى مكتبي من البحوث التى تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبى الطيب وشعره ؛

فأبيت عليه هذا كله ، وتقدمتُ إليه فى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبى ؛ لأنى لا أُريد درساً ولا بحثاً وإنما أُريد صحبة ومرافقة ليس غير .

وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء إلىّ وآثرهم عندى ، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب أو الإيثار . ولقد أتى علىّ حينٌ من الدهر لم يكن يخطر لى أنى سأُعْنَى بالمتنبى أو أُطيل صحبته ، أو أُديم التفكير فيه . ولو أنى أطعت نفسى وجاريت هواى لاستصحبت شاعراً إسلاميا قديما عسيراً كالفرزدق أو ذى الرمة أو الطِّرِمّاح . أو شاعراً عباسيًّا من هؤلاء الذين أُحبهم وأُوثرهم ؛ لأنى أجد عندهم لذة العقل والقلب ، أو لذة الأُذن ، أو اللذتين جميعا ، كمسلم ، وأبى نواس وأبى تمام ، وأبى العلاء . ولكنى لم أُطع نفسى وإنما عصيتها ، ولم أجار هواى وإنما خالفته أشد الخلاف ، وطلبت إلى صاحبى على كره منى أن يستصحب المتنبى .

وأكبر الظن أنى إنما فعلت ذلك لأن المتنبى كان وما زال حديث الناس المتصل منذ أكثر من عامين ، ولأنى حاولت وما زلت أُحاول أن أستكشف السر فى حب المُحْدَثين له وإقبالهم عليه ، وإسرافهم فى هذا الحب والإقبال ، كما أسرف القدماء فى العناية به حبًّا وبغضا، وإقبالاً وإعراضاً .

وأكبر الظن أيضا أنى إنما فعلت ذلك لأنى أُحب أن أعاند نفسى وآخذها من حين إلى حين ببعض ما تكره من الأمر . وقد قلت فى غير هذا الموضع إنى لست من المحبين للمتنبى ولا المشغوفين بشخصه وفنّه ، فلم أجد بأسا فى أن أشقّ على نفسى أثناء الراحة ، وأُثقل عليها حين تبغض الإثقال عليها .

نعم ! لم أجد بأسا فى أن أقطع عليها لذة الحياة فى فرنسا بين هذه الربى الجميلة ، وفى هذا الجو الحلو ، وبين هذه الكتب الطريفة والآراء الشاذة التى تتكشف عنها جهود الأدباء والفلاسفة والنقاد ، والتى أغرق فيها إلى أُذنى كلما عبرت البحر .

لم أجد بأساً بأن أُثقل على نفسى أثناء هذا كله بالتحدث إلى المتنبى والتحدث

عنه ، والاستماع له ، والنظر فيه . والناس يعرفون أنى شديد العناد للناس ، فليعرفوا أيضا أنى شديد العناد لنفسي كذلك .

لا أريد أن أدرس المتنبي إذن ؛ فالذين يقرءون هذه الفصول لا ينبغي أن يقرءوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغي أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد . وإنما هي خواطر مرسلة تثيرها في نفسي قراءة المتنبي في قرية من قرى الألب في فرنسا ، قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة ، وعلى غير نسق منسجم . إنما هي قراءة متقطعة متفرقة ، أقصد إليها أحيانا لأني أريدها ، وأقصد إليها أحيانا أخرى لأن نفسي تنازعني إلى كتاب من كتب الأدب الفرنسي ، فأعاندها وأمانعها وأكرهها على أن تسمع للمتنبي أو تتحدث إليه .

هي قراءة إن صورت شيئا فإنما تصوِّر طغيان المرء على نفسه ، ولعبه بوقته ، وعبثه بعقله ، وعصيانه لهواه ، وطاعته لهذا الهوى أحيانا .

وقل ما تشاء في هذا الكلام الذي تقرؤه : قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذي به صاحبه هذيانا . قل إنه كلام يصدر عن رأى وأناة ، وقل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح . فأنت محق في هذا كله ؛ لأني مرسل نفسي على سجيتها . ونفسي كغيرها من النفوس من سجيّتها الأناة ، ومن سجيتها العجلة ، ومن سجيتها الجد ، ومن سجيتها اللهو ، ومن سجيتها التفكير ، ومن سجيتها الهذيان . وما يمنعني أن أرسل نفسي على سجيتها بين وقت ووقت إذا طلبت إلى صاحبي أن يأخذ الورق والقلم ويسطر ما يملي عليه ؟!

إني مثلك آخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال أكثر العام حين أحيا في مصر ، وأنهض بما تفرضه الحياة من تكاليف ، وآخذ نفسي بأشد القيود وأثقل الأغلال أربعة أخماس الوقت الذي أنفقه يقظان في فرنسا حين أعاشر الناس وأخالطهم ولو كانوا أقرب الناس وألصقهم بي ، ولا أتحلل من هذه القيود والأغلال إلا فيما بيني وبين الضمير أحيانا . ولعلي أكره ذلك فآباه إباء شديداً . فلنطلق أنفسنا من هذا

العقال الاجتماعى بعض الشىء ، ولنخل بينها و بين الحرية بعض الوقت ، ولنرسلها على سجيتها لحظات ، ولنصورها كما هى فى غير تحرج ولا إسراف فى الاحتياط ؛ فإن هذا من حقها علينا ، وهو قبل كل شىء من حق الأدب العربى على الأدباء . وما أظننى أعرف أدباً مقيداً فى التحرج غالياً فى الاحتياط كأدبنا العربى الحديث ، الذى ينشئه أصحابه وهم يفكرون فى الناس أكثر مما يفكرون فى أنفسهم ، حتى أطمعوا الناس فيهم ، وأصبحوا عبيداً للجماعة وخدماً للقراء

فلنتمرد على الجماعة ، ولنثر بالقراء ، ولننبذ الاحتياط كله إلا هذا الذى يثير الشر أو يؤذى الأخلاق .

٢

وقد تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبي رجل عربي خالص النسب . ينتهي من قبل أبيه إلى جُعْفِيّ ، ومن قبل أمه إلى هَمْدَانَ ، وهما حيّان من أحياء اليمن ، فيما يقول المؤرخون والنسّابون .

وجائز جدًّا أن يكون المتنبي عربيًّا ، وجائز أن يكون من عرب الجنوب ، جُعْفِيّ الأب ، هَمْدَانِيّ الأم . ولكن الشيء الذي ليس فيه شك هو أن ديوانه لايثبت هذا ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره . ومن يدري ! لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفياً هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح .

أكان المتنبي يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبي شيئاً . فأنت تقرأ ديوانه من أوله إلى آخره وتقرؤه مستأنياً متمهلاً ، فلا تجد فيه ذكراً لهذا الرجل الطيب الذي أنجب للقرن الرابع شاعرَه العظيم .

لم يمدحه المتنبي، ولم يفخر به ، ولم يَرْثِهِ المتنبي ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات ! أكان ذلك لأن المتنبي لم يعرف أباه ؟ أم كان ذلك لأن المتنبي عرف أباه ولكنه لم ير له خطراً، ولم ير في ذكره مايرفع من شأنه ويرد عنه كيد الكائد وحسد الحسود ؟ أم كان المتنبي يزدري أباه ويكبر شعره عن أن يقف عنده مادحاً أو هاجياً ونادباً أو راثياً ؟

كل ذلك ممكن (ولكن الشيء المحقق أن المتنبي كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح ، وإلى الحرب والبأس ، على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذي سماه المؤرخون الحسينَ ، ونسبوه إلى جُعْفِيّ من عرب الجنوب .)

أكان المتنبي يعرف جَدَّه ؟ لا يحدثنا ديوانه بشيء . ومن أعرض عن ذكر أبيه لا يستغرب منه أن يعرض عن ذكر جده . ومن لم يعرف أباه لم يعرف جده ا إذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أنهم كانوا يعرفون أبا المتنبي ويسمونه حسيناً فإنهم لم يتفقوا على جده ، ولم يُجمعوا على الاسم الذى يلصقونه به . فهو الحسين حيناً، وهو عبد الصمد حيناً آخر . ومهما يكن من شيء فقد كان للمتنبي أبٌ ، وكان له جد ؛ لأننا لا نعرف إنساناً ليس له أب ولا جد ، لا نستثنى من ذلك إلا اللذين استثناهما الله عزّ وجل حين قال : « إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » .

كان للمتنبي أبٌ وجدٌ ، ولكن المؤرخين والنسّابين لا يعرفون من أمر جده قليلاً ولا كثيراً ، ويكادون يختلفون فى اسمه كما رأيت .

أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئاً ، شيئاً يسيراً جدًّا : كانوا يزعمون أن أبا المتنبي كان سقّاء فى الكوفة . تحدث المؤرخون بذلك ، وهم بين متحدِّث به يريد أن يرفع من شأن المتنبي الذى انحدر من رجل حقير ، فملأ الدنيا وشغل الناس ، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبي الذى انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان أبوه يبيع الماء على الناس ، وكان هو يبيع ماء وجهه على الممدوحين (١) .

وما أظن أن الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا إلى إثبات الحق من حيث هو حق ، وتسجيل التاريخ من حيث هو تاريخ . وإنما قصدوا إلى ما ذكرت لك : إلى الرفع من شأن المتنبي أو الوضع من قدره . فكأنهم إذن لم يصنعوا شيئاً ، وكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر المتنبي إلا مثل ما عرفوا من أمر جده ، أى لم يعرفوا شيئاً ما .

ولعل المتنبي نفسه قد عرف الكثير من أمر أبيه وجَدِّه ، ولكنه كان فيما يظهر

---

(١) وإلى هذا أشار بعض الشعراء حين هجاه بقوله :

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ... ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع فى الكوفة المـا ... ء وحيناً يبيع ماء المحيا

وفيات الأعيان ج١ ص ٥٠ (طبع بولاق) .

غاليا فى الغرور مسرفاً فى الكبرياء ؛ وكان غروره فيما يظهر أكبر من شعره فأفسد عليه الأمر إفساداً .

والتاريخ أو القصص يحدثنا بأن أبا جرير لم يكن شيئا ، وبأن جريراً قد أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب ، حتى غلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يُظهره للناس كما هو[1] ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده شعره ، وأعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً .

أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره ، ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقا جديداً . ومن يدرى ! لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف أباه فصوّره كما أراد لا كما كان ، وأن المتنبي لم يكن يعرف أباه ، فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان .

وبعد فليس يضع من قدر المتنبي عندى ألا يعرف لنفسه أباً ، وليس يرفع من شأنه أن يكون أبوه من المجد ونباهة الذكر بحيث كان غالب بن صعصعة أبو الفرزدق وشيخ تميم .

وأنا أقبل من المتنبي فى إعجاب لا حدّ هله ـــذه الأبيات التى هي من أروع ما قال من الشعر :

---

(١) حدث صاحب الأغانى قال : قال إسحاق وقال الأصمعى حدثنى بلال بن جرير ـــ أوحدثت عنه ـــ : أن رجلا قال لجرير : من أشعر الناس ؟ قال له : قم حتى أعرفك الجواب؛ فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها وجعل يمص ضرعها ، فصاح به : اخرج يا أبت ؛ فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته فقال : ألا ترى هذا ؟ قال نعم . قال : ألا تعرفه ؟ قال لا . قال هـــذا أبى ، أفتدرى لم كان يشرب من ضرع العنز ؟ قلت لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن : ثم قال : أشعر الناس من فاخر بمثل هذا الأب ثمانين شاعراً وقارعهم فغلبهم جميعاً (أغانى ج ٧ ص ٥٨ طبع بولاق) .

أنا أبنُ مَن بَعضُهُ يفُوقُ أبا البـ ـاحِثِ والنَّجْلُ بعضُ مَن نَجَلَهْ
وإنَّما يذكرُ الجُـدُودَ لَهُم مَن نَفَرُوهُ وأنفَدُوا حِيَلَه
فَخْراً لِعَضبٍ أرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وسَمْهَرِيٍّ أرُوحُ مُعْتَقِلَهْ
وَلْيَفْخَرِ الفخرُ إذ غَدَوْتُ بهِ مُرْتَدِياً خَـيْرَهُ ومُنتَعِلَهْ
أنَا الّذى بَيَّنَ الإلهُ بهِ الأ أقدارَ والمَرءُ حَيثُما جَعَلَهْ
جَوْهَرَةٌ تَفرَحُ الشرافُ بِها وغصّةٌ لا تُسِيغُها السَّفِلَهْ
إن الكِذَابَ الّذى أكادُ بهِ أهْوَنُ عِنـدى من الذى نَقَلَهْ
فلا مُبَـالٍ ولا مُدَاجٍ ولا وَانٍ وَلاَ عاجزٌ ولا تُكَلَهْ
ودَارِعٍ سِفْتُهُ فَخَرَّ لَقًى فى المُلتَقَى والعَجَاجِ والعَجَلَهْ
وَسَـامِعٍ رُعْتُـه بقافيةٍ يحَارُ فيهـا المُنَقِّحُ القوَلَهْ
ورُبَّمَا أشْهَدُ الطعَـامَ مَعِى مَنْ لايُساوِى الخُبْزَ الذى أكَلَهْ
ويُظهِرُ الجَهلَ بى وأعرِفُهُ والدُّرُّ دُرٌّ برَغْمِ مَنْ جَهِلَهْ

فالمتنبي كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس ، وإنما ينسب نفسه إلى متجزئ له بعض يمتاز من كله ، وبعضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه المتقصين لأمره .

هو لا ينسب نفسه إلى رجل ؛ لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال، وإنما ينتسب إلى الآباء والجدود مَنْ غلبه المفاخرون وقهره المنافرون ، وقطعوا عليه السبل ، وسدُّوا عليه أبواب الحيلة ، فاتخذ الآباء والجدود عِلةً ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه ، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد فى أعماله .

هو إذن لا ينتسب إلى الرجال ؛ لأنه لا يريد أو لا يستطيع أن يجد فى الانتساب إلى الرجال غناء .. وإنما ينتسب إلى معنى بعضه يغنى عن كل غيره ، وقليله يغنى عن كثير سواه . هو ينتسب إلى البأس والشدة ، وإلى المروءة والنجدة ، وإلى ارتفاع الهمة وبعد الأمل وحسن البلاء : به يفخر السيف إن اشتمل السيف، وبه يفخر

الرمح إن اعتقل الرمح ، و به يفخر الفخر إن اكتساه ثوباً أو احتذاه نعلاً .

ثم هو بعد ذلك حسن البلاء حين يجرّد السيف ، أو يلاعب السّنان . بهذا وذاك يصرع الأبطال الدارعين . ثم هو بعد هـذا وذاك ابن الشعر الذى يقهر به الشعراء مهما ينبغوا ، و يقهر به النقّاد مهما يبرعوا . وهو من أجل هذا وذاك يزدرى كثيراً من الناس ، أو قل إنه يزدرى الناس جميعاً . وما أقدره على أن يعلن ذلك و يجهر به ! لولا أنه يمدح أبا العشائر بهذه القصيدة ، وغير أبى العشائر بغير هـذه القصيدة . فهو محتاج إلى أن يعلن هذا الازدراء فى تحفظ واحتياط ، وهو يكتفى هنا بأن يزدرى قوماً يشهدون معه الطعام وهم لا يساوون الخبز الذى يأكلونه .

ولكن شيئاً واحداً يحتاج إلى أن نقف عنده لحظة هو هذا الكِذَاب الذى كان المتنبي يُكاد به عند أبى العشائر ، والذى كان أهون عند المتنبى من ناقله ، والذى لم يحفل به المتنبي فأعلن فى حزم أنه لا يبالى ولا يداجى ولا ينى ولا يعجز ولا يعتمد على أحد .

ما عسى أن يكون هذا الكِذَابُ ؟ أتراه يمس نسب المتنبي من قريب أو بعيد ؟

ليس فى ذلك عندى من شك ؛ فقد اتُّهم الرجل فى نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يستطع ، أو لم يرد أن يجيب سائليه ، وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس ، وأن يزدرى الكائدين له والمرجفين به والمؤلبين عليه . ومع أن هـذه الأبيات تصور ضعف المتني من ناحية نسبه أبلغ تصوير ؛ لأن هذا الإسراف فى الفخر والغلو فى التيه والإغراق فى ازدراء العائبين دليل فى حقيقة الأمر على العجز والنكول — أقول مع أن هذه الأبيات تصور ضعف المتنبى من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه ، فهى فى الوقت نفسه تصور فتوّة المتنبى وحسنَ رأيه فى نفسه ، وقوة إيمانه بهذه النفس ، وصدق معرفته للناس ، وشدة ازدرائه لهم ، واستهزائه بهم ؛ لأنه قد علم من حقائقهم ودخائل أمورهم ما دفعه دفعاً إلى هذا الازدراء والاستهزاء .

٣

وهل كان المتنبي يعرف أمه ؟ مسألة فيها نظر، كما يقول الأزهريون . فديوان المتنبي صامت بالقياس إلى أمه صمته بالقياس إلى أبيه . فالصبي الشاب ، والرجل المكتهل ، والمتنبي راضياً وساخطاً ، ومسروراً ومحزوناً ، لا يذكر أمه ، كما أنه لا يذكر أباه . ولكن الخطب في أمّ المتنبي أعظم من الخطب في أبيه ؛ فقد سكت المتنبي نفسه عن أبيه ، ولكن الرواة والمؤرخين ذكروه فسموه الحسين ، وعرفوا له أباً اختلفوا في اسمه بعض الاختلاف ، وعرفوا له صناعة هي السقاية في الكوفة . وهذا على قلته وضآلته كثير بالقياس إلى ما عرفوا عن أم المتنبي ؛ لأنهم لم يعرفوا من أمرها شيئاً ، ولم يذكروا من أمرها شيئاً .

فنحن لا نعرف اسمها ، ولا نعرف أباها ، ولا نعرف أكانت عربية من قبل أبيها أم أعجمية . وكل ما نعرفه أن أمها قد عطفت على المتنبي ، وأحبته وكلفت به ، وعمِّرت حتى رأته رجلاً . وهذه السيدة التي قتلها حب حفيدها ، فيما يقال وكما سنرى ، لا نعرف لها اسماً ولا أبا ، و إنما نعرف أن بعض الرواة كانوا يقولون : إنها همْدانية صحيحة النسب ، و إنها كانت من صوالح نساء الكوفة . وهذا ما يعرفه عنها التاريخ ، وهو كذلك كل ما يعرفه عنها ديوان المتنبي — أستغفر الله — فديوان المتنبي لا يذكر نسبها ولا يشير إليه ، ولعله يشكك فيه بعض التشكيك بهذا البيت الذي أملاه الغرور وصاغته الكبرياء ، ووضعه جموح الشاعر في غير موضعه من الرثاء ، وهو قوله :

(ولو لم تَكُوني بِنتَ أكرَمِ والدٍ　　لكانَ أباكِ الضَّخمَ كونُكِ لي أمّا)

فأقل ما في هذا البيت أن المتنبي يذكر لنا أن جدته قد كانت بنت أكرم والد ،

ولكنها لم تكن محتاجة إلى هذا النسب لأنه حفيدها . ولكن المتنبي لم يذكر لنا شيئاً عن هذا الوالد الذي كان أكرمَ الناس . ومن الإنصاف أن نلاحظ أن المتنبي لم يكن يقرر في أكبر الظن أننا سنتشكك في نسبه، وسنلتمس وجه الحق فيه بعد أن يموت بألف سنة . ولو أنه قدَّر شيئاً من ذلك لأمكن أن يحتاط له بعض الاحتياط . ومن يدري! لعله كان يزدري شكنا ، كما كان يزدري كيد المعاصرين . ولعله كان يجيبنا بكل ما أجابهم به حين قال :

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يَفُوق أبا الْـ باحِثِ والنَجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنَّمَا يَذكُرُ الجُدُودَ لَهُم من نَفَرُوهُ وأنفَدُوا حِيَلَهْ

وإذا كان الكائدون للمتنبي من معاصريه قد عجزوا عن أن ينفروه ويُنفدوا حيله ، ويضطروه إلى أن يذكر لهم آباءه وجدوده ، فإن الباحثين المعاصرين لنا أعجز من أولئك الكائدين . فليس بين هؤلاء المعاصرين الباحثين وبين المتنبي منافسة ولا خصومة ، وليس هؤلاء الباحثون المعاصرون من العلم بأمر المتنبي ودخيلته بحيث كان خصومه ومنافسوه في القرن الرابع . فليس من شك في أن الذين عاصروا المتنبي وخاصموه كانوا يعرفون من سيرته ومن أمره جملةً أكثر جداً مما نعرف ؛ لأننا لا نعرف شيئاً أو لا نكاد نعرف شيئاً . بل إن مضيّ الزمن بيننا وبين المتنبي قد رفع الرجل عن الخصومات وصفَّاه من أكدار المنافسة ، ورفع بحثنا عنه ودرسنا له عن الأحقاد والضغائن . فنحن لا نُسَرُّ ، أو أنا على أقل تقدير لا أُسر ولا أحزن إن ظهر أن نسب المتنبي، من جهة أبيه أو من جهة أُمه ، قد كان صريحاً أو مدخولاً . ونحن نبحث ، أو أنا على أقل تقدير أبحث من أمر المتنبي عن شيء أبقى وأرقى وأقْوَمُ من نسبه العربي الصريح أو المدخول : عن أدبه ، وفنه ، ومكانته من الأدباء ، وأصحاب الفن القدماء والمحدثين .

ونحن إذا انتهينا إلى قرارة الأشياء ، لا نكاد نشك في أن المتنبي قد كان عربياً ، ولكن بشرط أن نفهم من لفظ العربي معنى أوسع وأعمق وأصدق مما كان يفهمه

النسابون فى العصور الأولى ، ومما يفهمه المقلدون من الأدباء فى العصر الحديث .

فأين العقل العاقل الذى يستطيع أن يصدّق ما كان يقال فى العصور الأولى ، وما لا يزال يقال فى كثير من المدارس الأدبية ، من أن العربى الصريح أو العربى الصليبة هو الذى يُعْرَفُ له نسب صحيح إلى قبيلة من قبائل العرب فى الشمال أو فى الجنوب ؟ أين العقل العاقل الذى يصدّق أن جميع سكان جزيرة العرب منذ العصور الجاهلية الأولى إلى هذا العصر الذى نعيش فيه قد حفظوا لأنفسهم أنساباً صريحة صحيحة ترفعهم إلى عدنان أو إلى قحطان ؟ إنما حفظ الأنساب مزية قد اختصت بها طبقات من أشراف العرب وساداتهم فى بعض الأوقات ، ثم أصبحت سُنّة موروثة وعادة مألوفة ، ومظهراً من مظاهر الأرستقراطية ، ثم فرضت على أصحابها أن يحفظوها ويتوارثوها ، ويبتدعوها ابتداعاً إذا غلبهم عليها النسيان .

ومن الحديث المعاد فى غير طائل ، بل من الحديث المعاد فى كثير من السأم والملل ، أن نذكر ما أثير حول الأنساب وصحتها منذ أقدم العصور العربية . بل من الحديث المعاد الممل أن نذكر ما أثير حول صحة الأنساب عند الامم القديمة كاليونان والرومان .

ليس من الحق إذن أن العربى لا يكون عربيًّا ، حتى يحفظ لنفسه أو يحفظ الناس له نسباً صحيحاً صريحاً ينتهى به إلى قبيلة من القبائل . ولو كان هذا حقًّا لتغير كثير جدًّا من القيم التاريخية والمعاصرة . فأكثر الذين كانوا يرون أنفسهم عرباً فى العصور القديمة ، لم يكونوا يحفظون أنسابهم فى أكبر الظن . والتاريخ لم يحفظها عنهم على كل حال . أفنجحد الآن أنهم كانوا عرباً ؛ لأن أنسابهم لم تصل إلينا ؟ وأكثر المعاصرين من الشعوب العربية فى الشرق الأدنى ، لا يحفظون أنسابهم ، ولا يستطيعون أن يرقوا بها إلى عدنان أو قحطان ، أفنجحد تحدُّرهم من العنصر العربى الصريح ؟ ! وما هذا العنصر العربى الصريح ؟ وكيف السبيل إلى تحقيقه واستخلاصه

من العناصر المختلفة التى لا تحصى ، والتى اتصلت به وأثرت فيه على تتابع الأحداث ومرِّ العصور ؟

ولكن ماذا ؟ أرانى أستطرد وأسرف فى الاستطراد ، وأكاد أثير مسألة الأجناس التى يثيرها بعض الساسة المعاصرين ، ويندفعون معها إلى كثير من الحق ، وإلى كثير من الظلم أيضاً . والأمر أيسر من هذا ؛ فالتفكير فى نسب المتنبي والحديث عنه أهون من أن يدفعنا إلى أن نخوض هذه الغمرات .

(كان المتنبى يرى أنه عربى ، وسار حياته كلها سيرة ملائمة لهذا الرأى . ولعل هذا الرأى كان أبلغ المؤثرات فى حياته العملية ، وهو أبلغ المؤثرات فى حياته الفنية على كل حال . وقد أنبأنا المتنبي برأيه هذا فى نفسه حين قال :

لا بِقَومى شَرُفْتُ بلْ شَرُفُوا بِى ... وبنفسى فَخَرتُ لا بجُدُودى
وبِهم فخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الضَّا ... دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطَرِيدِ

فهذا البيت الثانى صريح فى أن المتنبي كان يعلن إلى الناس أنه لا يشرف بقومه وإنما يشرف قومه به ، وأنه يفخر بنفسه لا بأجداده ، وإن كان قومه فخر العرب ومجتمع خلالهم وخصالهم .)

فما الذى يمنعنا من أن نصدِّق المتنبي ، ونرى معه أنه كان عربيًّا قحطانيًّا ؟ لاشىء إلا أنه لم يحفظ نسبه ، ولم يحفظه له المؤرخون ؛ فأمره فى ذلك أمر الكثرة التى لا تحصى من العرب القدماء والمحدثين الذين أضاعوا أنسابهم . أفنجحد عربيتهم ؛ لأنهم قد أضاعوا هذه الأنساب ؟ وما يمنعنا إذن أن نجحد إنسانية الناس ؛ لأنهم لم يحفظوا أنسابهم إلى الإنسان الأول ، أو إلى الأناس الأولين ؟ إنما أفهم الشك فى عربية المتنبي لو أن المؤرخين رووا أن له نسباً معروفاً أو قريباً من المعروف فى أمة غير عربية ، وأنه قد جحد هذا النسب وتبرأ منه ، واصطنع لنفسه نسباً عربيًّا . ولكنى لم أر أحداً عاب المتنبي بهذا ، أو أضاف إليه نسباً أعجميًّا أو جعله عربيًّا بالولاء .

و إذن فلنقبل من المتنبي ، ومن أصدقائه انتسابه إلى العرب ؛ فذلك لا يغير من العلم شيئاً ، وأكبر الظن أنه يلائم الحق .

أفهم أن ينسب ابن الرومى إلى اليونان ؛ لأن جده اليونانى قد حفظ اسمه ، وأن ينسب من قبل أمه إلى الفرس ؛ لأن أمه الفارسية قد كانت معروفة . وأفهم أن ينسب بشار إلى الفرس لأنه كان يفاخر بذلك ولا يخفيه ، وأفهم أن تثار المناقشات إن زعم زاعم أن بشاراً كان عربياً ، بل أفهم أن تثار المناقشات حول طائية أبى تمام ، ثم حول عربيته ؛ لأن المعاصرين قد شكّوا فى نسبه وغمزوه ببعض الهنات . ولكنى لا أفهم الشك فى عربية المتنبي ، ما دامت القرائن لا تنسبه إلى أمة أعجمية ، وما دام خصومه على كثرتهم وشدة بأسهم لم يفعلوا ذلك ، وما دام هو ينبئنا بأنه عربى صريح .

ومن حقك أن تسألنى لماذا أطيل الحديث عن نسب المتنبي ، وأظهر الشك فى معرفته لأمه ومعرفته لأبيه ما دمت لا أميل إلى الجدال فى عنصره العربى الصريح ؟ من حقك أن تلقى علىّ هذا السؤال .

(فاعلم يا سيدى أنى لم أثِرْ هذه المناقشة الطويلة لأعرف أكان المتنبى عربيًّا أم أعجميًّا ، وإنما أثرتها لأنتهى منها إلى حقيقة يظهر أنها لا تقبل الشك ، وهى أن المتنبي لم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ، ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه . التَمِسْ لذلك ما شئت من علة ، فهذا لا يعنينى ، وإنما الذى يعنينى ، ويجب أن يعنيك ، هو أن شعور المتنبي الصبى بهذه الضعة أو بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين قد كان العنصر الأول الذى أثر فى شخصية المتنبي ، وبغّض إليه الناس ، وفرض عليه أن يرى أن حياته بينهم لم تكن كحياة أترابه ورفاقه ، وإنما كانت حياة يحيط بها كثير من الغموض ، ويأخذها كثير من الشذوذ .

رأى نفسه شاذًّا لأمر ليس له فيه يد ، وليس له عليه سلطان . ففكر تفكير الشاذ وعاش عيشة الشاذ ، ثم انضمت إلى هذا العنصر عناصر أخرى سيظهرها لنا شعره ، فكوّنت هذه الشخصية التى لم نستطع أن نفهمها ، ولا أن نحللها إلى الآن .)

ليكن المتنبي عربيًّا من قحطان أو من عدنان ، أو ليكن فارسيًّا ، أو ليكن نبطيًّا ، أو ليكن ما شئت ؛ فالأمر الذى لا شك فيه هو أن هذا الصبي الذى نراه متى أخذنا فى قراءة ديوانه ، نبات شعبي خالص ، نشأ فى هذا الشعب الكوفى الذى كان فى أوائل القرن الرابع مضطربًا أشد الاضطراب . فدَرْسُ هذه البيئة الشعبية الكوفية التى أنبتت هذا النبات الشاذ أقْوَمُ وأجدى من البحث عن أبيه : أكان من جعفيّ ، وعن أمه أكانت من همدان .

وتسألني — ومن حقك أن تسألني — عن مظاهر هذا الغموض الذى أحاط بحياة المتنبي ، وعن مواطن هذا الشذوذ الذى أخذه من كل وجه فى بيئته الكوفية . فلاحِظْ قبل كل شيء غموض الأمر فى نسبه . ولاحظ بعد ذلك خلو ديوانه من ذكر أمه وأبيه ، أو الإشارة إليهما . ولاحظ بعد هذا وذاك هـذا الكِذَابَ الذى كان يُكاد به عند أبي العشائر . ثم لاحظ آخر الأمر أنه حين عرف شوق جدته إليه ، ووجد الشوق إلى لقائها ، وذهب لتنعم وينعم هو بهذا اللقاء ، لم يستطع أن يدخل الكوفة ، فذهب إلى بغداد وكتب إلى جدته لتشخص إليه ؛ فلما انتهى إليها كتابه فرحت به فقتلها الفرح .

أليس هذا كله دليلاً على أن شيئاً كثيراً من الغموض قد أحاط بأسرة المتنبي ؟ لماذا احتاج المؤرخون إلى أن يتحدثوا عن أبيه ، وعجزوا أو لم يريدوا أن يتحدثوا عن أمه ، ولم يتحدث هو عن هذه وذاك ؟

لماذا كاد الكائدون للمتنبي فى نسبه ؟ لماذا تعمد الغربة عن الكوفة وألحّ فيها ، وتجنب الحياة في العراق ما وسعه هذا التجنب ؟ لماذا عجز عن دخول الكوفة حين خفّ للقاء جدته ، فمضى إلى بغداد وطلب إلى جدته أن تشخص إليه ؟

كل هذه الحقائق واقعة لا نستطيع أن نشك فيها ، ولكننا لا نستطيع أن نعللها تعليلاً قاطعاً . والمتنبي يحقق لنا هذه الأحداث فى هذه القصيدة الخالدة التى يرثى بها جدّته . فاقرأ معى هذه الأبيات ، ولكن قراءة المستأني المتمهل الذى لا يمر بالشعر

مرًّا ، والذى لا يشغله الجمال الفنى عن التماس نفس الشاعر ، وما يكنّ فى ضميره من العواطف المكظومة ، والأهواء المكتومة ، والخواطر التى لا يعرب عنها إلا بالإشارة والتلميح :

طَلَبتُ لهـا حَظًّا ففاتَتْ وفاتَـنى ... وقد رَضِيَتْ بِي لو رَضِيتُ بها قِسْما
فأصبَحتُ أستَسقى الغَمامَ لِقَبرِها ... وقد كُنتُ أستَسقى الوَغَى والقَنا الصُّمَّا
وكنتُ قُبَيل الموتِ أستعظمُ النَّوَى ... فقد صارَتِ الصُغرَى الَّتى كانتِ العُظمَى
هَبِينى أَخَذْتُ الثارَ فيك مِنَ العِدَى ... فَكيفَ بأَخذِ الثار فيكِ مِنَ الحُمَّى
وما انسَدَّتِ الدُنيـا عَلَيَّ لضيقِها ... ولكِنَّ طَرْفًا لا أراكِ بهِ أعْمَى
فَوا أسَفا ألاّ أُكِبَّ مُقَبِّـــلاً ... لرأسِكِ والصَّدْرِ اللَّذَىْ مُلِئا حَزْما
وألاّ أُلاَقِي رُوحَكِ الطيِّبَ الَّذِي ... كأنَّ ذَكِيَّ المِسكِ كان لهُ جِسما
ولو لم تَكُونى بنتَ أكرَمِ والدٍ ... لَكانَ أباكِ الضَخْمَ كَوْنُكِ لى أمَّا
لَئِن لَذَّ يَومُ الشامِتِينَ بمَوْتِها ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنى لِأَنفِهِمُ رَغما
تَغرَّبَ لا مُسْتَعظِماً غَـيْرَ نَفسِهِ ... ولا قابِلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُكْما
ولا سـالِكاً إلاّ فُؤَادَ عَجاجَةٍ ... ولا واجِـداً إلاّ لِمَكرُمَةٍ طَعْما
يَقولونَ لى ما أنتَ فى كُلِّ بَلدةٍ ... وما تَبتَغى ؟ ما أبْتغِى جَلَّ أنْ يُسْمَى
كأنَّ بَنِيهِـم عالِمُونَ . بأنَّنى ... جَلُوبٌ إليهِم من مَعادِنِهِ اليُتْما
وما الجمعُ بينَ الماءِ والنارِ فى يَدِى ... بأصعَبَ من أنْ أجمَعَ الجَدَّ والفَهْمَا
ولكِنَّنى مُسْتَنْصِرٌ بذُبابِهِ ... ومُرْتَكِبٌ في كُلِّ حالٍ بهِ الغَشْما
وجاعِلُهُ يومَ اللقــــاءِ تَحِيَّتى ... وإلاّ فلستُ السَّيِّدَ البَطَلَ القَرْما
إذا فَلَّ عَزْمى عن مَدًى خَوْفُ بُعْدِهِ ... فأبعَدُ شىءٍ مُمْكِنٌ لم يَجِدْ عَزْما
وإنّى لَمِنْ قَوْمٍ كأنَّ نفـوسَهم ... بها أنَفٌ أنْ تَسْكُنَ اللحْمَ والعَظْما
كَذا أنا يا دُنيا إذا شِئْتِ فاذهبِى ... ويا نَفْسِ زِيدى فى كَرائِهِها قُدْما
فَلا عَبَرَتْ بِى ساعةٌ لا تُعِزُّنى ... ولا صَحِبتنى مُهجةٌ تَقبَلُ الظُلْما

فهو قد طلب لجدّته حظا لم يدركه ؛ لأنها أسرعت إلى الموت ، ولأن هذا الحظ أبطأ على طالبه . وهو يسأل كيف يستطيع أن يثأر لها من الحمى التي قضت عليها ، على فرض أنه استطاع أن يثأر لها من الأعداء الذين أساءوا إليها .

فمن حقنا أن نسأل عن هؤلاء الأعداء من هم ، ومن عسى أن يكونوا ؟ ومن حقنا أن نسأل عن هذه المساءة ما هي وما عسى أن تكون ؟ من حقنا أن نسأل ، ولكن المتنبي لم يقدّر هذا السؤال فلم يجب ، أو قدّره ولم يرد أن يجيب عليه ؛ لأنه آثر التلميح على التصريح ، ولأنه رأى ، ومن حقه أن يرى ، أن هذه أمور لا ينبغي أن تعنينا ، أو إنما هي تعنيه وحده ، وحسبه أن يعرف بعضها ناس من المعاصرين قليلون أو كثيرون .

هذا يدل من غير شك على أن سرًّا من الأسرار كان يكتنف حياة أبي الطيب ويحيط بأسرته ، ويستر عنا حقيقة الصلة التي كانت بينه وبين هذه الجدة الصالحة ، والتي كانت بين الحسين السقاء وبين هـذه الجدة الصالحة أيضاً ، والتي اقتضت أن تهمل أمّ المتنبي إهمالاً تامًّا .

والمتنبي لا يكتفي بهذا التلميح الموجز ، وإنما يطيل فيه إطالة مقصودة تصور ما يملأ نفسه من الضغينة والحقد ، وما يفعم قلبه من الموجدة والبغض ، ولكنه على هذه الإطالة لا يفصّل هذا التلميح ولا يكشف عما يدل عليه من غموض . فهو يحدثنا بأن قوماً قد يُسَرُّون بموت جدته ، ويشمتون به وبها ، ولكنه يعلن إلى هؤلاء الناس أنها إن مضت وأعجزها الموت عن أن تكبتهم وتردّ كيدهم في نحورهم ، فقد ولدته رغماً لأنوفهم ، وكبتاً لما في صدورهم من الحقد والشنآن . ثم هو يصف لنا نفسه ، كما تعوّد أن يصفها ، شديدة البأس ، قوية المراس ، أبية الضيم ، ممتنعة على الذل . ولكننا نقف من هذا الوصف المألوف في شعر المتنبي عند هذا البيت الذي لا يخلو من غرابة تدعو إلى التفكير :

تَغَرَّبَ لا مُسْتَعظماً غيرَ نفسِهِ ولا قابِلاً إلاّ لِخَالِقِهِ حُكْما

فهو إذن لم يتغرب عن الكوفة حبًّا في الغربة ، ولكن إيثاراً لها ولمشقاتها

وأخطارها على العافية فى الكوفة . وهو لأمرٍ ما قد آثر هذه الغربة ، وتعرّض لما قد تتكشف عنه من الأخطار والأهوال .

ولعلنا نغلو حين نقول : لأمر ما ؛ فهو يبين لنا هذا الأمر أو هذه الأمور فى هذا البيت نفسه وفى الأبيات التى تليه . فهو تغرب لأنه لم يكن يستعظم إلا نفسه ، وهو تغرّب لأنه لم يكن يقبل حكماً إلا لخالقه . وما معنى هذا ؟ معناه فى أكبر الظن أنه تغرّب منكراً للحياة فى الكوفة . وماذا عسى كان ينكر من الحياة فى الكوفة ؟ إنما هما أمران اثنان كانا خليقين أن ينكرهما المتنبى : أحدهما يتصل بالحياة الاجتماعية ، والآخر يتصل بالحياة السياسية . وليس من شك عندى — ولك أنت أن تشك — فى أن المتنبى لما تقدمت به السن قليلا قد عرف من أمر نفسه ومن أمر أسرته ما أنكره ، وما لم يستطع أن يقيم معه فى الكوفة فآثر الرحيل .

فهذا هو الأمر الاجتماعى الذى يتصل بشخص المتنبى وأسرته ، ومكانه ومكان هذه الأسرة فى طبقته الاجتماعية (. فأما الأمر الآخر الذى يتصل بالحياة السياسية ، فأبيات المتنبى التى رويناها آنفاً ، تدل عليه أيضاً دلالة واضحة ، وسنتبينه بعد قليل فى شىء من الجلاء لا يحتمل اللبس ، وهو عندى أثر من آثار الأمر الأول . فقد كان المتنبى ثائراً على نظام الحكم المستقر فى الكوفة ، ضيقاً به ، راغباً فى تغييره أو جادًّا فى هذا التغيير .) ولعل هذا كله لم يقنعك كما أقنعنى بأن طفولة المتنبى لم تكن طفولة عادية مألوفة ، وبأن صبا المتنبى لم يكن صبا عاديًّا مألوفاً ، وبأن الكِذاب الذى كان يُكاد به عند أبى المشائر ويراه أهون عنده من ناقله ، لم يكن كذاباً كلّه ، وإنما كان له أصل يملأ صدر المتنبى غيظاً وحفيظة ويذوده عن الكوفة بل يبغّض إليه الحياة فى العراق ، ويحمله على أن ينفق عمره غريباً مُجَوّلا فى الآفاق .

هذا كلّه يكفينى لأقتنع بأن مولد المتنبى كان شاذًّا ، وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها ، ولم يستطع أن يلائم بين نفسه الشاذة وبين البيئة الكوفية التى كان يراد له أن يعيش فيها . فما هذه البيئة ؟

٤

وهل تريدنى على أن أعيد عليك ما امتلأت به الكتب والصحف من تصوير الحياة العراقية خاصة ، والإسلامية عامة ، آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع ؟ أظنك أرفق بنفسك وبى من أن تنتظر منى هذا الحديث المعاد . ولكن لا بأس بأن نتذكر إن كنا قد نسينا أن هذه الحياةَ العراقية خاصة والإسلامية عامة كانت تنحل إلى ثلاثة أشياء ، كلٌّ منها خليق بالتفكير الطويل العميق ؛ لأن لكل منها أثراً بالغاً فى أحداث ذلك العصر على اختلافها :

الأمر الأول فساد السياسة . والأمر الثانى الاقتصاد . والأمر الثالث رقىُّ العقل . وما أظن أنك محتاج إلى أن أذكر لك فساد أمر الخلافة فى ذلك العصر ؛ فكل كتب التاريخ وكل كتب الأدب تصوِّر لك ما كان من انهيار سلطان الخلفاء وانحلال أمرهم ، وخضوعهم المطلق لعبث الجند ، وقادة الجند ، ولسلطان الخدم والنساء ؛ وما نشأ عن ذلك كله من عجز السلطان المركزى فى بغداد عن أن يجمع أطراف الدولة ويحزم أمرها ، كما كان يفعل حين كان الخلفاء خلفاء ، وحين كانت الخلافة خلافة ، وحين لم يكن أمير المؤمنين لعبة فى يد خادم أو أَمَةٍ ؛ ثم ما نشأ عن هذا كله من استقلال الأطراف ، وطموح الولاة إلى الملك ، وظهور القوميات الوطنية فى الشرق والغرب ، ونشوء عهد يشبه عهد الإقطاع فى أوربا أثناء القرون الوسطى .

أنت تعرف هذا كله ، ولست أحدثك بجديد إن أعدته عليك ، وهو من غير شك يصور لك فساد السياسة الإسلامية فى ذلك العصر . وفساد هذه السياسية الإسلامية قد استتبع من غير شك فساد الاقتصاد الإسلامى . فما دام السلطان المركزى مضطرباً عاجزاً ، كثير التقلب ، فشؤون المال فى الدولة مضطربة مختلطة كثيرة الارتباك . وإذن

بجباية الضرائب ، وتحصيل الدخل وملء الخزانة ، كل ذلك مضطرب أيضاً . و إذن فدافعو الضرائب على اختلافهم وتباين طبقاتهم ، معرّضون لألوان من الظلم لا يمكن إحصاؤها . و إذن فالتعاون بينهم و بين السلطان منعدم ، وسوء الظن قائم مقام هذا التعاون :

السلطان محتاج إلى المال دائماً ، وهو معتقد أن الرعية قادرة دائماً على أن ترضى حاجته إلى هذا المال . والرعية سيئة الرأى فى السلطان ، ترى ظلمه و بطشه ، وعجزه وعبثه، بما تدفع إليه من مال ، فلا تطيب له نفسها عن شىء ؛ فهى تظهر الفقر ، وتعلن الشكوى ، وتضمر البغض للحكومة ، وتجدّ فى أن تخفى عليها ما تملك . فالعداء مستحكم بين الراعى والرعية ؛ كل يرى نفسه لصاحبه خصماً ، وكل ينتهز لصاحبه الفرصة ويتربص بصاحبه الدوائر . وعجزُ السلطان واضطرابه ، وعبث الجند والخدم يدفعه إلى شىء آخر غير ظلم الرعية ، يدفعه إلى ظلم أعوانه أنفسهم ؛ فهو يأجر الجند إن استطاع ، فإذا أعياه ذلك لم يؤدِّ إلى الجند أُجورهم ؛ و إذن فسوء الظن قائم بينه و بين الجند : يرى هو أنهم نهمون لا يشبعون ، و يرون هم أنه مستأثر دونهم بالمال ، يستغلهم ولا يؤدى إليهم أجراً . فسياسة السلطان للجند وطاعة الجند للسلطان يقومان على المكر والخداع ، أكثر مما يقومان على الصراحة والإخلاص . والأمر ليس مقصوراً على الجند وقادتهم ، ولكنه يتجاوز أولئك وهؤلاء إلى أصحاب المناصب المدنية على اختلافها ؛ فهم أيضاً لا يتقاضون أُجورهم فى نظام ، وهم أيضاً مدفوعون إلى أن يسيئوا الظن بالسلطان ، والسلطان مدفوع إلى أن يسىء الظن بهم . وهم مدفوعون إلى شر من هذا ، مدفوعون إلى أن يأجروا أنفسهم على حساب الرعية ، يظلمون ويغصبون ، و يسرقون و يرتشون . والرعية ترى هـذا وتتقيه ما استطاعت — وقلما تستطيع — فهى تنكر السلطان وجند السلطان ، وأعوان السلطان . وهى أيضاً تريد أن تعيش ، وأن تعيش فى لين إن وجدت إلى ذلك سبيلا . والسلطان يضرب لها المثل و ينصب لها القدوة . فما لها لا تظلم كما يظلم السلطان ! وما لها

لا تغصب كما يغصب السلطان ! و إذن فقوام الأمر كله الظلم والغصب ، و إفلات المرء عما يستطيع أن يفلت به من نعيم الحياة ولذاتها .

ومن هنا يوجد الأغنياء الذين لا تحصى ثروتهم ، والفقراء الذين لا يتصوّر فقرهم ، والمضطربون بين الغنى والفقر الذين يواتيهم الحظ فيبلغون أقصى النعيم ، ثم تخلفهم الأمانى وعودها فيهبطون إلى قرارة البؤس .

وما أظنك فى حاجة إلى أن أؤكد لك أن هذه الصور التى عرضتها عليك ليست صوراً قد اخترعها الخيال من عند نفسه ، وألفها تأليفاً ، مؤثراً فى هذا التأليف الغلو والإغراق . إنما هى صور متواضعة ، أقل ما توصف به أنها أيسر وأهون وأقل بشاعة وسماجة مما نقرؤه فى كتب التاريخ الذى يعرض علينا فساد السياسة والاقتصاد مفصلا أقبح تفصيل وأشنعه ، يعرضه علينا مكتوباً بالدم لا بالمداد .

أما رقىّ العقل فى هـذا العصر فليس أقل ظهوراً وجلاء من فساد السياسة والاقتصاد . فهو العصر الذى نضجت فيه الحضارة الإسلامية ، وأدركت رشدها ، واستكملت قوتها ، وأخذت تؤتى ثمرها طيبا لذيذاً فى كل فرع من فروع العلم والفلسفة والأدب والفن .

وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة : فيه التقت أكثر الأجناس التى تتألف منها الدولة الإسلامية ، أو على أقل تقدير أكثر هـذه الأجناس استعداداً للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها ، وأعظمها حظا من الإنتاج قديما وحديثا . فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين . وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التى تمتاز بالترف المادى والعقلى معاً . وفيه كانت أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود ، وتمثلوا تراث اليونان ، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة ، ينقلون إليها تراث الأولين من أهل الشرق والغرب ، ويعينونها على أن تسيغه وتتمثله . ولم يخلُ العراق من يونانيين انحدروا

إليه وأقاموا فيه طائعين للاقتصاد والتماس المنفعة ، وكارهين بحكم الحرب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين وبحكم الرق أيضاً . ولم يخل العراق من الهنود الذين كانوا يفدون طوعاً أو كرهاً كاليونان . ثم لم يخل العراق ممن كانوا يمثلون الأقاليم والأطراف الغربية للدولة ، كانوا يفدون للتجارة ، وكانوا يفدون للسياسة ، وكانوا يفدون لطلب العلم أيضاً . وكل هذه الأجناس كانت تلتقى متعارفة لا متناكرة ، ومؤتلفة لا مختلفة ، ومتعاونة لا متقاطعة ، قد زالت بينها الفروق ، وألغيت بينها الحجب ، وصبغتها الحضارة الجديدة صبغة واحدة ، وجعلت لها لغة واحدة هى اللغة العربية ، بها تتحدث ، وبها تكتب ، وفيها تدوّن . وعن هذا كلّه نشأت الظاهرة التى تعنينا الآن ، وهى أن رقىّ العقل فى هذا العصر قد انتهى إلى ما لم ينته إليه قط فى العصور الإسلامية السابقة ، فأحدث آثاراً غريبة أقل ما توصف به أنها كانت متناقضة أشد التناقض .

اختلطت الثقافات المختلفة وانتشرت فى الطبقات كلها ، فى الطبقات القوية ، وفى الطبقات الوسطى ، وفى الطبقات الضعيفة الخاملة . ونشأ عن انتشار الثقافة وتغلغل العلم فى جميع الطبقات أن كل متعلم مثقف طمح إلى حال خير من حاله التى هو فيها ، وفتحت الثقافة للمثقفين أبواب الحيل ، ومدت لهم أسباب النجح ، ومهدت لهم سبل الفوز . فأما الأغنياء وأصحاب الصولة فقد طمعوا وجهدوا فى أن يتزيدوا من الغنى والصولة ، وظفروا من ذلك بالشىء الكثير . وأما أوساط الناس فقد طمعوا فى السيادة ، وسموا إلى المكانات العليا ، وبلغوا منها كثيراً مما أرادوا . وأما الطبقات الضعيفة الخاملة فقد طمعت فى أن ترقى درجة أو درجات ، وظفرت من ذلك بكثير مما أرادت أيضاً . ولكن الطمع الإنسانى لا حد له ، والطموح إلى الكمال لا يقف ، والأمور الاجتماعية لا تَطّرد على هذا النحو السهل الذى يتصوره العقل . فكل طمع فى أى طبقة من الطبقات يصدّه طمع مثله . وكل طموح يقاومه طموح مثله . وكل ظفر ينتهى إليه فرد من الأفراد أو طبقة من الطبقات ، إنما هو انتصار على فرد آخر ، أو ظهور

على طبقة أخرى ؛ فهو إن أرضى قوماً يسخط آخرين . والحياة الإنسانية لذلك دائماً حرب متصلة ، وصراع مستمر ، وطموح لا ينقضى ، وآمال لا تُحَدّ وجشع لا يرضى. فإذا أُتيح لهذه الحياة سلاح من العقل الراقى والثقافة الواسعة ، والعلم الذى يفتق الحيلة ويرهف الحس ويذكى نار الشعور ويشحذ العزم ، لم يكن بدّ من أن ينتهى الأمر إلى الثورة وإلى الاضطراب ، وإلى مثل ما نشهده فى ذلك العصر من فساد السياسة والاقتصاد والخلق والشعور الدينى أيضاً . وإذا كنا قد لاحظنا ما لاحظناه من فساد السياسة الإسلامية فى ذلك الوقت وغليانها كما يغلى المرجل ، ثم انفجارها آخر الأمر وانتهائها إلى ما انتهت إليه من الكوارث والأحداث ، فالثورة البابكية أو الخرّمية فى أول القرن الثالث ، وثورة الزنج أواسط هذا القرن ، وثورة القرامطة فى آخره وفى أثناء القرن الرابع ، لم تكن إلا نتائج طبيعية لتفاعل هذه العناصر التى أشرنا إليها فى كثير من الإيجاز .

ولعل أخص ما تمتاز به هذه الثورات الثلاث أنها كلها كانت تقصد إلى تغيير الحياة الاقتصادية ، بحيث يغيَّر توزيع الثروة بين الناس ، ويتحقق شىء من العدل والمساواة بين الأفراد والجماعات ، وأنها كلها كانت تقصد كذلك إلى تقوية الشخصية الفردية ، وتحريرها من القيود والأغلال التى فرضها عليها النظام الدينى والسياسى والاجتماعى . فقد كان الأفراد كما هم دائماً يحتالون فى أن يتحللوا من هذه القيود بين الحين والحين ؛ فكانوا يحاولون اللهو والعبث ، واستباحة ما لم يكن مباحا ، يجهرون بذلك إن أتيحت لهم الفرص ، ويُسِرّون ذلك إن حيل بينهم وبين الإعلان ، فإذا هذه الثورات تطالب لهم بالحق فى أن يجهروا من ذلك بما أحبوا ، وفى أن يأخذوا من ذلك ما أرادوا ، تعلن ذلك فى غير تحفظ حيناً ، وتعلن ذلك مع التحفظ والاحتياط حيناً آخر ، وهى على كل حال تتملق أهواء العامة وشهواتهم وحاجاتهم إلى استباحة ما لا يباح ، والاستمتاع بما لا يحل الاستمتاع به .

والثقافة تهوّن عليهم إثم ذلك من جهة ، وتفتق لهم الحيلة فى ذلك من جهة

أخرى . والغرائز المظلومة تستجيب لهذه الدعوات الجريئة الملحة المغرية ، والأمر يختلط بين الخاصة والعامة ، وبين العالم والجاهل ، وبين المُقْدِم عن فهم ورأى ، والمقدم عن انتهاز للفرصة واستمتاع بالساعة التى هو فيها ؛ حتى فسد الأمر واختلط ، وحتى طغى السيل وكاد يكتسح كل شىء . وقد قاومه المعتضد ، وأقام الجسور التى حصرته حيناً . ولكن المعتضد لم يكد يموت حتى انهارت هذه الجسور ، واندفع السيل أمامه لا يلوى على شىء ، وعجزت الدولة الإسلامية عن مقاومة هذا الطوفان الخطر الذى أثاره ما كان من التفاعل بين هذه العناصر التى صورناها منذ حين .

فى هذا العصر الذى نحن بإزائه عظمت الشخصية الفردية حتى انتهت من القوة إلى حد لم تبلغه قط فى التاريخ الإسلامى ، وضعفت قوة الجماعة حتى كادت لا تكون شيئاً يذكر ؛ ونشأ عن ذلك أن قويت الأثرة وتحكمت فى الأفراد وتسلطت على سيرتهم وتفكيرهم ، وامَّحى الإيثار أوكاد يَمَّحِى ، وضعف تأثير العواطف الطبيعية التى تعتمد عليها الحياة الاجتماعية المستقرة ؛ ولم يكن غريباً أن يمكر الصديق بصديقه ، ويغدر الخليل بخليله ، ويكيد الابن لأبيه ، ويبغى الأخ على أخيه . ولم يكن من الغريب أن تستباح الدماء التى عصمها الله ، وتنتهك الحرمات التى أمر الله أن ترعى .

ويجب أن نلاحظ أن كل هذه الظواهر التى كانت حقائق واقعة فى ذلك العصر ، لم تكن تتخذ طرقها ميسرة ممهدة مستقيمة ، وإنما كانت تلتوى وتعوجّ وتدور حول الصعاب والمشكلات إذا لم تستطع أن تقتحمها . وليس من شك فى أن كثيراً من التضليل والتغرير قد سُلِّط على جماعات بريئة مطمئنة غافلة ؛ فلَبَس لها الحق بالباطل ، وَزَيَّن لها الشر حتى رأته خيراً ، ودفعها بألوان الإغراء العنيف حتى اندفعت أمامها فى هذه الصحراء تلتمس الرى من هذا الماء الذى كانت تراه رأى العين وتركض إليه ؛ حتى إذا بلغته لم تجده شيئاً ووجدت عنده الخيبة والبؤس والشقاء .

فهذه الجماعات الضخمة التى ثارت مع بابك الخُرَّمى أو مع صاحب الزنج

أو مع دعاة القرامطة ، لم تكن كلها مُقدِمة عن علم بما تُقدم عليه ، و إنما ثارت تلتمس العدل الاجتماعى الذى تتطلبه النفس الإنسانية دائماً ، وتتطلبه ملحة شاكية كلما عظم حظها من البؤس والشقاء . وقد عرف قادتها وسادتها كيف يَلْبِسون عليها الأمر و يزينون لها الشر ، وعرف الحكام وأعوان الحكام كيف يبغّضون إليها النظام القائم و يزهّدونها فيه ، و يدفعونها إلى الثورة به والخروج عليه .

فى هذا العصر الذى نحن بإزائه ، وفى هذا الاضطراب المتصل والفساد الشائع ، كثر المغامرون والمخاطرون وأصحاب المطامع التى لا تحَدّ . وظفر بعض هؤلاء المغامرين بما كان يريده كله أو بعضه ، ظفراً يطول حيناً و يقصر حيناً ، ولكنه ظفر على كل حال، من شأنه أن يغرى بالمغامرة و يدفع إلى المخاطرة ، و يزيد أثَرة الأفراد ، و يضيف فى حياة الجماعات فساداً إلى فساد .

فى هذه البيئة المنكرة التى لم نبالغ ولم نغلُ فى تصويرها ولد المتنبى . وأكبر الظن أن مولده كان أثراً من آثار هذا الفساد العظيم ، أو أنه لم يخل من تأثر به على كل حال .

{ وُلد المتنبى فى بيئة كان الدم يصبغها من حين إلى حين . كان الدم يصبغها ثم لا يكاد يجف حتى يسفك دم آخر . ولم يكن الدم وحده يصبغها ، و إنما كان يصبغها صبغ آخر ليس أقل نكراً من سفك الدم ، هو النهب والسلب، واستباحة الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، والاستخفاف بقوانين الخُلق والدين .

أضف إلى هذا الشر كله شرًّا آخر سياسيا جنسيا، إن صح هذا التعبير ، وهو أن الأمة العربية التى أقامت هذا الملك الضخم ، وشيدت هذه الحضارة المزدهرة ، قد غُلِبت على أمرها وطُردت من مستقر سلطانها ؛ فانحاز إلى الشام والجزيرة منها من انحاز ، وخضع للذل منها من أقام فى العراق ، ودفع إلى الجهالة والبداوة منها من انحاز إلى جزيرة العرب وأقام فيها ، وتسلّط الغلمان والرقيق والمغامرون من الخدم وأشباه الخدم على الملوك والأمراء والخلفاء يعبثون باسمهم و يبطشون بسلطانهم

ويظلمون دون أن يردعهم رادع أو يزعهم وازع أو يصدّهم عن ذلك صاد . فعامة الناس طامعون في العدل العام ، وهم مع ذلك ينكر بعضهم بعضاً ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويعتدى بعضهم على بعض . وخاصة الناس متنافسون متدابرون لا يعرفون لما بينهم من التنافس والتدابر حدا ، ولا يعرفون لما يثيره التنافس والتدابر فى نفوسهم من الآمال والأهواء ومن المطامع والمآرب غاية ينتهون إليها .

ملك عظيم ينقضّ ، وسلطان هائل ينهار ، وقوم يتهالكون على فُتات ذلك الملك وأنقاض هذا السلطان . فإذا وُلد فى هذه البيئة صبى ذكى القلب ، مرهف الحس ، رقيق المزاج ، حاد الشعور ، ملتهب العاطفة ، قوى الخيال ، كان من الطبيعى أن يسير السيرة التى تكوّن منه هذا الشخص الذى يعرف بالمتنبى .

ومع ذلك فقد يكون من الخير أن نصحب هذا المتنبى فى طريقه القصيرة التى سلكها منذ وُلد سنة ثلاث وثلاثمائة إلى أن مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وقد نجد غموضاً والتواء فى هذه الطريق ، ولكنها على كل حال أيسر من كثير من الطرق التى سلكها غيره من الشعراء ؛ لأنه هو يسردها لنا فأحسن تيسيرها .)

٥

وطفولة المتنبي مجهولة بالطبع كطفولة غيره من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ، ما دمنا نجهل من أمر أسرته الخاصة كل شىء ، أو نكاد نجهل من أمرها كل شىء ، وما دمنا لا نعرف شيئاً عن أمه ، ولا نكاد نعرف أو لا نعرف شيئاً عن أبيه ؛ فطبيعى ألا نعرف عن طفولته شيئا ما .

والذى نعرفه عن صبا المتنبي ينقسم قسمين :

أحدهما ينبئنا به الرواة . وأنا أقف منه موقف التحفظ والاحتياط ، ولكنى لا أهمله ولا ألغيه .

والآخر ينبئنا به المتنبي نفسه ، فيما حفظ لنا ديوانه من شعر الصبا . وأنا أطمئن إليه اطمئنانا ما ، وآخذه أخذ الناقد الذى لا يصدِّق كل ما يُلْقَى إليه فى غير تفكير .

فأما الرواة فيحدثوننا أن المتنبي دفع إلى مدرسة من مدارس العَلَوِيِّين ، أو إلى مكتب من مكاتب العلويين[1] . فبدأ فى هذه المدرسة أو فى هذا المكتب تعلّمه ، ولا يزيد الرواة على هذا الخبر شيئاً يفصله أو يوضحه . ولكن المتأخرين ، والمُحْدَثين منهم خاصة ، يذهبون فى فهم هذا الخبر مذهباً أقل ما يوصف به أنه لا يخلو من مبالغة . فهم يظنون أن هذه المدرسة العلوية كانت مدرسة أرستقراطية ممتازة ، وهم بعد ذلك يرسلون لأنفسهم العنان فى تفسير اختلاف الصبىّ إلى هذه المدرسة العَلَوِيّة الأرستقراطية ، ويفسرونه تفسيرات مختلفة .

أما أنا فلست أدرى أكانت المدرسة العَلَوية هذه ممتازة أرستقراطية حقًّا ، أم كانت مدرسة كغيرها من المدارس ، ولكنها تعلِّم على مذهب الشيعة العَلَويين ، فكان العلويون يؤثرون أن يرسلوا إليها أبناؤهم . فلفظ العَلَويين فى هذا الخبر عندى

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٨٢ (طبع القاهرة) .

يوشك أن يكون مرادفاً للفظ الشيعة . وواضح جدًّا أن المدارس فى مدينة كمدينة الكوفة كانت تختلف باختلاف السكان لهذه المدينة : فللشيعة من هؤلاء السكان مدارسهم ، وللسُّنيين منهم مدارسهم أيضاً . وجائز أن تسمى مدارس الشيعة مدارس عَلَوِيّة ، كما تسمى مدارس أهل السنة مدارس عباسية .

وأكبر الظن عندى أيضاً أن الأرستقراطيين الممتازين من الشيعة العلوية ومن أهل السنة ، لم يكونوا يرسلون أبناءهم فى طور الصبا إلى المدارس العامة ، وإنما كانوا يتخذون لهم الأساتذة والمؤدبين ؛ فإذا شبُّوا خَلَّوْا بينهم و بين الاختلاف إلى مجالس العلم فى الأندية والمساجد الجامعة . إنما كان أوساط الناس وعامتهم هم الذين يرسلون أبناءهم إلى هذه المكاتب والمدارس .

للشيعة العلويين مكاتبهم ومدارسهم ، ولأهل السنّة مكاتبهم ومدارسهم أيضاً . فاختلاف المتنبي إلى هذه المدرسة العلوية لا يدل عندى على امتياز ولا على استثناء ، وإنما يدل على الاتجاه الدينى الذى وُجِّه إليه الصبىّ ، و يدل على أن الذين كانوا يكفلون هذا الصبيّ و يقومون على تربيته وتنشيئه كانوا من الشيعة العلويين .

ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل البحث لنعرف ماذا كان يتلقى المتنبى فى هذه المدرسة التى اختلف إليها أيام صباه . فالراجح بل المحقق أنه تعلّم فيها الكتابة والقراءة ، وقرأ فيها القرآن كله أو بعضه ، وتلقّى فيها أُصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين ، وسمع فيها الشعر ، وروى منه أطرافاً ، وتعلّم فيها شيئاً من علوم اللغة والأدب بوجه عام .

وقد كان لهذا المدرسة تأثير ظاهر فى عقل هذا الصبىّ وقلبه ينبئنا به الديوان ؛ فقد حفظ الديوان للمتنبي مقطوعات من الشعر قالها الصبي وهو يختلف إلى المكتب .

وليس يعنينا أن نؤرخ بالدقة هذه المقطوعات ؛ فقد لا تكون السبيل ميسرة إلى هذا التأريخ . ولكن الشىء الذى نستطيع أن نحققه هو أن ثلاث خصال تظهر لنا فى هذا الشعر :

الخصلة الأولى أن الصبيّ مقلّد فى الفن الشعرى ، يتأثر بمـا كان يحفظ فى المدرسة ، أو ما كان يسمع فيها من شعر القدماء ومن شعر المعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى ؛ فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد بحيث يقلّد المبتدئ واحداً أو غير واحد من الذين سبقوه فى الفن الذى يزاوله ، يلتمس نفسه ، كما يقول الفرنسيون، فى هذا التقليد ، حتى إذا وجدها استغل قواها وعواطفها واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المرانة . فليس غريباً أن يكون فن المتنبى فى صباه فنًّا تقليديا ليست له قيمة خاصة .

والخصلة الثانية أن هذا الشعر ، شعر صبيّ متشيع للعلويين ، متأثر بآراء الشيعة و بآراء الغلاة منهم خاصة ، وسنرى هذا بعد قليل .

والخصلة الثالثة أن هذا الشعر شعر صبيّ لم يكن بعيداً كل البعد عن أمور القرامطة وأخبارهم ، وعن كلفهم بسفك الدماء ، وشغفهم بالحروب والغارات . وقد يجوز أن نضيف إلى هذه الخصال الثلاث خصلة رابعة ، وهى أن هـذا الصبيّ كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعدًّا استعداداً حسناً للسخرية ثم الهجاء .

وكل هذه الخصال تدلنا على أن الصبىَ قد كان ممتازاً حقًّا ؛ فليس قليلاً على صبى لم يكن يتجاوز العاشرة أن يقول شعراً يُرْوَى، وأن يمس بهذا الشعر الغزل والحماسة ، والمدح والهجاء وفلسفة الغالية من الشيعة .)

والآن يحسن أن نقف عند هذه المقطوعات لحظة لنرى أتصوّر حقًّا كل هـذه الخصال التى أحصيناها . فانظر إلى هذين البيتين اللذين يحدثنا الديوان بأنهما أول ما نظم من الشعر فى صباه . وليس يعنينا أ كانا فى الحق أوّل ما نظم أم لم يكونا . و إنما الذى يعنينا أنهما من شعر الصبا ، وأنهما يصوران ما أشرت إليه من التقليد ، و يصوران الصنعة والجهد والتكلف ، و يصوران صبيًّا يريد أن يصنع الشعر و يحس فى نفسه الرغبة فى ذلك فيعمد إليه ، ولكنه لا يحسن التصرف فيه :

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فافْتَرَقْنا وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ اجتماعا

فافترقنا حَوْلاً فلمّا الْتَقَيْنا كَانَ تَسْليمُهُ عَلَيَّ وَداعا

فالفكرة الشعرية التى يريد الصبىّ أن يصورها هى أنه أحب شخصا ؛ فلم يكد يحبه حتى فرّق الدهر بينهما ، ثم طال انتظاره للقاء من أحب وأُتيح له هـذا اللقاء ، ولـكنه لم يطل بل فرق الدهر بينهما مرة أُخرى فالصبى سيىء الحظ ، يحب ثم يحال بينه و بين من أحب قبل أن ينعم بعشرته ، ثم يتاح له اللقاء فيقدِّر أنه سيستدرك ما فاته من نِعَمٍ ، ولـكن قسوة الدهر تخيب أمله هذا أيضا . وأكبر الظن أن الفكرة التى حملت الصبىّ على أن ينظم هذين البيتين هى هـذه التى توجد فى الشطر الأخير من البيت الثانى وهى :

كان تَسْليمُهُ عَلَيَّ وَداعا

أعجب الفتى بهذا المعنى ، فأراد أن ينظمه وأن يصل إليه ، فتكلف لذلك بيتا ونصف بيت وأنت ترى مظهر التكلف فى قوله :

بأبِي مَنْ وَدِدْتُهُ فافْتَرَقْنا

فكلمة « وددته » هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار فى مكانها الذى هى فيه . أراد الصبى أن يقول: أحببته فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلة تؤدى له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا « وددته » هذه . ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت :

وقَضَى اللهُ بَعْدَ ذاكَ اجْتِماعا

فستراه فى نفسه حسناً مستقيما ، ولـكنه مع الشطر الأول قلق ، يظهر عليه التكلف الشديد ، لا لشىء فيما أظن إلا لأن الشاعر الصبىّ قد أُعجل ولم يملك ما ينبغى له من الأناة ولم يتم معناه الذى ضمنه الشطر الأول ، وإنما وثب منه وثوباً إلى هـذا المعنى الثانى ؛ لأنه عَجِلٌ يريد أن يصل إلى الشطر الذى أُلقِىَ إليه ، والذى حمله على نظم هذين البيتين . وكذلك الشطر الأول من البيت الثانى يصور عبث الصبىّ واجتهاده ، وما كان يلقى من المشقة فى هـذا الاجتهاد . فانظر إلى قوله « فافترقنا حولاً » بعد قوله « وقضى الله بعد ذاك اجتماعا » . وانظر بعد ذلك إلى البيتين جميعا ، فستظهر لك

الصنعة والمحاولة ظهوراً لا يدع سبيلاً إلى الشك فى أن الصبى قد أنفق جهداً ثقيلا ووقتا طويلا ، حتى استخرج من نفسه هذين البيتين .

وسواء أكان هذا الشعر جيداً أم رديئا مستقيماً أو ملتويا ، فإنى أجد فى نفسى حبا له وميلا إليه ؛ لأنى أتمثل هذا الجهد العنيف الذى بذله هذا الصبى الذكى ، حتى استخرج هذين البيتين . ومن يدرى ! لعلى إنما أحب هذين البيتين وأعجب بجهد الصبى فى استخراجهما ؛ لأنى شهدت صبيًّا أحبه يبذل هذا الجهد وينفق مثل هذا الوقت ويستخرج مثل هذا الشعر ، ولم أجد بدًّا من أن أثنى له على شعره ، وأهنئه بما انتهى إليه من الفوز . ولم أكن فى هذه التهنئة ولا فى ذلك الثناء متكلفا ولا غاليا ، وإنما كنت صادقا مرسلا نفسى على سجيتها ، أصدر عن العاطفة أكثر مما أصدر عن الفن .

وانظر بعد هذين البيتين إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخرى التى قالها صبينا فى حداثته ، كما ينبئنا الديوان ، وكما تنبئنا هى أيضا ؛ فسترى من جهة أنها كالبيتين الأولين ، أُلقِيَ منها على الصبى بيت هو البيت الأخير ، وهو الذى حمله على أن يتكلف البيتين الآخرين ليصل إليه . وكان هذا البيت الأخير كحظ ذلك الشطر الأخير من البيتين السابقين ، حفظه الناس وأحبوه وتمثلوا به ؛ لأنه وحى الطبع البرىء ، وأهملوا ما قبله لأنه متكلف مصنوع :

أبْلَى الهوَى أسَفاً يومَ النَوَى بَدَنى ... وفرَّقَ الهَجرُ بينَ الجَفْنِ والوَسَنِ
رُوحٌ تَرَدَّدَ فى مِثلِ الخِلال إذا ... أطارَتِ الرِّيحُ عنه الثَوْبَ لم يَبِنِ
كَفَى بجِسمى نُحولاً أنَّنى رَجلٌ ... لَولاَ مُخَاطبَتِى إيَّاكَ لَم تَرَنِى

فواضح جدًّا أن بيت المقطوعة هو البيت الأخير ، وأن الفكرة التى يريد الصبى تصويرها هى الإغراق فى وصف النحول . فانظر إليه كيف تكلف الوصول إلى هذا البيت :

أبْلَى الهوَى أسَفاً يومَ النَّوَى بَدَنى

فأسفاً هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوّها عن موضعها أظهر من أن يُدَلّ

عليه . ولكننا مع ذلك نلاحظ شيئاً من الموسيقى قد وفّق الشاعر له بين الهوى والنوى ، وهو يدل على شيء من الرقى فى صناعة النظم ، وعلى أن الصبىّ قد استطاع أن يتصرف شيئاً ما فى الألفاظ .

ونلاحظ كذلك أنه قد صرّع فى هذا البيت بين البدن والوسن ، صنيع الشاعر الذى يريد أن ينشىء قصيدة طويلة . ولعله لم يستطع أن يتجاوز البيت الثالث فوقف عنده . ولعله تجاوزه وأتم قصيدته ، ولكنه لم يرضَ عما بعد البيت الثالث فأسقطه حين أراد أن يجمع الديوان . أما البيت الثانى فعبث الصبىّ ظاهر فيه ، وهو لا يخلو من ظرف وخفة روح ، هو إعادة لقول الشاعر القديم :

وَلَوْ أَنَّ ما أَبْقَيْتِ مِنِّى مُعَلَّقٌ بِعُودِ ثُمَامٍ ما تَأَوَّدَ عُودُها

ولكن الصبىّ اختصر الطريق وأراح نفسه وجعل جسمه عود الثمام لا شيئاً معلقاً بهذا العود . ثم انظر إلى قوله :

أطارتِ الرِّيحُ عنهُ الثوبَ لم يَبِنِ

فسترى فيه الطفولة الحلوة ، والحداثة العذبة . وليس من شك فى أن طبيعة الشاعر الحَدَث قد واتته فى البيتين السابقين .

واقرأ هذين البيتين الآخرين وكأنه ارتجلهما ارتجالاً حين قيل له وهو فى المكتب ما أحسن هذه الوفرة ، فقال :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حتَّى تُرَى مَنشورةَ الضَّفْرَيْنِ يومَ القِتالْ

عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يَعُلُّها من كُلِّ وافِى السِّبالْ

ولعلك تلاحظ معى أن فى هذين البيتين جزالة مطبوعة لا نلاحظها فى الأبيات السابقة ، وأنهما بريئان البراءة كلها من الصنعة والتعمل . ولكنى لم أروهما لهذا وحده ، وإنما رويتهما لما يصوّران من نزاع هذا الصبى الحدث إلى الحرب والقتال ورؤية الدم المسفوك ، وما ينّمان به من حفيظة تضطرب فى نفس الصبىّ ، وضغينة تضطرم فى قلبه الغض ، وتطلق لسانه بهذا الكلام الملتهب . ولك فى فهم هذين

البيتين وجهان فيما يظهر . فهل كانت الوفرة التى استحسنت له وفرته هو ؟ و إذن فهو غير راض عن نفسه ولا مطمئن إلى حاله ، و إنما هو يتحرق شوقاً إلى الشباب الذى يمنحه القوة والحرية ، و إلى الظروف التى تتيح له خوض غمار الحرب ، وعَلّ صعدته من دماء الأعداء . أو هل كانت الوفرة وفرة تِرْب من أترابه فى المكتب ؟ فالصبيّ إذن يهجو ولا يرضى عن هؤلاء الصبية المنعمين الذين يُعْنَوْنَ بوفرتهم وتنسيق شعورهم أكثر مما يعنون بحياة الخشونة .

ومهما يكن من شيء ، ففي هذين البيتين ريح البيئة الدامية التى كان يعيش فيها الصبية من أتراب المتنبي ، بين تلك الغارات التى كانت تنتهي بالقرامطة إلى الكوفة وسوادها من حين إلى حين .

وتستطيع الآن أن تقرأ هذه الأبيات التى قالها الصبيّ يعبث فيها برجلين قتلا جُرَذاً وأظهراه للناس :

لَقَدْ أصبَحَ الجُرَذُ المُستَغيرُ أسيرَ المَنايا صَريعَ العَطَبْ
رَماهُ الكِنانيُّ والعـــامِريُّ وتلاَّهُ للوَجْـهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلاَ الرَّجُلَين أتَـلِّي قَتْلَهُ فأيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ ؟
وأيُّكُمَا كانَ مِنْ خَلْفِهِ ؟ فإنَّ بهِ عَضَّةً فى الذَّنَبْ

فظاهر أن هذا الشعر ليس شعر صبي يُقَرْزِمُ ، و إنما هو شعر شاعر قد راض نفسه على نظم الكلام ، وتعلّم كيف يصرّف هذا الكلام كما يحب من وجوه القول ، بل تجاوز رياضة النفس على إجادة النظم إلى التماس الهجاء المُمِضّ والسخرية اللاذعة ، و إلى ترتيب المعنى وتأليفه وحمايته من الاختلاط والاضطراب .

فالشاعر الناشيء يقص علينا فى البيت الأول والثانى قصة مؤثرة فيها ما يحزن ، وفيها ما يثير الإعجاب . فى البيت الأول ما يحزن و يدعو إلى الرثاء لهذا الجرذ المسكين الذى أسرته المنايا وصرعه العطب . وفى البيت الثانى ما يعجب من أمر هذا الكنانى وهذا العامرى اللذين تعاونا على رمى الجرذ وتلاّه للوجه كما يفعل العرب البواسل .

وفى هذين البيتين تنتهى القصة ظريفة سريعة مضحكة ، بما فيها من رثاء مصنوع ، وإعجاب متكلف . ولكن شاعرنا الصبي لا يكتفى بالقصة وإنما يريد أن يستغلها ويستثمرها ويستخرج منها الذخائر والكنوز، فهو يحقق أن كلا الرجلين قد قتل الجرذ . فهل كانت للجرذ درع ؟ وهل كان له سيف ورمح ؟ وهل كانت له بيضة ودرقة ؟ وهل كان يحمل ذهباً وفضه ومتاعاً ؟ كل هذه الصور يثيرها الشطر الأخير من البيت الثالث . ثم انظر إلى هذا البيت الأخير :

وأيُّكُما كانَ مِنْ خَلْفِهِ فإنَّ به عضَّةً فى الذَّنَبْ

فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أمضّ من هذا الهجاء . ولن ترى أشد من هذا الازدراء للحضريين من أهل الكوفة المعاصرين له ، الذين استسلموا واستكانوا وقنعوا من الشجاعة والنجدة ، ومن المخاطرة وحسن البلاء ، بأن يتعاون اثنان منهم على قتل جرذ ، ثم يظهران ذلك للناس إعجابا به واختيالا ، على حين تضطرب البادية بما يملؤها من الأهوال التى يثيرها القرامطة ، وعلى حين تندفع البادية من وقت إلى وقت حتى تبلغ الحضر وتبلغ الكوفة نفسها ، فتمزق أهلها كل ممزق ، وتعلِّمهم كيف يكون البأس والنجدة ، وكيف تكون الشجاعة والبسالة فلا يتعلمون .

حقًّا لقد مرن الصبي على قول الشعر، وصح فيه قول جرير فى عمر بن أبى ربيعة إن صدقتنى الذاكرة : ما زال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر(١) .

وللصبي مقطوعة أُخرى فى الهجاء ليس لها حظ هذه المقطوعة من الجودة ولا من البراعة فى السخرية ، ولكنها تصور اتجاه الصبي إلى الصناعة اللفظية بعض الشيء ، وهى هذه الأبيات التى قالها يهجو بها القاضى الذهبي :

لمَّا نُسِبتَ فكُنتَ ابناً لِغَيرِ أبٍ ثُمَّ اختُبِرتَ فلم تَرجِعْ إلى أدَبِ
سُمِّيتَ بِالذَّهبِيِّ اليومَ تَسْمِيَةً مُشتَقَّةً من ذَهابِ العَقلِ لا الذَّهَبِ

(١) أغانى جـ ١ ص ٣٨ (طبع بولاق)

مُلَقَّبٌ بِكَ ما لُقِّبْتَ وَيكَ بهِ ... يأيُّها اللَّقَبُ المُلْقى على اللَّقَبِ

وأظن أن قول أبى تمام فى بائيته المشهورة :

والحَرْبُ مُشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

هو المثال الذى صاغ الصبيّ عليه أبياته فى هجاء القاضى . وكل ما فى هذه الأبيات إنما هو ابتهاج الصبى بأنه قد استطاع أن يستنبط هذا المعنى، فيجعل نسبة القاضى إلى شيء مشتق من ذهاب العقل لا إلى الذهب . والذى يعنينا من هذه الأبيات إنما هو دلالتها على أن صبينا قد أخذ منذ طوره الأول يتّجه بعض الاتجاه إلى مذهب أبى تمام .

قال الرواة : وقد خرج المتنبي من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام فيها حيناً ، ثم عاد منها ، وقد نما جسمه وعقله ، وفصح لسانه ، وأصبح فتى يملأ العين والأذن .

ومن العسير أن نقطع بالسبب أو الأسباب التى حملت الصبيّ على أن يرتحل إلى البادية . فهل ارتحل لمجرد التبدّى والاستفادة لجسمه ولسانه وفنه الشعرى من الإقامة بين هؤلاء العرب الباديين الذين كان العلماء يختلفون إليهم ويقيمون بين أظهرهم ، يأخذون عنهم اللغة ويروون عنهم الشعر والأيام والأساطير ؟ أم هل ارتحل الفتى إلى البادية لشيء آخر غير هذا يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية التى كانت محيطة به ؟ وبعبارة أوضح : هل ارتحل الفتى إلى البادية كما كان يرتحل إليها المتعلمون التماساً للصحة ورياضة اللسان ؟ أم ارتحل إليها التماساً لهذه البيئة القرمطية التى كانت متصلة أشد الاتصال بحياة الشعب الكوفى فى ذلك الوقت ، تبعث الرعب فى قلوب فريق منه ، وتبعث الحب فى قلوب فريق آخر ، كما هى الحال بالقياس إلى الشيوعية الروسية الآن التى تتصل أشد الاتصال بطبقات الشعوب المتحضرة فى أوربا وفى غير أوربا ، فيتهالك عليها قوم ، ويتألب عليها قوم آخرون ؟

ليس من اليسير أن نقطع بشيء من هذا ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ونحن مطمئنون ، هو أن رحلة المتنبى إلى البادية قد نفعته من الناحيتين جميعاً ؛ فقد

ربا جسمه ، ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلّم أُصول القرامطة ، وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً ؛ وشعرُ المتنبي فى صباه بعد عودته من البادية إلى الكوفة ، يبين لنا هذا أوضح تبيين وأجلاه .

فلننظر قبل كل شىء إلى هذه الأبيات التى استبقاها المتنبي فى ديوانه ، وهى عندى بقية من قصيدة لعلها كانت مطوّلة مفصَّلة ، فلما أراد المتنبي جمع ديوانه حذف منها أكثرها ، مداراةً للظروف ، وإشفاقاً من السلطان . وهـذه الأبيات الثلاثة التى استبقاها المتنبي كافية كل الكفاية لإثبات أن هذا الغلام قد عاد من البادية القرمطية وهو قرمطى الرأى ، متحفز أن يكون قرمطى السيرة أيضاً . وفى هذه الأبيات الثلاثة جزالة بدوية لا تخفى :

إلى أىِّ حِينٍ أنتَ فى زِىِّ مُحرِمِ ... وحتَّى مَتَى فى شِقوةٍ وإلى كَمِ ؟
وإلاَّ تَمُتْ تَحتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا ... تَمُتْ وتُقاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكرَّمِ
فَثِبْ وَاثقًا باللهِ وَثْبَةَ ماجِدٍ ... يَرى الموتَ فى الهَيجا جَنَى النَّحْلِ فى الفَمِ

فانظر إلى هذا التحرق الذى يظهره الغلام إلى تغيير حاله والخروج عما هو فيه من الدعة والأمن والطمأنينة ، إلى حال أخرى فيها خوف وقلق واضطراب ومخاطرة .

هو يكره لنفسه زىّ المحرم ، أى زىّ الرجل الوادع الذى يحرِّم ما حرَّم الله ، ويمتنع عن قتل الصيد وعما يمتنع عنه المحرمون بالحج . هو يريد أن يكون مُحِلاًّ ، وأن يتناول ما لا يتناوله الوادعون ؛ لأن حياة الدعة والإحرام لم تجن عليه إلا شقاء ، فهو يريد أن يلتمس السعادة والعزة فى حياة البأس والفتك . وهو مطمئن إلى أنه إن لم يتعرض للبأس والفتك ، ولم يصطل نار الحرب اتقاء للموت كريماً تحت السيوف ، أدركه الموت ذليلاً مهيناً فى ظل الدعة والإحرام . وانظر إلى هذا البيت الأخير .

فثب واثقاً بالله وثبـــــــــة ماجدٍ ... يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

فهو لا يريد بهذا الوثوب إلا الخروج على السلطان ، وشق عصا الطاعة ، والمخالفة عما يأمر به النظام المألوف .

ليس عندى من شك فى أن هذه الأبيات تصوِّر ما عاد به الغلام من البادية بعد أن عاش فى بيئتها الخشنة المقتنعة بالمذهب الجديد ، المنتظرة من وراء هذا المذهب وانتشاره الخير كل الخير . وتصوِّر كذلك ما عاد به الغلام من البادية من هذه الرصانة اللفظية التى ترفع اللفظ عن الابتذال ، وتكسبه عذوبة نحس فيها ريح الصحراء .

وإذا كانت هذه الأبيات تصور تأثر المتنبي بالبيئة العملية القرمطية ، فإن هناك قصيدة أُخرى طويلة بعض الشيء تصور تأثر المتنبي بالمذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة ، وهى هذه القصيدة التى مدح بها المتنبي — فيا يقول الديوان — رجلاً يعرف بأبى الفضل ، وأراد أن يستكشف مذهبه ، فيما يقول الديوان أيضاً ، وفيما يقول الرواة كذلك . وعندى أن المتنبي لم يرد أن يمتحن أبا الفضل ، ولا أن يستكشف مذهبه ، وإنما أراد أن يمدحه لا أكثر ولا أقل ، وأن يمدحه بما كان هذا الرجل يحب أن يُمدَح به . وسواء علىَّ أكان المتنبي مؤمناً بهذه الآراء التى أثبتها فى قصيدته أم لم يكن ، فحسبي أنه أثبت هذه الآراء ، وجهر بها ، وتقرّب بها إلى رجل ، والتمس بها العطاء .

ولست أروى صدر هذه القصيدة ، فقد أحتاج أن أعود إليه حين أستأنف الكلام عن فنّ المتنبي ، وإنما أكتفى برواية هذه الأبيات :

يأيُّها المَلَكُ المُصَفَّى جَوْهَرًا　　من ذاتِ ذى المَلَكُوتِ أسْمَى مَن سَما
نُورٌ تَظَاهَرَ فيك لاهُوتِيَّةً　　فتكادُ تَعْلَمُ عِلْمَ ما لن يُعلَما
ويَهُمُّ فيكَ إذا نَطَقْتَ فصاحَةً　　من كلِّ عُضْوٍ منكَ أن يتكلَّما
أنا مُبْصِرٌ وأظُنُّ أنِّى نائِمٌ　　مَنْ كان يحلُمُ بالإلٰهِ فأحْلُمَا
كَبُرَ العِيانُ علَىَّ حَتَّى إنَّهُ　　صَارَ اليَقِينُ مِنَ العِيَان تَوَهُّمَا

فنحن هنا بإزاء رأى صريح فى الحلول ؛ فالمتنبي يرى أن صاحبه ملك قد صُفِّى جوهره من ذات ذى الملكوت ، أى إن روحه قبس من ذات الله . وهو يرى أن

هذا القبس نور لاهوتى قد استقر فى صاحبه ، فكاد يظهره على الغيب . وهو يكبر ما يرى ؛ فهو يقظان يرى الله ، وهو يظن أنه نائم ، ثم ينكر أن يكون نائماً ؛ لأن الله لا يُرى فى الأحلام . وهو يكبر هذا العيان ، و يرى أنه أعظم وأجل من أن يثبت له أمثاله ، فيرتاب فيما يرى و يكاد يتهم نفسه بالخيال والوهم . وهذا الكلام وحده صريح فى انحراف المتنبى عن الجادّة الدينية ، واندفاعه إلى هذا اللون من ألوان الفلسفة التى هى إلى الإلحاد أقرب منها إلى أى شىء آخر .

ومن هنا نفهم أنه حين أراد أن يُثبت هذه القصيدة فى الديوان زعم للرواة أو زعم الرواة له أنه إنما امتحن بهذه الأبيات أبا الفضل ، وأراد أن يعرف مذهبه . كلام يقصد به إلى الاعتذار و إلى التقيّة أكثر من أى شىء آخر .

وعندى أن المتنبى حين ارتحل إلى البادية إنما اتصل فيها لا بالبيئة القرمطية العادية ، بل بداعٍ من دعاة القرامطة الذين كانوا يجولون فى البادية . ومن يدرى ! لعل هذا الداعى كان أبا الفضل نفسه هذا الذى يمدحه المتنبى . ومن يدرى ! لعل المتنبى لم يعد إلى الكوفة من البادية مستصحباً أباه وحده ، و إنما عاد مستصحباً رجلا آخر أو قوماً آخرين ، يريدون أن يستقروا فى الكوفة وأن يدعوا فيها لمذهب القرامطة .

ومهما يكن من شىء ، وسواء واتتنا النصوص التى بقيت لنا أم لم تواتنا ، فإنى أجد فى نفسى شعوراً قويًّا جدًّا بأن المتنبى قد نشأ نشأة شيعية غالية ، لم تلبث أن استحالت إلى قرمطية خالصة . وعلى كل حال فقد أغار القرامطة على الكوفة سنة ست عشرة وثلثمائة ، يقودهم إمامهم أبو طاهر ، فدمروا وحرقوا ونهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل[1] . وكانوا يقدّرون أن الطريق ستخلو لهم إلى بغداد ، ولكن الأمر لم يتم لهم كما أرادوا ، فعذّبوا الكوفة وسوادها ، وأرهبوهما عاماً كاملا ، ثم رحلوا بعد ذلك إلى البحرين .

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٥٦

وكان المتنبي حين أغار القرامطة على الكوفة فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان المتنبي حين جلا القرامطة عن العراق فى الخامسة عشرة من عمره .

ونلاحظ أنه فى ذلك الوقت بعد جلاء القرامطة عن العراق لم يستقر فى الكوفة . وإنما يحدثنا الرواة أنه ارتحل عنها وارتحل معه أبوه ، إلى بغداد بعد جلاء القرامطة عن الكوفة . ألأنه كان يريد أن يذهب إلى بغداد ليتم الدرس ، وليشق طريقه إلى المجد الأدبى ، فأخرت غارة القرامطة رحلته شيئاً ما ؟ أم لأنه كان قد تورّط وتورط معه أبوه ، وتورط معهما كثير من الناس فى فتنة القرامطة هذه ، فلما انهزم القرامطة وجلوا عن العراق لم يستطع المتنبي وأمثاله أن يقيموا فى الكوفة إشفاقاً من السلطان ومن تتبُّعه للذين أعانوا القرامطة من قريب أو من بعيد ؟

كلا الأمرين ممكن ، ولكنى أرجِّح الأمر الثانى؛ لأنه يلائم ما رأينا من نشأة المتنبي كلها ، ولأن إقامة المتنبي فى بغداد لم تتصل . ولو قد كان المتنبي قصد إلى بغداد يلتمس العلم والأدب والمجد الشعرى ، لأقام فيها فأطال المقام ، ولاتّصل بالمعروفين من علمائها وأدبائها وأصحاب المكانة السياسية والاجتماعية فيها . ولكنه فيما نعلم لم يصنع من ذلك شيئاً ، إنما أقام ببغداد فترة قصيرة ، ثم ارتحل عنها إلى الجزيرة وشمال الشام ، ومعه أبوه فيما يقول الرواة .

هل ذهب المتنبي إلى بغداد هارباً من السلطان كما قلنا ؟ أم هل ذهب إليها هارباً من السلطان ومبتغياً شيئاً آخر ؟ فلو قد أراد الهرب وحده لكان فى البادية وصحراء السماوة مَفزع ومهرب من السلطان . ولكنه يترك الكوفة إلى عاصمة الخلافة ، حيث القوة المركزية التي كانت تصارع القرامطة أشد صراع وأعنفه .

أحب أن نذكر هنا أن أمور الشيعة والقرامطة لم تكن تجرى فى وضوح ويسر ، وإنما كان قوامها التكتم والتحفظ ، والجماعاتُ السرية المبالِغة فى حفظ السرّ وإخفائه . وما دُمتُ قد افترضتُ منذ حين أن المتنبي إنما ذهب إلى البادية ليتعلّم على بعض دُعاة القرامطة ، فلأمض فى الفرض على طبيعته ، ولأُرجِّح كما قدّمت أن

المتنبي عاد من البادية مع بعض دعاة القرامطة ، واشتغل فى الكوفة بنشر الدعوة القرمطية ، وأن المتنبي سافر من الكوفة بعد جَلاء القرامطة ، فقصد إلى بغداد لأمر يتصل بالدعوة . ولستُ أستبعد ، بل أنا أُرجِّح جدًّا أن يكون فى بغداد مركز قوى من مراكز الدعوة القرمطية ، ذهب إليه المتنبى فأدَّى إليه شيئاً ، وتلقَّى منه شيئاً ، وترك بغداد قاصداً إلى الجزيرة ثم الشام .

لست أدرى أتسعدنا النصوص التى بقيت لنا من شعر المتنبى أم لا تسعدنا ؟ ولكنى قوى الشعور بأن المتنبي لم يرحل إلى الشام طالباً للرزق فحسب ، وإنما ذهب إلى الشام داعية من دعاة القرامطة ، فى هذا القسم الشمالى من سوريا ، الذى لم يكن قد أدركه الاضطراب القرمطى ، كما أدرك غيره من أقسام الشام .

مهما يكن من شى فلم يكد يبلغ المتنبي السابعة عشرة من عمره حتى كان قد هجر الكوفة ، وترك بغداد ، وانتهى إلى شمال الشام ، واستأنف حياة جديدة ليست من الصِّبا فى شيء ، وإنما هى حياة الشباب .

فلنستخلص من كل ما قدمنا أن المتنبى قد قطع المرحلة الأولى من طريقه ، مرحلة الصِّبا ، ولم يكد يبلغ آخرها ، حتى كان قد تمّ له حظه من الشعر ، وتمّ له حظه من القرمطة ، وتمّ له حظه من القوة البدنية أيضاً . ويكفى أن ننظر فى هذه القصيدة التى قالها فى بغداد ، يمدح بها رجلاً رسميًّا — محمد بن عبد الله العلوى — لنرى منها أنه قد استكمل حظه من القدرة على نظم الشعر الجيد ، وإن لم يبلغ بعدُ ما قدِّر له من النبوغ :

أهلاً بدارٍ سَباكَ أَغْيَدُهَا أبْعَدُ ما بانَ عنكَ خُرَّدُهَا
ظَلْتَ بهـا تَنْطَوِى عَلَى كَبِدٍ نَضِيجَةٍ فَوْقَ خِلْبِها يَدُهَا
يا حادِيَىْ عِيسِهـا وأَحْسَبُنِى أُوجَدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أفقِدُها
قِفَا قَلِيـلاً بها عَلَىَّ فلا أقلَّ من نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا
فَفى فؤادِ الُمحِبِّ نارُ جَوًى أَحَرُّ نارِ الجحيمِ أَبْرَدُهَا

شابَ مِنَ الْهَجْرِ فَرْقُ لِمتِهِ فصارَ مِثلَ الدِمَقسِ أسوَدُهَا
بَانُوا بِخُرْعوبَةٍ لَهـا كَفَلٌ يَكادُ عِنـدَ الْقِيامِ يُقعِدُها
رِبَحْلَةٍ أَسْـمَرٍ مُقَبَّلُهَا سِبَحْلَةٍ أَبْيضٍ مُجَرَّدُها
يا عاذِلَ العاشِقِينَ دَعْ فِئَةً أَضَلَّها اللهُ كيف تُرْشِدُهَا
لَيسَ يُحيكُ المَلاَمُ فى هِمَمٍ أقْرَبُهـا منكَ عَنْكَ أبعَدُهَا
بِئْسَ اللَّيالِى سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقاً إلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقدُهَا
أَحْيَيْتُها والدُموعُ تُنْجِدُنى شُؤونُها والظَّلاَمُ يُنْجِدُهَا
لا نَاقَتى تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلاَ بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهـا كُورُهَا ومِشْفَرُهَا زِمامُها ، والشُسُـوعُ مِقْوَدُهَا
أَشَدُّ عَصْفِ الرِّياحِ يَسْبِقُهُ تَحْتِىَ مِنْ خَطْوِهَا تأَوُّدُهَا
فى مِثْلِ ظَهْرِ الْمِجَنِّ مُتَّصلٍ بِمِثْلِ بَطْنِ الْمِجَنِّ قَرْدَدُهَا
مُرْتَمِياتٌ بنا إلى أَبْنِ عُبَيْـدِ اللهِ غِيطَـانُها وفَدْفَدُهَا
إلى فَتًى يُصْدِرُ الرِّماحَ وقد أَنْهَلَهَا فى القُلُوبِ مُورِدُهَا
لَهُ أيادٍ إلَىَّ سابِقَـةٌ أعُدُّ مِنْها ولا أُعدِّدُهَا
يُعْطِى فلا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا بهـا ولا مَنُّهُ يُنَكِّدُهَا
خَيْرُ قُرَيْشٍ أبًا وَأَمْجَدُهَا أكْثَرُهَا نائلاً وأجوَدُهَا
أطعَنُها بِالقَنَـاةِ أَضْرَبُها بِالسَّيْفِ جَحْجاحُها مُسَوَّدُهَا
أفْرَسُها فارِسًـا وأطوَلُها باعاً . ومِغْوارُهَا . وسَـيِّدُهَا
تَاجُ لُؤَىِّ بْنِ غالِبٍ وبه سَمَا . لها فَرْعُهَا وَمحْتِدُها
شَمْسُ ضُحَاها هلاَلُ لَيْلَتِها دُرُّ تقاصِـيرِها زَبَرْجَدُهَا
يا لَيْتَ بِى ضَرْبَةً أُتيحَ لها كما أُتيحت له مُحَمَّـدُها
أثَّرَ فيها وفى الحَـديدِ وَما أثَّرَ فى وَجْهِهِ مُهَنَّدُهَا

فاغْتَبَطَتْ إذْ رَأتْ تَزَيُّنها بمثْلِهِ والجِراحُ تَحْسُدُهَا
وأيقَنَ الناسُ أنَّ زَارِعَها بالمَكْرِ فى قلبه سَيَحْصُدُهَا
أصبحَ حُسَّادُهُ وَأنْفُسُهُمْ يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُصعِدُهَا
تبكى عَلَى الأنصُلِ الغُمودُ إذا أنذَرَها أنّهُ يُجَرِّدُها
لعِلْمِها أنّها تَصِيرُ دَماً وأنّهُ فى الرِقابِ يُغمِدُها
أطلَقَها فالعَدُوُّ مِن جَزَعٍ يَذُمُّها والصَّدِيقُ يَحْمَدُها
تَنقدِحُ النّارُ من مَضاربِها وَصَبُّ ماءِ الرِّقابِ يُخْمِدُها
إذا أضَلَّ الهُمامُ مُهجَتَهُ يوماً فأطرافُهنّ تَنْشُدُها
قد أجْمَعَتْ هذه الخليقةُ لى أنّكَ يا ابنَ النَّبِيِّ أوحَدُها
وأنّكَ بالأمْسِ كُنتَ مُحْتَلِماً شيخَ مَعَدٍّ وأنتَ أمرَدُها
وكَمْ وكَمْ نِعْمَةٍ مُجَلِّلَةٍ رَبَّيْتَها كانَ مِنكَ مَوْلِدُها
وكَمْ وكَمْ حاجةٍ سَمَحْتَ بها أقرَبُ مِنّى إلىَّ مَوعِدُها
ومَكرُماتٍ مَشَتْ عَلَى قَدَمِ الْ بِرِّ إلى مَنزِلِى تُرَدِّدُها
أقَرَّ جِلْدِى بها عَلَىَّ فلا أقدِرُ حتّى المَماتِ أجحَدُها
فَعُدْ بِها لا عَدِمْتُها أبداً خَيْرُ صِلاتِ الكَرِيمِ أعوَدُها

فالقصيدة كما ترى طويلة قد بلغت الأربعين بيتاً ، وهو أطول ما حفظ ديوان المتنبي لنا من شعره فى هذا الطور . وهى كاملة الخلق قد استوفت حظها من النظام الفنى الموروث . وهى تنقسم ثلاثة أقسام :

القسم الأول غزل من هـذا الغزل الذى تعوّد الشعراء أن يفتتحوا به القصيدة . وقد طال نفس الشاعر فيه شيئاً فبلغ اثنى عشر بيتاً .

والقسم الثانى وصف من هذا الوصف الذى تعود الشعراء أن ينتقلوا إليه إذا قضوا حظهم من الغزل ، وأن يتخذوه طريقاً إلى الغرض الأساسى الذى يقصدون إليه .

وقد قصر نفس الشاعر فيه فلم يتجاوز به أربعة أبيات . ومعنى هـذا كله أن الفتى قد أخذ يعقد شعره ويسلك إليه طريق غيره من الشعراء ، ويلم فى القصيدة الواحدة بغير فن من فنون الشعر ، لا يجد فى ذلك مشقة ولا حرجا ، ولا يحتمل فى ذلك جهداً ولا عناء . وأنت إذا أخذت القصيدة جملة رأيت طبيعة الشاعر سمحة سهلة مواتية لا تبخل عليه ولا تُعَنِّيه ، وإنما تمنحه كل ما يريد منها . فلسنا نحس تـكلف الحَصِر ولا جهد المقل . ولعلنا نحس أن هذه القصيدة كانت تتدفق من نفس الشاعر كما يتدفق السيل ، وتنحدر منها انحداراً يوشك أن يكون عنيفاً . ولعل مصدر هذا الإحساس هذا البحر الذى اختاره الشاعر والذى تظهر فيه السرعة والانحدار ، وتتدافع فيه أبيات القصيدة وألفاظ البيت تدافع الموج . ولعل مصدر هذا الإحساس أيضا هذه القافية التى اختارها الشاعر ، والتى جمعت بين خصلتين ظاهرتين : إحداهما المتانة والقوة ، والأخرى الرحب والسعة . فهذه الدال التى تسبقها حركة يسبقها سكون تصور المتانة والقوة . وهـذه الهاء المطلقة تصور الرحب والسعة .

وأنت إذا أخذتها تفصيلاً استطعت أن تتبين فيها خصلتين فنيتين هما الآن — وستكونان دائما — القوام الفنىّ لشعر المتنبى ، يسرف فيهما أحيانا فيفسد شعره ، ويقتصد فيهما أحياناً فيجمل شعره ، ولـكنه لا يكاد يخلص منهما فى وقت من الأوقات :

فأما الخصلة الأولى فهى المطابقة التى يحبها المتنبى أشد الحب ، ويستخرج منها فنوناً من الجمال نراها فاترة فى الطور الأول من شعره ، ولـكنها تقوى وتشتد كلما استكمل الشاعر حظه من القوة ، فنوناً من الجمال تؤثر فى العقل والذوق والحس جميعاً ، فتنشئ شيئاً من الموسيقى اليسيرة الحلوة فى أكثر الأحيان . ذلك أن المتنبى يحسن المقابلة بين الأضداد فى أنفسها ، كما يحسن المقابلة بين الألفاظ التى يختارها ليدل بها على هذه الأضداد . فإذا تمت له المقابلة بين المعانى المتضادة وتم له الاختيار

الحسن للألفاظ التى تدل عليها ، عرف كيف يضعها فى مواضعها من النظم ، وكيف يلائم بينها و بين ما يسبقها وما يلحقها من الألفاظ ، وتأتّى له بذلك تحقيق شيء من الاتساق البديع يلهيك ويشغلك عما تكلف الشاعر من الجهد فى تحقيق هذا الفن . ولست فى حاجة إلى أن أعيد عليك ما فى هذه القصيدة من الأبيات التى عمد فيها المتنبي إلى المطابقة فوفق أحياناً ، وأخطأه التوفيق أحياناً أخرى . فما أظنك إلا قد لاحظت هذه الأبيات أثناء قراءة القصيدة ، وليس عليك بأس من أن تعود إلى قراءتها مرة أخرى لتتحقق صحة هذه الملاحظة .

والخصلة الأخرى المبالغة التى يعمد إليها المتنبي لأسباب سنوضحها فى هذا الموضع من الحديث . ولكننا نكتفى الآن بأن نلاحظ منها طبيعة المتنبى نفسه ؛ فهو قوى الحس ، حاد المزاج ، عنيف النفس ، مندفع بحكم هذا كله إلى الغلو والإسراف . وكذلك نلاحظ تقليد الشاعر لشعراء القرن الثالث الذين كلفوا بالبديع وأمعنوا فيه وعُنوا منه بالمبالغة عناية خاصة .

ثم نلاحظ آخر الأمر انتشار مذهب المبالغة بين النقاد منذ صوّره قُدامة فى كتابه نقد الشعر[1] ، وأذاعه على أنه مذهب أرسطاطاليس، وآثره فى الشعر كما كان يؤثره أرسطاطاليس على القصد والاعتدال[2] . (فجمال الشعر عند المتنبي فى هذا الطور وفى الأطوار التى تليه ، راجع دائماً إلى هاتين الخصلتين الفنيّتين : المطابقة من ناحية ، والمبالغة من ناحية أخرى ، يجمع بينهما الشاعر حيناً و يفرق بينهما حيناً آخر ، فيعجبك مرة و يسوءك مرة أخرى .)

فأما إذا أخذت أجزاء القصيدة الثلاثة ، وامتحنتها جزءاً جزءاً ، فلن تجد فيها للمتنبي شخصية قوية ولا معنى مبتكراً ، و إنما هى المعانى المألوفة فى الغزل والوصف والمديح ، حتى هذه المحاولة التى أراد الشاعر بها أن يُظهر شيئاً من الجهد حين وصف

(١) كتاب نقد الشعر لقدامة ص ١٩ (طبع الجوائب)
(٢) Poètique II et XXIV

نعله ، حيث يصف الشعراء إبلهم ، وأسبغ على هذه النعل من الصفات ما يسبغه الشعراء على الإبل — هذه المحاولة نفسها ليست مبتكرة ، و إنما هى إطناب وتفصيل ، حيث آثر أبو نواس الإجمال والإيجاز فى قوله :

إلَيْكَ أبا العباسِ مِن دون مَن مَشَى عليها أمْتَطَيْنَا الحَضْرَمِيَّ المُلَسَّنَا

فلم يزد المتنبى على أن قال إنه سعى إلى ممدوحه ماشياً يركب نعليه كما قال أبو نواس ، ولكنه فصّل ذلك ، فشبه أجزاء النعل بالأدوات التى يصطنعها راكب الناقة .

و إذا كانت هذه المحاولة تقليداً صرفاً من الجهة الفنية الخالصة ، فإن لها دلالتها القيمة من الجهة التاريخية ؛ لأنها على الأقل تنبئنا بأن الشاعر الفتى لم يسافر من الكوفة إلى بغداد راكباً ، وإنما ذهب إليها راجلاً ، وذهب إليها راجلاً مسرعاً يسابق الريح . فإذا صح هذا التقدير فإن الفتى قد أعجل عن الاستعداد للرحيل ، وفرّ من الكوفة فراراً كما قدمنا .

والمدح الذى يكوّن الجزء الثالث من القصيدة ، والجزء الأهم والأطول ، ليس أدنى إلى الابتكار ولا أقرب إلى التجديد من الجزأين الأولين . بل هو برىء من الابتكار الجدى ، إن صح هذا التعبير ، كل البراءة . هو مدح تقليدى بأوضح معانى الكلمة وأدقّها ، لا يتجاوز الشاعر به أن يصف ممدوحه ، بأنه أكرم قريش وأشجعها وأعظمها حظا من الخصال التى يمتاز بها الرجل حقا ، و بأنه كان أحلم قريش وأحكمها حين بلغ الحلم ، و بأنه ابن النبى ، وبأنه أوحد الخليقة وأجمعها لصفات النبل والشرف ؛ إلى غير هذا من الأوصاف التى تعوّد الشعراء أن يرصّوها فى مدحهم رصّا . ومع ذلك فقد حاول الشاعر أن يجدد فأخطأه التوفيق ، وظهر أنه لا يزال فى حاجة إلى ممارسة قول الشعر وتصريف الكلام ؛ وذلك حين أراد أن يذكر الضربة التى

تلقّاها ممدوحه فى وقعة من الوقعات ، فزعم أن هذه الضربة شرفت ممدوحه ، ولم تلحق به ضرراً ولا أذى . فهذا تفكير أطفال وحديث فتى يلغو . والمتنبي معتمد فى مدحه كما اعتمد فى غزله ووصفه على الطباق والمبالغة . ويظهر ذلك ظهوراً واضحاً حين يحدثنا بأن الأغماد تبكى على النصول إذا علمت أنها ستجرّد ، وبأن هذه النصول تغمد فى الأعناق والرءوس فتقدح النار ، ولكن الدماء التى تسفكها تخمد هذه النار التى تقدحها . فأنت ترى فى هذا الكلام المبالغة والطباق معاً ، وتحس فيه محاولة الشاعر استغلال هذين الأصلين من أصول البديع ، وأنه إن وفق فى ذلك حيناً فما يزال يخطئه التوفيق كثيراً ؛ لأنه على تقدمه فى الصنعة لم يستكمل بعدُ حظه من المهارة والإتقان .

على أن هذه القصيدة تدلنا على شىء آخر له قيمته من الناحية التاريخية . فالشاعر لم يمدح أحداً من رجال الحكم ، ولم يتجه إلى أحد من المتصلين بالسلطان العباسى القائم ، وإنما مدح رجلاً علويًّا . فأوضح ما يستنبط من ذلك أن المتنبي حين وصل إلى بغداد كان محتفظاً بمذهبه السياسى ، منحرفاً عن السلطان العباسى القائم فى بغداد . ولكننا لا نرى فى القصيدة مذهب القرامطة، ولا إشارة إلى نظرية الحلول ؛ فلا أقل من أن نفهم من ذلك أن شاعرنا متحفظ محتاط ، وأنه لا يمدح هذا العلوى رغبةً فى مدحه أو إخلاصاً فى حبه وحب العلويين ، وإنما يمدحه ملتمساً لنواله ، يريد أن يستعين بهذا النوال على الرحيل من بغداد إلى الشام .

وأثناء إقامة المتنبي فى بغداد رأى الفتى من غير شك ما لم يره فى الكوفة ولا فى البادية من مظاهر الترف وألوان النعيم ، وفنون العبث واللهو ؛ فزاد سخطه على النظام الاجتماعى ، وحنقه على توزيع الثروة بين الناس . والغريب أنه لم يستبق مما رأى ومما سمع فى بغداد هذه المرة إلا ما ترويه لنا عنه الأخبار من أنه كان يمشى مرة فى بغداد ومعه خمسة دراهم ، فرأى بطيخاً أعجبه لأنه كان باكورة ، فساوم فيه صاحبه حتى عرض عليه دراهمه الخمسة ، ولكنه لم يبلغ منه شيئاً . ووقف الفتى

حزيناً ينظر إلى البطيخ وإلى الدراهم ، وإذا تاجر يخرج من خان مقابل لبائع البطيخ ، فينهض البائع إليه متملقاً مبالغاً فى التملق ، يدعو له ويعرض عليه بطيخه ، والتاجر يأبى ويمتنع ، والرجل يهبط بالثمن شيئاً فشيئاً حتى سمح التاجر وطابت نفسه عن شراء هذا البطيخ بدرهمين اثنين ، وأمر البائعَ أن يحمله إلى داره . فلما انصرف التاجر أظهر المتنبي عجبه لصاحب البطيخ من هذه الحماقة التى حملته على أن يرفض خمسة دراهم كان يعرضها عليه ، ويقبل من التاجر درهمين ، لم تطب نفسه عنهما إلا بعد المساومة والعناء . فقال له التاجر : ويلك ! إنه يملك مائتى ألف دينار ! !

ويزعم الرواة على المتنبي أنه أحب المال منذ ذلك الوقت وكلف بالغنى ، وحرص على أن يملك مائتى ألف دينار .

ومهما يكن من أمر هذه القصة فلست أريد أن أحمّلها أكثر مما تحتمل ، ولست أرى فيها إلا رمزاً لما تأثّر به الشاعر الفتى أثناء إقامته فى بغداد من حماقة العامة واستكانتهم ، وطغيان الخاصة والأغنياء وإسرافهم فى استغلال هذه العامة الحمقاء المستكينة .

أقبل الفتى على بغداد قرمطيًّا منهزماً ، حانقاً على النظام الاجتماعى والسياسى ، وخرج من بغداد إلى الشام ، وأضاف حنقاً إلى حنق ، وسخطاً إلى سخط ، وازداد حظه من التمرد على السلطان والنظام . وإذا أضفنا إلى هذه القصة قصة أخرى يرويها الرواة عن المتنبي الصبى أثناء إقامته بالكوفة استطعنا أن نتبين العناصر الخلقية والعقلية التى كوّنت شخصية هذا الفتى المندفع المخاطر والضارب فى الأرض يبتغى شيئاً لعله لم يكن يحققه ولا يعرفه إلا توهماً .

فقد زعم الرواة أن الصبي كان يختلف إلى ورّاق فى الكوفة يجلس عنده وينظر فيما يحضره من الكتب . فأقبل ذات يوم رجل ، ومعه كتاب لأبى عبيدة فى اللغة ، يقع فى ثلاثين ورقة ، وكان الرجل يعرض كتابه للبيع ، فأخذه الصبي وجعل يطيل النظر فيه ، حتى ضاق به البائع وقال له: يا هذا ! إنما جئت بهذا الكتاب لأبيعه ، وإنك

إذا أردت حفظه واستقصاءه احتجت إلى أيام . قال الصبي : فإذا كنت قد وعيت ما فيه ؟ قال البائع فهو لك . ثم امتحن القوم الصبي فإذا هو قد حفظ ما في الكتاب .

لا أريد أن أحمِّل هذه القصة أيضاً أكثر مما تحتمل ، وإنما أرى فيها رمزاً لنشاط الصبي وحضور ذهنه وحدَّة ذكائه . (وإذن فقد أدرك الفتى نفسه وهو متميز من غيره بذكاء غير شائع في الناس ، وهو مع ذلك فقير بائس يشتهي من لذات الحياة المتواضعة ما لا يستطيع أن يبلغه وإن بذل الجهد والمال ، والأغنياء البُلْه من حوله ينعمون ويترفون ويُكْرَهون على النعيم والترف إكراهاً فلا غرابة في أن يمتلىء هذا الفتى بنفسه، وفي أن يشعر قلبه بعض هذه الحياة التي تجري فيها الأمور على غير ما يقتضيه العدل والحق والإنصاف . ولا غرابة في أن يقصد إلى الشام وفي نفسه خواطر كثيرة مختلطة مضطربة ليس من اليسير تمييزها ، ولكنها على كل حال خواطر متشائم ساخط يريد أن تتغير الظروف من حوله لمصلحة الناس جميعاً ، فإن لم يكن إلى ذلك سبيل فلا أقل من أن تتغير الظروف حوله لمصلحته هو خاصة .)

وأكاد أعتقد أن حياة المتنبي بعد سفره من بغداد تمثل هذين النوعين من الأمل ، وهذين الفنَّين من المحاولة . فهو في أول أمره مخلص صادق فيما بينه وبين نفسه ، مُعْجَبٌ بنفسه من غير شك ، ولكنه ليس مسرفاً في الأثرة ، يرى أنه قد يستطيع تغيير ظروف الحياة لمصلحة المظلومين والمستضعفين . وسبيله إلى ذلك نشر الدعوة القرمطية وتغيير الأمور السياسية في مكان بعيد بعض الشيء عن مركز السلطان ومستقر الخلافة . وقد اندفع الفتى في ذلك وجهد في أن يصل إليه مخاطراً يوماً متحفظاً يوماً آخر ، متجاوزا الحدود يوماً ثالثاً ، حتى أدركه الإخفاق ثم أدركه اليأس ، فلم يجد بدًّا من المرتبة الثانية التي تقوى فيها الأثرة بعد أن أخفق الإيثار ، ويقوى فيها الطمع وحب النفس بعد أن أخفق الرفق بالناس والنصح لهم وحملهم على الإصلاح .

هنالك ظهر المتنبي على طبيعته الصحيحة التي أخفاها حيناً كرم الشباب واندفاعه الطبيعي إلى الخير . فلما أدركه الإخفاق وألمت به الخيبة انجلت عنه غمرة الشباب ،

وظهر كما أراد الله له أن يكون شاعراً نابغة ، نابهَ الذكر ، مؤثراً لنفسه بالخير ، مسرفاً في إيثار نفسه بالخير ، لا يستبقي من آماله الأولى إلا الحقد على الجماعة والازدراء لها والبغض لما تُقدِم عليه من نظام وتخضع له من سلطان . ولكننا فيما يظهر نتعجل الحوادث بعض الشيء ، والخير في أن نصطنع الأناة ونساير الشاعر في طريقه ، حتى نقطع معه المرحلة الثانية التي انتهت به إلى السجن ثم إلى اليأس والقنوط .

٦

وأول مسألة تعرض لنا فى هذه الطريق ، مسألة تاريخية بالطبع ، أو مسألتان تاريخيتان : فمتى ارتحل المتنبي عن بغداد قاصداً إلى الشام ؟ وهل من سبيل إلى توقيت القصائد التي قالها فى الشام قبل أن تنتهى به الحوادث إلى السجن ؟

فأما المسألة الأولى فليس إلى الجواب عنها من سبيل ؛ لأن المؤرخين لا يحدثوننا بشيء يعين الوقت الذى خرج المتنبي فيه من بغداد أو يقرّبه . والديوان نفسه لا ينبئنا من هذا بشيء . ولكنى أرجح خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير[١] أن إقامة المتنبي فى بغداد لم تطل ، وإنما مر الشاعر بها مرًّا لم ينفق فيها إلا الوقت الذى مكّن له من أن يتهيأ للرحيل إلى الشام ؛ لأنه لم يكن آمنًا فى بغداد كما لم يكن آمنًا فى الكوفة . وعندى أنه، خلافاً لما ظن الأستاذ بلاشير أيضاً، لم يختلف إلى مجالس العلماء ، ولا إلى أندية الأدب ، ولم يتصل بأحد من الأشخاص الظاهرين فى بغداد إلا محمد بن عبد الله العلوى الذى مدحه بالقصيدة التى فرغنا من تحليلها آنفا ؛ وما أراه مدحه إلا ليستعين بنائله على الرحيل .

لم يكن المتنبي آمنا فى بغداد ؛ لأنه كما رأيت كان قرمطى الهوى، ولأن بغداد كانت شديدة الاضطرابات بأحداث القرامطة الذين كانوا يغيرون عليها منذ وقت قصير . وما أرى إلا أن المتنبي قد أنفق ما أنفق من الوقت فى بغداد وَجِلاً مضطرباً ، وخرج منها خائفاً يترقب، وانتفع فى إقامته وسفره بأنه شخص مجهول لا ينم عليه اسم معروف، ولا تفضحه مكانة ممتازة . وأكبر الظن أن خوفه واحتياطه هما اللذان حملاه على أن يخفى اسمه ونسبه إن كان له نسب على القبائل التى كان ينتقل بينها أثناء رحلته .

---

(١) R. Blachère : ABou t-Tayyib al-Motanabbi 35

وأوضح دليل على أنه لم يطل الإقامة فى بغداد أن ديوانه لا يحفظ لنا شعراً قاله فى بغداد إلا مدحه لهذا العلوى . ولو قد أقام المتنبي ببغداد إقامة أمن وفراغ بال ، لما أعياه أن يقول كثيراً من الشعر فى كثير من الأشخاص وفى كثير من المشاهد التى شهدها فى دار السلام .

وأما المسألة الثانية فالأمر فيها مختلف بعض الشيء ؛ فقصائد المتنبى التى قالها بين خروجه من بغداد ودخوله السجن منشورة فى القسم الأول من ديوانه على نحو يظهر أنه قصد به إلى كثير من التعمية والتضليل . فهناك قصائد مقدمة فى الديوان وقد كان إنشاؤها متأخراً ، وهناك قصائد متأخرة فى الديوان وقد كان إنشاؤها متقدما . وما أشك فى أن هذا التأخير والتقديم شيء أريد لأمر ليس فى حاجة إلى التوضيح . وأكثر الأشخاص الذين قصد إليهم المتنبى بمدحه وثنائه فى هذا الطور خاملون لم يعرفهم أو لم يكد يعرفهم التاريخ . ومع ذلك فقد يخيل إلىّ أن توقيت هذه القصائد إن لم يكن ممكناً كله ، فليس مستحيلاً كله . ولى إلى ذلك التوقيت طريقتان .

فأما الأولى فتتصل بنفس الشاعر . وأما الأخرى فتتصل بطريق الشاعر حين اضطرابه فى بلاد الشام . فأما الطريقة الأولى ، وهى الطريقة النفسية ، إن صح هذا التعبير ، فإنى أستنبطها من طبيعة الحياة العقلية والشعورية التى كان يحياها المتنبي قبل أن تلم به الكارثة ؛ فقد رأيناه قرمطى الهوى فى الكوفة لا يتحفظ ولا يحتاط . ورأيناه شيعيا فى بغداد متحرجا يصطنع الحذر . ورأينا أنه فى أكبر الظن إنما سافر بقرمطيته إلى الشام ليدعو إليها هناك . و إذن فلا بد، إن صح هذا الفرض، من أن يمتاز شعر المتنبى فى هذا الطور من حياته بشيئين : أحدهما آراء قرمطية تظهر فى هذا الشعر من حين إلى حين؛ لأنها هى آراء الشاعر ، وهى قوام حياته وتفكيره ونشاطه الخفى ، فلا يستطيع الشاعر أن يمحوها من آثاره الأدبية محواً . والآخر تحفظ واحتياط ، وإيثار للعافية

يدفع الشاعر إلى أن يخفي آراءه ما استطاع إذا خاف أو شك، و إلى أن يُلَمِّح بهذه الآراء إذا أمن أو طمع ، و إلى أن يجهر بما يمكن الجهر به من هذه الآراء إذا أمن واطمأن. فإذا استطعنا أن نتبين هاتين الخصلتين فى طائفة من قصائد المتنبى ، فأكبر الظن أن هذه القصائد قد قيلت فى هذا الطور . على أنى أكثر اعتماداً على الطريقة الثانية الجغرافية منى على هذه الطريقة الأولى النفسية . فالظاهر أن المتنبى قد خرج من بغداد متابعاً طريق الجزيرة حتى انتهى إليها ، فأقام فيها وفى شمال الشام دهراً يتنقل بين القبائل البادية و بين المتحضرين فى المدن ، يمدح الرؤساء وسراة الناس كما يمدح أوساطهم وفقراءهم أيضاً . وهو فى أثناء هذا كله يمتحن أولئك وهؤلاء ليتبين استعدادهم للقرمطية وتهيؤهم للخروج على السلطان العباسى الذى كانوا يخضعون له فى ذلك الوقت خضوعاً فيه غير قليل من التلون والاضطراب ؛ فإن وجد عندهم استعداداً لقبول دعوته أذاعها فيهم ، و إن لم يجد كتم عنهم أمره ، وهو فى الحالين يعيش بما يأخذه منهم أجراً لما يهدى إليهم من المديح .

وأنت إذا قرأت القسم الأول من ديوان المتنبى بعد خروجه من العراق رأيته ينقسم ثلاثة أقسام جغرافية ، إن صح هذا التعبير :

القسم الأول قيل فى الجزيرة وشمال الشام ، ومدح به جماعة من رؤساء البادية ، وأغنياء الحاضرة وأوساطها ، وأصحاب المناصب فيها . والقسم الثانى قيل فى اللاذقية وهو موقوف على التنوخيين الذين قد نطيل عنهم الحديث . والقسم الثالث قيل فى طرابلس. يحدثنا الشاعر نفسه بذلك ، وأنت تفهم من سياق شعره فى التنوخيين ، أنه قد غاب عن اللاذقية حيناً ، فأقام فى طبرية ثم عاد إليها. و إذن فيخيَّل إلىَّ أن المتنبي قد جاء سوريا من شمالها فأقام فى هذا الشمال دهراً ، ثم مضى فأقام فى طرابلس حيناً قصيرا ، ثم انحرف إلى اللاذقية فأطال فيها المقام شيئاً ، ثم انصرف عنها إلى طبرية فأقام قليلاً ، ثم عاد إلى اللاذقية فجدد العهد بها وتهيأ فيها لما كان يريد أن يُحدث

من خطب ، ثم تركها إلى البادية غير بعيد عن حمص ، فلم يكد يعلن الدعوة إلى الثورة حتى أُخذ ، وأُلقى فى السجن . ويجب أن يكون أخذه وإلقاؤه فى السجن فى سنة ثلاث أو أربع وعشرين وثلثمائة . فنحن نراه يمدح أحد التنوخيين ، ويبرئ نفسه إليه من تهمة رُمِى بها عنده ، وهى تهمة الهجاء له ؛ فيقول :

وما أرْبَتْ عَلَى العِشرِينَ سِنّى ۝ فَكيف مَلِلتُ من طُولِ البَقَاء

وأقل ما يفهم من هذا البيت أن الشاعر قاله سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وسترى أنه مدح التنوخيين قبل أن يُحدث الأمر الذى اضطره إلى السجن . وأظن أننا حين نستعين بهاتين الطريقتين نستطيع أن نوقت توقيتاً مقارباً تاريخ هذا القسم من شعر المتنبى ، وأن نمحو الغموض الذى أحيط به هذا القسم عمداً فى الديوان ، بما اصطنع فيه من تقديم وتأخير .

ومهما يكن من شىء فإنى أفترض أن المتنبى قد سلك هذه الطريق التى رسمتها مع قليل أو كثير من الانحراف لا يؤثر فى صورتها العامة تأثيراً ذا خطر . وإذن فسأسلك هذه الطريق نفسها فى درس شعره فى هذا الطور على النحو الآتى :

١ — شعره فى سوريا الشمالية .

٢ — شعره فى طرابلس .

٣ — شعره فى اللاذقية .

٤ — شعره حين كان يستعد للثورة فى البادية .

٥ — وأخيراً شعره فى السجن .

٧

و بين أيدينا فى الديوان — إن صح ما ذهبت إليه من الفرض ، وما عمدت إليه من الإحصاء — ست عشرة قصيدة ومقطوعة قالها المتنبى فى أول عهده بالشام ، حين كان فى الشمال متنقلاً بين أهل البادية وأهل الحضر .

وقد مدح بهذا الشعر أو بأكثره على الأقل جماعة من العرب ، ليس فيهم إلا مضرىٌّ واحد ، هو سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابىّ القيسى ، ومدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أحيـا وَأَيْسَرُ ما قاسَيتُ ما قتَلَا   والبَيْنُ جارٌ على ضَعْـفِى وما عَدَلا

ولبعض الـكلابيين من رهط هذا الرجل ، قال هاتين المقطوعتين فيما أُرجح ، وفيهما تلميح ظاهر إلى غرضه ، و إلى دعوته القرمطية :

إذا ما شَرِبْتَ الخمرَ صِرْفًا مهنّأً   شَرِبنا الذى من مثلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ
ألا حبّذا قومٌ نَدامَاهُمُ القنا   يُسَقُّونَهـا رِيًّا وساقيهمُ العَزْمُ

***

لِأحِبّتى أن يملئـوا   بالصـافياتِ الأكْوُبا
وعليهمُ أن يبـذُلوا   وعَلَىَّ ألاّ أشرَبا
حتى تكونَ الباترا   تُ المُسْمِعاتِ فأطْرَبا

وفيهم رجل واحد هو سيف الدولة ، مدحه فى هذا الطور بميميته التى يقول فى أولها:

ذِكَرُ الصبـا ومَرَابعُ الآرامِ   جَلَبَتْ حِمامِى قبلَ وقْتِ حِمامِى

وأما الآخرون فقحطانيون ، منهم الأزدى ، وهو أبو المنتصر شجاع الأزدى ، وقد مدحه بالقصيدة التى مطلعها :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

ومنهم جماعة من الطائيين ، هم عليّ بن أحمد الطائي ، ومدحه بالقصيدة التي أوّلها :

حُشاشةُ نفسٍ وَدَّعَتْ يومَ وَدَّعُوا فلم أدرِ أيَّ الظاعنِين أُشَيِّعُ

وشجاع بن محمد الطائي ، وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما قوله :

عزيزٌ أُسًى من داؤُهُ الحَدَقُ النُّجْلُ عَياءٌ به ماتَ المُحِبُّونَ من قبلُ

ومطلع الثانية قوله :

اليومَ عَهدُكُمُ فأينَ المَوعِدُ هيهاتَ ليسَ لِيَوْمِ عَهدِكُمُ غَدُ

وعبد الله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن البحترى الشاعر وقد مدحه بقصيدتين مطلع أولاهما :

بَكيتُ يا رَبْعُ حتى كِدتُ أُبكيكا وجُدتُ بي وبِدَمْعي في مَغانيكا

ومطلع الثانية :

أُريقُكِ أَمْ ماءُ الغمامةِ أم خَمرُ بِفِيَّ بَرُودٌ وهْوَ في كَبِدي جَمرُ

ومدح أخاه بالقصيدة التي يقول في أولها :

ما الشوقُ مُقتنِعاً مِنِّي بِذا الكَمَدِ حتَّى أكونَ بِلا قلبٍ ولا كَبِدِ

ونلاحظ أنه في هذه القصائد الثلاث لم يذكر البحترى الشاعر جدّ ممدوحيه ولم يشر إليه . ولعل هـذا يلائم ما كان معروفاً عن المتنبي من الإمعان في قراءة شعر المحدَثين وأدب البلغاء ، والادعاء مع ذلك أنه لا يقرؤهما ولا يحسن العلم بهما ، حتى افتضح في ذلك(١) .

ومدح غير هؤلاء محمد بن زريق ، وكان على بعض العمل في طرسوس بالقصيدة التي مطلعها :

هٰذِي بَرَزْتِ لنا فهِجتِ رَسيساً ثُمَّ انثَنَيتِ وما شفَيتِ نَسيساً

ولما أراد أن يرتحل من طرسوس استجداه بالأبيات التي أولها :

(١) الصبح المنبي ص ٧٩ ، ٨٠

مُحَمَّدُ بْنَ زُرَيْقٍ ما تَرَى أَحَدا إذا فَقَدْناكَ يُعطِى قبلَ أن يَعِدا

ومدح كذلك مساور بن محمد الرومى ، وكان حاجباً بقصيدتين يقول فى أولاهما :

جَلَلاً كما بِى فَلْيَكُ اُلتَبْرِيحُ أغِذَاء ذا الرشأ الأغَنّ الشِيحُ

ويقول فى الأخرى :

أَمُساوِرٌ أم قَرْنُ شمسٍ هـذا أم لَيْثُ غابٍ يَقدُمُ الأُستاذا

ومدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى بالقصيدة التى أولها :

صِـلَةُ الهَجرِ لى وهَجرُ الوِصالِ نَـكَسَانى فى السُقمِ نَـكْسَ الهِلالِ

وكل هؤلاء الناس كان مقيماً فى شمال سوريا حين مدحه المتنبى ؛ فمنهم من كان بأنطاكية ، ومنهم من كان بمنبج ، ومنهم من كان بطرسوس ، ولا يتعرض منزل واحد منهم للشك إلا أن يكون مساور بن محمد الرومى ، وأحسب المتنبي لقيه فى حلب أو قريباً منها .

ويرى الأستاذ بلاشير[1] والدكتور عبد الوهاب عزام[2] ، أنه لم يمدح مساوراً إلا فى وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ؛ والذالية تؤيد هذا الرأى ، ولـكنى مع ذلك أميل إلى ترجيح ما قدمته . ولعله مدحه مرتين : مدحه بالحائية فى طوره هذا ، و بالذالية بعد موت ابن رائق ، و إن كانت إغارة المصريين على الشام قد تكررت .

وأنت إذا قرأت هذا الشعر كله لم تشكّ فى أنه الشعر الذى يلى ما قدمنا الحديث عنه فى الفصول السابقة ، أي أنه الشعر الذى قيل فى آخر الصبا وأول الشباب ، وعند وصول المتنبى إلى شمال الشام .

(فيه كل الخصائص التى تثبت هذا إثباتاً قاطعاً ؛ فالآراء القرمطية ظاهرة فيه كما سترى ، إلا أن يتحفظ الشاعر ويحتاط . والمذهب الفنى الذى ابتدأ الفتى به شعره ظاهر فيه كل الظهور : تقليد للقدماء ، ولأبى تمام خاصة ، واعتماد ظاهر على الطباق والمبالغة ، يسرف فيهما إن استعصت عليه القريحة ، ويقتصد فيهما إن واتاه الطبع .

(١) R. Blachère: Abou t-Tayyib al-Motanabbi p. 109

(٢) ذكرى أبى الطيب للدكتور عزام ص ٥٨ .

ثم ظاهرة أخرى نجدها فى هذا العصر عند جماعة من الشعراء ولم يسلم منها المتنبى ، لا فى هذا الطور ولا فى بعض الأطوار الأخرى التى تليه ، وهى تكلف القوافى التى لا تخلو من عسر ، والتى لم يكن المطبوعون من الشعراء المتقدمين يتكلفونها ؛ فكافيته فى مدح البحترى ، وذاليته فى مدح مساور بن محمد الرومى تدلان على أن الفتى كان يأخذ نفسه بشىء من الشدة ليظهر شيئاً من البراعة فى اصطناع القوافى ، والقدرة على استذلالها .

ثم أنت حين تقرأ هذا الشعر تكاد تحس فى ألفاظه ، ومعانيه ، وأساليبه ، بنمو طبيعة الشاعر ، وتقدم ملكته الفنية نحو الرشد والنضج شيئاً فشيئاً . ولولا أنى أكره الإطالة والإملال فيما لا حاجة إلى الإطالة فيه والإملال به ، لاستقصيت هذا المقدار من شعر المتنبى ، ولدرسته قصيدة قصيدة ، ومقطوعة مقطوعة ، ولحاولت أن أستنبط من هذا الاستقصاء والدرس نمو الملكة الفنية عند هذا الشاعر الشاب ، ولكنى إن فعلت أثقلت عليك وعلى نفسى ، ولم أنته بك ولا بنفسى إلى غاية هذا الحديث . فخذ أنت هذا الشعر وقف عليه من وقتك أياماً ؛ فما أشك فى أنك ستصل إلى مالا أريد أنا أن أطيل فيه . ولكنى واقف معك عند بعض هذا الشعر ، فاجتهد فى أن تتذوقه لعلنا نتعرف أصول فن المتنبى فى شىء من التفصيل والوضوح ، ينفعنا حين نعبر هذا الطور من أطواره الفنيّة .

ولنأخذ لاميته التى مدح بها سعيد بن عبد الله ؛ فإنها خليقة ببعض التفكير ، لأنا نلتمس فيها صبا الشاعر وطفولته ، لا فى اللفظ وحده ، بل فى الشعور والتفكير أيضاً . فاقرأ معى هذا الغزل الذى قدّمه بين يديه :

أحيا وأيسَرُ ما قاسَيتُ ما قَتَلا والبَينُ جارَ على ضَعفى وما عدلا

فانظر إليه كيف أراد أن يعبر عن أنه يحتمل من البين مالا سبيل إلى الحياة معه ، فدار حول هذا المعنى ، ولم يستطع أن يؤديه إلا فى شىء من التكلف ، فاصطنع هذا الفعل فى أول البيت ، ثم أضاف إليه هذه الجملة الحالية ، ثم لم يستطع أن يؤدى هذه

الجملة الحالية نفسها دون شيء من المماطلة حين جمع بين هذين الموصولين في قوله :

أيسر ما قاسيت ما قتلا

ولعله أشفق من التنافر الذي يأتي من كثرة القافات ، فآثر هذا التعقيد اليسير . ثم انظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت :

والبين جار على ضعفي وما عدلا

فسترى فيه طباقاً ظاهراً يخلب بعض الشيء ، ولكنك ستحس أن الشطر كله لا حاجة إليه ، وأن القافية قد أُكرهت إكراهاً وعُتِلتْ إلى مكانها عتلاً ، وأن الشاعر قد استوفى معناه الأساسي في الشطر الأول ، ثم جاء بالشطر الثاني ليتم البيت . فإذا انتقلت إلى البيت الثاني :

والوَجْدُ يقْوَى كما تَقْوَى النَّوَى أبَدًا والصَّبْرُ يَنْحَلُ في جِسْمِي كما نَحَلاَ

أحسست في نفس الشاعر فرحاً بهذه الملاءمة التي اهتدى إليها بين قوة النوى وقوة الوجد في الشطر الأول ، و بين نحول الصبر ونحول الجسم في الشطر الثاني ، و بهذا الطباق البعيد بين قوة الوجد والنوى ، ونحول الصبر والجسم . ولكن انظر إلى قوله : «أبدا» ، فسترى أن هذه الكلمة إنما جاءت لتقيم وزن الشطر لا لشيء آخر؛ فإن لقوة النوى و إن كانت غريبة حدًّا يجب أن تنتهي إليه فتنتهي معها قوة الوجد . وانظر إلى الشطر الثاني كيف أعاد الضمير فيه على الصبر في شيء من التكلف لا يخفى . ثم انتقلْ إلى البيت الثالث :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ الأحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا المَنَايا إلى أرْوَاحِنَا سُبُلاَ

فسترى فيه مبالغة ظاهرها يخلب ، ولكن تحقيقها يدل على أن صاحبها صبي لم ينضج تفكيره بعد ، ذلك إلى رجع الضمير في «لها» على المنايا ، مع تقدم الضمير وتأخر المرجع في اللفظ . وأنا أعلم أن هذا ليس خطأ ، ولست أذكره لذلك ، و إنما أذكره لأضع يدك على الجهد الذي يبذله الصبي في إقامة شعره .

واقرأ البيت الرابع :

بما بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفاً   يَهْوَى الحَياةَ وأمّا إنْ صَدَدْتِ فَلَا

فستنكر منه هذا الاستحلاف الذى يفجؤك بهذه الباء تليها باء أخرى لا يفصل بينهما إلا هذا الموصول، وهو حاجز غير حصين، كما يقول النحاة . ثم أتم قراءة البيت فسترى فيه قصوراً في الأداء لم يستطع الشاعر أن يخلص منه، فاضطر إلى الحذف و إلى الإضمار ؛ فهو يريد أن يقول لصاحبته : صِلِي دنفا يهوى الحياة ما وصلتِه ، فأما إن صددت عنه فليس يهواها .

والمتنبي مضطر بحكم الجهد إلى مثل هذا التكلف ، ولكنه سيمضى فيه وسيستجيزه . ولعله كان يحس من الناس شيئاً من الإنكار فيأبى عليه عناده إلا أن يغيظ مخاصميه بالإلحاح فيما يكرهون، وما دام النحو يجيز له مثل هذا فليس عليه بأس من الإيغال فيه . وكذلك ينتقل المتنبي من التكلف إلى التعقيد ، ومن التعقيد الذى تفرضه الضرورة إلى التعقيد الذى يصبح مذهباً من مذاهب الشعر ، وفناً من فنون الأداء . مثل المتنبي في ذلك مثل الفرزدق الذى كان يرى المعاظلة وسيلة من وسائل الأداء الشعرى ، ويتعمد تجاوز المألوف ليغيظ خصومه من النحويين(١) .

ثم انظر إلى البيت الخامس :

إلاّ يَشِبْ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ   شَيْباً إذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا

فقد صرّف فيه الشيب تصريفاً يكاد يذكّر بتلاميذ المكاتب ، فجاء منه بالمضارع والماضى والمصدر ، ثم أسنده إلى الكبد . ثم لم يكفه ذلك حتى جعل السلوة خضاباً، وحتى جعل شيب هذه الكبد مستعصياً على هذا الخضاب .

أما البيت السادس فحلو مؤثر ، فيه حنين الفتى لا إلى صاحبته هذه ، بل إلى

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٧

وطنه ذلك الذى هجره ، والذى ما زال يتنسم ريحه ، ويمسك على نفسه عقله بما يحمل إليه هذا النسيم :

يُجَنُّ شَوْقًا فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً تَزُورُهُ فِي رِيَاحِ الشَّرْقِ ما عَقَلاَ

ولكن الشاعر لا يكاد يدع هذا البيت حتى يعود إلى التكلف والجهد. فاقرأ البيت السابع :

ها فانْظُرِى أَوْ فَظُنِّى بِي تَرَىْ حُرَقًا مَنْ لم يَذُقْ طَرَفًا منها فَقَدْ وَألا

فإنك واضع يدك على ما فى هذا البيت من المشقة والعسر : فهذه الهاء فى أول البيت ، وطلب الشاعر إلى صاحبته أن تنظر أو أن تظن به أى أن تتخيله ، ثم إنباؤه إياها بأنها إن نظرت أو ظنت به فسترى به حرقاً مهلكة . وانظر إليه كيف عبر عن هذه الحرق المهلكة بأن من لم يذق منها طرفاً فقد نجا . فما أظن أن التكلف ينتهى بشاعر إلى تقصير أشد من هذا التقصير .

ولكن شاعرنا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره ؛ فليس عليه من هذا الجهد بأس . وسترى إذا أمضيت فى قراءة الديوان أن النسيب ليس من الفنون التى يحبها المتنبى أو يحفل بها ، وإنما هو يتكلفه على غير طبعه احتفاظاً بالسنّة المألوفة عند الشعراء .

وانظر بعد هذا الغزل كيف تخلّص الشاعر إلى ممدوحه بهذا البيت الذى عابه عليه النقّاد ظالمين :

علّ الأَمِيرَ يرَى ذُلّي فيَشْفَعَ لِي إلى التى ترَكَتْنِي في الهوَى مَثَلا

فهم أنكروا على الفتى أن يجعل الأمير شفيعاً له عند صاحبته ، ولكنهم نسوا أن الفتى يمدح رجلاً بدوياً ، وأن السُّنّة كانت متصلة بأن قوماً أعظم خطراً من هذا البدوى قد شفعوا فى الحب للمحبين . أو لم تحفظ الأخبار أن الحسين بن علىّ شفع لقيس ابن ذريح عند أبى لبنى(١) ، وأن بعض عمال الأمويين شفع لقيس

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١١٣ (طبع بولاق)

بن الملوّح عند أبي ليلى[١]، وأن ابن أبي عتيق سفر بين عمر و بين الثريا[٢] ، فما يمنع المتنبي أن يشفّع هذا الأعرابي الكلابي عند التي تركته مثلاً في الهوى ؟

ليس على الشاعر بأس من هذا البيت ، وإنما البأس عليه من البيت الذي يليه والذي يمثل طفولة الشاعر وسذاجته حقًّا :

أيْقَنْتُ أنَّ سَعِيـــداً طالبٌ بِدمِي   لَمَّا بَصُرْتُ بهِ بالرُّمْحِ مُعْتَقِلا

فدع هاتين الباءين اللتين توشكان أن تلتقيا في الشطر الثاني لولا هذا الضمير الضعيف الذي يحول بينهما ما استطاع . وانظر إلى هذا التكلف الشنيع ، إلى هذا التكلف في المعنى لا في اللفظ : رأى الفتى ممدوحه وقد اعتقل الرمح ، فاستيقن أنه طالب بدمه . عند من ؟ عند صاحبته هذه التي تُمنِّيه وتُضنيه وتجعله مثلاً للعشاق المدنفين . ما أقسى قلب هذا الفتى الذي يحمد من أميره أن يهدد حبيبته بالرمح ! فلو أن الأمير طعنها بهذا الرمح فقتلها أكان يرضى عنه هذا الغلام ؟ أم هو يريد حبًّا بالإكراه ، ويرى أن صاحبته غرة مثله إذا رأت الرمح خافت وأسمحت بما كانت تبخل به . وما موقف الأمير بين هذين العاشقين ؟ قد كنا نحتمله شفيعاً ، فأما مخوِّفا ومكرها على الحب فلا . ولكن الفتى لم يرد شيئاً من هذا ، وإنما هو عبث شاعر واحتيال في الوصول إلى الممدوح مع شيء من الظرف والدعابة ، ما أرى إلا أنه وقع من نفس الممدوح الأعرابي موقعاً حسناً ، وإن لم يعجبنا نحن المتحضرين .

ويمضي الشاعر في مدح عادي لصاحبه ، قوامه المبالغة في وصف الكرم ، حتى يصل إلى هذا البيت الذي لا بأس بما فيه من الموسيقى ، وإن كانت المبالغة فيه شنيعة حقًّا :

تُرَابُهُ في كلابٍ كُحْلُ أعْيُنِهــا   وَسَيْفُهُ في جَنَابٍ يَسْبِقُ العَذَلاَ

---

(١) الأغاني جـ ١ ص ١٧٣ (طبع بولاق)
(٢) الأغاني جـ ١ ص ٢٦ » »

فانظر إلى الملاءمة الموسيقية بين تراب وكلاب وجناب ، وانظر إلى نظمه للمثل السائر فى غير تكلف ولا جهد . ولكن ما رأيك فى قوم يكتحلون بالتراب ؟!

وانظر إلى هذه الأبيات :

هُوَ الأميرُ الذى بادَتْ تميمُ به ... قِدْماً وسَاقَ إليها حَيْنُها الأجَلاَ
لَمَّا رَأَوْهُ وَخَيْلُ النَّصرِ مُقْبِلةٌ ... والحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أسلموا الحِلَلا
وضَاقَتِ الأرْضُ حتى كان هارِبُهُمْ ... إذا رأى غيرَ شيء ظَنَّهُ رَجُلا

فالبيت الأخير منها يذكِّرك من غير شك بقول جرير للأخطل :

ما زِلتَ تحسبُ كل شيء بَعْدَهُمْ ... خيلاً تَشُدُّ عليكُمُ وَرِجالا

واقرأ هذا البيت :

فَبَعْدَهُ وإلى ذَا اليومِ لَوْ رَكَضَتْ ... بالخيْلِ فى لَهَوَاتِ الطِّفل مَا سَعَلا

فما رأيك فى هذا الطفل الذى تركض فى لهواته تميم بخيلها فلا يأخذه السعال ؟ ما عسى أن يكون هذا الطفل ؟ وما عسى أن تكون تميم وخيل تميم ؟

وعلى هذا النحو من الكلام الذى تتكلف فيه المبالغة فى المعنى والملاءمة بين الألفاظ يمضى الشاعر حتى يتم قصيدته . ونحن لا نكاد نخرج من هذه القصيدة بشىء ذى غناء ، إلا أننا نرى هذا الفتى يكلِّف نفسه ألوان الجهد وفنون العناء ، مبتهجاً بذلك غير محزون له ولا مظهر به ضجراً ؛ لأنه يستقبل فنَّه وأمله بنشاط الفتوة وميعة الصبا ، وهذه الثقة التى لا يعرفها إلا الشباب .

ولم يصرِّح المتنبي فى هذه القصيدة بمذهبه القرمطى ، ولم يلمح له ، ولكنك رأيت أنه قد لَمَّحَ لأقارب الممدوح فى المقطوعتين السابقتين ، وليس من شك فى أنه أقام مع هؤلاء الكلابيين ما أقام ، وقال لهم ما قال دون أن يجد عندهم غناء .

(فلنقف لحظة قصيرة عند هذه القصيدة الأخرى ، التى مدح بها المتنبي أبا المنتصر شجاع بن أوس بن معن بن الرضا الأزدى" كما يقول الديوان، فسنرى أن القراءة الأولى لهذه القصيدة تخالف القصيدة الماضية خلافاً ظاهراً من وجوه :

ففى هذه القصيدة الثانية نحس للشاعر غناء صادقا ، يصور نفسه ويجلو عواطفه . وليس العشق فى هذا الغناء إلا رمزاً غامضاً لمعنى غامض ، هو الذى يتغنى الشاعر به دون أن يعرب عنه فى أول الأمر ، وإنما يتركه لك ، تفهم منه ما تشاء أو تفهم منه ما تستطيع . فإذا كنت ملمًّا بحياة الشاعر، ظاهراً على دخائله، مصاحباً له منذ نشأته الأولى ، شاهداً لما مازج صباه من حزن ، وما عرض له فى حياته من أسى وحسرة ، فأنت فاهم عنه ، محقق لما يتغنى به. وإن كنت غريباً عن الشاعر، تسمع له مصادفة، وتقرؤه على غير علم دقيق بحاله ، فأنت تراه شاعراً كغيره من الشعراء ، يعشق كما يعشقون ، فينسب كما ينسبون . ويكفى أن تقرأ الأبيات الأولى من هذه القصيدة لترى صحة ما أشير إليه :

أَرَقٌ على أَرَقٍ ومِثْلِيَ يأْرَقُ وَجَوًى يزيدُ وعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ
جُهْدُ الصَّبابةِ أنْ تكونَ كما أرَى عينٌ مُسَهَّدَةٌ وَقَلبٌ يَخفِقُ
ما لاحَ بَرْقٌ أوْ ترَنَّمَ طائرٌ إلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِى فؤادٌ شَيِّقُ

فالشاعر فى هذه الأبيات يتغنى كما ترى غناء غامضاً بعواطف مبهمة ، وإن ظهر منها أنها العشق ، ولكن هذا الغناء صادق اللهجة قوى النغمة ، يصدر عن قلب حزين وينتهى إلى القلوب فيثير فيها الحزن والأسى . فأرق الشاعر متصل يقفو بعضه أثر بعض، والشاعر يقرر ذلك ولا ينكره ؛ لأنه يرى أن مِثْلَه خليق أن يأرق . فأما عامة الناس فيفهمون من هذا الشطر الأول شدة العشق ، وحدة الحب ، ولوعة الهوى ، وأما العارفون بأمر المتنبى فيفهمون من هذا الشطر همّ الشاعر الذى يطيل ليله ويضاعف أرقه ، وأمل الشاعر الذى يملأ قلبه ، ويبعد عن متناوله . والشاعر محزون يزيد حزنه كلما مرت الساعات والأيام ، وقد ينتهى به هذا الحزن المتصل المتزايد إلى البكاء .

ثم انظر إلى البيت الثانى :

جُهْدُ الصَّبابةِ أن تكون كما أرَى عينٌ مُسَهَّدَة وقَلبٌ يَخفِقُ

فهل ترى غناء أصدق من هذا الغناء ، وأبلغ تأثيراً فى النفس ! ومع ذلك فليس فى البيت شيء جديد ، ولا معنى طريف ، ولكن صدق لهجة الشاعر ، والجمع بين تسهيد العين وخفقان القلب يشيع فى هذا البيت حزناً لا أدرى كيف أحققه ، ولكنى أعلم أنه شديد العدوى سريع الانتقال إلى سامعيه وقارئيه .

ثم انظر إلى هذا البيت الثالث :

ما لاحَ بَرْقٌ أو تَرَنَّم طائرٌ إلاّ انثَنَـيْتُ وَلِى فُؤادٌ شَيِّقُ

فسترى فيه مثل ما رأيت فى البيت السابق ، وستجد فيه حنين الشاعر إلى وطنه الذى لم تزل نفسه به متصلة لم تسل عنه بعدُ .

ثم اقرأ الأبيات الثلاثة التى تأتى بعد ذلك ، فسترى أن الشاعر قد أدرك نفسه فأخفى شخصه ، وتكلف ما يتكلف الشعراء من هذا النسيب المصنوع ؛ فظهر تكلفه فى لفظه وأسلوبه ومعناه ؛ فهو قد جرّب من نار الهوى ما تنطفىْ نار الغضا قبل أن ينطفىء ، وما تعجز نار الغضا عن إحراق ما يحرقه ؛ فالمعنى فى نفسه ليس شيئاً وليس أداؤه بخير منه :

جَرَّبْتُ من نَارِ الْهَوَى ما تَنْطَفِى نارُ الغَضَا وتَـكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

واقرأ البيت الذى يأتى بعد ذلك ، فسترى طفولة الشاعر قد عادت إلى الظهور ، وستحس رضا الصبى أو رضا الفتى عن هذا المعنى الذى يحسبه شيئاً ، وليس بشىء ، و إنما هو السخف الذى يخدع العامة ، وليس من ورائه طائل :

وعَذَلْتُ أهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَموتُ من لا يَعْشَقُ

يريد أن العشق وحده هو سبيل الموت ، وقد سبق المتنبى نفسه إلى هذا المعنى فى القصيدة التى حللناها آنفا حين قال :

لولا مُفارَقَةُ الأحبابِ ما وَجَدَتْ لها المَنايا إلى أرْواحِنا سُبُلاَ

ولما عرف الشاعر أنه قد كان مخطئاً فى لوم العشاق قبل أن يذوق العشق لم ير بدًّا

من أن يعذرهم ، ومن أن يعترف بأن ما يلقى من ألم العشق وجواه ليس إلا جزاء له على ما قدّم إلى العاشقين من ذنب :

وعَذَرْتُهُمْ وعرَفتُ ذَنْبي أنّنى   عيَّرْتُهُمْ فلقيتُ فيه ما لقوا

فالشاعر كما ترى ممعن فى تكلفه ، راض عن هذا التكلف، يحسب أنه قد استنبط معنى خطيراً ، فهو يتمه ويستوفيه . ولعلك أحسست كما أحسستُ أنا أن الشاعر قد آذى نفسك حين بدأ صادقا فأرضاك ، ثم انحدر إلى التكلف فأسخطك . ولكن الشاعر نفسه قد أحس هذا التكلف وهو ضيق به لا يطيق المضى فيه ، وهو محزون حقًّا ، ولا بدّ له من أن يعود إلى لهجته الأولى ، ومن أن يرسل نفسه على سجيتها ، ومن أن يتغنى حزنه العميق ، وهو فى هذا الغناء أوضح شيئاً منه فى الغناء الذى بدأ به القصيدة :

أبَنِى أبينا نحنُ أهلُ منازلٍ   أبدًا غُرابُ البَيْنِ فيها يَنْعَقُ
نَبكى على الدُّنيا ومَا مِنْ مَعْشَرٍ   جَمَعَتْهُمُ الدُّنيا فلَمْ يتفرّقوا
أينَ الأكاسِرَةُ الجَبابِرَةُ الأُلَى   كَنَزُوا الكُنُوزَ فما بَقِينَ ولا بَقُوا
مِنْ كلِّ من ضاقَ الفَضَاءُ بجيْشِهِ   حتى ثوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إذَا نُودُوا كأن لمْ يَعْلَمُوا   أنّ الكلامَ لهَمْ حَلالٌ مُطْلَقُ
فالموتُ آتٍ والنُّفُوسُ نَفَائِسٌ   والمُستغِرُّ بما لَدَيهِ الأحمَقُ
والمَرْءُ يأْمُلُ والحَياةُ شَهِيّةٌ   والشَّيْبُ أوْقَرُ والشَّبيبَةُ أنزَقُ
ولَقدْ بكيْتُ عَلَى الشّبابِ ولِمَّتِي   مُسْوَدَّةٌ ولِماءِ وجهِي رَوْنَقُ
حَذَرًا عليه قبلَ يوْمِ فِراقِهِ   حتى لَكِدْتُ بماءِ جَفْنِى أشرَقُ

اقرأ هذه الأبيات ! أرأيت ما فيها من الحزن ؟ ألحظت البيت الأول منها كيف يمثّل اطمئنان الشاعر إلى هؤلاء الذين يتحدث إليهم لأنهم بنو أبيه ليسوا مضريين

ولا عجبا ؟ أرأيت أنه يسجل أن القحطانية أهل منازل ينعبُ فيها غراب البين أبدا ، فالهجرة من طبعهم ، والغربة مفروضة عليهم ؟

ثم أرأيت كيف مضى الشاعر فى هذه الشكوى مغلسا فى سذاجة توشك أن تكون عامية ، بل هى أشبه بالوعظ منها بالفلسفة ؟ ولكن الذى ينبغى أن نفكر فيه هو أن هذه الفلسفة الساذجة أصل لهذه الشجرة التى ستنمو وتمتد أغصانها حتى تملأ شعر المتنبي مواعظ وحكماً وأمثالاً .

والذى ينبغى أن نفكر فيه أيضاً هو أننا نكاد نحس فى هذه الأبيات بدء التفكير الفلسفى الحزين عند هذا الفتى ، وأن هذا التفكير الفلسفى إنما يأتى من رجوع الفتى إلى نفسه أولاً وإلى قومه ثانياً . فهو يرى نفسه غريباً مشرداً ، سيئ الحال ، وهو يرى قومه بعد ذلك غرباء مشردين ، قد تسلط عليهم من كان ينبغى أن يتسلطوا هم عليه ، واستأثر بالأمر دونهم من كان ينبغى ألا يكون له من الأمر شىء . والطباق كما ترى فى هذه الأبيات ، هو القوام الفنىّ لشعر الشاعر لا يعدل عنه ، ولا يكاد يعدل به أداة فنية أخرى .

وانظر إلى آخر هذه الأبيات ، وإلى بكاء الشاعر على الشباب ، وهو فى ريعان الشباب ، وإلى تعليل الشاعر لبكائه هذا على شباب لم يفارقه ، بل لم يكد يستقبله ، بالخوف من مفارقته التى ليس منها بدٌّ .

وأكبر ظنى أن الشاعر يتكلف التعليل هنا ، كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين ، واعتذاره بعد ذلك عنهم . ولكنه هنا ليس فاحش التكلف ، ولعله هو لا يعرف لماذا يبكى الشباب ، ولا يرى أنه إنما يبكى الشباب لأنه فى حاجة إلى البكاء ليس غير ، كما هو يشكو العشق لأنه فى حاجة إلى الشكوى ليس غير . ولعل من أوضح الأدلة على صدق الشاعر فى هذه القصيدة أو فى القسم الأول منها أنه قد نسى أو كاد ينسى ممدوحه ، واندفع فى تفكيره وحزنه وغنائه لهذا التفكير والحزن ، حتى إذا قضى من ذلك أربه أو كاد ، ذكر أنه ينشئ قصيدة فى المدح والثناء ، لا فى الحزن

والغناء ، فاقتضب التفكير والتعبير اقتضابا ، ولم يلتمس تخلصاً إلى المدح ؛ لأنه ليس فارغ البال للتكلف والاحتيال ، فلجأ إلى «أمّا» وقال :

أمّا بنُو أوْسِ بنِ مَعْنِ بنِ الرضا   فأعَزُّ من تحْدَى إليه الأيْنُقُ

ويمضى الشاعر فى مدحه لبنى أوس هؤلاء مُبالغاً كدأبه ، مردداً ما قال الناس فى المدح ، ثم يخلص إلى محمد ممدوحه فيصفه بما لا يغنى . ولكنى أحب أن تقف عند هذا البيت :

لم يخلُقِ الرّحمنُ مِثلَ مُحَمّدٍ   أحَـدًا وظنّي أنه لا يَخلُقُ

لترى ما فيه من المبالغة الفاحشة التى لا تصدر عن الفن الخالص أكثر مما تصدر عن فساد الرأى الدينى عند الفتى ، وتأثره بهذه القرمطية التى تبيح للناس، أو لبعض الناس على الأقل، من الرأى والقول والعمل ما لم يكن يستباح .

فنحن بإزاء قصيدة لها خطرها فى تصوير نفس المتنبي حين كان يودع الصبا ويستقبل الشباب : هى نفس حزينة معنّاة مؤرقة ؛ لأن لها همًّا بعيداً ، ولأنها قد أخذت تفكر فى الناس وفى نفسها ، وتستنبط من هذا التفكير أموراً لا تسر ولا ترضى. وما زال الفتى قرمطيا ماضيا فى قرمطيته . وما زال الفتى معتمداً فى فنه على المبالغة والطباق .

فلندع هذه القصيدة ، ولننتقل إلى قصيدة أخرى يظهر أنها قيلت بعد هـذه القصيدة بزمن مّا ، ولكنها قيلت حين كان المتنبي متنقلاً فى شمال الشام ، وهى هذه السينية التى مدح بها الشاعر محمد بن زريق الطرسوسى، والتى بذل فيها الفتى كثيراً من الجهد وقال فيها كثيراً من الخطل ؛ فلم ينل عليها — فيما يقول ياقوت —(١) إلا عشرة دراهم . ثم شفع له شافع فنال عشرة دراهم أخرى . وما أرى إلا أنه قد زاد فى الشعر حين زيد فى العطاء ، فقال الأبيات الدالية التى نجدها فى الديوان والتى يمدح فيها ابن زريق أيضاً .

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٠٤

فاقرأ هـذه الأبيات التى قدمها الشاعر بين يدى المدح لترى التكلف فى أبشع صوره ، والتعمُّـل فى أشنع مظاهره ، ولترى كيف ينتهى الشاعر الفتى أحياناً من السخف إلى ما لا يطاق :

هذِى بَرَزْتِ لنا فهِجتِ رَسِيسا ثمَّ انثنَيْتِ وما شَفَيتِ نَسِيسا
وجَعَلْتِ حَظِّى منكِ حَظِّى فى الكَرَى وتَرَكْتِنِى للفرْقَدَيْنِ جَلِيسا
قَطَّعتِ ذَيَّالكِ الخُمارَ بِسَكْرَةٍ وأدَرتِ من خَمْرِ الفِرَاقِ كُؤُوسا

فالـكلام إلى هنا فارغ ، ولـكنه محتمل آخر الأمر . فإذا أردت سخف الأطفال ، فانظر إلى قوله :

إنْ كُنتِ ظاعِنةً فإنَّ مَدامعى تَكْفِى مَزَادَكُمُ وتُروِى العِيسا

أترى إلى هذه الدموع التى يسفحها المتنبى ، فإذا هى من الغزارة بحيث يستطيع القوم أن يأخذوا منها ما يملأ مزادهم ليشربوا أثناء السفر ، وما يكفى لرى الإبل أثناء السفر أيضاً .

ولكن المتنبى لم يسأل نفسه أتصلح دموعه لشرب صاحبته الحسناء ؟ أهى من العذوبة بحيث تلائم هذا الجسم الغضّ البضّ ، وتبعث فيه الجمال والحياة ؟ على أن ظن المتنبى بصاحبته ليس حسناً . فانظر إلى قوله :

حاشَى لِمِثلِكِ أن تكُونَ بَخِيلَةً ولِمثل وَجهِك أن يكون عَبُوسا
ولِمثْـلِ وَصْلِكِ أن يكونَ مُمنَّعاً ولِمثل نَيْلِكِ أن يكونَ خَسِيسا

ولست أدرى بأى امرأة أراد المتنبى أن يشبِّب فى هذين البيتين ، وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء ؛ فالمرأة التى ترتفع عن البخل ، ويرتفع وصلها عن التمنع ، ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها . ولـكن المتنبى لا يقف عند مثل هذا التفكير ، بل لا يكره أن ينقض هذين البيتين ، فيصف صاحبته بالدل الذى يمنعها من أن تتكلم ، والخفَر الذى يمنعها أن تميس ، فيقول :

خَوْدٌ جَنَتْ بَيْنِى وبَيْنَ عَوَاذِلى حَرْباً وغَادَرَتِ الفؤَادَ وَطِيسا

بَيضاء يَمنَعُها تَكلَّمَ دَلُّها تِيهاً ويمنَعُها الحياءُ تميسا

فهى أرفع من البخل ، ووصلها أرفع من الامتناع ، ولكنها مع ذلك من الدل والتيه ، ومن الخفر والحياء ، بحيث لاتستطيع أن تتكلم ، ولا أن تميس ؛ فهى بخيلة كريمة ، وهى ممنعة مبتذلة ، وهى حيية وقحة . وقد وجد الشاعر عندها آخر الأمر دواءه من كل داء ، فأعرض عن الأطباء ، وهانت عليه صفات زعيمهم العظيم :

لمَّا وَجَدتُ دَوَاءَ دَائِى عِندَها هانَتْ علىَّ صِفاتُ جالِينوسا

ويظهر أن هذه الفتاة التى لا يكره المتنبي أن يرويها بدموعه، والتى جمعت النقائض من صفات النساء ، قد شغلت فتانا حقًّا ، فأنسته التخلص إلى الممدوح ، وإذا هو يقتضب الكلام اقتضاباً ، ويهجم على ممدوحه هجوماً لا رفق فيه ولا ظرف ، فيقول :

أبقى زُرَيقُ للثُغُورِ مُحَمَّداً أبقى نفيسٌ للنَّفِيس نفيسا

فانظر إلى هذه النفنفة ، أو إلى هذه السفسفة ، أو إلى هذه النسنسة التى تأتى من تكرار النفيس ثلاث مرات فى شطر واحد ، واعذر محمد بن زريق إذا ضاق بصاحبه المتنبي أولاً ، وبهذا التكرار ثانيا ، وبما سيأتى من السخف ثالثا ؛ فلم يعط الفتى إلا عشرة دراهم، ولم يزده إلا بعد أن شفع إليه الشافعون وزاد المتنبي فى المدح .

ولكن المهم من هذه القصيدة هى هذه الأبيات التى تظهر المبالغة القرمطية فيها أبشع مظهر ، لا من الناحية الدينية وحدها ، بل من الناحية الفنية أيضاً .

فالمبالغة حسنة فى الشعر بشرط أن تكون معقولة يسيغها الذوق . فإذا تجاوزت هذا الحد كانت سخفاً أو هجاء ، وكان من حق الممدوح أن يظن أن مادحه يسخر منه ويستهزئ به . ولكن محمد بن زريق كان لحسن حظ المتنبي أجهل من هذا كله فيما يقول الرواة .

بَشَرٌ تَصَوَّرَ غايةً فى آيَةٍ تَنْفِى الظُّنونَ وتُفسِدُ التَّقْيِيسا

وبه يُضَنُّ عَلَى البَرِيَّةِ لا بها وعليهِ منها لا عليها يُوسَى

لو كانَ ذو القَرْنَيْنِ أعمَلَ رأْيَهُ لَمَّا أتَى الظُّلُماتِ صِرْنَ شُمُوسا

أو كانَ صادَفَ رأسَ عازَرَ سيفُهُ في يومِ مَعركةٍ لأعْيَا عيسَى
أو كانَ لُجُّ البَحر مِثْلَ يَمينه ما انشَقَّ حَتَّى جازَ فيهِ موسى
أو كانَ للنيران ضَوءُ جَبينهِ عُبِدَتْ فكان العالَمُونَ مَجوسا

وما أظن هذه الأبيات تحتاج إلى شرح أو تعليق لنستخرج منها إغراق المتنبي فى المبالغة و إسرافه فى تجاوز الحدود الدينية الذى جاءه من قرمطيته . وأحسبه حين مدح ابن زريق قد ظن أنه كان يمدح أبا الفضل الكوفى ، ذلك الذى جعله فى صباه إلـهاً يجلّ عن أن يرى فى يقظة أو منام .

ويظهر أن آخر شعر المتنبي فى شمال الشام ، أو من آخره على أقل تقدير ، قصيدته الميمية التى مدح بها سيف الدولة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة حين أوقع بعمرو ابن حابس و بنى ضبة فى رأس العين كما يقول الديوان . و بعض الناس يفترض أن المتنبي قد ذهب إلى أوساط الشام ثم عاد إلى شمالها قبل الكارثة ، وفى زيارته الثانية للشمال قال هذه القصيدة . وليس فى الديوان ولا فيما بين أيدينا من أقوال الرواة ما يدل على أن الفتى بعد أن فارق شمال الشام عاد إليه قبل خروجه من السجن .

وأنا أعتقد أنه قال هذه القصيدة فى زيارته الأولى للشمال السورى . ولعله لما لم يستطع أن ينشدها للأمير الفتى ولم يظفر عليها بجائزة استيأس من الشمال حقا ، وكان هذا اليأس باعثاً له على الإيغال فى الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الإخشيديين . وكان سيف الدولة فى مثل سن المتنبي وُلد فى السنة التى ولد فيها الشاعر ، وكان قد أظهر نجابة ونباهة شأن ، وأبلى فى هذه الموقعة بلاء حسناً ، فلا يبعد أن يكون المتنبي قد طمع فى أن يجد من التقرب إليه والاتصال به ما يرفع شأنه ويقرّبه من أمله البعيد . فلما لم يظفر من ذلك بما كان يرجو استبدل أرضاً بأرض ، وقوماً بقوم .

وكان المتنبي فى التاسعة عشرة من عمره حين قال هذه القصيدة . وقد قدمت لك

أنه ينبئنا بأنه مدح الحسين بن إسحاق التنوخى ولم تجاوز سنه العشرين . و إذن فقد كان فى اللاذقية فى أواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وأثناء سنة اثنتين وعشرين ، ثم غاب عنها ، ثم رجع إليها فى هذه السنة نفسها أو فى أوائل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وهى السنة التى نكب فيها واضطر إلى السجن فيما نرى .

وليس فى قصيدته لسيف الدولة شىء يستحق العناية إلا هذا البيت الذى يدل على أن الفتى كان فى هذه القصيدة كما كان فى غيرها شديد التهاون فى دينه ، يتحدث عنه فى غير عناية ولا حرج :

إنْ كانَ مِثْلُكَ كانَ أو هُوَ كائنٌ فبرِئتُ حِينئذٍ مِنَ الإسلامِ

٨

ويجب أن نمر مرًّا سريعا بمقطوعات ثلاث قالها المتنبي فى طرابلس بعد أن فارق شمال الشام . وليس من اليسير أن نعلم أقالها قبل أن يزور اللاذقية ويقيم بها ، أم قالها بعد ذلك . وأكاد أرجح أنه استقر فى اللاذقية أول الأمر ، وأطال الإقامة فيها لما وجد من بر التنوخيين به وإصفائهم له بالمعروف ، ولهذه المودة التى نشأت بينه وبينهم ، فحملته على أن يكثر فيهم ما قال من الشعر ، ولعلها بعثت فى نفسه آمالاً إن لم يصرح بها ، فقد أشار إليها كما سترى . ثم من اللاذقية أخذ ينتقل فى مدن الشام وبيئاتها المختلفة يمينا وشمالا ؛ فزار حمص وبعلبك وطرابلس ، ولعله زار دمشق ، وانتهى بعد ذلك إلى طبرية فأقام فيها حينا ، ثم لم يرض عن أهلها فعاد إلى اللاذقية وإلى أصدقائه التنوخيين .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن المتنبي حين ترك شمال الشام طرق أرضاً جديدة ، فيها سلطان سياسى جديد لم يعرفه ولم يخضع له من قبل . فقد خضع فى العراق للسلطان العباسى ، وخضع فى شمال الشام لسلطان مضطرب بين العباسيين والإخشيديين الذين كانوا يغيرون عليه من حين إلى حين ، ومضطرب كذلك لهذه الغارات التى كانت متصلة بين المسلمين والروم على الحدود ، ثم مضطرب آخر الأمر لهذا الطموح الذى كان يملأ نفوس الأمراء المتفرقين فى بادية سوريا الشمالية وحاضرتها ، والذين كانوا بحكم هذا الطموح ينزعون إلى السيادة والملك ، ويترددون بين السلطان العراقى والمصرى ملائمين بين منافعهم العاجلة المؤقتة وظروف إقليمهم المختلطة المضطربة .

ولم يجد المتنبي لنفسه أملاً ولا مطمعاً فى هذا الإقليم المضطرب الذى اشتدت به عناية السلطانين اللذين كانا يتنازعان القوة فى ذلك الوقت : سلطان بغداد ، وسلطان

الفسطاط ، والذى كانت تشغله غارات الروم ، والذى استيقظت فيه الأثرة الفردية والمنافسات بين القبائل البادية من العدنانية والقحطانية . فترك هذا الإقليم وأبعد فى السفر حتى انتهى إلى ملك الإخشيديين فأقام فيه ما أقام ، ثم انتهى إلى الكارثة .

والحق أن هذا الشعر القليل الذى قاله فى طرابلس ليس خليقاً بشىء من العناية ، لولا أمران اثنان : أحدهما أنه يدلنا على أن المتنبى كان فى طرابلس هادئاً مطمئن النفس ، فارغاً لصغائر الأمور التى لا يفرغ لها الإنسان ، إلا حين ترفّه الظروف عليه بعض الشىء . وكأن شهرة المتنبى كانت قد بدأت تظهر وتشيع ؛ فهو لا يأتى طرابلس كاسباً ملتمساً للرزق فيما يظهر ، وإنما يأتيها زائراً ، ويلقى من بعض أهلها ضيافة لا تخلو من عناية وبر وترف .

والأمر الآخر : أنا لا نجد المتنبى فى هذا الشعر الذى قاله فى طرابلس فارغاً لصغائر الأمور فحسب ، بل لصغائر الفن وسخفه أيضاً ، ولهذه التكاليف التى يخاطر بها الشعراء من أصحاب البديع ، ليظهروا براعتهم اللفظية ومهارتهم فى النظم .

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين اللذين يتكلف فيهما المتنبى ويكلّف سامعه وقارئه شططاً ؛ لأنه لا يزيد فيهما على نظم الألفاظ ، كما سيغلو فى نظم الأفعال بين يدى سيف الدولة بعد ذلك بزمن طويل :

دانٍ بَعيدٍ مُحِبٍّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ ... أغرَّ حُلوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ
نَدٍ أبِيٍّ غَرٍ وافٍ أخِي ثِقَةٍ ... جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

والظاهر هو أن أبا الطيب لما بلغ طرابلس مدح صاحبه عبيد الله بن خلكان هذا بهذه السينية التى لا تغنى شيئاً . وكأن الرجل أعجب بها فأحسن ضيافة الشاعر ، وأهدى إليه طرفتين من هذه الطرف التى يظهر أن السوريين يحسنون اصطناعها وإهداءها من قديم .

الأولى : هدية ، كما يقول الديوان ، فيها سمك من سكر ولوز فى عسل ، والأخرى : جامة فيها حلوى .

فأما الهدية الأولى فقد سحرت المتنبي وبهرته ، وإذا هو يتغنى بمدح صاحبه ويقدمه على حاتم الطائى ، ويجعله مثلا حيًّا للكرم والجود، ويقول فى وصف هذه الهدية هذا البيت الذى ما أشك فى أنه أرضى المتنبي ، وفتن عبيد الله بن خلكان :

أَقَلُّ ما فى أقلِّها سَمَكٌ يَسْبَحُ فى بِرْكةٍ من العَسَلِ

وأما الأُخرى فلم تكن أقل إرضاء للمتنبي من الأولى . ويظهر أن الفتى الكوفى كان « حلويا يحب الحلوى » فقد رد الجامة إلى صاحبها بعد أن كتب عليها بالزعفران هذه الأبيات :

أقصِرْ فلَسْتَ بزائِدِى وُدًّا بَلغَ المَدَى وتَجاوَزَ الحَدَّا
أرْسَلْتَها مملوءةً كَرَمًا فرَدَدْتُها مملوءةً حَمْدا
جاءتْكَ تَطفَحُ وَهىَ فارِغةٌ مَثْنَى بهِ وَتَظُنُّها فَرْدا
تأبَى خَلائقُكَ التى شَرُفَتْ ألاَّ تَحِنَّ وتَذْكُرَ العَهْدا
لو كُنتَ عَصْرًا مُنْبِتًا زَهَرًا كنْتَ الرَّبيعَ وكانَتِ الوَرْدا

فالشاعر كما ترى مطابق مبالغ حتى فى وصف السكر واللوز والعسل ، وفى الشكر على علبة حلوى . ومن حق المتنبي أن يستريح وأن يلهو بالصغائر ، ويرفِّه بها على نفسه من هذه الهموم الثقال التى يطوف بها فى الآفاق ، ويفكر فيها آناء الليل وأطراف النهار . ولكن راحة المتنبي وفراغه ، ودعابة المتنبي ومجونه ، كل ذلك لا يخلو من السخف وثقل الروح ، كما سترى فى غير هذا الموضع من الحديث . فلم يكن المتنبي حلو الروح ، ولا خفيف الظل ، ولا جذابا ، وإنما كان مرًّا غليظ الذوق فى أوقات الدعة والفراغ .

فلندعه غارقاً فى بركته العسلية ، أو عاطفاً عليها يصطاد سمك السكر واللوز ، ولنذهب إلى اللاذقية ، لننظر فى شيء من هذا الشعر الكثير الذى قاله هناك للتنوخيين .

٩

وشعر المتنبي فى التنوخيين كثير ، يعظم حظه من الجودة ، وينتهى أحيانا إلى الروعة ، وفيه البشائر بنضج الشاعر ، والطلائع المنبئة بنبوغه ، وفيه على ذلك ما يدل على أن حياته مع التنوخيين قد أثارت فى نفسه آمالا وأمانى ، وخيلت إليه أنه قريب من غايته ؛ وكانت حياة راضية على كل حال .

وقد ذكر فى شعره ثلاثة من التنوخيين :

فأما أولها وهو محمد بن إسحاق التنوخى فلم يذكره إلا راثياً له باكياً أو متباكياً ومبكياً عليه ، كأنه لم يعرفه ، ولم تتصل المودة بينه و بينه ، و إنما مات قبل أن تطول إقامة المتنبي فى اللاذقية . وقد رثاه بالرائية التى مطلعها :

إنِّى لأعْلَمُ واللبيبُ خَبيرُ أنَّ الحَياةَ وإن حَرَصتُ غُرُورُ

وهى قصيدة عادية لا خطر لها ولا غناء فيها ، ولكنها أرضت أهل الميت ، فاستزادوه فزادهم على الوزن والقافية هذه الأبيات التى يقول فى أولها :

غاضت أناملُهُ وهُنَّ بُحُورُ وخَبَتْ مَكائِدُهُ وهُنَّ سَعِيرُ

وكأن أسرة أخرى كانت تنافس التنوخيين فى اللاذقية ، فأشاعت أن أبناء عم الميت لم يحزنوا عليه وأنهم قد شمتوا بموته ، فلجئوا إلى أبى الطيب يسألونه أن ينفى عنهم هذه الشماتة ، فقال على الوزن والقافية الأبيات التى أولها :

أَلِآلِ إبراهيمَ بعــــدَ مُحَمَّدٍ إلاَّ حَنِينٌ دائِمٌ وزَفِـــيرُ

وقد استزادوه فى هذا المعنى كما استزادوه فى الرثاء . وكأنه قد استنفد جهده فى هذا الوزن وهذه القافية ، فعدل إلى وزن آخر وقافية أخرى ، وقال هذه الأبيات التى لا أقف منها إلا عند هذا البيت :

أَلَيسَ عَجِيباً أَنَّ بين بَنِى أبٍ   لِنَجْلِ يهودىٍّ تَدِبُّ العَقارِبُ

وإنما أقف عند هذا البيت لأضع بإزائه بيتاً آخر قاله فى قصيدته التى استعطف بها والى حمص بعد أن سجن ، وهو قوله :

فلا تَسمَعَنَّ مِنَ الكاشِحِينَ   ولا تَعبَأَنَّ بِمَحْكِ اليَهُودِ

فهل أشار المتنبي إلى رجل واحد فى هذين البيتين ؟ ومن عسى أن يكون هذا اليهودى ؟ وهل لصلة المتنبى بالتنوخيين الذين كان ينافسهم هذا اليهودى أثر فى السعاية به حتى أُلقى فى السجن ، أو أثر فى النكاية به حتى طالت إقامته فى السجن ؟ وما بال المتنبي بعد أن خرج من سجنه لم يعد إلى أصدقائه التنوخيين ، ولم يذكرهم فى شعره ؟ وهل بين هذا اليهودى الذى يذكره المتنبي فى هذين البيتين ، واليهودى الذى كان يحكم دمشق حين لجأ إليها المتنبى بعد أن فارق سيف الدولة صلة ؟ أم هل هو رجل واحد ؟

كل هذه مسائل خليقة بالتفكير والعناية ، لولا أن النصوص التى بين أيدينا لا تعيننا على أن نجد لها جوابا مقنعاً . فلنحتفظ بها ؛ فقد تنفعنا بعد حين .

وقد مدح المتنبي رجلين من التنوخيين : أحدهما الحسين بن إسحاق التنوخى ، ومدحه بقصائد ثلاث مطلع أولاها قوله :

هوَ البَينُ حتى ما تأَنَّى الحَزائِقُ   ويا قَلبُ حتى أنتَ مِمَّن أُفارِقُ

ومطلع الثانية :

أَتُنكِرُ يا بنَ إسحاق إخائى   وتَحسبُ ماء غيرى من إنائى

وهى التى ذكر فيها سنّه ، وكأنه أرسلها إلى ممدوحه من بعيد . وأقل ما تصور هذه القصيدة أن أمر الشاب قد عظم فأصبح له حساد ومنافسون ، وأن الشاعر قد وثق بنفسه واطمأن إلى فحولته . ومطلع الثالثة قوله :

مَلامُ النَوَى فى ظُلمِها غايةُ الظُلْمِ   لَعلَّ بها مثلَ الذى بى من السُقْمِ

ومدح عليّ بن إبراهيم بن إسحاق التنوخي بثلاث قصائد أيضاً، يقول في أولاها :

أُحادٌ أم سُداسٌ في أُحادِ لُيَيْلَتُنا المَنُوطةُ بالتنادي

ويقول في الثانية :

مُلِثَّ القَطْرِ أعْطِشْها رُبوعا وإلاّ فاُسْقِها السُّمَّ النقيعا

ويقول في الثالثة :

أحَقٌّ عافٍ بدَمعِكَ الهِمَمُ أحْدَثُ شيءٍ عَهداً بها القِدَمُ

وقد قال هذه القصيدة بعد عودته من طبرية ، وكأن مودة خاصة كانت تجمع بينه و بين ممدوحه هذا ؛ فقد كانت بينهما منادمة يصورها الشاعر في مقطوعتين لم نحفل بهما لقلة خطرهما .

ولا بد من الوقوف عند بعض هذا الشعر لنتبين مقدار نضج الشاعر في فنه من جهة ، ومقدار دنوه من الثورة والانفجار من جهة أخرى .

ولندع شعره في الحسين بن إسحاق التنوخي، لا لأنه أهون من أن نقف عنده ، ولا لأنه يشبه ما قال المتنبي من الشعر قبل وصوله إلى اللاذقية ، فإن مدحه للحسين ابن إسحاق يمتاز بأشياء ، يخيل إليّ أنها طريفة مستحدثة ، و إن كنا نلمح أصولها في الشعر السابق ، ولكنها في هذا الشعر كثيرة شائقة توشك أن تكون القوام الفني له ؛ وهذه الخصال هي جزالة اللفظ ورصانته ، وصحة المعنى واستقامته ، واعتدال الأسلوب وحسن انسجامه ، إلا أبياتاً يضطرب فيها الشاعر هنا وهناك في اللفظ وحده أو في المعنى وحده ، أو في اللفظ والمعنى جميعاً . وأنت واجد لذلك نماذج في ميميته التي يمدح بها الحسين ، ولا سيما القسم الأخير منها . وأنت واجد في هذا الشعر كله إيثاراً ظاهراً للغة البادية ، واختياراً ظاهراً للألفاظ الضخمة التي تملأ الفم والأذن جميعاً ، ولا سيما في القافية التي يمدح بها الحسين .

وأنا مع ذلك أدع هذه القصائد الثلاث : لأني أكاد أعتقد أن المتنبي كان أشد

ميلا إلى علىّ بن إبراهيم وأصدق له حبًّا وأعظم به ثقة ، وهو من أجل ذلك صادق اللهجة حين يتحدث إليه ، لا يكاد يخفى عليه ميوله وأهواءه ، وكأنه كان ينتظر منه معونة وإمداداً. ومهما يكن من شىء فلست أستبعد أن يكون هؤلاء التنوخيون، وعلىٌّ منهم خاصة، قد شجعوا المتنبى سرًّا على ما كان يحاول من الوثوب . وآية ذلك عندى أنه لم يعد إليهم بعد النكبة ، ولم يذكرهم فى شعره ، إما إشفاقاً عليهم ، وإما لأنهم هم أنفسهم قد أشفقوا منه وخافوه .

واقرأ معى داليته التى يمدح بها علىّ بن الحسين ، ولا تطل الوقوف عند مطلعها الغامض البغيض الذى أنكره القدماء ورأوا فيه إلغازاً وخطأً فى الحساب وبعداً عن الشعر(١) .

أُحادٌ أم سُداسٌ فى أُحادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطةُ بالتَنادِى(٢)

لا تقف عند هذا البيت السخيف الذى تجد مثله كثيراً فى أجمل شعر المتنبى وأروعه ، بل تجاوزه إلى ما قاله الشاعر بعده ، فسترى أنك لا تقرأ لفتى ناشئٍ يعالج الفن على غير علم به ولا قدرة عليه ، وإنما أنت بإزاء شاعر ناضج قد تمت له أداة الشعر واستكمل حظه من القدرة على تصريف المعانى والألفاظ . وأنت كذلك بإزاء شاعر قد نفد صبره أو كاد ، قد سئم السكون ورغب فى الحركة ، وقد ضاق بالهدوء وتحرّق إلى الثورة ، وقد عجز حتى عن أن يخفى سره ، فهو يبادى الناس به فى غير تحفظ ، ولا تحرج ، ولا حذر :

كأنّ بناتِ نعشٍ فى دُجاها خَرائدُ سافراتٌ فى حِدادِ

فما رأيك فى هذا التشبيه الرائع البديع الذى يخلبك بلفظه ومعناه ؟ ولكن الشاعر

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٧٨ (طبع العرفان بصيدا) ، ويتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ١٢٤ (طبع اسماعيل الصاوى)

(٢) انظر : Massignon Mutanabbi devant le siècle Ismaelien de l'Islam فى Mémoires de l'Institut Francais de Damas Bey Beyrouth 1936.
فإنه يفسر هذا البيت بالبيت الذى يليه ويجعل العدد رمز لبنات نعش، وهو رأى أقل مايوصف به أنه طريف .

ليس فارغ البال ليصف رهبة الليل، وجمال النجوم، و إنما هو مثقل بهمومه، مُعْجَل عن التفكير فى جمال الطبيعة ، وعن تصوير هذا الجمال إلى التفكير فى معاقرة المنايا :

أفكّرُ فى مُعاقَرةِ المنَايا   وقَوْدِ الخَيلِ مُشرِفةَ الهَوادى
زَعيمٌ لِلقنَا الخَطِّىِّ عَزْمى   بِسَفْكِ دَمِ الحواضِرِ والبَوادى
إلى كم ذا التخلُّفُ والتوانى   وكم هذا التمادِى فى التمادِى
وشَغْلُ النفسِ عن طَلَبِ المَعالى   بِبَيْعِ الشِعْرِ فى سُوقِ الكَساد
وما ماضى الشَبابِ بِمُسْتَرَدٍ   ولا يَوْمٌ يَمرُّ بمُستَعادِ
متى لَحَظَتْ بياضَ الشَيبِ عَيْنى   فقد وَجَدَتْهُ منها فى السَوادِ
متى ما ازدَدْتُ من بَعدِ التَناهى   فقد وَقَعَ انتِقاصى فى ازدِيادى

فهذا الشعر يعرب عن نفسه ، ويعلن إلى قارئه أو سامعه ما فيه من جمال وروعة، وما فيه من قوة وحزم ، وما فيه من تحرق إلى الخروج من هذه الحال التى ضاق بها الشاعر أشد الضيق ، كما أنه يعلن إلى قارئه أو سامعه أن عقل صاحبه قد نضج و بلغ أشده وأصبح قادراً لا على التفكير المستقيم فحسب ، بل كذلك على استخراج المعانى الدقيقة وتصويرها فى أبرع اللفظ وأرقاه .

ولا أمضى فى تحليل ما يأتى بعد ذلك من المدح ، و إن كان خليقاً بالعناية والتحليل ، وإنما أدع هذه القصيدة لأنتقل إلى قصيدة أخرى هى عندى أروع ما قال الشاعر فى المديح أثناء هذا الطور . هى أروع هذا الشعر ؛ لأنها جمعت إلى الخصال التى لاحظت أن الشاعر قد استكملها فى شعره الذى قاله فى اللاذقية ، خصلتين خليقتين بالتفكير :

إحداهما سياسية ؛ فقد صرح لنا الشاعر فى هذه القصيدة بمذهبه السياسى ، فإذا هو أعم وأشمل من القرمطية أو التشيع ، و إذا القرمطية أو التشيع عند المتنبي وسيلة إلى تحقيق هذا المذهب السياسى الخطير ، وهو أن تجتمع كلمة العرب وأن يعود إليهم

ملكهم وسلطانهم ، وأن يُرَدَّ غير العرب من الخدم والرقيق إلى طورهم الذى كانوا فيه حين كان الملك عربيا صحيحا .

والمتنبي فى هذه القصيدة يذكِّرنا بشاعر قرشى قديم اشترك فى الفتن الإسلامية ، وجاهد مع الزبيريين حتى انهزموا ، ثم استخفى دهراً ، ثم انتهى أمره إلى الاستئمان والإذعان لبنى أمية ، وهو عبيد الله بن قيس الرقيات الذى لم يكن يعنيه من هذه الفتن التى اصطلى نارها إلا أن تجتمع كلمة قريش ، وأن يعود إليها ملكها قويا متيناً . ولذلك لم يأنف أن يثوب إلى بنى أمية ، وأن يمدحهم ، وينعم بجوار أمير من أمرائهم ، هو عبد العزيز بن مروان . كذلك المتنبي جاهد بلسانه وعرّض نفسه للخطر . ولعله جاهد بسيفه ونفسه ، ثم انتهى أمره إلى السجن . فلما خرج منه أنفق بعض الدهر مشرداً بائساً ، ثم لم يلبث أن تعزّى عن هذا كله حين خيل إليه أنه وجد أميراً عربيا يُحيي الأمل ، ويرد إلى النفوس شيئاً من الرضا والثقة . واقرأ هذه الأبيات التى تصور هذا المذهب السياسى للمتنبي أجمل تصوير :

أَحَقُّ عافٍ بدَمعِكَ الهِمَمُ　　أَحْدَثُ شيء عَهداً بها القِدَمُ
وإنَّما النـــــاسُ بالمُلوكِ وما　　تُفلِحُ عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ
لا أَدَبٌ عِندَهم ولا حَسَبٌ　　ولا عُهودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ
بِكلِّ أَرضٍ وَطِئْتُها أُمَمٌ　　تُرْعَى بِعَبْدٍ كأَنها غَنَمُ
يَسْتَخشِنُ الخزَّ حِينَ يَلْمِسُهُ　　وكانَ يُبرَى بِظُفْرِه القَلَمُ

وقد قال المتنبي هذه القصيدة بعد أن ذهب إلى طبرية فأقام فيها ، ثم سخط فعاد إلى اللاذقية . وسخطه ظاهر فى هذه الأبيات .

ولكن إقامة أبى الطيب فى طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحى ملكته الشعرية ، لم تظهر واضحة فى شعره السابق ، وهى قدرته على الوصف وبراعته فى تصوير الطبيعة . وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة التى يصف بها البحيرة :

لولاكَ لم أترُكِ البُحَيرَةَ وألْ ... غَورُ دَفِئٌ وماؤُها شَبِمُ
والمَوْجُ مِثلُ الفُحولِ مُزبدةً ... تَهْدِرُ فيهـا وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوقَ الحَبابِ تحسَبُها ... فُرسانَ بُلْقٍ تَخُونُها اللُّجُمُ
كأنّها والرياحُ تَضرِبُهـا ... جَيْشَا وَغًى : هازِمٌ ومُنهزِمُ
كأنّها فى نَهارِهـــا قَمَرٌ ... حَفَّ بهِ من جِنانِها ظُلَمُ
ناعِمَةُ الجِسم لا عِظامَ لها ... لهـا بَنَاتٌ وما لها رَحِمُ
يُبقَرُ عَنهُنّ بَطنُهـــا أبَداً ... وما تَشَكّى وما يَسِيلُ دَمُ
تَغَنّتِ الطيرُ فى جَوانِبِها ... وَجادَتِ الأرضَ حَولهَا الدِّيَمُ
فَهْىَ كَماوِيّةٍ مُطَوَّقةٍ ... جُرِّدَ عنها غِشاؤها الأدَمُ
يَشِينُها جَرْيُها عَلَى بَلَدٍ ... تَشِينُهُ الأدعيـاءُ والقَزَمُ

كان المتنبي وهو يقول هذا الشعر الناضج قد أتم العشرين من عمره ، وأتم فى الوقت نفسه نضجه الفنى ونُضْجَ عواطفه الثائرة التى ستدفعه إلى الكارثة بعد قليل . وأنت قد لاحظت اضطرام نفسه فى كل ما قال من الشعر للتنوخيين ، ولاحظت أن مقامه فى طبرية بعد عشرته لهؤلاء العرب فى اللاذقية قد انتهى بهذا المرجل ، الذى كان يغلى فى صدره ، إلى الانفجار .

فلنترك هذا الفتى الشاعر الذى كان يعدو فى التفوق والنبوغ عدوًا ، ولنعد إلى الفتى الثائر فنستعرض ما قال من الشعر الحاد العنيف الذى انتهى به إلى السجن فى حمص .

١٠

فنحن حين نقرأ القسم الأول من ديوان المتنبي قراءة ممعن مفكر ، مضطرون إلى أن نلاحظ أن المتنبي صبيًّا وشابًّا ، كان يحيا لونين من الحياة مختلفين أشد الاختلاف فى أول الأمر ، ثم غلب أحدهما على الآخر فامتزجا وانتهيا بالفتى إلى سجنه .

فأما اللون الأول من حياته ، فهو هذا الذى رأيته فى أكثر ما قدمت إليك من هذا الحديث . هو حياة الشاعر العادى الذى يسلك سبيل أبى تمام والبحترى وغيرهما من الشعراء المعروفين . وهى سبيل قوامها طلب الرقى الفنى ، واتخاذ الفن وسيلة إلى الغنى والثروة ، وإلى ارتفاع المكانة والاستمتاع باللذات ؛ فقد سلك أبو الطيب هذه السبيل كما سلكها غيره ، فقال الشعر فى صباه ناسباً وهاجياً ومادحاً . قاله للتمرين والتعلم فى أول الأمر ، ثم قاله للكسب والارتزاق والتماس الشهرة بعد ذلك . وقد رأيت كيف سلك طريقه هذه فى سرعة ما ، ولكنها على كل حال ليست سرعة فذة ولا ممتازة ؛ فقد نبغ الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين فى مثل هذه السن التى نبغ فيها ، بل فى مثل هذه السن التى كان يحاول فيها التفوق والامتياز .

وأما اللون الآخر لحياة المتنبي فهو هذا اللون الأحمر القانى ، لون الثورة الدامية أو الغارقة فى الدم . وقد أحسست من كل ما قدمت فى هذا الحديث أن فتانا قد عرف السخط منذ عرف نفسه ، واستطاع أن يفكر فى أمره شيئاً .

فهو قد شك فى أمر أسرته ، وسأل نفسه ، ولعله سأل جدته عن أمه وأبيه . وهو قد أنكر من أمر هذه الأسرة أموراً لم ينبئنا بها ، بل اجتهد فى إخفائها علينا .

وكان يُظهر الضجر والضيق والغيظ إذا أحس أن المعاصرين له كانوا يعرفون منها قليلا أو كثيراً. وهو في الوقت نفسه قد نشأ في بيئة شيعية ساخطة تنتظر الفرج، واتصل ببيئة قرمطية هادمة للأصول المعنوية والمادية لنظام الاجتماع . وهو قد تأثر بهاتين البيئتين؛ فكان في حياته الظاهرة شيعة علويا ما أقام في العراق . وكان قوله للشعر وتأثره بما يتأثر به الشعراء ، ربما نمّ على دخيلة نفسه ، فأظهر قرمطيته العقلية في مدحه لأبي الفضل الكوفي ، وأظهر قرمطيته العملية في هذه الأبيات الثلاثة التي قدمتها لك :

إلى أيّ حينٍ أنتَ في زيِّ مُحرِمِ ... وحَتَّى متى في شِقْوَةٍ وإلى كَمِ
وإلاَّ تَمُتْ تَحْتَ السُيوفِ مُكرَّمًا ... تَمُتْ وتُقاسِ الذُلَّ غيرَ مُكرَّمِ
فَثِبْ واثقاً بالله وَثْبةَ ماجدٍ ... يَرى الموتَ في الهَيْجا جَنَى النحلِ في الفمِ

وقد رأيت أن جلاء القرامطة عن الكوفة ، وانهزامهم عن العراق ، وارتدادهم إلى البحرين ، قد حمل الغلام على أن يجلو هو أيضاً عن الكوفة ، لا إلى البحرين ، بل إلى الشام بعد أن مر ببغداد مروراً يسيراً . وأنا أعتقد أن الفتى أخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة ، وأعتقد كما قدمت أنه ذهب إلى الشام مغامراً ، وداعياً إلى المذهب القرمطي ، ولكنه تعلّم الحذر والاحتياط . ومنذ وصوله إلى الشام يظهر انقسام نفسه بين هذين النوعين من الحياة : حياة خارجية يجارى فيها الناس ويداريهم ، وحياة داخلية يبغض فيها الناس أشد البغض ، ويمقتهم أشنع المقت ، ويضمر لهم ضغينة لا حد لها ، وعداء لا هوادة فيه .

وكان المتنبي إذا ألمّ بقوم من أهل البادية أو الحاضرة لم يُظهرهم من دخيلة نفسه على شيء ؛ ولكنه مع ذلك ربما آنس من بعضهم ما يبعث في نفسه شيئاً من الأمل ، فيلمّح لهم تلميحاً شديد الغموض ببعض أمره ورأيه ، ثم يرى من فتورهم أو قصورهم ما يردّه إلى التحفظ والكتمان ، كالذي رأيت في تلميحه لبعض الكلابيين بهاتين المقطوعتين :

إذا ما شَرِبْتَ الخَمْرَ صِرفاً مُهَنّأً　　شَرِبْنا الذى من مثلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ
ألا حَبّذا قومٌ نَداماهُمُ القَنا　　يُسَقّونها رِيّاً وساقيهمُ العَزْمُ

***

لِأَحِبّتى أن يَملئوا　　بالصافياتِ الأكوُبا
وعليهمُ أنْ يَبذُلوا　　وعَلَيَّ ألّا أشرَبا
حتى تكونَ الباتِرا　　تُ المُسمِعاتِ فأطرَبا

وكان المتنبي مبغضاً للخمر أشد البغض ، ممتنعاً عنها أشد الامتناع ؛ يرى أن الإقبال عليها فضلاً عن معاقرتها لا يلائم ما يملأ نفسه من الأمل والجد . ويظهر هذا فى هاتين المقطوعتين ، ويظهر فى مقطوعة أخرى قالها لصديق له يعرف بأبى ضبيس ، وهى :

أَلَذُّ من المُدامِ الخَندَريسِ　　وأحلَى من مُعاطاةِ الكُؤوسِ
مُعاطاةُ الصفائحِ والعوالى　　وإقحامى خميساً فى خَميسِ
فَمَوتِى فى الوَغَى عَيشى لأنّى　　رأيتُ العيشَ فى أَرَبِ النُفوسِ
ولو سُقِّيتُها بِيَدَىْ نَديمٍ　　أُسَرُّ به لَكانَ أبا ضَبيسِ

ويظهر كذلك فى مقطوعتين أخريين قالهما لعلىّ بن إبراهيم التنوخى ، يقول فى أولاهما :

إذا ما الكأسُ أرْعَشَتِ اليَدَينِ　　صَحَوْتُ فلم تَحُلْ بَيْنِى وبَيْنى

ويقول فى الأخرى :

مَرَتكَ ابنَ إبرهيمَ صافيةُ الخَمْرِ　　وهُنِّئْتَها من شاربٍ مُسْكِرِ السُكْرِ

وقد احتفظ المتنبي بإعراضه عن الخمر واقتصاده فى اللذات حياته كلها ، لم يخرج عن هذا التحرج إلا كارهاً ، كالذى كان بينه وبين صديق له حلف عليه بالطلاق ليشربن ، فشرب وقال :

وأخٍ لنا بَعَثَ الطّلاقَ أَلِيَّةً لَأُعَلِّلَنَّ بهــذه الخُرطومِ
فَجَعَلْتُ رَدِّيَ عِرْسَهُ كفّارةً مِن شُرْبِها وَشَرِبْتُ غيرَ أثيمِ

كان المتنبي إذن يلمِّح برأيه ولا يصرح به ما أقام فى شمال الشام ، وربما ظهرت آراؤه فى مدحه من حين إلى حين ، ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يستثمر هذه الآراء ويقويها وينضجها ، وكانت الحياة نفسها تعينه على ذلك وتدفعه إليه دفعاً . فهذا الاضطراب الداخلى فى هذا الإقليم ، وهذه الأثرة التى تملأ نفوس الناس — ولا سيما السادة والأشراف — وهذا التنافس بين العباسيين والإخشيديين ، وهذا البخل الأسود الذى كان يلقاه كلما مدح أميراً أو شريفاً أو رجلا من أوساط الناس ، كل ذلك كان يصور له الحياة سوءاً كلها ، ويصور له تفوقه وامتيازه وارتفاع نفسه عن نفوس هؤلاء الطغام .

فلما انتهى الأمر به إلى مدح علىّ الحمدانى ، وكان لِدَةً له ، ومكافئاً له فى السن ، ولم يبلغ منه شيئا ، امتلأت نفسه ضغناً وحفيظة . ولعله سأل نفسه فى هذا الوقت ما بال هذا الفتى الحدث يعظم شأنه ويرتفع أمره ، ويقود الجند ، ويغير على البادية والحاضرة ، وأنا فى هذه الحال من الخمول والضعة ، لا أكاد أبلغ ما أقيم به أودى ، مع أنى أبذل فى ذلك الجهد العنيف ، وما هو أقوم من الجهد العنف ، فأمدح من أزدرى ، وأثنى على من أبغض ، وأدعو بطول البقاء وتأييد الملك لمن لو استطعت لسحقته سحقاً ؟

ولعل أبا سعيد المجيمرى لامه فى نحو هذا الوقت ، وحثه على أن يرحل بشعره إلى الملوك والأمراء وأشراف الناس . فلم يستطع أن يكتم ما كان يملأ نفسه من الضغن والحفيظة ، فأجاب صاحبه بهذا الرجز المر الملتهب ؛ لأنه يصور نفساً مرة ملتهبة :

أبا سَعيدٍ جَنِّبِ العتابا فرُبَّ راءٍ خَطَأً صَوابا
فإنّهم قد أكثروا الحُجّابا واستَوقَفُوا لِرَدِّنا البَوّابا
وإنّ حَدَّ الصارمِ القِرضابا والذابلاتِ السُمْرَ والعِرابا
ترفَعُ فيما بَيننا الحِجابا

وعلى كل حال فقد ترك شمال الشام يائساً منه ومن أهله ، والتمس فى ملك الإخشيديين ما أعياه فى ملك العباسيين . وليس من شك فى أن مقامه فى اللاذقية قد قوّى نفسه ، و بعث فى أمله حياة منعته من أن يبلغ من الحذر والاحتياط ما كان يبلغه من قبل .

وأنا أرجح أن هؤلاء التنوخيين الذين اتصل بهم كانوا يشعرون بعر بيتهم ، وكانوا يرضون إن آل إليهم شىء من الحكم أو الجاه ، ويسخطون إن زال عنهم ذلك وانتقل إلى منافسيهم الذين أشرنا إليهم فى الفصل السابق . وكانوا من غير شك يتحدثون بما يشعرون به من رضا أو سخط ، وكان المتنبى يسمع منهم ويحفظ عنهم، ولعله تحدث إليهم ملمحاً أول الأمر ، ثم كاشفاً بعض الحجب عن نيته ، ثم راجعاً إلى الاحتياط . ولكن رحلته إلى طبرية قضت على كل حذر ، وأزالت عن نيته كل ستار ، فعاد إلى اللاذقية هائجا مائجاً ، وثائراً مضطربا ؛ لأنه رأى من أمر الإخشيديين وعمالهم ما أحفظه ، وظهر ذلك فى ميميته التى تحدثنا عنها فى الفصل السابق ظهوراً لا يحتمل شكا ولا جدالا .

ومن يدرى ! لعل هؤلاء التنوخيين ، ولعل أحدهم علىّ بن إبراهيم خاصة ، قد أظهروا رضا عن ثورة المتنبى وتشجيعاً لها فى أحاديثهم أو فى صنيعهم مع المتنبى .

ولكن المحقق ما ينبئنا به الديوان من أن بعض الناس أشفقوا على الشاب من هذه الصراحة التى ظهرت فى مدحه للتنوخيين ، ومن هذه الأحاديث الملتهبة التى كان يلقيها هنا وهناك فى غير تحفظ . ومن هؤلاء أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل الذى نصح للمتنبى — فيما يظهر — بالحذر والاحتياط ؛ فلم يسمع له و إنما أجابه بهذه الأبيات :

أبا عبـدِ الإلٰهِ مُعاذُ إنّى ... خَفِىٌّ عنكَ فى الهَيْجَا مَقَامِى

ذَكَرْتَ جَسِيمَ ما طَلَبِى وَأنَّا ... نُخاطِرُ فيه بالمُهَجِ الْجِسامِ

أمِثْلِى تأْخُذُ النَّكَبَاتُ مِنْهُ ... ويَجْزَعُ مِنْ مُلاَقاةِ الحِمَامِ

ولو بَرَزَ الزَّمانُ إلىّ شَخْصاً لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِه حُسامى
وما بَلَغَتْ مَشيئتها اللّيالى ولا سارتْ وفى يَدِهَا زِمامى
إذا امتلأتْ عُيُونُ الخيل مِنّى فَوَيْلٌ فى التَّيَقُّظِ وَالْمَنامِ

فى اللاذقية عرف المتنبي حسد الحساد وكيد الكائدين ؛ فقد ارتفع شأنه الفنى ، واستبق الناس إلى تضييفه وإيثاره بالخير أو إيثار أنفسهم بمدحه ، ولقى من أمن الحياة ولينها ما لم يلق فى شمال الشام . قد ظهر المنافسون له ، ورأيت أن قوماً نافسوه عند التنوخيين ، وأن منهم من لم يتردد فى أن يصنع هجاء للحسين بن إسحاق التنوخى ، ويضيفه إلى المتنبي فى غيبته ، ويضطر المتنبي إلى أن يدافع عن نفسه عند الحسين .

وفى اللاذقية وجد المتنبي لذة المودة وصداقة الأصدقاء ؛ فهذا معاذ بن إسماعيل يشفق عليه وينصح له بالحذر . وهذا علىّ بن إبراهيم التنوخى يمنحه وده ، ولا يتمنى إلا أن يختص به نفسه ويتخذه نديماً . ولكن آماله أبعد من هذا كله .

وقد أخذ الناس يلهجون به ويتهمونه فى نسبه وفى رأيه . فقال هذه الأبيات التى أظنها قليلاً من كثير قد حذف :

أنا عَيْنُ الْمُسَوَّدِ الْجَحْجَاحِ هَيَّجَتْنى كِلابُكُمْ بالنُّباحِ
أيَكُونُ الهِجانُ غيرَ هِجانٍ أم يكونُ الصُّراحُ غيرَ صُراحِ
جهِلونى وإنْ عَمَرْتُ قليلاً نَسَبَتْنى لهم رُءوسُ الرِّماحِ

وكأن أعداء المتنبي وحساده قد مضوا فى النعى عليه ، وألحّوا فى التشهير به ، وظلوا يستحمقونه ، فدفعوه بذلك إلى الثورة دفعاً . تدل على هذا لاميته التى أولها :

قِفَا تَرَيا وَدْقى فهاتا المَخايلُ ولا تَخْشَيا خُلْفاً لِمَا أنا قائلُ

والتى يقول فيها :

تُحَقَّرُ عندى هِمّتى كلَّ مَطْلَبٍ ويَقْصُرُ فى عَيْنِى المَدَى المتَطَاوِلُ
وما زِلْتُ طَوْداً لا تزولُ مَناكِبى إلى أنْ بدَتْ للضَّيْمِ فىّ زَلازِلُ

فقلقلتُ بالهمِّ الذى قلقلَ الحشا ... قلاقلَ عِيسٍ كلهنَّ قلاقِلُ
إذا الليلُ وارانا أرتنا خِفافُها ... بقَدْحِ الحصَى مالاتُريِنا المشاعِلُ

فهو إذن قد ارتحل عن اللاذقية مغاضباً فيما أظن ، منذراً بهذه لأبيات الخطرة :

ألاَ ليستِ الحاجاتُ إلاَّ نفوسَكُمْ ... وليسَ لنا إلاَّ السُّيُوفَ وسائِلُ
فما وردَتْ رُوحَ امرىءٍ رُوحُهُ له ... ولا صَدَرَتْ عن باخلٍ وهو باخلُ
غثاثةُ عَيْشِى أن تَغثَّ كَرَامتى ... وليسَ بِغَثٍّ أن تَغثَّ المآكلُ

وكان المتنبي كما رأيت شابًّا قوى الحس ، دقيق الشعور ، عنيف الطبع ، حاد المزاج ؛ فجعل فيما أعتقد كلما ألح خصومه فى النعض منه والنعى عليه ، ازداد عنفاً وحدة ، وتصريحاً بما كان يخفى من أمره ورأيه ، حتى قال من الشعر ما أخاف منه السلطان ، ولا سيما إذا كان هذا الشعر قد روى وتناقله الناس ، ووقع فى نفوس هؤلاء العرب المتحضرين والأعراب البادين موقع النار من الهشيم ، كما كان ذلك منتظراً . ويكفى أن تقرأ داليته التى يقول فى أولها :

كم قَتِيلٍ كما قُتِلْتُ شَهِيدِ ... ببياضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الخُدُودِ

لترى أنها كافية لتعرض الشاعر لأشد الأخطار . فالشاعر فيها ثمل قد أسكره الغضب وملكت عليه الحفيظة أمره ، فلم يستمع إلا لشيطانه ولم ينطق إلا عنه . ولم يكن شيطانه أقل منه سكراً ولا انتشاء . فهو فى القسم الأول من القصيدة نشوان يتغنى صباه ووطنه ، ويستعيد أيامه الأولى ، ولا يتردد أن يندفع إلى هذا البيت يقوله فى وصف الحسان الكوفيات :

يَتَرشَّفْنَ من فَمِى رَشَفَاتٍ ... هُنَّ فيهِ أحْلَى مِنَ التوْحِيدِ

ثم يمضى حتى يقول :

ما مُقامِى بأرْضِ نَخْلَةَ[1] إلاَّ ... كمُقَامِ المسيحِ بين اليَهُودِ

(١) نخلة بالخاء ، راجع معجم البلدان لياقوت .

ثم يصف نفسه الطامحة وأمله البعيد ، وجِدَّه فى تحقيق هذا الأملَ ، و يعرِّض بخصومه فى هذا البيت تعريضاً شنيعاً :

لِسريّ لِباسُهُ خَشِنُ القُطْ — ن ومَرْوِيُّ مَرْوَ لِبْسُ القُرُودِ

ثم يقول :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنتَ كريمٌ — بينَ طَعْنِ القنا وخَفْقِ البُنودِ
فرُءوسُ الرِّماحِ أذهَبُ لِلغَيْـ — ظِ وَأشْفَى لِغِلِّ صَدرِ الحَقُودِ
لا كما قد حَيِيتَ غيرَ حَمِيدٍ — وإذا مُتَّ مُتَّ غــيرَ فَقِيدِ
فاطلُبِ العزَّ فى لَظَى وَذَرِ الذُّ — لَّ ولو كانَ فى جِنانِ الخُلُودِ
يُقْتَلُ العاجِزُ الجَبانُ وقد يَعْـ — جزُ عن قَطْعِ بُخْنُقِ المولُودِ
ويُوَقَّى الفَتَى المِخَشُّ وقد خَوَّ — ضَ فى ماءِ لَبَّةِ الصِنديدِ
لا بِقَومى شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بى — وبنفسى فخرتُ لا بجُدودى
وبِهِم فَخرُ كُلِّ من نَطَقَ الضا — دَ وعَوْذُ الجانى وغَوْثُ الطَرِيدِ
إنْ أكُنْ مُعجِباً فَعُجْبُ عجيبٍ — لم يَجِدْ فوقَ نفسِهِ من مَزِيدِ
أنا تِرْبُ النَدَى وربُّ القوافى — وسِمامُ العِدَى وغَيْظُ الحَسُود
أنا فى أمَّةٍ تَدَارَكَها اللّـ — ـهُ غريبٌ كصالحٍ فى ثَمودِ

فأنت ترى أن المتنبى قد أَثِم فى هذه القصيدة من وجوه : فهو يذكر حلاوة التوحيد فى لهجة الساخر المستهزئ . وهو يشبه نفسه مرة بالمسيح، ومرة بصالح، و يشبه المسلمين الذين كان يعيش فيهم مرة باليهود ، ومرة بثمود . وهو بعد هذا وذاك يعلن الثورة والخروج على النظام ، و يلقى ذلك فى نفوس الناس بألفاظ ملتهبة ، توشك أن تثير فيها اللهب . ثم هو لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى الجهر بالقرمطية الصريحة التى تجحد الصلوات الخمس ، وتستحل دم الحجاج فى الحرم ، وذلك فى ميميته التى أولها:

ضيفٌ ألَمَّ برأسِى غيرَ مُحتشِمِ — السَّيفُ أحسَنُ فعلاً منهُ باللِمَمِ

وانظر إليه كيف يقول :

لُمِ اللَّيالى الَّتى أخنَتْ على جِدَتى ... بِرقَّةِ الحال واعذِرْنى ولا تَلُمِ
أرَى أُناساً ومَحْصُولى على غَنَمٍ ... وذِكرَ جُودٍ ومحصولى على كَلِمِ
ورَبَّ مالٍ فقيرًا من مُرُوءته ... لم يُثرِ منها كما أثرى من العَدَمِ
سَيَصْحَبُ النَّصْلُ منى مِثلَ مَضرِبِهِ ... وينجلى خَبَرى عن صِمَّةِ الصِمَمِ
لقد تَصَبَّرتُ حَتى لاتَ مُصْطَبَرٍ ... فالآنَ أُقحِمُ حَتى لاتَ مُقتَحَمِ
لأتركَنَّ وُجُوهَ الخيلِ ساهمةً ... والحربُ أقوَمُ من ساقٍ على قَدَمِ
والطَّعْنُ يُحْرِقُها والزَّجْرُ يُقلِقُها ... حَتى كأنَّ بها ضَرْباً من اللَّمَمِ
قد كَلَّمَتْها العَوالِى فهْىَ كالحةٌ ... كأنما الصَّابُ مَذْرُورٌ على اللُّجُمِ
بكلِّ مُنصَلِتٍ ما زالَ مُنتظرِى ... حتَّى أدَلْتُ لهُ من دَولةِ الخَدَمِ
شَيْخٍ يَرَى الصَلَواتِ الخَمْسَ نافلَةً ... ويستحِلُّ دَمَ الحُجَّاجِ فى الحَرَمِ
وكُلَّما نُطِحَتْ تحتَ العَجَاجِ به ... أُسْدُ الكتائب رامَتْــهُ ولم يَرِمِ
تُنسِى البلادَ بُرُوقَ الجَوِّ بارقتى ... وتكتَفِى بالدَّمِ الجارى عن الدِّيَمِ
رِدِى حِياضَ الرَّدَى يا نفْسُ واترِكِى ... حِياضَ خوفِ الرَّدَى للشاءِ والنَّعَمِ
إن لم أُذَرْكِ على الأرماحِ سائلةً ... فلا دُعِيتُ ابنَ أُمِّ المَجدِ والكَرَمِ
أيَمْلِكُ المُلكَ والأسيافُ ظامئةٌ ... والطَّيرُ جائِعةٌ لَحْمٌ على وَضَمِ
مَنْ لو رَآنِىَ ماءً مات من ظمأٍ ... ولو مَثَلْتُ لهُ فى النومِ لم يَنَمِ
ميعادُ كلِّ رقيقِ الشَفرَتَيْنِ غَداً ... ومَن عَصَى مِنْ مُلوكِ العُرْبِ والعَجَمِ
فإن أجابوا فما قَصْدِى بها لَهُمُ ... وإنْ تَوَلَّوْا فما أرضَى لها بِهِمِ

ثم لا يقف أمر المتنبى عند هذا الحد ، وهو فى نفسه أبعد مما يطيق الدين والنظام ، ولكنه يتجاوز كل حد ممكن فيقول :

أىَّ مَحَلٍّ أرْتَقِى ... أىَّ عظيمٍ أتَّقِى
وكُلُّ ما قد خَلَقَ الْـ ... ـلَهُ وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فى هِمتِى ... كشَعْرةٍ فى مَفرِقِ

أترى أن المتنبي محتاج بعد ذلك إلى أن يخرج بالفعل على السلطان فيؤلّب الأعراب ويغير بهم على الحاضرة ! أم ترى المتنبي فى حاجة إلى أن يزعم أنه نبي ليثور به السلطان ، فيأخذه أخذاً شديداً ويلقيه فى غيابة السجن !

لقد حبس الخلفاء والأمراء غير شاعر فى القرون الأولى لأمور أيسر جدًّا من هذا. ولقد قتل الأثينيون سقراط لأمور ليست أشد مما تورط فيه المتنبي ؛ فهو فى لفظه مارقٌ من الدين ، خارج على السلطان ، منكر للنظام ، زارٍ على الأُمة كلها . وبعض هذا لا يبيح للسلطان سجنه فحسب ، بل يبيح للسلطان دمه أيضاً .

وإذا اتفق القدماء أو اختلفوا فى ثورة المتنبي ، وفى طبيعة هذه الثورة ، وفى مداها ، وإذا ذهب المحدثون فى ذلك مذهب القدماء ، فإنى أنا مطمئن إلى أن ما حفظ المتنبي من شعره كاف لدفعه إلى السجن ، فكيف لو رأينا ما لم يحفظ المتنبي من هذا الشعر الملتهب ! وما أشك فى أنه ألغى منه أكثر مما أبقى .

سجن المتنبي إذن فى أواخر سنة ثلاث وعشرين أو أوائل سنة أربع وعشرين ، فى جريمة خطيرة من جرائم الرأى ، قوامها الردة ، والخروج على السلطان ، والدعوة إلى تسليط السيف على المسلمين .

فلنُعْرِض عن كل هذه الأساطير التى نُسجت حول سجنه ؛ فهى إلى غلو خصومه ومبالغتهم ، وإلى تعظيم المين وتضخيم اليسير ، واختراع القصص ، أدنى منها إلى أى شيء آخر . وكان أبو العلاء يملى رسالة الغفران بعد مقتل المتنبي بنحو ستين سنة ، فكان يشك فى ذلك شكا ظاهراً ، ويروى بعض هذه الأحاديث الشعبية التى أُثيرت حول سجن أبى الطيب

وأنا لا أتردد فى رفض ما يروى من أنه ادّعى النبوة وأحدث المعجزات أو زعم إحداثها ، وضلل فريقاً من خاصة الناس وعامتهم ، فبايعوه واتبعوه ، كما لا أتردد

فى رفض هذا السخف الذى ينبئنا بأن المتنبى زعم أن قرآناً أنزل عليه ، و بأن بعض الناس قد حفظ هذا القرآن . فقد قيل مثل هذا عن أبى العلاء أيضاً ، وروى بعض قرآنه الموهوم . وما ينبغى أن نجهل أن الرأى العام فى أوساط الشام وفى حمص خاصة كان خصما لأبى الطيب حين سجن ، وأن أبا الطيب بعد خروجه من السجن كان لايكاد يستقر فى مكان ، حتى يثير حول نفسه الحسد والبغض وألوان الخصومات ، وحتى يدع هذا المكان مغاضباً لأهله أو هارباً منهم : هرب من بدر بن عمار ، وخرج من حلب مغاضباً لسيف الدولة ، وهرب من كافور ، ولم يستطع أن يطيل الإقامة فى بغداد حين عاد إلى العراق ، بل تعرض فيها لسخط رجال السياسة والأدب معاً . ثم لم تخل إقامته عند عضد الدولة من خوف و إشفاق . ثم لم يكد يصدر عن عضد الدولة حتى قتل فى طريقه . ومن قبل ذلك فر من الكوفة فى صباه ، وخرج من بغداد خائفاً يترقب ، ولم يستطع أن يدخل الكوفة ليرى جدَّته قبل أن تموت . فهو قد غاضب الناس جميعاً ، وألّب الدولة الإسلامية كلها على نفسه . فأى غرابة فى أن يكبر من أمره ما صغر، و يعظم من شأنه ما هان !

ونحن نرى فى هذه الأيام التى سهل فيها البحث والتقصى ، وروقبت فيها الإذاعة ونشر الدعوة ، ووُضعت فيها القوانين الصارمة لعقاب الذين يسبون الناس و يقذفونهم ويقولون فيهم غير الحق ، ويحمّلونهم ما لم يحتملوا ، و يضيفون إليهم ما لم يقولوا — نحن نرى فى هذه الأيام كيف يُتّهم الناس بما لم يقترفوا من الذنوب ، وكيف يحمل عليهم ما لم يحتملوا من الآثام ، فكيف بعصر كعصر المتنبى ، لم يعرف فيه مثل ما نعرف من النظام ! على أن فى هذه الأساطير التى نُسجت حول سجن أبى الطيب فكاهة ما أحسب أن لها أصلا واقعاً ، ولكنها مع ذلك رمز صادق دقيق لهذا الطور من تفكير المتنبى وسيرته فى الوقت الذى دفع فيه إلى السجن .

فقد يقال إن أبا الطيب كان يزعم لبعض أتباعه أن الحديث الذى كان يروى عن

النبي صلى الله عليه وسلم و يقال فى آخره : «غير أنه لا نبى بعدى» إنما يجب أن يقرأ برفع النبى ، على أنه خبر لمبتدأ هو « لا » ، وأن المتنبى كان يسمى نفسه « لا » . فهذا تكلف رجل من النحويين أراد العبث والتندر . ولكن هذا الاسم المشتق من النفى الخالص الشامل ، أشد الأسماء ملاءمة لحياة المتنبى العقلية والعملية فى ذلك الوقت . فهو كان ينفى كل شيء : كان ينفى الدين والسلطان والنظام والناس ، ولم يكن يُثبت إلا نفسه . لم يكن قرمطيا فحسب ، بل كان كذلك داعية من دعاة الفوضى وصورة من صورها .

وما أرى إلا أن الذين ألقوه فى السجن قد أحسنوا إليه ؛ لأنهم كفكفوا من غلوائه ، وردوه عن بعض هذا الجموح ، واضطروه إلى أن يهدأ و يطمئن ، و يفكر و يتدبر ، و يستقبل أمره فى أناة واطمئنان .

١١

ولم يحفظ لنا من شعر المتنبي منذ أُخذ إلى أن أُخرج من السجن إلا أقله ، وهو شيء يسير جداً . والمحقق أن فتى كأبي الطيب غزير المادة ، شديد الانفعال ، قليل الصبر على ما يكره ، أنشد شعراً كثيراً أثناء هذه المحنة ، ولكنه لم يُثبته ولم يحرص على أن يرويه الناس ؛ فقد كان هذا الشعر قسمين : قسم قاله المتنبي قبل أن تهدأ ثورته ، ولم يكن من مصلحته أن يستبقيه أو يذيعه بعد أن تاب وجحد ماضيه . وقسم قاله بعد أن أحس الألم والذلة ، وتاقت نفسه إلى الحرية ، ولم يكن مما يلائم كبرياءه وكرامته أن يُثبت هذا الشعر أو يذيع منه إلا أيسره وأهونه .

ومع ذلك فقد بقيت لنا نماذج من هذين النوعين . فأما النوع الأول فقد بقي لنا منه نموذجان :

أحدهما هجاؤه للهاشمي الذي قيده وأسلمه إلى جند السلطان ، وهو قوله :

زعمَ المقيمُ بِكوتَكينَ بأنه　　من آلِ هاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنافِ
فأجَبْتُه مُذْ صِرْتَ من أبْنائِهِم　　صارتْ قُيودُهُمُ من الصَّفْصافِ

فالشاعر في هذين البيتين ، كما ترى ، يسخر من هذا الذي أسلمه وقيده سخرية لاذعة تدل على أنه ما زال من حدة الثورة بحيث لا يستطيع أن يقدر بشاعة ما هو مقبل عليه .

والنموذج الآخر هذه الأبيات التي قالها لرجل يعرف بأبي دُلَف ، برّه في السجن وكان يغرى به السلطان ، وهي :

أَهْوِنْ بطُولِ الثَّوَاءِ والتَّلَفِ　　والسجنِ والقَيْدِ يا أبا دُلَفِ

غيرَ اختيارٍ قَبِلْتُ بِرَّكَ بِي والجوعُ يُرضي الأُسُودَ بالجِيَفِ
كُنْ أيُّها السجنُ كيف شئتَ فقد وَطَّنْتُ للموتِ نفسَ مُعْترفِ
لو كان سُكْناىَ فيكَ مَنقصةً لم يكُنِ الدُّرُّ ساكِنَ الصَّدَفِ

ويجب أن يكون المتنبي قد قال هذه الأبيات قبل أن يطول عهده بالسجن ؛ فهو ما زال محتفظاً بكبريائه ، ولعله كان لا يزال محتفظاً بآرائه ، معتزًّا بها ، موطناً نفسه على الموت فى سبيلها . ولكن السجن طال عليه وثقل ، وأحاطت به الآلام والهموم وكاد ييأس ، ثم أدركته العلة فتعرّض للهلاك . والله يجعل للناس من كل حرج فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا .

فهذا لؤلؤ الغورى والى الإخشيد على حمص يُسْتَدْعَى من ولايته . وهذا إسحاق ابن كيغلغ يُرَدُّ إلى حمص والياً بعد أن كان قد عُزِل عنها . وهذا فتانا اليائس يستشعر شيئاً من الرجاء ، ويأخذ فى التوسل والاستعطاف والمدح . ولدينا من هذا الشعر نماذج ثلاثة : أولها هـذه المقطوعة البائية التى لا يزيد فيها المتنبى على الاستعطاف والتوبة ، وهى :

بيَدِي أيها الأميرُ الأريبُ لا لِشَيْء إلاّ لأنِّي غريبُ
أَوْ لِأُمٍّ لهـا إذا ذكرتْني دَمُ قَلْبٍ بدَمْعِ عَيْنٍ يذوبُ
إنْ أكُنْ قبل أنْ رَأَيْتُكَ أَخْطأ تُ فإني على يديكَ أتوبُ
عائبٌ عابَنِي لَديْكَ ومِنْهُ خُلِقَتْ فى ذَوِي العُيوبِ العُيوبُ

فهو كما ترى ذليل مستكين ، يذكر غربته وجدّته النائية ، ويتوب من خطأ إن كان قد تورط فيه ، وينكر هذا الخطأ .

وهذا البيت الأخير واضح فى أنه لم يؤخذ متلبساً بالجريمة، كما يقول رجال القانون ، أو لم يؤخذ ثائراً ثورة مادية ، وإنما سعى به ساع فنقل إلى السلطان ما كان يقول من الشعر .

وكأن الأمير أعرض عنه أو أبطأ فى الاستجابة له فاستعطفه بالدالية المشهورة :

أيا خدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُدُودِ وقَدَّ قُدُودَ الحِسانِ القُدُودِ

وهو فى هذه القصيدة ناسب ، مادح ، شاكٍ ، مستعطف . ولكنى لا أقف منها إلا عند الأبيات الأخيرة التى يدافع الشاعر فيها عن نفسه ، وينكر ما اتهم به من الخروج على السلطان ، ويعترف بأنه هَمَّ ولم يفعل ، ويزعم للسلطان أن لا عقاب على الإرادة ، وإنما العقاب على الفعل :

تُعَجِّلُ فِىَّ وُجُوبَ الحُدُودِ وحَدِّى قُبَيْلَ وُجوبِ السُّجودِ

والشاعر هنا مبالغ يزعم أنه لم يبلغ الحلم ، ولم يستوجب الحد ، مع أن من المحقق أنه كان فى الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين .

وقيلَ عَدَوْتَ عَلَى العالَمِيـ ـنَ بَينَ وِلادِى وبَيْنَ القُعُودِ
فما لكَ تَقْبَلُ زُورَ الكلامِ وقَدْرُ الشَهادةِ قَدْرُ الشُهُود
فلا تَسْمَعَنَّ من الكاشحينَ ولا تَعْبأَنَّ بِمَحْكِ اليَهودِ

وماحِكُ اليهود هذا عندى هو كما قدّمت ذلك الذى كان ينافس التنوخيين العرب ، ويسعى بينهم بالبغضاء ، والذى ذمه المتنبى حين مدح التنوخيين ، ونفى أن يكون بعضهم قد شمت ببعض .

وكُنْ فَارِقاً بينَ دَعْوَى أردتُ وَدَعْوَى فَعلتُ بشأوٍ بعيدِ

والشاعر فى هذه القصيدة كما هو فى الأبيات السابقة ذليل ضارع مستعطف ، ولكنه منكر للذنب الذى يحمل عليه أشد الإنكار .

وقد سمع الأمير له هذه المرة ، ولعله سمع لبعض الشافعين فيه ، ولعله أراد أن ينقذ سجيناً حبسه سلفه ، فجمع له فيما يقال جماعة من أصحاب الجاه والشرف والدين واستتابه ، فتاب وأشهد على نفسه أنه جحد ما كان من أمره وعاد إلى سبيل المسلمين .

ويظهر لى أن عفو هذا الأمير التركى عن المتنبى الشاب الذى نهكه السجن

وأضناه ، قد ملأ قلب الفتى سروراً ورضا ، وأثار فى نفسه الأمل أيضاً ، فمدحه بالرائية التى يقول فى أولها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائِرُهُ   وغيَّضَ الدمعَ فانهلَّتْ بوَادرُهُ

ولعله كان يرجو أن ينال بهذه القصيدة وأمثالها حظوة عند الأمير ، ما دام قد نال بالقصيدة الدالية عطف الأمير وعفوه . ولـكن الأمير أبى أن يستقبله أو يسمع منه ، وتقدم إليه فى أن يترك الإقليم قانعاً بسلامته وحياته . فخرج يستقبل حياة جديدة ليست أقل من حياته الأولى بؤساً وضنـكا وشقـاء و بيعاً للشعر فى سوق الـكساد .

١٢

ليست أقل من حياته الأولى بؤساً ، ولـكنها تخالف حياته الأولى فى جوهرها . فقد كان فى حياته الأولى شقياً بالأمل ، وهو فى حياته الثانية شقى باليأس . وقد كان فى حياته الأولى يتحرق شوقاً إلى عظائم الأمور وجلائل الأعمال ، وهو فى حياته الثانية يؤثر العافية وما يكاد يظفر بها ، ويبتغى الراحة وما يكاد ينتهى إليها . وقد كان فى حياته الأولى شديد الثقة بنفسه ، عظيم الإيمان بعزمه ، وهو فى حياته الثانية شاكٌّ فى نفسه أشد الشك ، قانط من عزمه أشنع القنوط . وقد كان فى حياته الأولى ساخطاً على ماضيه ، متبرماً بحاضره ، طامعاً فى مستقبل باسم فيه الرضا وتحقيق الآمال ، وهو فى هذه الحياة الثانية نادم على ماضيه الذى جحده ، ملتاع على مستقبله الذى يئس منه ، ضيق بحاضره مع ذلك أشد الضيق . ولا ينبغى أن تظن بى الإطناب والإسهاب والإلحاح فيما لا يحتاج إلى إلحاح ، والإطالة فيما لا ينبغى الإطالة فيه ؛ فإن هذه الحال النفسية أبلغ الأحوال تأثيراً فى نفس الشاعر الحساس ، وأشدها إنضاجاً لهذه النفس ، وهى من غير شك أخصب الأحوال التى تمر بنفس الشاعر ؛ لأنها تنضجها وتشد أزرها ، وتعلِّمها احتمال المكروه ، وتعلمها كذلك تذوق الألم والتفريق بين أنواعه المختلفة ، واستعذابه مهما يكن ممضا ، وتهيئة الشاعر الصحيح للنبوغ الصحيح .

ولـكنها تفعل هذا كله سرًّا ومن وراء حجاب ، تعمل فى النفس الخفية أكثر مما تعمل فى النفس الظاهرة ، وتؤثر فى الضمير أكثر مما تؤثر فيما يشهد الشاعر من أمر عقله وقلبه وملكاته المختلفة . حتى إذا آن الأوان وسنحت الفرصة ، وتهيأت الظروف ، ظهرت الآثار القيمة الخصبة لما يلقى الشاعر من الألم والسقم والضيق .

ومهما يكن من شيء فإن المتنبي كان في شغل عن ضميره وسريرة نفسه ودخيلة قلبه ، حين خرج من السجن ، واضطر إلى مغادرة الإقليم ، بهذه المصاعب العاجلة السخيفة التي تعترض فتى يائساً بائساً قد حُرِم العون وفَقَد الصديق ، ونظر فإذا هو وحيد في الحياة ليس له من يفكر فيه أو يرثي له أو يعطف عليه ، إلا جَدَّته تلك المقيمة في الكوفة ، والتي انقطعت بينها و بينه الأسباب .

وهذه المصاعب التي تعترض له ليست مصاعب معنوية تأتيه من العزلة والوحدة ، ومن افتقاد الصديق فحسب، ولكنها مصاعب مادية أيضاً، وهي أشد ما يلقى الشاعر من المصاعب سخفاً وأبلغها في نفسه أثراً .

فهو غريب مشرّد ، لا يكاد يستقر في مكان حتى يزعجه عنه الخوف والفزع . وهو فقير معدم لا يجد ما يُرضي به حاجة جسمه إلى الطعام والشراب واللباس ، فضلاً عما يستعين به على الفراغ الذي يمكنه من أن يرضي حاجة عقله وقلبه وعواطفه . و يستقبل الفتى أمره مفكراً متدبراً ، فإذا هو مضطر قبل كل شيء إلى أن يرحل عن هذه الأرض التي لا مقام له فيها : أرض الإخشيديين ؛ فهو لا يستطيع أن يقيم في حمص وما يجاورها من البلاد . وهو لا يستطيع أن يعود إلى اللاذقية إشفاقاً على أهلها و إشفاقاً منهم . وهو لا يستطيع أن يعود إلى طبرية التي خرج منها مغاضباً لأهلها ، ذاماً لهم في شعر قد سارت به الركبان . وهو لا يستطيع أن يدنو من مركز السلطان الإخشيدي بعد أن نفته أطراف هذا السلطان . فليس له بدٌّ إذن من أن يعود إلى شمال الشام ، هذا الذي كرهه وضاق به وفرّ منه حريصاً على ألاّ يعود إليه .

وهو يعود إلى شمال الشام ليصنع فيه ماذا ؟ ليستأنف فيه تلك الحياة البغيضة التي سئمها ، وظن أنه قد خلص منها ، حياة التكسب بالشعر عند قوم لا يقدرون الشعر ولا يذوقون له طعما ، وعند قوم لا يقدرهم هو ولا يذوق لهم طعما ، وإنما يحتقرهم و يزدريهم أشد الاحتقار وأعظم الازدراء .

ليته يستطيع أن يجاوز شمال الشام هذا إلى العراق ، ليستأنف الحياة في الكوفة

حيث جَدَّتُه وموطنه ، أو فى بغداد حيث الحياة العقلية الخصبة التى تبعث الخصب فى العقول والقلوب . ولكن من له بالعراق وقد تقطعت بينه و بين العراق الأسباب ! وفيم يعود إلى الكوفة بائساً معدماً وقد خرج منها يبتغى الأمل والغنى ! وفيم يعود إلى بغداد وقد أعجله الأمل والتماس الغنى عن الإقامة فى بغداد ! ليقصد إذن إلى شمال الشام ، وليستأنف فيه حياته البائسة المضطربة ، ولينتظر فيه ما قد تتكشف عنه الأيام ؛ فالحياة فى هذا العصر بعيدة كل البعد عن الاستقامة والاطراد . ومن يدرى ! لعله يظفر فى شمال الشام بما لم يظفر به من قبل . ومن يدرى ! لعل الأمور أن تتغير ، و إذا هو يعود إلى أرض الإخشيد وقد زال عنها ملك الإخشيد .

ولسنا نستطيع أن نوقت الشعر الذى قاله المتنبى فى هذا الطور المظلم من أطوار حياته . ولكنا نستطيع على كل حال أن نسلك فى توقيته طريقاً كالتى سلكناها فى توقيت ما قال من الشعر فى الطور الذى سبق ما أَلَمَّ به من الكارثة . فطبيعة الأشياء تقضى بأن يكون الشاعر قد انتفع بالتجربة ، وتعلّم الحذر والاحتياط ، أو عاد إلى ما كان يألف من الحذر والاحتياط . وطبيعة الأشياء تقضى بأن يخفى الشاعر ما ألم به من مكروه ، وما أدركه من خيبة ، وما تعرّض له من خطر . و إذن فلن يجهر بقرمطيته وقد رأى ما جرّته القرمطية عليه من شر . و إذن فلن يسرف فى وصف بأسه وشجاعته ونجدته بعد هذه الخيبة التى بلا مرارتها . و إذن فلن يلم بالبادية ولن يمدح أهلها ، بعد أن ذاق من البادية وأهلها ما ذاق . ولكنه على كل حال شاعر قد امْتُحِنَ فى نفسه وفنه وأمله . وهو ، مهما يتكلف من الاحتياط ، عاجز عن أن يخفى ما تركه هذا كله فى نفسه من المرارة .

وليس بشاعر إذا لم يستطع أن يشكو ما قاسى و يتغنى ما وجد دون أن يفضح سره ، أو يعلن حقيقة أمره إلى الناس . و إذن فيمتاز شعر الخيبة هذا بكثير جداً من الاعتدال فى الأمل ، والرضا بالقليل ، والاقتصاد فى وصف الحرب أو فى

وصف نفسه خائضاً غمار الحرب ، وتجنب القرمطية العملية والعقلية . ثم سيمتاز بهذا الحزن المظلم الذى لا نكاد نحققه ولا نشخصه ، ولكننا نحسه مع ذلك غامضاً ظاهراً مكتوماً مكظوماً ، وهو مع هذا منبعث فى شعره وفى مقدمات قصائده خاصة. والشاعر يستطيع أن يشكو الزمان ومصائب الدهر ، ونوائب الحدثان ، ولؤم الناس ، وما أفسد أخلاقهم من المكر والغدر ، ومن الجبن والنفاق . ففى هذا كله منفذ لهذا الهم الذى يغلى فى صدره ، ولهذا الحزن الذى يمزق قلبه تمزيقاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى قالها حين مر بقِنّسرين فسمع زئير الأسد ، والتى لا تخلو من تأثر بما سبق إليه الشعراء القدماء ، ولا سيما امرؤ القيس[١] والفرزدق[٢] من مناجاة الذئاب والأسود :

أجارُكِ يا أُسْدَ الفَراديسِ مُكْرَمُ ... فتَسكُنَ نَفْسى أم مُهانٌ فمُسْلَمُ
وَرَائى وقُدّامى عُداةٌ كثيرَةٌ ... أُحاذِرُ من لِصٍّ ومنكِ ومنهُمُ
فهل لَكِ فى حِلْفى عَلى ما أُريدُهُ ... فإنّى بأسْبابِ المَعِيشَةِ أعلَمُ
إذن لأتاكِ الرِّزقُ من كلِّ وِجهَةٍ ... وأثرَيتِ مِمّا تَغْنَمِينَ وأغْنَمُ

فهل أحسست فى البيت الثانى ما أحسه أنا من امتلاء قلب الشاعر بالوحدة والعزلة والفراغ ، إن صح أن تمتلئ القلوب بهذه الأشياء ؟ وهل رأيت الفتى كما أراه فى هذا البيت وحيداً شريداً فى فضاء الأرض الواسع ، وقد أطبقت عليه ظلمة الليل العريض ، وقد انصرف الفتى عن عدو وهو مقبل على عدو ، وهو يسمع زئير الأسد ويكاد يسمع خُطا قطاع الطريق ، ويكاد يرى أشخاص هؤلاء اللصوص الذين

---

(١) انظر قوله فى المعلقة :

وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوى كالخليع المعيل

وما يليه .

(٢) انظر نونيته المشهورة التى يقول فيها :

تعال فان عاهدتنى لا تخوننى ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وانظر قصته حين هرب من زياد وقصد إلى الحجاز .

(نقائض جرير والفرزدق ص ٦٠٨ وما يليها — طبع ليدن)

يأخذون السبيل على المجتمعين ، فكيف بهذا الشريد الطريد ؟ وهل أحسست فى هذين البيتين الأخيرين ما أحسه أنا من هذا الندم اللاذع والحسرة الممضّة ، ومن حزن الفتى لأنه لم يجد بين الناس من يعينه على تحقيق آماله ، فإذا هو يود لو وجده بين هذه الأسود الزائرة الكاسرة ؟ أسمعت الأسود لغناء هذا الحزين ؟ لست أدرى ، ولكن المحقق أنها لم تحفل به ، ولم تستجب له ، ولم تُمْضِ بينها و بينه هذا الحلف الذى كان يتمناه عليها . وحسبه أنها قد تركت له طريقه لم تعرض له ولم تعتدِ عليه .

والشاعر ينتهى إلى شمال الشام ، فيقيم فى حلب إقامة غير آمن ولا مطمئن ؛ لأن حلب فى ذلك الوقت كانت موضع النزاع بين الإخشيديين والعباسيين ، فيرحل عنها إلى أنطاكية ، وهناك يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس . ولعل من خير ما قال فى أنطاكية ، هاتين القصيدتين اللتين مدح بهما المغيث بن علىّ العجلى ، واللتين أراهما من شعره بعد الكارثة خلافاً لما يرى الأستاذ بلاشير .

يقول المتنبى فى مطلع القصيدة الأولى :

دَمعٌ جَرَى فقَضَى فى الرَّبعِ ما وَجَبا ... لأهْـلِهِ وشَفَى أنَّى ولا كَرَبا

ويقول فى آخرها وهو يصور ما بقى فى نفس الشاعر من حقد وحفيظة وغيظ لم يخمد بعدُ :

لمّا أقمتَ بأنطاكِيّةَ اختلفَتْ ... إلىَّ بالخَبَرِ الرُّكبانُ فى حَلَبا
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لا ألوِي على أحَدٍ ... أحُثُّ رَاحِلَتَىَّ الفقْرَ والأدَبا
أذَاقَنِى زَمَنِى بَلوَى شَرِقْتُ بهـا ... لو ذاقَها لَبكَى ما عاشَ وانتَحبا
وإن عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ وَالِدَةً ... والسَّمْهَرِىَّ أخاً وَالمَشْرِفِىَّ أبا
بكلِّ أشْعَثَ يَلقَى الموْتَ مُبْتَسِماً ... حتى كأنَّ لهُ فى قَتْلِهِ أرَبا
قُحٍّ يكادُ صَهِيلُ الخيل يَقْذِفُهُ ... عن سَرْجِهِ مَرَحاً بالعِزِّ أو طَرَبا
فالموْتُ أعذَرُ لى والصبرُ أجملُ بى ... والبَرُّ أوسَعُ والدنيا لمن غَلَبا

أما القصيدة الأخرى ، فالقسم الأول منها أبلغ ما صور به المتنبى فى هذا الطور

من حياته رأيه فى الزمان والناس ، وسخطه على الحياة والأحياء . ولا بدّ من رواية هذا القسم كله ؛ لأنه يغنى عن كل شرح أو تفسير :

فُؤادٌ ما تُسلِّيهِ المُدامُ وعُمْرٌ مِثلُ ما تَهَبُ اللِّئامُ
ودَهْرٌ نَاسُهُ ناسٌ صِغارٌ وإنْ كانتْ لهم جُثَثٌ ضِخامُ
وما أنا منهُمُ بالعيشِ فيهم ولـكن مَعدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ
أرانبُ غيرَ أنَّهُمُ مُلوكٌ مُفتَّحَةٌ عيُونُهُمُ نِيـــامُ
بأجسـامٍ يَحَرُّ القَتلُ فيهـا وما أقرانُها إلاّ الطَّعَامُ
وخَيلٍ لا يَخِرُّ لها طَعينٌ كأنَّ قَنَا فَوارِسِها ثُمامُ
خَليلُكَ أنتَ لا من قُلتَ خِلِّي وإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ والـكلامُ
ولو حِيزَ الحِفاظُ بغـيرِ عَقْـلٍ تَجَنَّبَ عُنْقَ صَيْقَلِهِ الحُسامُ
وشِبهُ الشَّىءِ مُنجذِبٌ إليه وأشْبَهُنا بِدُنيانا الطَّغَامُ
ولَوْ لَمْ يَعلُ إلاّ ذو مَحَلٍّ تَعالَى الجَيشُ وانحطَّ القَتامُ
ولَوْ لَمْ يَرْعَ إلاّ مُستَحِقٌّ لِرُتبتهِ أسـامَهُمُ المُسامُ
ومَن خَبَرَ الغَوانِي فالغواني ضِياءٌ فى بَواطِنِهِ ظَلامُ
إذا كانَ الشَّبابُ السُّـكْرَ والشَّيْـ ـبُ هَمًّا فالحيـاةُ هِيَ الحِمامُ
وما كُلٌّ بمعذورٍ ببُخْلٍ ولا كُلٌّ عَلَى بُخلٍ يُلامُ
ولم أرَ مِثْـلَ جِيرانى ومِثلى لِمِثْلى عِنْـدَ مِثلِهِمِ مُقامُ
بأرضٍ ما اشتَهَيت رأيتَ فيهـا فليسَ يَفُوتُها إلاّ الـكِرامُ
فهلاّ كان نَقصُ الأهلِ فيها وكان لأهْلِها منهـا التَّمامُ)

وتستطيع أن تُلحق بهذه القصيدة قصيدة أخرى تشبهها فى الحزن والمرارة وشكوى الزمان . وهى عندى من شعر هذا الطور ، و إن خيَّل الديوان وظن كثير من الناس أنها متأخرة قيلت بعد انصراف الشاعر عن بدر بن عمار ، وهى القصيدة التى يمدح

بها أبا عبد الله محمد بن عبيد الله بن محمد الخطيب الحصيبي ، وهو يومئذ يتقلد القضاء بأنطاكية ، وأولها :

أفاضِلُ الناسِ أغراضٌ لِذَا الزَّمنِ　　يَخلو مِنَ الهمِّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ

وكذلك القصيدة المشهورة التي يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكي ، والتي أولها :

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ　　أقفَرتِ أنتِ وهُنَّ عنكِ أواهِلُ

والأخرى التي يمدح بها أخاه أبا سهل سعيد بن عبد الله ابن الحسن الأنطاكي ، وأولها :

قد عَلَّمَ البَيْنُ مِنَّا البَيْنَ أجْفَانا　　تَدْمَى وألَّفَ في ذا القَلبِ أحْزانا

والقصيدة التي يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران ، وأولها :

سِرْبٌ مَحاسِنُهُ حُرِمْتُ ذواتِها　　داني الصفاتِ بَعيدُ مَوصوفاتِها

ومن هذا الشعر أيضاً فائيته التي يمدح بها أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي والتي مطلعها :

لِجِنِّيَّةٍ أم غادةٍ رُفِعَ السَّجْفُ　　لِوَحْشِيَّةٍ لا ما لِوَحْشِيَّةٍ شَنْفُ

والبائية التي يمدح بها عليّ بن منصور الحاجب ، ويقول في أولها :

بأبِي الشُّموسُ الجانحاتُ غَوَارِبا　　اللَّابِسَاتُ من الحريرِ جَلابِبا

والأخرى التي يمدح بها عمر بن سليمان الشرابيّ ، ويقول فيها :

نَرَى عِظَمًا بالبَيْنِ والصَّدُّ أعظَمُ　　ونَتَّهِمُ الواشِينَ والدمعُ منهُمُ

والتي يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب ، وأولها :

أرَكائِبَ الأحبابِ إنَّ الأدْمُعَا　　تَطِسُ الخدودَ كما تَطِسْنَ اليرْمَعا

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا الشعر كله فستجد في قراءته من السأم والملل شيئاً كثيراً يلائم ما كان في نفس الشاعر من السأم والملل حين كان ينشئه وينشده . فهو مدح متصل متشابه معاد ، لا تجديد فيه ولا تغيير ، ولا صدق فيه ولا

إخلاص ، إنما هو شعر يباع ، ويجهد الشاعر فى تزيين سلعته وتحسينها ، فيبلغ من ذلك بعض ما يريد حيناً ، ويعجز عنه فى أكثر الأحيان .

(وربما قسم الشاعر القصيدة بينه وبين ممدوحه قسمة عدلاً أو قسمة فيها شيء من الجور ، فاتخذ لنفسه الشطر الأول يشكو فيه ، ويذم الزمان والناس صراحة ، أو يرمز فيه بالغزل والنسيب إلى هذه الشكوى المرة المتصلة .

والحق أن شعر أبى الطيب لم يكد يرقى فى هذه الأعوام التى جاءت بعد خروجه من السجن إلا قليلاً ؛ فقد استوثق الشاعر من صناعته لكثرة المرانة ، واستطاع أن يذلّ الألفاظ ، وإن عجز عن أن يستذل المعانى . وقد أحسن التفكير فى الدهر وصروفه ، واستطاع أن يزن الأمور وزناً حسناً ، وأن يسند تشاؤمه القديم إلى العقل والتجربة والاختبار ، وأن يأتى فى ذلك بنغمات قوية مشجية باقية عامة ، تبلغ قلوب الناس جميعاً ، فتثير فيها الحزن ، وقد تنتهى بها إلى القنوط . ولكن الشاعر آخر الأمر لم يضف إلى فنه القديم شيئاً فضلاً عن أن يضيف إلى الشعر لوناً لم يسبقه إليه غيره من الشعراء الذين تقدموه ، لا من حيث الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولا من حيث الأوزان والقوافى والموسيقى . إنما هو شاعر مقلد، ينهج نهج المتقدمين، ونهج أبى تمام منهم خاصة . فإذا ظهرت شخصيته من حين إلى حين ، فإنما تظهر فى أوقات العنف الذى ليس بعده عنف ، أو فى أوقات الحزن الذى ليس وراءه حزن) فما الذى كان ينقص هذا الفتى ليبلغ ما هو أهل له من التفوق الذى لا يحتمل شكا ، والنبوغ الذى لا يتعرض لخلاف ؟ كان ينقصه فيما أرى شيئان :

أحدهما حياة راضية تشحذ العزم وتحيى الأمل . وقد رأينا أن شعره وثب وثبة بعيدة حين انتهى إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين ، فضمن لين العيش ، ورجا تحقيق الأمل ، فقال فى هذا الوقت أجمل ما قال من الشعر بين صباه وبين الخامسة والعشرين .

والآخر بيئة مثقفة ، قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالأدب، قادرة على النقد ، عالمة

بألوان الكلام . وهذه البيئة لم تتح للمتنبي أثناء إقامته الأولى والثانية في شمال الشام، ولعلها لم تتح له أيضاً أثناء إقامته في أواسط الشام ، ولعله استغنى عنها وقتاً ما بكثرة ما كان يقرأ من الكتب ويستظهر من علم القدماء وأدبهم . ولكنه كان على كل حال ناقد نفسه وناصحها ومرشدها ، وكان في حاجة إلى أن يأتيه النقد والنصح والإرشاد من قوم غيره يقدرهم ويحسب لهم في الأدب حساباً .

ولم يكن للبيئة العربية في الشام ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الأدبية والعلمية وأكبر الظن أن هذه البيئة كانت تنقسم قسمين :

أحدهما بدوي ، وهو إلى الجهل والغلظة أقرب منه إلى الثقافة واللين . والآخر حضري ، وهو ليّن العيش ، ولكنه غليظ العقل ، قليل الحظ جدًّا من العلم .

وإنما كان المتنبي محتاجاً إلى البيئة المصرية التي نشأ فيها فن أبي تمام ، وإلى البيئة العراقية التي نضج فيها فن أبي تمام أيضاً ، والتي نشّأت وأنضجت فن أعلام الشعر الإسلامي منذ العصر الاموي إلى أواخر القرن الثالث .

وقد ظهر في الشام شاعر كأبي تمام ، ولكنك علمت أن شعره نشأ في مصر ونضج في العراق . وظهر في الشام شاعر كالبحتري ، ولكنك تعلم أن الذي أنضج شعر البحتري ، إنما هو اتصاله بأبي تمام ، ثم ارتحاله إلى العراق .

فأما المتنبي فقد نشأ شعره في العراق ، وحاول أن ينضج في الشام فأدركه البطء ، ودب إليه كثير من الفساد ، وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربي الصريح ، ولا نجده حتى عند أشد الشعراء تكلفاً ، وهو أبو تمام . ذلك لأن المتنبي قد نشأ في غير مدرسة ، وتعلّم على غير معلم ، ولم يأخذ ثقافته وأدبه عن الأساتذة والنقاد ، وإنما أخذها عن الكتب والصحف ، وكان ينشد الجهال وأشباه الجهال ، فيسمع منهم إعجاباً كثيراً مصدره الجهل ، ويأخذ منهم مالاً قليلاً مصدره البخل ؛ فيشتد إعجابه بنفسه لما يسمع من الثناء وما يرى من الإعجاب ، ويشتد حنقه على الناس لما يرى من البخل وما يقاسي من الحرمان .

وأنا أعلم أن اضطراب الخلافة فى بغداد ، وتسلط الترك على الدولة قد غض من أمر الشعر وقصر من همم الشعراء ، وأن بغداد لم تكن فى القرن الرابع غنية بالشعراء المجيدين ، كما كانت فى القرن الثالث والثانى . ولكنى أعلم مع ذلك أن بغداد خاصة وأمصار العراق عامة كانت لا تزال قلب الدولة من الناحية الأدبية ، إن كان ذلك قد أخطأها من الناحية السياسية .

ولست أشك فى أن المتنبي لو أقام فى العراق وَجْهَ حياته لأسرع إلى النبوغ ، ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرى من كثير من العيوب التى أنكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التى سيعاب شعره بها آخر الدهر . والأمر لا يقف عند المتنبي وحده؛ فقد أصبح المتنبى كما تعلم إماماً للشعراء ، فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر . وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه فى الشام مصدراً لكثير من الضعف الذى ألمّ بشعره هو ، ثم بشعر الذين قلدوه .

ومهما يكن من شىء فقد استقبل المتنبي الخامسة والعشرين من عمره ، وهو مضطرب فى شمال الشام ، يبيع شعره بيع الكساد كما يقول ، ولكنه على كل حال قد عرف كيف يصبر ويحتمل . وكأن الزمان الذى كان المتنبي يذمه ويشكو منه قد رحمه ورق له ، وأراد أن يرفِّه عليه شيئاً ، وأن يتيح لفنه فرصة يثب فيها إلى الأمام .

فى هذا الوقت اضطرب الأمر بين العباسيين والإخشيديين ، وأقبل ابن رائق على قسم عظيم من سوريا الجنوبية ، وجعل ابن رائق على حربه فى طبرية بدر بن عمار الأسدى ، وهنالك عاد إلى المتنبي شىء من الأمل ورغب فى أن يعود إلى تلك الأرض التى لم يكن له فيها مقام بعد زلته تلك ، فترك شمال الشام وانتهى إلى طبرية واتصل ببدر بن عمار . وعند بدر بن عمار وجد الأمرين اللذين كان يحتاج إليهما : وجد الحياة اللينة الهادئة ، ووجد البيئة المثقفة الناقدة ، فلم يلبث أن أحس أثر الأمرين جميعاً ، وأن وثب فنه فى أشهر قليلة ، فبلغ من الرقى ما لم يبلغ بعضه فى الأعوام الثلاثة أو الأربعة التى أقامها فى شمال الشام .

الكتاب الثانى

١

ولم يتصل المتنبي ببدر مباشرة ولا فجأة أول الأمر، وإنما سعى فى ذلك وجد وابتغى إليه الوسيلة فيما يظهر لى . والديوان لا ينبئنا فى صراحة ، والرواة لا ينبئوننا كذلك كيف سعى إلى بدر ، وكيف انتهى إليه . ولكن قصيدة فى الديوان لا يعرف تاريخها توشك أن تدلنا على ما نحتاج إليه من ذلك ، وهى هذه الهمزية التى مدح بها أبا علىّ هارون بن عبدالعزيز الأوراجى الكاتب الذى كان يذهب، فيما يقول الديوان وكما سنرى من القصيدة ، مذهب التصوف ، والذى كان له شأن قبل ذلك فى قصة الحلّاج[1]. فقد يخيل إلىّ ، بل أكاد أرجح أن المتنبي اتخذ هذا الرجل وسيلة إلى بدر بن عمار . ومن يدرى ! لعله كان يريد أن يتخذ بدر بن عمار وسيلة إلى مولاه ابن رائق ، وأن يتخذ ابن رائق نفسه وسيلة إلى قصر الخلافة فى بغداد . ولكن الأسباب تقطعت به ولما يبلغ من ذلك إلا بعض ما كان يريد .

هذه القصيدة تنبئنا بأن الشاعر قد أقبل يمدح أبا علىّ الأوراجى من بعيد ، وقد جاز إليه جبال لُبنان فى شىء غير قليل من المشقة والجهد . فأكبر الظن أن الأوراجى هذا كان فى ذلك الوقت متصلاً بعمل من أعمال ابن رائق قريباً من بدر فى طبرية أو بعيداً عنه بعض الشىء فى دمشق .

فأقبل المتنبي من شمال الشام إلى جنوبها بعد أن جلت عنه جنود الإخشيد ، حتى انتهى إلى صاحبه هذا فدحه بقصيدتين .

---

(١) R. Blachére. — Abou t-Tayyib al-Motanabbi p. 90.
L. Massignon. — Al Hallaj martyr mystique de l'Islam p. 240,

إحداهما هذه الهمزية التى يجب أن نقف عندها وقفة قصيرة. والأُخرى أرجوزة طردية على نحو أراجيز أبى نُوَاس قالها مستجيباً لممدوحه حين طلب إليه ذلك، وأثبتها فى الديوان مفاخراً بها، ومفاخراً بأنه قد قالها فى سرعة توشك أن تكون ارتجالا. وقد نتحدث عنها فى غير هذا الموضع من هذه الفصول.

وللهمزية التى نحن بإزائها فيما أرى مكانة خاصة من شعر المتنبى؛ فهى القصيدة الوحيدة التى يعمد فيها الشاعر إلى المذهب الرمزى ليرضى ممدوحه الذى كان يذهب مذهب التصوف. وهى من هذه الجهــة قيمة؛ لأنها تبين عن علم المتنبى، فى الخامسة والعشرين من عمره، بمذاهب المتصوفة فى الكلام ومنهجهم فى الرمز والإيماء، ولأنها تظهر لنا الشاعر الفتى وقدملك ناصية الفن حقا، واستطاع أن يصرّفه كما يشاء و يهوى دون أن يجد منه مقاومة وامتناعاً، ولأنها بعد هذا وذاك تكشف لنا عن براعة المتنبى، لا فى هذا النحو من التكلف الفنى الذى كان مألوفاً فى ذلك العصر، والذى كان يعتمد قبل كل شىء على أوجه البديع، بل فى تكلف آخر لم يكن مألوفا إلا عند المتصوفة والباطنية الذين يقصدون بالألفاظ والمعانى غير ما يفهم منها أصحاب الظاهر من عامة الناس وخاصتهم.

والظريف أن هذا التكلف لم يفسد على المتنبى شعره فى هذه القصيدة، و إنما أسبغ عليه جمالاً غريباً لا نجده فى شعره العادى. ومصدر هذا الجمال الغريب ما حاوله المتنبى من الملاءمة بين جهدين: جهد العقل، وجهد الفن.

وأنت تستطيع أن تقرأ غزل هذه القصيدة فتستحسن فيه هذين الجهدين معاً:

أمِنَ ازْدِيارَكِ فى الدُّجَى الرُّقَبَاء إذْ حيثُ أنتِ من الظّلامِ ضِياء

و ينبغى أن تغفر للمتنبى هذا الجمع بين ظرفى الزمان والمكان فى أول الشطر الثانى؛ فهو قد أتعب النحويين تحليلاً وتعليلاً، ولكنه مع ذلك ظاهر المعنى. فالمتنبى لا يزيد على أن يقول لصاحبته: إن الرقباء مطمئنون إلى أنك لن تزورينى إذا أظلم الليل؛ لأن وجهك يضىء الظلمة فينمّ عنك؛ لأنك ضياء حيث كنت. فالمعنى ظاهر

ولكن صيغته تعميه بعض الشيء . المعنى ظاهر ، ولكن جهد الشاعر فى استنباطه والتعبير عنه ظاهر أيضاً . وأنت لا تلوم المتنبي ولا تعتب عليه إذا تكلفت شيئاً من الجهد فى فهم هذا البيت ؛ لأنك تحمد عاقبة الجهد ، وترى أن من حق الشاعر الذى تعب فى استنباط المعنى وأدائه أن يكلفك شيئاً من التعب فى فهمه والوصول إليه ، ما دام المعنى آخر الأمر قيا خليقاً بما بذلت من الجهد . فنحن هنا فى بيئة أخرى ، فى هذه البيئة التى يحسن أبو تمام والمتنبي خلقها ، والتى توجد تعاوناً واشتراكا بين الشاعر والقارئ أو المستمع إليه . و إنما تُخْلَق هذه البيئة حين يُعْنَى الشاعر بمعانيه ، و يصدر فيا ينشئ عن عقله وفنه من جهة ، وعن احترامه لقارئه وسامعه من جهة أخرى . وانتقل إلى ما بعد هذا البيت :

قَلَقُ المليحةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُها ... ومَسِيرُها فى اللّيْلِ وَهْيَ ذُكاء
أَسَفِى عَلَى أَسَفِى الذى دلَّهْتِنِي ... عن علمِهِ فيه عَلَيّ خَفاء
وشَكِيَّتِى فَقْدُ السّقام لِأَنَّهُ ... قد كانَ لَمَّا كان لى أعضاء

فالبيت الثانى توضيح وتفصيل و إطناب للبيت الأول ، ولكن فيه تعميا ليس فى ذلك البيت. فالمليحة قلقة فيا تدبر من أمرها ؛ لأنها مسك ينم عليها نشرها ، وشمس يفضحها ضوءها و إن سرت بليل . وتصور أنت هذا الطباق الذى يأتيه من سُرَى الشمس فى الليل . فإذا تجاوزت هذا المعنى فانظر إلى هذا البيت الثالث الذى ذهب الشاعر فيه مذهب المتصوفة الصريح ، حين يلوون الألفاظ عن أساليبها الطبيعية الظاهرة . فالشاعر يأسف على أسفه الذى هو محقق ، ولكنه لا يعلم به لأن صاحبته قد دلهته عنه وأذهلته . بما يحدث فى نفسه من أثر . والشاعر يؤكد لنا هذا المعنى تأكيداً فى البيت الرابع الذى ينبئنا فيه بأنه لا يشكو السقام ، و إنما يشكو فقد السقام . ذلك أنه كان يحس السقم حين كان له جسم يمسه السقم وتلم به الآلام . فأما وقد أفنى الحب جسمه وأعضاءه فهو لا يشكو سقما ولا ألمًا ، و إنما يشكو شيئاً أبلغ من السقم والألم ، وهو العدم الذى يمنعه أن يحس سقما وألما . وتصور أنت شاعراً يجد نفسه

ويشعر بها؛ ويعلم أنه معدوم ويشكو من هذا العدم. ولكن لا تنس أن شاعرنا يقدِّم هذا الكلام بين يدى مدحه لرجل من المتصوفة، فهو يصطنع له مذهب المتصوفة فى الكلام والتفكير أيضاً:

مَثَّلْتِ عَيْنَكِ فى حَشَاىَ جِراحةً فتَشابَها كِلتاهُما نَجْلاء
نَفَذَتْ عَلَىَّ السابِرِىَّ ورُبَّما تَنْدَقُّ فيهِ الصَّعْدَةُ السَّمراء

وانظر إلى براعة الشاعر وقدرته على العبث بالألفاظ واتخاذ هذا العبث وسيلة إلى شعر لا يخلو من جمال. فالناس يقولون: عين نجلاء، وهم يقولون طعنة نجلاء. فماذا يمنع المتنبى أن يشتق من هذا الاشتراك بين العين والطعنة فى النَّجَل الذى هو السعة شبهاً بينهما، فيجعل عين حبيبته فى حشاه؛ لأن الطعنة التى مسته بها واسعة نجلاء كالعين التى حملت إليه هذه الطعنة. ثم هو يحقق هذا التشبيه تحقيقاً بالبيت الأخير، فيزعم أن عين حبيبته قد شقت عنه درعه ونفذت إلى قلبه، ودرعه مع ذلك صلبة محكمة تندق فيها الصعدة السمراء. فأصل المعنى كما ترى مألوف، ولكن التعبير عنه جديد، وتصوُّره على هذا النحو طريف يخيل إليك أن الشاعر قد ابتكره ابتكاراً:

أنا صَخْرَةُ الوادِى إذا ما زُوحِمَتْ وإذا نَطَقْتُ فإنَّنِى الجَوْزَاء
وإذا خَفِيتُ على الغَبِىِّ فعاذِرٌ ألاَّ تَرانِى مُقْلةٌ عَمْياء
شِيَمُ اللَّيالِى أنْ تُشَكِّكَ ناقتِى صَدْرِى بِها أفْضَى أم البَيْداء
فَتَبِيتُ تُسْئِدُ مُسْئِدًا فى نِيِّها إسْآدَها فى المَهْمَهِ الإنْضاء
أنْساعُها مَمْغُوطةٌ وخِفَافُها مَنْكوحَةٌ وطَرِيقُها عَذْراء
يَتَلَوَّنُ الخِرِّيتُ من خَوْفِ التَّوَى فيها كما يَتَلَوَّنُ الحِرْباء

والشاعر كما ترى فى هذه الأبيات يفخر بنفسه مقتصداً فى الفخر، ولكنه اقتصاد لا ينبغى أن يخدعنا عن امتلاء الفتى بنفسه، فهو اقتصاد فى الألفاظ لا فى المعانى. فالشاعر صخرة تزحم من يزاحمها، والشاعر نجم، بل هو الجوزاء بين الشعراء؛ فإذا لم يفطن الأغبياء والجهال لمكانه فهو عاذر لهم. وهل على الأعمى حرج ألا يراه!

ولكن انظر إلى تصوير الشاعر لهمّه البعيد وأمله العريض وصدره الواسع كيف ذهب فيه هذا المذهب اللطيف، فأشرك ناقته في التفكير ، وأشرك الليل في العمل ، وجعلنا بإزاء حركة معقدة ونشاط متصل ، فهو بعيد الهم ، واسع الصدر ، عريض الأمل ، جاد فيما يبتغى ، والليالى مخلفة لظنونه ، مخيبة لآماله ، ولكنها لا تبلغ من جهده وصدره ولا تحد من نشاطه وجدّه ؛ فهو يكلف ناقته من الجهد والعناء ما يلائم هذه الخصومة المتصلة بينه و بين الزمان ، و يشق الأمر على ناقته و يعظم الخطب وتشتد المحنة ؛ فهى تريد أن تفهم ما يلم بها ، ولن تخرج من حيرتها ، وهى تسائل فى كثير من الشك : أيهما أفضى بها : هذه البيداء التى لا تنتهى ، أم صدر صاحبها هذا الذى لا يعرف لهمه حدًّا ينتهى إليه . والناقة مع ذلك ماضية فى قطع البيد واجتيابها مُفَضّىً الهزال فى أثناء شحمها . وقِفْ عند هذا الإسآد الذى تعمَّد الشاعر تكراره ، فجاء به مضارعاً ومصدراً واسم فاعل قصداً إلى الإغراب والالتواء بالمعنى ؛ ليلائم بين لفظه ومعناه ، و بين مقامه من هذا الرجل المتصوف الذى يمدحه .

بَينِى وَبينَ أبى علىٍّ مِثْلُهُ   شُمُّ الجبالِ ومِثْلُهُنَّ رَجاءُ
وعِقابُ لُبنانٍ وكيفَ بقَطْعِها   وهْوَ الشتاءُ وَصَيْفُهُنَّ شِتاءُ
لَبَسَ الثُّلُوجُ بها علَىَّ مَسالِكى   فكأنّها ببَيَاضِها سَوْدَاءُ
وكذا الكريمُ إذا أقامَ ببَلْدَةٍ   سالَ النُّضارُ بها وقامَ الماءُ
جَمَدَ القِطارُ ولو رأتْهُ كما تَرَى   بُهِتَتْ فلم تَتَبَجَّسِ الأنواءُ

وأنت ترى من هذه الأبيات أن الشاعر حريص على ألا يدع المذهب القديم الذى ألفه الشعراء ، فيذكر طريقه إلى ممدوحه ، ولكنه على احتفاظه بهذا الشكل التقليدى يغيِّر الأسلوب والموضوع تغييراً . فانظر إليه كيف يخلص إلى ممدوحه هذا الخلوص العجيب ، بأن يجعل بينه و بين أبى علىٍّ جبالاً تشبهه فى الضخامة والارتفاع ، وفى الثبات والاستقرار ، وفى الصعوبة والامتناع ؛ فمن شأنها أن تُبعده عنه ، ولكن الشاعر يجعل بينه و بين أبى على رجاء يشبه هذه الجبال فى الضخامة

والعظم والسعة والقوة ؛ فمن شأنه أن يقرّبه منه . وأى جبال مهما تعظم تستطيع أن تستعصى على هذا الرجاء العريض المنيف الذى لا حدّ لسعته ولا لقوته !

ثم انظر إلى وصفه الموجز لصعوبة لبنان وما ينبث فيها من العقاب ، وما يجمد على هذه العقاب من الثلج الذى ينتشر بياضه حتى يضلل الشاعر عن مسالكه تضليلاً ، فكأنه سواد الليل .

وما أريد أن أمضى على هذا النحو فى تحليل القصيدة كلها ، وإن كانت القصيدة كلها تعجبنى ، ولكنى أدع لك قراءة الشطر الأول من مدحه لأبى علىّ ومشاركتى فى الرضا والإعجاب به ، والاعتراف بأنه إن كان كغيره من مدح المتنبى فى جوهره وأصله ، فإنه ممتاز فى أسلوبه ، ومذهب الشاعر فى العناية به ، والتأنق فى ذاته ، ولكنى مضطر أن أقرأ معك هذه الأبيات التى يختم الشاعر بها قصيدته :

لعَمَمْتَ حتى المُدْنُ منكَ مِلاء ... ولَفُتَّ حتى ذا الثناء لَفاء
ولَجُدتَ حتى كِدتَ تبخَلُ حائلاً ... للمُنتهى ومن السُّرورِ بُكاء
أبْدأْتَ شيئاً لَيس يُعرَفُ بَدؤُه ... وأعدتَ حتى أنكِرَ الإبداء
فالفَخْرُ عن تقصيرِه بِكَ ناكِبٌ ... والمجدُ مِن أنْ يُستزادَ براء
فإذا سُئلتَ فلا لأنَّكَ مُحْوِجٌ ... وإذا كُتِمتَ وشَتْ بكَ الآلاء
وإذا مُدِحْتَ فلا لتَكسِبَ رِفْعةً ... للشاكرين على الإلهِ ثناء
وإذا مُطِرتَ فلا لأنَّك مُجْدِبٌ ... يُسقَى الخصيبُ وتُمطَرُ الدَّأماء
لم تَحْكِ نائلَكَ السحابُ وإنما ... حُمَّتْ بهِ فَصَبيبُها الرُّحَضاء
لم تَلقَ هذا الوَجْهَ شمسُ نَهارِنا ... إلا بوجهٍ ليسَ فيهِ حَياء
فبأيِّما قَدَمٍ سَعَيتَ إلى العُلا ... أُدُمُ الهِلالِ لأخْمَصَيْكَ حِذاء
ولكَ الزَّمانُ مِنَ الزَّمانِ وِقايةٌ ... ولكَ الحِمامُ مِنَ الحِمامِ فِداء
لولم تكنْ من ذا الوَرَى الَّذْ منكَ هُوْ ... عَقِمَتْ بمَولِدِ نَسْلِها حَوّاء

وما أراك فى حاجة إلى أن أدلك على هذه المبالغات التى أسرف الشاعر فيها إسرافاً شديداً كعهده حين يبالغ ، ولا إلى أن أدلك على تعمده اصطناع مذاهب الصوفية واستعارته ألفاظهم ومعانيهم ، واضطراره من أجل هذا كله إلى أن يحمِّل ألفاظه أعباء ثقالاً كما فى هذا البيت :

لو لم تكُنْ من ذا الوَرَى اللَّذْ منكَ هُوْ عَقِمتْ بمولِدِ نَسْلِهَا حوّاء

ولكنك توافقنى فيما أظن أن المتنبى قد جاوز فى هذه القصيدة طوره الذى رأيناه فيه قبل إنشائها حين كان مضطرباً فى شمال الشام يبيع شعره فى سوق الكساد : تجاوز هذا الطور إلى طور جديد وثب إليه وثوباً ، ووثب إليه فجأة وعلى غير انتظار أو قل دفع إليه دفعاً : دفعه إليه انهزام الإخشيديين الذين لقى فى ظلهم ما لقى من المحن ، وذاق في ظلهم مرارة الأسر والسجن والحرمان ، ورجوع الأمر فى الشام إلى عربى مهما يكن أمره ومذهبه ، فليس تركيا ولا زنجيا كالإخشيد وابن كيغلغ وكافور . ولا شك فى أن هذا الأمل القوى الذى ملأ نفس المتنبى وقلبه قد رد إليه الثقة بفنه إن لم يكن رد إليه الثقة بنفسه ؛ فهو مطمئن منذ الآن إلى أنه لن يبيع شعره فى سوق الكساد . و إذا لم تعد إليه الثقة بنفسه قائداً أو زعيماً أو سيداً عظيماً ، فلا أقل من أن الثقة قد عادت إليه بنفسه شاعراً بارعاً نابغة مقرباً إلى الأمراء ، ثم إلى الملوك ، ثم من الخليفة ، من يدرى !

وقد رأيت كيف أثر اتصاله بالتنوخيين فى فنه ، فوثب به من طور إلى طور ، فكيف به الآن وهو يرجو أن يتصل بمن لا يقاس إليه التنوخيون قوة و بأساً ، وثروة وجاهاً ، وقرباً من الملوك والخلفاء ! ومهما يكن من شىء فقد غُلِب المتنبى على أمره : غلبه فنه، وغلبته سُنّة هذا الفن . كان يظن و يرجو أن يكون رجلاً مستقلا له رياسة وزعامة وسلطان . وكان يظن فى أول أمره أن يصلح بثورته كثيراً من شؤون الحياة ونظم الاجتماع . ثم كان يظن بعد ذلك أن يتخذ الثورة وسيلة إلى الحكم والسلطان ، إذا لم يستطع أن يتخذها وسيلة إلى الإصلاح .

ولكن التجربة علمته أنه لم يُخْلَقْ لهذا ، وإنما خُلق ليسلك طريق الشعراء من قبله ، فيمدح الطغام ، ثم أوساط الناس ، ثم أشرافهم ، ثم من يدرى ! لعله يصل إلى القصر .

غلبه فنه وغلبته طبيعة الشاعر ، وانهزم المتنبي المصلح ، وانهزم المتنبي الطموح إلى الاستقلال ، ولم يبق من كل تلك الآمال والمطامع إلا شاعر يلتمس الثروة والغنى ، ويجدّ فى سبيل اللذة المعتدلة والهدوء . وقد يقوى طمعه ، وقد تحدّثه نفسه بالطموح إلى شيء من السلطان يوماً ، ولكنه على كل حال لن يفكر فى الاستقلال ، ولن يتصور الحياة إلا فى ظل رجل عظيم من هؤلاء الذين كان يذمهم ويشهر بهم ، والذين سيذمّهم ويشهر بهم أيضاً فيما سيستقبل من أيامه .

كان كبر نفس المتنبي فى شبابه خِداعاً وضلالاً ، لم يلبث أن زال عنه حين تعرّض للخطر الصحيح . وسيبقى من كبر المتنبي هذا ، وسيبقى من رغبة المتنبي فى الإصلاح وسخطه على الناس ، وانتقاضه على المألوف من نظم الحياة ، كلام كثير لا يخلو من قوة وروعة وجمال ، ولكنه كلام لا أكثر ولا أقل .

ولست أدرى أكان الأوراجى هذا قريباً أم بعيداً من بدر بن عمار ، ولكن المتنبي أقام معه حيناً على كل حال ، كما تدل على ذلك طرديته التى أشرنا إليها آنفاً ، ثم اتصل من طريق الأوراجى هذا فيما أرى ببدر ؛ فلا تسل عن فرحه ومرحه ، ولا عن ابتهاجه وامتلاء نفسه بالغبطة والرضا ، ولا تسل عن ارتفاع فنه وانحطاط نفسه ، إذا لم يكن بد من أن نقلّده مرة فنصطنع الطباق .

٢

ومع ذلك فبدر هذا الذى يُقبل عليه المتنبى وقد امتلأ قلبه بالإقبال عليه بهجة وسروراً يعجز عن إخفائهما فيما سترى من شعره ، هو الذى هجاه المتنبى نفسه قبل ذلك بثلاثة أعوام أو أربعة ، حين ولى على حلب ، فأقبل إسحاق ابن كيغلغ من قبل الإخشيد ، فأزعجه عنها وردّ إليها واليها السابق . وذلك حين يقول المتنبى فى الدالية التى استعطف بها ابن كيغلغ وسأله فيها أن يعفو عنه :

رَمَى حَلَبًا بنواصى الخُيُولِ ... وسُمْرٍ يُرِقْنَ دَمًا فى الصَّعِيدِ
وبِيضٍ مُسَافِرَةٍ ما يُقِمْـ ... نَ لا فى الرِّقابِ ولا فى الغُمودِ
يَقُدْنَ الفَنَاء غَدَاةَ اللِّقَاء ... إلى كلِّ جَيْشٍ كَثِيرِ العَدِيدِ
فوَلَّى بأشياعِه الخَرْشَنِىُّ ... كَشَاء أحَسَّ بزَأْرِ الأُسُودِ
يَرَوْنَ من الذُّعْرِ صَوتَ الرِّيَاحِ ... صهيلَ الجِيَادِ وخَفْقَ البُنُودِ

فقد كان بدر وأصحابه إذن غنما تشفق من زئير الأسود ، وكانوا هرابا تروعهم أصوات الرياح ، فيسمعون فيها صهيل الجياد وخفق البنود .

فأما سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة حين دارت الدائرة على الإخشيديين فى هذا القسم من بلاد الشام ، وحين أتيحت لبدر ولاية طبرية ، وأتيح للمتنبى أن يتصل به ، فانظر كيف يستقبله المتنبى وكيف يتحدث عنه :

أحُلْمًا نَرَى أم زمانًا جَدِيدا ... أمِ الخَلْقُ فى شخصِ حَىٍّ أُعِيدا
تَجَلَّى لنا فأضأنا به ... كأنَّا نُجومٌ لَقِينَ سُعُودا
رَأَيْنا بِبَدْرٍ وآبائِهِ ... لِبَدْرٍ وَلُودًا وبَدْرًا وَلِيدا

فالحياة كما ترى فى ظل بدر من الروعة والجلال ومن البهجة والجمال ، بحيث تخلط الأمر على الشاعر ، فيخيَّل إليه مرة أنها حلم ، ويخيل إليه مرة أُخرى أن الزمان قد تجدد ، ويخيل إليه مرة ثالثة أن الله قد سمع لأبى نواس ، فجمع الخلق كله فى شخص واحد . وهو يوضح هذا كله ويجمله بهذا البيت الثانى الذى يزعم فيه أن بدراً تجلى له وللناس ، فاكتسبوا منه ضوءهم وبهاءهم كأنهم النجوم قد لاقت سعودا .

وتستطيع أن تقول : إن هذا تلون الشعراء وتقلبهم ، كما تتلون الحياة ، وكما تتقلب صروف الأيام . وما أُخالفك فى ذلك ، وما أُنكر عليه منه شيئاً ، وإنما أُلاحظ أن صاحبنا شاعر قبل كل شىء ، يغلبه فنه وطبيعته الشاعرة المشبهة لطبيعة الشعراء المعاصرين له على ما ظهر فى صباه وشبابه من القوة والأيد ، ومن شدة البأس وصعوبة المراس والطموح إلى جلائل الأعمال .

فالذين يرون هذا الاضطراب فى حياة الشاعر الفتى ويحسون انهزام المصلح والفيلسوف ، وصاحب الحزم والعزم ، أمام الشاعر الذى يكسب حياته بالمدح الكاذب والثناء الباطل ، وينكر نفسه كلما اقتضت منه المنفعة العاجلة إنكارها ، ثم ينظرون إليه على رغم ذلك كما ينظرون إلى المصلح الفيلسوف ، وينتظرون منه على رغم ذلك ما ينتظرون من المصلح الفيلسوف ، يكلِّفون أنفسهم عناء لا يغنى ، ويكلفون العلم شططا لا يستطيع العلم له احتمالا . لقد ملك الفرح بلقاء بدر على المتنبي أمره ، كأنه المسافر قد أحرقه الظمأ ، حتي كاد يشرف على الهلاك ، ثم رأى الماء ، فأقبل عليه مندفعاً ، لا ينظر وراءه ولا يفكر فيما قد يتعرض له بعد أن يُروى غلته ، ويشفى صداه . وكذلك اندفع المتنبى فى مدح بدر بهذه القصيدة الدالية التى أراها أولى مدائحه لهذا الأمير ، والتى أعجل فيها الشاعر عن المقدمة والتمهيد ، فلم ينسب ولم يتغنَّ وإنما هجم على المدح هجوماً فى غير تحفظ ولا احتياط . وما أرى أنه قد جدد فى فن

المدح شيئاً ، أو أحدث فيه ما لم يسبقه إليه الشعراء المادحون . ولكني أحس في هذه القصيدة قوة قوية مشتقة من أمل الشاعر ونشاطه ، ومن حدة نفسه وتهالكه على الراحة بعد التعب ، وعلى الرضا بعد السخط ، وعلى الغنى بعد الفقر ، وعلى الأمن والهدوء بعد الخوف والإشفاق .

وهذه القوة تفيض على القصيدة رونقاً يجرى فى أبياتها شيئاً من الإشراق المبتهج الذى يحببها إليك ، ويجذبك إليها ، وإن لم تجد فيها غناء . وهى تفيض على ألفاظ القصيدة جزالة لا تجحد ، ورصانة ليس فيها شك . وما أرى إلا أن ما كان يملأ نفس الشاعر من فرح وأمل ونشاط ، هو الذى دفعه إلى هذا البحر المتقارب الذى يلائم اضطرابَ النفس بالأمل القوى حين تضطرب بالأمل القوى ، وغليان النفس بالحزن المضطرم حين تغلى بالحزن المضطرم .

واقرأ معى هذه الأبيات فسترى هذا كله واضحاً فيها أشد الوضوح :

طَلَبْنَا رِضَاهُ بِتَرْكِ الذى رَضِينا لهُ فتركْنَا السُّجُودا
أَميرٌ أَمِيرٌ عليْهِ النَّدَى جَوادٌ بخَيِلٌ بأَنْ لاَ يَجُودَا
يُحَدِّثُ عن فَضْلِهِ مُكْرَهاً كأنَّ لهُ مِنْهُ قلباً حَسُودا
ويُقْدِمُ إلاّ عَلى أن يَفِرَّ ويَقْدِرُ إلاّ عَلى أَنْ يَزِيدا

فانظر إلى الشاعر كيف يؤثر الإيجاز فى أبياته ويفر من التفصيل فراراً ، يضمن كل بيت معنى مستقلاً ، وقد يضمن البيت معنيين يستقل بكل واحد منهما شطر من الشطرين ، كأنما الشاعر عجلٌ يريد أن يغلب الأمير على التفكير والروية ؛ فهو يرميه رمياً سريعاً جدا بهذه الأزهار المتلاحقة التى ليس بينها أناة ولا مهل ، حتى يبهر الأمير ويُعجله عن أن ينظر فى هذه الأزهار نظر المتحن المتخير ، أو كأنه يريد أن يدفنه فى هذه الأزهار ؛ فهو يلح عليه بها إلحاحاً حتى يضطره إلى أن يقفه ، وأن يقول له : حسبك فقد أرضيت وأربيت .

ولسنا نحن مُتَعجِّلين عن التفكير والروية ، ولسنا نخاف من الشاعر أن يدفننا فى أزهاره هذه ؛ فقد ذبلت هذه الأزهار بعد أن مضى عليها أكثر من عشرة قرون . ونحن إذن ننظر فيها على نحو من الأناة والمهل ، يكشف لنا عن نفس الشاعر الذى صاغها ووهبها لهذا الأمير .

ونحن إذا نظرنا فى هذه الأزهار ، دلتنا على أن الشاعر كان يريد أن يبهر ممدوحه من جهة ، وكان صادقاً فى تصوير ما يملأ نفسه ويملكها من الفرح والمرح والسرور ؛ فهو يصطنع المبالغة ، ولكنه لا يتكلفها ليخدع بها الممدوح عن نفسه وماله ، وإنما تصدر عنه في غير تكلف ؛ لأنها تصور نفسه الراضية المبتهجة الآملة . كان يريد أن يسجد للأمير ، ولكن الأمير كره أن يُعْبَدَ من دون الله ، فأرضاه الشاعر بترك السجود له . ولو أن بدراً طغى على نفسه وعلى الناس ، وخرج عن طوره ، ورضى من المتنبي وأشباهه أن يسجدوا له ، لما تردد المتنبى ، فيما أرى ، ولما كره أن يتقرب إليه بالسجود وأن يخرج له عن هذه الكبرياء التى صورته لنا فى شبابه عزيزا أبيًّا لا يقبل الضيم . وسنرى أن حياة المتنبي منذ ذلك الوقت ليست إلا سلسلة متصلة من بذل هذه الكبرياء ، للسادة والقادة والأمراء ، ثم البكاء عليها بعد أن يبذلها ويفرط فيها . وسنرى أن المتنبي لم يخرج لبدر وأشباهه عن كبريائه وحدها ، بل خرج لهم كذلك عن أشياء كثيرة أُخرى ليست أقل من الكبرياء خطراً عند الرجل الكريم .

والمتنبي يرى أن بدراً هو الأمير كل الأمير ، لا يؤمر عليه إلا الندى ، ويرى أنه الجواد ، كل الجواد لا يبخل على الناس إلا بالبخل . ويرى أنه إذا مُدِح كره المدح وضاق به ، كأنه يحسد نفسه . ويرى أنه يُقْدِم على كل شيء إلا الفرار ، ويقدر على كل شيء إلا على أن يزيد حظه من الفضيلة ؛ لأنه قد بلغ أقصاها الذى لا مزيد عليه .

والشاعر يمضى على هذا النحو إلى آخر القصيدة : معان قوية تستمد قوتها من المبالغة والطباق ، ومتلاحقة يدفع بعضها بعضاً ، وتحملها إلى أُذن الممدوح ألفاظ

خفيفة سريعة كأن لها أجنحة تشق بها الهواء . وهى مع ذلك متينة رصينة لا تؤذى السمع ولا تنبو عن الطبع . فإذا بلغ المتنبى رضا ممدوحه ، وأخذ من ماله حتى اكتفى ، وأمن بعد خوفه ، واستراح بعد جهد ، وتفطى ، كما يقول أبو نواس ، من دهره بظل جناحه ، ثابت إليه نفسه ، وعاد إليه رشده ، وتقدم فى مدحه هادئاً مطمئناً ومفكراً مروئاً .

ويجب أن نعتدل ونقتصد حين نذكر تفكير المتنبى وترويته ، فهو لا يفكر ولا يروّى إلا فى فنه ، فأما فى طبيعة الأشياء ، وأما فيما يحسن وما لا يحسن ، وأما فيما يقال وما لا يقال ، فالمتنبى لا يعرف تروية ولا تفكيراً . وإنما هو إذا أقبل على بدر بالمدح بعد هذه القصيدة سلك طريقه المألوف، واصطنع الأناة والمهل ، فقدّم النسيب والغناء بين يدى المدح والثناء ، ولم يندفع بمعانيه وألفاظه اندفاع السيل المنحدر من القمة العالية إلى القاع السحيق ، وإنما سار بها سيراً يختلف سرعة وبطئاً ، ولكنه معتدل على كل حال . وهو غير مُعَجّلٍ عن نسيبه حين ينسب ، ولا عن تشبيهه حين يشبّه ، ولا عن وصفه حين يصف ، وهذا لا يمنعه من المبالغة والإسراف ، بل قد يدفعه إليهما دفعاً .

فانظر إلى هذه القصيدة التى مدح بها بدراً ، وقد أراد الطبيب أن يفصده فغلظ عليه وأذاه ذلك بعض الشىء ، فسترى أنه قد عاد فيها إلى مذهبه ومذهب غيره من الشعراء ، فقدّم بين يدى المدح بهذا الغزل المصنوع الذى يظهر فيه جهد العقل والفن أكثر مما تظهر فيه حرارة العاطفة وقوة الشعور . ثم تغنى بعد ذلك بشىء يسير من أمره ومن خُلقه ، وكأن صوابه قد ثاب إليه ، وكأنه يسترد من نفسه بعض ما أعطى ؛ فهو يتحدث بكثرة تنقله ، وبأنه إذا أنكر قوما زال عنهم ، وبأن أرض الله واسعة وفيها للكريم مضطرب ، كما قال القدماء . ثم هو بعد ذلك يمضى فى مدح بدر ، حتى يصل إلى خطأ الطبيب . فانظر إليه كيف يصور هذا الخطأ فى هذا التكلف الذى قد لا يخلو من سماجة تخفيها جزالة الألفاظ ورصانتها :

لم تُبقِ إلاّ قليلَ عافيةٍ ... قد وَفَدَتْ تجتديكها العِلَلُ

عُذْرُ المَلُومين فيكَ أنّهما ... آسٍ جبانٌ ومِبْضَعٌ بَطَلُ

مَدَدْتَ فى راحةِ الطّبيب يدًا ... فما دَرَى كيفَ يُقطَعُ الأمَلُ

إن يكُنِ البَضعُ ضَرَّ باطِنَها ... فربّما ضرّ ظهرَها القُبَلُ

يَشُقّ فى عِرْقِها الفِصادُ ولا ... يَشُقُّ فى عِرقِ جُودِها العَذَلُ

خامَرَهُ إذ مَدَدْتَها جَزَعٌ ... كأنّهُ من حَذاقةٍ عَجِلُ

جازَ حُدُودَ اجتهادِهِ فأتَى ... غَيرَ اجتهادٍ لأُمّهِ الهَبَلُ

أبلَغُ ما يُطلَبُ النّجاحُ بهِ الـ ... ـطّبْعُ وعِندَ التعمّقِ الزَّلَلُ

إرْثِ لهَا إنّها بما مَلَكَتْ ... وبالذى قد أسَلْتَ تَنهمِلُ

مِثْلُكَ يا بَدْرُ لا يكونُ ولا ... تَصْلُحُ إلاّ لمثلِكَ الدُّوَلُ

أما أنا فلا أرى فى هذا الكلام جمالاً ولا حسنا ، وإنما أرى فيه صنعة ثقيلة ، وتكلفا بغيضا ، وسماجة يخفيها الفن ويسبغ عليها زينة كاذبة ، وحلية باطلة . وليس يعدل ما فى هذا الكلام من السماجة الخفية إلا هذه السماجة الظاهرة فى بيت آخر من هذه القصيدة يسبق هذه الأبيات ، وهو قوله :

يا بَدرُ يا بَحرُ يا غمامةُ يا ... لَيثَ الشَّرَى يا حِمامُ يا رَجُلُ

وما أشكّ فى أن المتنبي كان معجباً بهذا البيت . وما أشك فى أنه أنشده مُقَطَّعاً له ، واقفاً عند كل جزء من أجزائه وقد ملأه التيه والغرور . وما أشك فى أن إعجاب «بدر» بهذا البيت لم يكن أقل من إعجاب المتنبي . وما أرتاب فى أن كثيراً من الناس يعجبون به ويغلون فيه ، كما فعل المادح والممدوح . ولكنى لا أدرى لماذا يخيّل إلىّ أن هذا البيت يصور أسمج ما كان فى المتنبي حين كان ينشد بين يدى ممدوحيه من هذه الخيلاء التى لا تمثل إلا ذلة وضعة وضعفاً وسخفاً .

على أن أجود ما قال المتنبي فى «بدر» عندى هى لاميته ، التى يصف فيها ما كان

بين بدر و بين الأسد من صراع ينتصر فيه بدر . فالمتنبي قد صوّر الأسد المصارع المدافع فى هذه القصيدة ، وصور هذا الصراع والدفاع تصويراً رائعاً بارعاً ، بذّ فيه نفسه ، وفاق فيه طاقته ، وخرج فيه عن طوره المألوف .

وأكاد أعدّ هذه القصيدة من آيات المتنبي ، بل أنا أعدها من هذه الآيات ، ولا سيما هذا القسم الوصفى منها ، لولا أن فيها سخفاً سخيفا ورطته فيه المبالغة وردته إلى بعض ما كان يهذى به فى شبابه مما ينحرف عن الدين فى غير روية ولا تفكير ولا غناء فلسفى . فقد يُحْتَملُ من الشاعر أو المفكر أن ينحرف عما يألف الناس وعما يحبون و يؤثرون حين يدعوه إلى ذلك لون من ألوان الجمال ، أو يغريه بذلك فن من فنون التفكير أو رأى من الآراء الفلسفية . فأما أن يتجاوز القصد و ينحرف عن المألوف ، لا لشيء إلا ليزيد فى تملق ممدوحه ، و يزيد بذلك حظه من الجائزة ، فهذا هو الصغار الذى لا ترضاه إلا النفس الصغيرة . وهذا السخف الذى دُفِع إليه المتنبي فى هذه القصيدة هو قوله :

لو كانَ عِلْمُكَ بالإلٰهِ مُقَسَّمًا فى الناسِ مَا بعَثَ الإلٰهُ رَسُولا
لو كان لَفظُكَ فيهمُ ما أَنزَلَ ألْ غرْقانَ والتَّورَاةَ وَالإنجيلا

أفتراه طمع فى أن يستهوى بدراً إلى قرمطيته القديمة ؟ من يدرى ! ولكننا نتجاوز له عن هذا السخف فى سبيل هذا الوصف الرائع الذى لا بد من روايته ؛ لأنه أجمل من أن يهمل :

أَمُعفَّرَ اللّيثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطه لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصارمَ المصقولا
وَقَعَتْ على الأُرْدُنِّ مِنْهُ بَليَّةٌ نُضِدَتْ بها هامُ الرِّفاقِ تُلولا
وَرْدٌ إذا وَرَدَ البُحَيرةَ شارباً وَرَدَ الفُراتَ زَئيرُهُ والنيــلا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوَارِسِ لابِسٌ فى غِيلِهِ من لِبدَتَيْه غيلا
ما قُوبلَتْ عَيناه إلاّ ظُنَّتا تحتَ الدُّجَى نارَ الفَرِيقِ حُلولا

فى وَحْدةِ الرُّهبانِ إلاَّ أنهُ ... لا يَعرِفُ التَّحريمَ وَالتَّحليلا
يَطأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقاً مِنْ تِيهِهِ ... فكأنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عليلا
ويَرُدُّ عُفرَتَه إلى يافوخِهِ ... حَتَّى تَصيرَ لرأسِهِ إكْليلا
وتَظُنُّه مِمَّا يُزمْجِرُ نَفسُهُ ... عنها لِشِدَّةِ غَيظِهِ مَشغُولاً
قَصَرَتْ مَخافتُهُ الخُطَا فكأنَّما ... رَكِبَ الكَمِيُّ جوادَهُ مَشكُولا
ألقَى فَريستَهُ وَبَرْبَرَ دُونَها ... وَقَرُبْتَ قُرباً خالَه تَطفيلا
فتَشابهَ الخُلُقانِ فى إقدامِهِ ... وَتَخالَفَا فى بَذْلِكَ المأكُولا
أسَدٌ يَرَى عُضْوَيه فيكَ كِلَيهِمَا ... مَتْناً أزَلَّ وَساعِداً مَفتُولا
فى سَرْجِ ظامِئةِ الفُصوصِ طِمِرَّةٍ ... يأبَى تَفَرُّدُها لها التَّمثيلا
نَيَّالةِ الطَّلِباتِ لَوْلا أنَّها ... تُعطِى مَكانَ لِجامِها ما نِيلا
تَنْدَى سَوالِفُها إذا استَحْضَرتَها ... ويُظَنُّ عَقْدُ عِنانِها مَحلولا
ما زالَ يَجْمَعُ نَفْسَهُ فى زَوْرِهِ ... حتى حَسِبْتَ العَرْضَ مِنْهُ الطُولا
وَيَدُقُّ بالصَّدْرِ الحِجارَ كأنَّهُ ... يَبْغِى إلى ما فى الحضيضِ سَبيلا
وكأنَّهُ غَرَّتْهُ عينٌ فادَّنَى ... لا يُبصِرُ الخَطْبَ الجَليلَ جَليلا
أنَفُ الكَريمِ من الدَّنيئةِ تارِكٌ ... فى عَينِهِ العَدَدَ الكَثيرَ قليلا
وَالعارُ مَضَّاضٌ وَلَيْسَ بِخائِفٍ ... مِن حَتفِهِ مَنْ خافَ مِمَّا قِيلا
سَبَقَ التِقاءَكَهُ بِوَثْبَةِ هاجِمٍ ... لو لم تُصادِمْهُ لجازَكَ مِيلا
خَذَلَتْهُ قُوَّتُه وقد كافَحْتَهُ ... فاستَنْصَرَ التَّسليمَ وَالتَّجديلا
قَبَضَتْ مَنِيَّتُهُ يَدَيهِ وعُنْقَهُ ... فكأنَّما صادَفْتَهُ مَغلولا
سَمِعَ ابنُ عَمَّتِهِ به وبِحالِهِ ... فنَجا يُهَرْوِلُ أمسِ منكَ مَهولا
وأمَرُّ مِمَّا فَرَّ منهُ فِرارُهُ ... وكَقَتلِهِ أن لا يَموتَ قَتِيلا

فهذا كلام يكفى أن تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة ، وترى فيه فتوة وقوة ، ما أرى إلا أن الشاعر قد استعارهما من نفسه ، وخلعهما على ممدوحه ؛ لا لأنى أجحد بلاء ابن عمار حين ردّ الأسد عن نفسه بالسوط ، بل لأنى أحس روح الشاعر يجرى فى هذا الكلام قويا فتيًا مستجمعاً قوته وفتوته ، كأحسن ما استجمعهما فى شعره كله . وأنت تستطيع أن تقدر ما فى هذا الكلام من جزالة تلائم ما فيه من سهولة ويسر ، وأن تقدر ما وفق له الشاعر أحسن توفيق من وصف الناس ، والفرس ، والليث ، وما كان بين الخصمين من صراع ، ثم من الجمع بين وصفه المادى ، ووصفه المعنوى النفسى لليث ، إن صح هذا التعبير ، ثم من حديث هذا الأسد الآخر الذى جعله ابن عمة الأسد القتيل ، فقد سمع بما ألم بابن خاله ، ففر وآثر العافية لنفسه .

وأنت معجب كذلك بهذه الأبيات التى ينثر الشاعر فيها حكما وأمثالاً أثناء هذا الوصف الرائع ؛ لا لأن هذه الحكم والأمثال طريفة فى نفسها ، فهى مما ألف الناس ، بل لأن موقعها أثناء هذا الوصف لا يخلو من الطرافة . فالناس إنما يفلسفون ويضربون الأمثال حين يتحدثون عن بلاء الإنسان وما يحدث له من الخطوب . فإذا تحدثوا عن بلاء الحيوان وما يعرض له من الأمر ، فقلما يفلسفون ؛ لأن الحيوان نفسه لا يفلسف ولا يروِّى . ذلك إلى أن مكان هذه الحكم والأمثال يُشيع فى هذا الوصف غناء يخرجه عن أن يكون وصفاً عاديا ، كما يخرجه عن أن يكون مدحا عاديا .

ولسنا نعرف دقائق حياة المتنبى عند بدر ، ولكننا نقدر أن هذا الشعر الرائع قد أرضى بدرًا كل الرضا ، وأثار فى نفوس حاشيته شيئاً من الحسد ، لم تلبث آثاره أن ظهرت واضحة كل الوضوح . وقد أشار إليها المتنبى نفسه فى هذه اللامية الأخرى التى مدح بها بدراً ، والتى يقول فيها :

بَقائِى شاءَ لَيسَ هُمُ ارتحالا وحُسْنَ الصَّبرِ زَمُّوا لا الجِمالا

فهو ينسب فى أول هذه القصيدة نسيباً مصنوعا كهذه منذ أقام عند بدر ،

ثم ينتقل من هذا النسيب إلى غناء يذكر فيه نفسه . ولا شك فى أنه يعرِّض فيه بحاله الخاصة ، ويكاد ينبئنا بأنه سيضطر إلى الرحيل عن بدر ؛ وذلك حيث يقول :

كأنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بقلبى فساعةَ هَجْرِها يَجِدُ الوِصالا
كذا الدُّنيا على مَنْ كانَ قَبْلِى صُرُوفٌ لم يُدِمْنَ عَلَيه حالا
أشَدُّ الغَمِّ عِندِى فى سُرُورٍ تَيَقَّنَ عنه صاحِبُهُ انتقالا
أَلِفْتُ تَرَحُّلِى وجَعَلْتُ أرْضِى قُتُودِى والغُرَيْرِىَّ الجُلالا
فما حاولْتُ فى أرضٍ مُقامًا ولا أزْمَعْتُ عَنْ أرضٍ زَوَالا
على قَلَقٍ كأنَّ الرِّيحَ تَحتِي أُوَجِّهُها جَنوباً أو شَمالا

وكأنه أشفق أن يُفْهَمَ عنه هذا التعريض على وجهه ، وأن يُشْعَرَ بما يدبِّر فى نفسه ، فجعل هذا البيت الأخير تخلصاً إلى صاحبه ، وزعم أنه يوجه هذه الريح إلى بدر . ثم يمضى فى مدح بدر حتى يصل إلى هذين البيتين اللذين سيتمثلهما فى بغداد بعد أكثر من خمس وعشرين سنة ، حين يلح عليه شعراء العراق بالهجاء ، فيسأله أصحابه أن يردَّ عليهم ، فيزعم أنه سبق إلى الرد عليهم فى شبابه حين قال :

أرَى المُتَشاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّى ومن ذا يَحْمَدُ الداءَ العُضالا
وَمَنْ يكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقد أضاف ابن رائق السواحل إلى عمل بدر ، فهنأه المتنبى بمقطوعة تجدها فى الديوان ، ولكن بدرا حين سافر إلى السواحل ليتسلم ما أُضيف إليه من الأقاليم ، لم يصحبه المتنبى فى سفره هذا . وانتهز خصومه هذه الفرصة فأغروا به الأمير وحرّضوه عليه . وكأن إغراءهم وتحريضهم قد وقع من نفس بدر موقعا ؛ فنحن نرى المتنبى يمدحه بعد عودته ويعتذر إليه من هذا القعود ، بل يستغفره هذا الذنب فى قصيدة نونية ليست فى نفسها شيئاً ، ولعل روحاً من السماجة يجرى فيها خفيًّا حيناً وظاهرا حينا آخر . ولكنا نروى منها هذه الأبيات التى يصرِّح فيها بذكر حساده وخصومه :

فَطَنَ الفؤادُ لَمـا أتَيْتُ إلَى النَّوَى ‏ ‏ ولِمَا تَرَكْتُ مخافةً أنْ تَفْطُنا

أضحَى فِراقُكَ لى عليه عُقوبةً ‏ ‏ لَيْسَ الذى قاسَيْتُ منهُ هَيِّنا

فاغْفِرْ فدًى لك واحْبُنى من بَعْدِها ‏ ‏ لَتخُصَّنى بعَطِيَّةٍ منها أنا

وانْهَ المُشيرُ عليكَ فىَّ بِضَلَّةٍ ‏ ‏ فالحُرُّ مُمْتَحَنٌ بأولادِ الزِّنى

و إذا الفتَى طَرَحَ الكلامَ مُعَرِّضاً ‏ ‏ فى مَجْلِسٍ أخَذَ الكلامَ اللَّذْ عَنَى

ومَكايِدُ السُّفهاء واقِعةٌ بِهِم ‏ ‏ وَعداوَةُ الشُّعَرَاءِ بِئْسَ المُقْتَنَى

لُعِنَتْ مُقَارَنَةُ اللِّئامِ فإنَّها ‏ ‏ ضَيْفٌ يَجُرُّ من النَّدَامَةِ ضَيْفَنَا

غَضَبُ الحَسُودِ إذا لَقِيتُكَ رَاضِياً ‏ ‏ رُزْءٌ أخَفُّ عَلَىَّ مِنْ أنْ يُوزَنَا

٣

فما الذى هاج الحسّاد على المتنبى حتى وَشَوْا به عند بدر ، وأخذوا يفسدون ما بينهما ؟ أهو ما قدمناه من أن المتنبى قد برع فى مدح بدر حتى أرضاه ، ومن أن بدراً قد جدّ فى إعطاء المتنبى حتى أرضاه أيضاً ، فنشأ عن هذا ما ينشأ عادةً فى نفوس المقرّبين من الأمراء وأصحاب السلطان ، حتى انتهى بهم الأمر إلى الكيد لهذا الشاعر الطارئ ، الذى صرف عنهم الأمير شيئاً ، وهم حِراص على أن يخلو لهم وجهه ؟ ليس من شك فى أن شيئاً من هذا قد هاج حسد الحساد على المتنبى . وقد نستطيع أن نضيف إلى هذا ما يلائم طبيعة البيئة العراقية التى انتقلت مع بدر إلى طبرية ؛ فقد كانت هذه البيئة ماهرة فى الكيد حقًّا ، تعيش فيه كما يعيش السمك فى الماء ، وتفسد حياتها إن خرجت من الكيد أو اضطرت إلى شىء من الصراحة والنقاء . وأيسر نظرة وأعجلها فى حياة القصر البغدادى ، تُقنعنا بأن الكيد كان قوام الحياة حول الأمراء وأصحاب المناصب فى ذلك العصر . فليس غريباً إذن أن يشقى المتنبى بهؤلاء الكائدين ، وألا يطول ابتهاجه بالإقامة عند هذا الأمير الذى كان يقدر أنه سيلقى عنده الأمن والهدوء وتحقيق الآمال . ولكن يجب أن نلاحظ شيئين ، بل أشياء :

الأول: أن المتنبى كان مفتونا بنفسه ، يظهر ذلك فى شعره وحديثه وسيرته ، ويستعلى على أصحابه عند الأمير .

الثانى : أن المتنبى لم يألف قبل ذلك الوقت معاشرة السلطان ولا حياة القصور ، وإنما ألمّ بشىء يسير جدًّا من ذلك مع التنوخيين فى اللاذقية ، ثم صرفته عنه المحنة ، ثم عاش مشرّدا يكسب حياته بمدح أوساط الناس و بالتنقل فى البادية . فلما اتصل

ببدر استقبل حياةً لم يكن قد هُيِّئَ لها ، فلم يحسن تعرُّف ما يحتاج إليه الأمير من شاعره . وليس أدل على ذلك من قعوده عن مصاحبة الأمير فى سفره إلى الإقليم الذى أضيف إليه ، والذى هنأه به المتنبي نفسه .

والثالث : أن الأمير قد أخلص فى حب المتنبي و إيثاره بالخير واصطفائه لنفسه ، حتى ألغى الحجاب بينه و بينه ، واستطاع المتنبي أن يدخل عليه وقد حجب نفسه عن الناس[1] ، ثم اشترك المتنبي معه فى لهوه وعبثه ومجونه . ونحن نرى من الديوان أن صاحبنا لم يكن نديماً يحسن المنادمة ؛ فهو كان يمتنع على الأمير إذا طلب إليه الشرب ، ولا يستجيب له إلا كارهاً . وهو كان يظهر من ذم الخمر والانصراف عنها ما لا يُرضى فتى ماجنا لاهيا من فتيان العراق . وكان المتنبي يأتى ذلك فى صراحة لا تعرف التحرُّج . ثم إذا ألح الأمير عليه فى الشرب شرب حتى سكر ، وحتى ذهل عما يأتى وعما يقول .

فليس غريبا أن يثقل هذا منه على الأمير ، وأن تنتهز حاشية الأمير الفرصة فتضيف كيداً إلى كيد . وكان المتنبي إذا خلا إلى الأمير فى ساعات لهوه أكثر من ارتجال الشعر لحاجة ولغير حاجة ، يريد أن يبهر الأمير و يسحره ، و يستعلى على حاشيته وندمائه ، حتى ظُنَّتْ به الظنون ، وحتى زعم ابن كروَّس للأمير أنه يصنع هذا الشعر و يهيئه قبل أن يحضر المجلس . فامتحنه بدر فى القصة المعروفة[2] التى تحدثنا بأنه أحضر لعبة تمثل فتاة قد وقفت على رجل ورفعت رجلها الأخرى وهى تدار على لولب ؛ فإذا وقفت بحذاء أحد من المجلس نقرها فدارت عنه إلى غيره . فقال فيها المتنبي شعراً كثيراً لا يملك قارئه إلا أن يفكر فى أحاديث « هوفمان » .

وثبت لبدر ولابن كروَّس أن المتنبي يرتجل حقًّا . وكان المتنبي خليقاً أن يكتفى بهذا ، ولكنه سجل انتصاره تسجيلا . وكذلك لم يكن المتنبي يحسن احتمال ما يلقى

(١) انظر الواحدى ص ٢٣٨ .
(٢) » » ص ٢٤٣ .

من الدعابة فضلا عن الكيد ، فكان ذلك يُحفظ خصومه ، ويزيدهم مكراً به وحنقاً عليه .

وقد أُكره المتنبي على الشرب ليلة ، فشرب حتى سكر وذهل عن نفسه ، فلما أصبح غدا على الأمير ، فعرض عليه الشراب ؛ فقال هذه الأبيات التى تصور غلظته وخشونة طبعه ، وأنه إن صلح للمدح وللمدح الرائع ، فهو أغلظ روحا وأجفى طبعا من أن يصلح لمنادمة الأمراء من أهل العراق :

وَجَدْتُ المُدامةَ غَلاَّبَةً تُهَيِّجُ للقَلْبِ أشْواقَهُ
تُسِيءُ من المَرْءِ تأديبَهُ ولـكن تُحَسِّنُ أخلاقَهُ
وأنفسُ ما للفَتَى لُبُّـهُ وذو اللُّبِّ يَـكْرَهُ إنفاقَهُ
وقد مُتُّ أمسِ بها مَوْتَةً ولا يَشْتَهِي المَوتَ مَن ذَاقَهُ

تقصير فى خدمة الأمير حين يجد الجد ، وقصور عن خدمة الأمير فى أوقات اللهو ، وجهل بحياة القصور ، وامتلاء بالنفس ، وازدراء للأشباه والنظراء . ومن يدرى ! لعل لسان المتنبى لم يكن يستقر فى فمه إذا خلا إلى من كان يظنهم أصدقاءه وأصفياءه . فإذا أضفت إلى هذا كله كيد رجال القصور ، لم تجد غرابة فى أن يفسد الأمير على المتنبى كل الفساد ، وفى أن يتغير عليه قلب بدر ، ويعجز هو عن إصلاح أمره ، وينظر فإذا هو معرّض للغضب ثم للخطر ، وإذا هو مخيّر بين هذا الشر ، و بين شر آخر كان يظن أنه قد استراح منه إلى آخر الدهر ، وهو الفرار .

٤

وقد فر من جوار « بدر » فلم يُبْعِدْ أول الأمر ، و إنما نزل فى جبَل جَرَش[١] على صديق له يعرف بأبى الحسن علىّ بن أحمد الخراسانى ، ومدحه بقصيدة أقل ما تدل عليه شيئان : أحدهما أن هذه المحنة الجديدة إن نالت من نفسه فإنها لم تنل من فنه بحال من الأحوال . فالشاعر مالك لأمره كله كعهده فى أحسن أوقات الرضا والأمن عند بدر ، لم يضعف فنه ولم يمسسه شىء من هذا الفتور ، بل من هذا الانحلال الذى أدركه بعد أن انجلت عنه محنة السجن . ومعنى هذا أن فن الشاعر كان قد نضج واستحصد ، وانتهى إلى حيث لا تُفْسده المحن ، ولا تزيده المصائب إلا قوة ونضجاً واستحصاداً .

وهذا هو الذى يحملنى على أن أُخالف بعض الذين أرّخوا المتنبى من المُحْدَثين ولا سيما الأستاذ بلاشير ، فأردُّ بعض القصائد التى قالها فى مدح جماعة من الأنطاكيينْ إلى عهد ضعفه وفتوره ذاك قبل أن يلحق ببدر . وسنرى حين نتبع المتنبى فى طريقه كلها ، أن المحن قد تُضعف عزمه وتؤثر فى نفسه ، ولكنها لن تبلغ من فنه إلا مرة أو مرتين . وسنجد لذلك علله الصحيحة التى ليس بينها و بين المحن صلة ، و إنما هى متصلة بنفس الشاعر أو بالموضوع الذى سيعالجه على غير استعداد للقول فيه . فهذه القصيدة التى نحن بإزائها متقنة كل الإتقان ، تصور الشاعر محتفظاً بسلطانه الفنى ، وقدرته على تصريف الألفاظ والمعانى كما يريد .

والشىء الثانى الذى تدل عليه هذه القصيدة أن نفس الشاعر قد أوذيت حقاً بهذه المحنة الجديدة ، وأوذيت فى أعماقها . فالشاعر محزون ، وربما كانت هذه الكلمة أضعف من أن تؤدى ما كان يجد الشاعر من الألم بعد خيبة أمله فى بدر .

(١) انظر معجم البلدان لياقوت .

وإن شئت فقل : إن الشاعر فى هذا الوقت كان يجمع فى نفسه بين خصلتين متناقضتين ، أو بين خصال متناقضة : فهو قد أحس الذل وانكسرت له نفسه ، واحتمل ما لم يتعود أن يحتمل من الضيم ، وهو يجد لذلك لذعاً أليما لا يكاد يطيقه . ثم هو يحس كأن نفسه الأولى قد ثابت إليه ، وكأن عزمه القديم قد راجعه ، وكأن شيئاً يناجيه من أعماق شبابه الماضى ، يدفعه إلى أن يثور آبيا للضيم نابياً على الذين أرادوا أن يضيموه ؛ وهو من أجل ذلك يحس كبر نفسه وعزتها وارتفاعها عن صغائر الأمور ، وأنها أكرم عليه وأشرف عند الناس من أن تطمئن إلى ما أريد بها من الذلة والهوان .

ثم هو بعد هذا كله لم ينس التجربة القديمة ، ولم يغب عنه أثرها فيه وانهزامه لها ؛ فهو فى حاجة إلى كثير من الحذر والاحتياط ، والمهل والأناة ، لا يكاد يهم بالوعيد والنذير حتى يثوب إلى رشده ؛ ولذا هو يحوِّل هذا الوعيد والنذير عن وجهه ، ويجعله أداة شعرية يتخلص بها إلى ممدوحه ليس غير . والشاعر فى هذه القصيدة مشغول النفس بهذا الحزن الذى يملأ قلبه عن النسيب والغزل وتكلف الصنعة الفنية . فهو إذا أراد أن يمدح لم يقدِّم بين يدى المدح إلا هذا الغناء الذى يصور هذه الخصال التى حدثتك عنها آنفاً .

واقرأ معى هذه الأبيات التى يتغنى الشاعر فيها بآلامه وخيبة آماله ، فسترى أن أول ما يتغنى به من ذلك ، إنما هو الذل الذى أحسه ، والندم الذى يحرق قلبه ؛ لأنه رضى هذا الذل وأقام عليه :

لا افتِخارٌ إلا لِمَنْ لا يُضامُ مُدْرِكٍ أو مُحاربٍ لا ينـامُ
ليس عزماً ما مَرَّضَ المرء فيه ليس هَمًّا ما عاقَ عنه الظلامُ
واحتِمالُ الأذَى ورُؤيةُ جانيـ ـهِ غِذاءٌ تَضوَى به الأجسامُ

كأنه حين أراد أن ينشىء هذه القصيدة استوحى شيطان الشعر ، فأحس أن هذا الشيطان يريد أن يدفعه إلى الفخر، وأن يوحى إليه منه ألواناً كما تعوّد أن يفعل .

ولكن الشاعر لا يرى نفسه أهلا للفخر ولا خليقاً به بعد أن ذاق من الذل ما ذاق ، واحتمل من الضيم ما احتمل ؛ فهو يمتنع على شيطانه ويأبى أن يتلقى عنه هذا الوحى الذى لا يلائم حاله ، ولا يصور ما يجد فى نفسه . إنما الفخر لمن يأبى الضيم ويمتنع على الذل منتصراً على المحن والخطوب ، قد ضحّى فى هذه المقاومة بالراحة والنوم ، وآثر الجهاد والسهاد ؛ وما فعلتُ من ذلك شيئاً وإنما انهزمت للمحنة حين ألمّتْ بى ، وآثرت الراحة حين أتيحت لى ، وأنا أُحس من نفسى عزماً ماضيا وهمّاً بعيدا . ولكن ما هذا العزم الذى يقصر صاحبه عن إنفاذه ! وما هذا الهم الذى يرتد عنه صاحبه لأول ما يعرض له من العقبات !

كلا ! إنى أحس فى نفسى حاجة إلى شىء غير الفخر : أُحس فى نفسى ألمـا ، وفى جسمى سقما ، وأكاد أندفع إلى أن أشكو وأبكى ، لا إلى أن أُفاخر وأُكاثر . لقد احتملت الأذى ، ورأيت من كان يجنيه علىّ ويُلحقه بى ، فلم أدفع الأذى عن نفسى ، ولم آخذ من جانيه بحق ، وإنما أذعنت واستكنت ، وآثرت الخضوع والاستسلام .

والشاعر فى هذا الكلام صادق اللهجة حقا ، تُحِسُّ فى شعره أن فؤاده يتفطر ألما ، وأن صدره يغلى غيظاً وحنقاً :

ذَلَّ من يَغبِط الذليـلَ بعَيْشٍ رُبَّ عيشٍ أَخَفُّ منه الحِمامُ
كلُّ حِلْمٍ أَتَى بغَيْرِ اقتدارٍ حُجَّةٌ لاَجِىءٌ إليهـا اللئامُ
مَنْ يَهُـنْ يَسْهُلِ ٱلْهَوَانُ عَلَيْهِ ما لجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

وكأن شيطانه قد جعل يعزّيه ويسلّيه ، ويهوّن عليه احتمال الخَطْب ، فزعم له أنه لم يحتمل ما احتمل ، ولم يرضَ ما رضى إلا ليبلغ ما كان يتوق إلى بلوغه من الثروة والأمن وخفض العيش . وكأن شيطانه جعل يذكّره بأنه كثيراً ما أنكر أن ينعم الجاهلون ويشقى العاقلون ، ثم يتحدث إليه بأن النعمة قد أُتيحت له ، فسعى إليها واشتراها بثمنها ؛ فهو يجيبه بهذا البيت :

ذلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّليلَ بعيْشٍ   رُبَّ عَيْشٍ أخَفُّ منه الحِمامُ

فإذا عجز شيطانه عن إقناعه من هذه الطريق ، سلك إلى إقناعه طريقا أخرى ، فزيَّن له أنه لم يرض ذلاًّ ولم يقبل ضيما ، وإنما صبر وغفر وآثر العفو والحلم . ولكنَّ هذا الباطل لا يخدع الشاعر عن نفسه ، ولا يشغله عما يملأ قلبه من ندم ولوعة ؛ فهو يعلم حق العلم أنه لم يؤثر عفواً ولا حلماً ، وإنما كان عاجزاً عن أن ينتقم لنفسه . ولن يكون الرضا حلما حتى تصحبه القدرة على الجهل ، ولن يكون الإغضاء عفواً حتى تصحبه القدرة على البطش :

كلُّ حِـــلْمٍ أتَى بِغَيرِ اقتدارٍ   حُجَّةٌ لاجيءٌ إليها اللِّئام

كلا ! إن النفس لم تصغر عليَّ إلى هذا الحد ، وإنى لم أيأس منها بعد ، وإنمـا أنا أجد بقية من الأمل وفضلا من الرجاء . لست أُحس الألم لما أدركنى من مساءة . لو كانت نفسى هينة لسهل عليها احتمال الهُون ، كما أن الميت لا يؤذيه ما يلحق جسمه من جراح .

ثم يثب الشاعر من هذا الضعف والانحلال ، ومن هذا اللوم الذى كان يغمر نفسه به ، إلى شىء جديد من الأمل والنشاط ، بل إلى أكثر من الأمل والنشاط . فقد فُتح له باب الرجاء ، واستيقن أنه ما دام لم يرض الذل ولم يحتمله راضياً به غير متألم له ، فهو خليق أن يعرف نفسه ، وأن يسلك طريقه إلى المجد . فقد يكبو الجواد ، ولكنه ينهض من كبوته . وصاحبنا لا ينهض ، وإنما يثب وثوباً ، وإذا هو يسترد كبرياءه كلها ، وإذا هو يطاول الزمان ويغالب الدهر ، وإذا هو ينتهى من ذلك إلى سخفه الماضى وضلاله القديم :

ضاقَ ذَرْعًا بأنْ أضيقَ به ذَرْ   عًا زَمانِى واستكرَمَتْنِى الكِرامُ

واقِفًا تحتَ أخمَصَىْ قَدْرِ نفْسِى   واقفـاً تحتَ أخمَصَىَّ الأنامُ

وما دام قد استرد كبرياءه كلها ، وبدت له نفسه كما يراها ، فهو أعظم وأكرم وأشد

بأساً ، وأمضى عزماً ، من أن يقر على ما أريد عليه من الهوان . وإذا هو يندفع إلى الوعيد كعهده قبل أن يجاوز العشرين :

أَقَرَارًا أَلَذُّ فَوقَ شَرارٍ   ومَرَامًا أَبغِي وظُلْمِي يُرامُ
دُونَ أن يَشْرَقَ الحِجازُ ونَجْدٌ   والعِراقانِ بالقَنَا والشامُ

ولكن بقية من عقل له أو لشيطانه تردُّه إلى الصواب ، وتحمله على الحذر والاحتياط ، وإذا هو يعدل بهذا الوعيد المخيف إلى المدح فيقول :

شَرِقَ الجَوُّ بالغُبارِ إذا سا   رَ عَلِيُّ بنُ أحْمَدَ القَمْقَامُ

وكأنه قد أحس أن بدراً يجدُّ في طلبه مغيظا من هذا الهرب ، أو مغيظا من هذه القصيدة التي انتهت إليه .

ومن يدرى ! لعل بدراً لم يطلبه ولم يحفل به ، وإنما لعب الخوف بنفسه فظن أنه مطارَد مطلوب ؛ فلم يُطِلِ المقام عند صاحبه ، ولم ينعم عنده بأمن ولا راحة ، وإنما أعجل حتى عن وداعه واستئذانه فى الرحيل عنه ، ففر وقال معتذراً :

لا تُنكِرَنَّ رَحِيلِي عنكَ فى عَجَلٍ   فإنَّنِى لِرَحِيلِى غيرُ مُختارِ
ورُبَّما فارَقَ الإنسانُ مُهْجَتَهُ   يَومَ الوَغَى غيرَ قالٍ خَشْيَةَ العارِ
وقد مُنِيتُ بحُسَّادٍ أُحارِبُهُم   فاجْعَلْ نَداكَ عَلَيهِمْ بَعضَ أنصارِى

ومهما يكن من شىء فقد دفع أبو الطيب إلى تلك الحياة البغيضة التى اصطلى آلامها ثلاثة أعوام أو أربعة قبل أن يتصل ببدر . فهو الآن مشرَّد ، يتنقل فى البادية خائفاً من السلطان ، لا يستطيع أن يدنو من أرض الإخشيديين وقد كان بينه وبينهم ما انتهى به إلى سجن حمص ، وقد كان منذ أسابيع يمدح عدوهم بدر ابن عمار . ولا يستطيع أن يدنو من أرض ابن رائق فى الشام وأعالى الفرات وهو طريد بدر . وبدر كما رأيت أثير عند ابن رائق مقرَّب إليه . فليس له إذن أن يهيم فى البادية مخفيا نفسه على البدو ، وأن يستتر فى الحاضرة إن ألمَّ بها منكراً نفسه على الحضر ، قد لفظته الأرض ، وضاقت به الدنيا . وهو يصور لنا هذا أجمل تصوير

وأروعه ، كما يصور لنا سخطه على الذين جنوا عليه هذه المحنة الثانية ، وذلك فى رائيته التى يقول فيها :

عَذِيرِى من عَذارَى من أُمورِ ... سَكَنَّ جَوانِحِى بَدَلَ الخُدُورِ
ومُبْتَسِماتِ هَيْجَاوَاتِ عصرٍ ... عَنِ الأسْيافِ ليسَ عن الثُغور
رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمِى إليها ... وكلُّ عُذافِرٍ قَلِق الضُّفُور
أواناً فى بُيوتِ البَدْوِ رَحْلِى ... وآونةً عَلَى قَتَدِ البَعِـيرِ
أُعَرِّضُ للرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِى ... وأنصِبُ حُرَّ وَجْهِى للهَجِير
وأسْرِى فى ظَلامِ الليـلِ وَحْدِى ... كأنِّى منه فى قَمَرٍ مُنِيرِ
فقُلْ فى حاجةٍ لم أقْـضِ منها ... عَلَى تَعَبِى بهـا شَرْوَى نَقِير
ونَفْسٍ لا تُجيبُ إلى خسيسٍ ... وعَيْنٍ لا تُدَارُ عَلَى نظِير
وكَفٍّ لا تُنازِعُ مَنْ أتانى ... يُنازِعُنى سِوَى شَرَفى وخِيرى
وقِلَّةِ ناصرٍ جُوزِيتَ عَنِّى ... بِشَرٍّ منـكَ يا شَرَّ الدُّهورِ
عَدُوِّى كلُّ شىء فيكَ حَتَّى ... لَخِلْتُ الأُكْمَ مُوغَرَةَ الصُّدُورِ
فلو أنِّى حُسِدْتُ عَلَى نَفِيسٍ ... لَجُدْتُ به لِذِى الجَدِّ العَثُور
ولـكِنِّى حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِى ... وما خَيْرُ الحيـاةِ بلا سُرُورِ

فأنت ترى فى هذه القصيدة اعترافه بالخيبة ، واستسلامه للمحنة ، وضيق نفسه بما يلقى من الشر ، ويأسه من تحقيق الأمل ، ولكنه مع ذلك حفيظ على كرامته ، حريص على عزته ، لا يريد أن ينزل عن شرفه مهما يكن من أحداث . ثم هو يعدل إلى خصمه ابن كروّس فيهجوه بهذه الأبيات اللاذعة :

فَيا ابْنَ كَرَوَّسٍ يا نِصفَ أعمَى ... وإن تَفْخَرْ فيا نصفَ البَصِيرِ
تُعادِينا لأنَّا غَـيْرُ لُـكْنٍ ... وتُبْغِضُنا لِأنَّا غَـيْرُ عُورِ
فلو كنتَ امرأً يُهْجَى هَجَوْنا ... ولـكنْ ضاقَ فِتْرٌ عن مَسِيرِ

٥

فماذا صنع المتنبي أثناء هذا الهرب ؟ ولم لبث مستخفياً ؟

لم يصنع شيئاً ذا خطر فيما يظهر ، وإنما كان يلتمس النجاة ، فإذا ظفر بها التمس الأمن . وكان فى أثناء ذلك كثير الرجوع إلى نفسه ، ممعن التفكير فيما امتلأت حياته به من البؤس والشدة والشقاء .

وما أكاد أشك فى أن هذه المحنة الثانية قد أثارت فى نفسه ندماً شديداً على ما أظهر من ضعف وخور ، ولعلها أحيت فى نفسه حنيناً إلى الشباب ، وإلى ما كان فى الشباب من هذه النزعات القرمطية التى إن جرت عليه محنا وجشمته أهوالاً ، فقد كانت تُشعره بالعزة والأنفة ، وتجعل لحياته وآلامه غاية سامية وغرضاً شريفاً .

ومن يدرى ! لعل هذا كله قد ردّه أو كاد يرده إلى قرمطيته الأولى . ومهما يكن من شيء فأنا أُرجح أنه فى أثناء هذا الاضطراب فكّر فى وطنه الأول غير مرة ، وعرض له خيال جَدّته تلك التى طال بُعده عنها وفراقه لها . وما أرى إلا أن هيامه فى الأرض واضطرابه فى البوادى قد دفعاه إلى العراق ، وأنه همّ أن يدخل الكوفة للقاء جدّته فلم يستطع ، لتلك الأسباب الغامضة التى ساءلنا عنها فى بدء هذا الحديث . فانحدر إلى بغداد فيما تقول القصة ، أو لم ينحدر إليها فى أغلب الظن ، ولكنه كتب إلى جَدّته على كل حال ؛ لأنه هو ينبئنا بذلك فى قصيدته .

كتب إليها ينبئها بمقدمه أو بعجزه عن دخول الكوفة ، ويستقدمها للقائه . فلما انتهى كتابه إلى هذه الشيخة البائسة فرحت به ، فقتلها الفرح ، أو فرحت به فأخذت تقبله وتلح فى تقبيله باكية ، ودموعها تنهمل على الكتاب فتذيب المداد ، ولعل المداد هو الذى قتلها .

ومهما يكن من شيء فقد انتهى إلى المتنبي موت جدّته ، فرثاها بهذه القصيدة التي روينا لك طرفاً منها فيما مضى ، والتي تصوره كما رأيت، وكما تستطيع أن ترى من إعادة النظر فيها ، قرمطيا غاليا في قرمطيته ، كأنه قد عاد إليها ، وكاد يتورط فيها لولا أن هتفت به تجربته الأولى ، فأعادت إليه الحذر والاحتياط . وأنا أستغفر عشاق المتنبي والمؤمنين بشجاعته و إقدامه إن قلت إن المتنبي لم يصور أحداً كما صور نفسه في هذا البيت المشهور :

وإذا ما خَلاَ الجَبَانُ بأرْضٍ　　طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ والنِّزالا

على أن الزمان الذي أسرف المتنبي في ذمه قد أشفق على أبي الطيب من محنته هذه الثانية ، وكره له أن يتورط في اليأس فيندفع إلى مثل ما اندفع له في محنته الأولى ؛ فلم يكد يمضي في هربه عاماً أو بعض عام ، حتى تغيّر وجه السياسة في بلاد الشام ، وفُتح للهارب المستخفي باب من أبواب الفرج . فهذا ابن رائق في أواسط سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، قد ترك الشام وعاد إلى بغداد ، وتركها معه بدر بن عمار ، ورُفع الحرج الثقيل عن المتنبي ، وأصبح يستطيع أن يتنفس في شيء من الحرية والأمن . فإلى أين ذهب ؟ وماذا صنع ؟ سؤال لا نظفر له بجواب واضح فيما بين أيدينا من شعر المتنبي ، ولا فيما تحدّث به الرواة .

على أن سنة ثلاثين وثلاثمائة لا تكاد تتقدم حتى يقتل ابن رائق ، يقتله ناصر الدولة أخو صديقه ومولاه بعد حين ، سيف الدولة الحمداني . هنالك ينهض الإخشيد لاسترجاع الشام ، وهنالك يظهر المتنبي في غير إسراف في التحفظ . وأكبر الظن أنه لم يظهر ولم يدخل مدن الشام جهرة ، ولم ينشر فيها شعره مستظلا بظل الإخشيديين إلا بعد أن سعى في ذلك فأطال السعي ، وجدّ في ذلك فأمعن في الجد . ونحن نراه يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الإخشيدية وأصحاب المناصب المدنية والعسكرية فيها . وما أظن إلا أنه قد قال في هذه المدة شعراً كثيراً مختلفاً ، تقرّب به إلى أشخاص كثيرين مختلفين أيضاً ، ولكنه ألغاه فيما بعدُ إلغاء ، مبتغيا مرضاة

سيف الدولة كما يظن بلاشير ، أو مستخذيا من كثرة ما فيه من الاستعطاف الذى لم يكن يلائم مجده حين كان يملى شعره فى حلب ، أو فى الفسطاط ، أو فى بغداد . على أن ديوانه يحفظ لنا شيئاً من هذا الشعر الذى تقرّب به إلى عمال الإخشيديين ونحن نذكر من هذا الشعر قصائد خمساً ، هى على كل حال من جيد شعره وأرقاه . الأولى : رائيته المشهورة التى يمدح بها علىّ بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، ولعله كان عاملا للإخشيديين على أنطاكية ، والتى مطلعها :

أُطاعِنُ خَيْلاً من فَوَارِسِها الدهرُ وَحِيدًا وما قَوْلِى كذا ومَعِى الصَّبْرُ

وهى كما ترى بريئة من النسيب ، فإذا مضيت فى قراءتها رأيت الفخر الجزل الذى يصور غروراً وفتونا أكثر مما يصوّر شجاعة وحزما . ولكنى أقف من هذه القصيدة عند هذين البيتين اللذين يصل فيهما المتنبى إلى موسيقى تعجبنى ، ولعلها تعجبك ، وهما قوله :

وَيَوْمٍ وَصَلْنَاهُ بِلَيْلٍ كأنما عَلَى أُفْقِهِ من بَرْقِهِ حُلَلٌ حُمْرُ
ولَيْلٍ وَصَلْنَاهُ بِيَوْمٍ كأنما عَلَى مَتْنِهِ من دَجْنِهِ حُلَلٌ خُضْرُ

وأقف كذلك عند هذا البيت الذى أرى فيه تعريضاً بالمستأثرين بالأمر فى العراق :

وجَنَّبَنِى قُرْبَ السَّلاطِينِ مَقْتُها وما يقتَضِينِى من جَماجِمِها النَّسْرُ

وهؤلاء السلاطين هم أهل الجور الذين أنذرهم فى بيت مضى من هذه القصيدة ، وهو قوله :

عَلَيَّ لِأَهْلِ الجَوْرِ كلُّ طِمِرَّةٍ عليها غُلَامٌ مِلْءُ حَيْزُومِه غِمْرُ

أما القصيدة الثانية فبائيته التى يمدح بهـا علىّ بن محمد بن سيّار بن مكرم التميمى، والتى أولهـا :

ضُرُوبُ الناسِ عُشّاقٌ ضُرُوبا فأَعْذَرُهُمْ أَشَفُّهُمُ حَبِيبـا

وكان هذا الرجل — فيما أرجح — من رجال الحرب . والديوان ينبئنا بأنه كان يحسن رمى النشّاب . وأحب أن تقف من هذه القصيدة عند مقدمتها ؛ فهى تنقسم إلى قسمين :

أحدهما وهو القسم الأول يصف الحرب وقتل الأعداء وصفاً رائعاً ، وما أرى إلا أنه يشير إلى انتصار الإخشيديين على أصحاب ابن رائق وطردهم عن بلاد الشام .

والقسم الثانى من المقدمة غناء حزين ، يذكر فيه المتنبي سوء حاله النفسية وضيقه بالحسّاد وبغضه للحياة ؛ لأنهم يشاركونه فيها . وهو فى هذا الغناء يصف الليل ونجومه أجمل وصف وأروعه وأرقاه .

والقصيدة الثالثة داليته التى مدح بها هذا الرجل نفسه ، والتى مطلعها :

أَقَــلُّ فَعالى بَــلْهَ أَكْثَرَهُ مَجْدُ وذا الجدُّ فيه نِلتُ أَوْ لم أَنلْ جَدُّ

وما أرى إلا أنه قد احتذى بهذه القصيدة دالية الحطيئة :

أَلا طَرَقَتْنا بعْــدَما هجعوا هِنْدُ وقد سِرْنَ خَمْسا واتْلأَبَّ بنا نَجْدُ

فأحسن الاحتذاء والتقليد . والشاعر فى هذه القصيدة كعهده فى أيام الراحة والأمن ، معجب بنفسه كل الإعجاب ، ساخط على الناس كل السخط . واقرأ هذه الأبيات التى تصور سخطه على الناس بل غلوّه فى هذا السخط ، والتى هى من أجمل شعر المتنبي لألوان التشاؤم التى ستنبثّ فيما سيقول من الشعر إلى أن يموت :

أَذُمُّ إلى هــذا الزّمان أُهَيْــلَهُ فأَعلَمُهُمْ فَدْمٌ وأَحزَمُهُمْ وَغْدُ
وأَكرمُهُمْ كَلبٌ وَأبصرُهم عَمٍ وأَسهَدُهُمْ فَهْدٌ وأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ
ومِن نَكَدِ الدنيا عَلَى الحُرِّ أن يَرى عَدُوًّا لهُ ما من صَداقَتِه بُدُّ

أما القصيدة الرابعة ، فالزائية التى مدح بهــا أبا بكر علىّ بن صالح الروذبارىّ ، ولعله كان عامل الإخشيد على دمشق ، ومطلعها :

كَفِرِنْدِى فِرِنْدُ سَيفِى الجُرازِ لذّةُ العينِ عُدَّةٌ للبِراز

و يقال — و يقبل بلاشير هذا القول[1] — إن المتنبي قد ظفر بما كان يريد ، فلقي محمداً الإخشيد في دمشق ، وأنشده وأخذ جوائزه ، وظن أنه قد انتهى إلى تحقيق أمله . ولكن الأيام كذّبت ظنه ، فمات الإخشيد في دمشق سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، قبل أن يتم اتصال شاعرنا به . والذى أثار هذا القول فيما يظهر أبيات رويت في الصبح المنبي من قصيدة زعموا أن المتنبي رثى بها الإخشيد ، وهى :

هُوَ الزَّمانُ مُشِتٌّ بالذى جَمَعَا ... فى كُلِّ يَوم تَرَى مِن صَرْفِهِ بِدَعا
إن شِئْتَ مُتْ أَسَفاً أوفابْقَ مُضطَرِباً ... قد حَلَّ ما كُنتَ تَخشاهُ وقد وَقَعَا
لو كان مُمتَنِعٌ تُغنيهِ مَنْعتُهُ ... لم يَصنَعِ الدَّهرُ بالإخشيد ما صَنَعا

ولم يرو صاحب الصبح من القصيدة إلا هذه الأبيات . أما أنا فأرجح أن المتنبي لم يلقَ الإخشيد ، ولم يطمع في لقائه ؛ فقد كان همه في ذلك العصر أيسر من هذا وأهون ، ولو قد لقي الإخشيد لما قصر في ذكر ذلك والافتخار به ، والموازنة بين الإخشيد و بين مولاه كافور ؛ ولا سيما حين غضب على كافور . وأنا أرى أن هذه القصيدة الرائية قد قيلت في وقت متأخر شيئاً ، كما سترى .

أما القصيدة الخامسة ، فالدالية التى يمدح بها الحسين بن علىّ الهمدانى فيما يقول الديوان[2] ، أو المرى الخراسانى فيما يستظهر بلاشير[3] ، وفيما يفهم من القصيدة نفسها ، وأولها :

لقد حازَنى وجدٌ بِمَن حازَهُ بُعْدُ ... فيا لَيتَنِى بُعْدٌ ويا لَيْتَهُ وجدُ

و إذن فقد جعل المتنبي يتقرب شيئاً فشيئاً إلى عمال الإخشيديين في شمال الشام ، وهؤلاء يقبلون مدحه ويجيزونه و يقرّبونه إلى أمثالهم في الجنوب ، حتى انتهى إلى عامل دمشق ثم إلى الحسين بن علىّ هذا ، ولعله كان في طبرية أو قريباً منها حيث

(١) بلاشير R. Blachère صفحة ١١٠ .
(٢) انظر الواحدى ص ٣١٠
(٣) انظر بلاشير R. Blachère صفحة ١٠٠ — ١٠١ — ١١٠ وانظر كذلك معجم البلدان لياقوت مادة جرش .

كان أبوه ، وانتهى آخر الأمر إلى أمير من أمراء الإخشيديين كان يقيم في الرملة عاملاً عليها ومتوليا في أكبر الظن لفلسطين ، فألقى عصاه واستقرت به النوى عند هذا الشاب ، وهو قريب من مصر ، ولكنه بعيد عنها : قريب من مصر يمدح عمالها و بعض أمرائها ، ولكنه بعيد عنها لم يمدح صاحبها أنوجور ، ولا وصيها كافور . وقد انتهى المتنبي إلى الرملة ، وظفر بحماية هذا الأمير الشاب وهو في الثانية والثلاثين من عمره .

وقد لقي أهوالاً وهموما ثقالا ، وآن له أن يستريح .

٦

على أنه لم يسترح وقتاً طويلا؛ فقد انتهى إلى أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج فى الرملة فى أوائل سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فى أكبر الظن ، ورحل عنه فى هذه السنة نفسها بعد أن أقام عنده أشهراً . وما أرتاب فى أن نفسه منّته أن يتجاوز الرملة إلى مصر ، ثم إلى الفسطاط ، وأن يتصل هنالك بالملك أو بالوصى . وما أرتاب في أنه كان خليقاً أن يحاول ذلك وينفذه ، لولا أن الأمور السياسية قد جرت على ما حبّب إليه الانصراف عن مصر والرجوع إلى شمال الشام .

فلننظر قبل كل شيء هذه الميمية التى مدح بها الأمير الإخشيدى الشاب ؛ فهى من جياد قصائده ، وهى فى الوقت نفسه تصور لنا تردده بين مصر والشام تصويراً إن يكن بعيداً فإنه مع ذلك واضح جلى .

والقصيدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول نسيب مصنوع متكلف ، كأكثر ما رأينا وما سنرى من نسيب المتنبي . والتكلف ظاهر لا فى معناه وحده ، بل فى معناه ولفظه أيضاً . ويكفى أن تقرأ المطلع لتحس التكلف اللفظى والمعنوى :

أنا لائمى إن كُنْتُ وَقتَ اللَّوائِمِ ... عَلِمتُ بِما بى بَينَ تِلكَ المعالِمِ

فانظر إلى هذه الألف التى أثبتها فى الضمير أول البيت ليقيم الوزن . وانظر إلى هذا الحذف الذى اصطنعه بين المضاف والمضاف إليه فى آخر الشطر الأول ليقيم الوزن أيضاً ؛ فقد كان حقه أن يقول :

إن كنت وقت لوم اللوائم

والشاعر يذهب مذهب أبى تمام فى هذه الملاءمة اللفظية بين «لائم» و«اللوائم» ،

و بين « علمت » و« المعالم » ، ولكنه يعجز عن أن يبلغ ما كان يبلغه أبو تمام من العذوبة اللفظية التى تحبب إلى السامع والقارئ هذا الفن من البديع . وأنت واجد هذا التكلف الظاهر فيما يلى المطلع من الأبيات ؛ بل أنت واجد فيها ذوقاً غليظاً يصنع الحب والغرام صنعاً ، و يريد أن يُكره أذواق الناس على قبول ما يصنع . ولكن قف عند هذين البيتين اللذين وجدا من يعجب بهما إعجاباً شديداً :

حِسانُ التثنِّى يَنْقُشُ الوَشْىُ مِثْلَهُ   إذا مِسْنَ فى أجسامِهِنّ النَّواعِمِ
ويَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مِثْلَهُ   كأنّ التَّراقِى وُشِّحَتْ بالمباسِمِ

فما رأيك فى هذه الأجسام التى رقّت أبشارها ، وأسرفت فى الرقة حتى إن الوشى لينقش فيها حين تتثنى أو تميس ؟ وما رأيك فى هذه التراقى التى كأنها حُلِّيَتْ بالثغور لا لشىء إلا لأن بين الأسنان التى تبسم عنها الثغور و بين الحلى الذى تحمله الصدور شبهاً فى الرونق والصفاء ؟ أما أنا فلا أرى فى هذا التشبيه إلا إغراباً ينتهى إلى السماجة .

أما القسم الثانى من القصيدة فهو غناء أدنى إلى الفخر . وقد ألف المتنبى هذا النوع من الغناء والفخر ، حتى أصبح من الحق عليك أن تألفه ، وألا ترى فى ذكر المتنبى للحرب والبأس إلا وسيلة شعرية رأى المتنبى أنها تعجب الناس وتلائم حياة أهل الشام كما تلائم ميله وطبيعته ، فأسرف فيها إسرافا شديداً . ولكن قف عند هذه الأبيات :

فمالى وَللدُّنيا طِلاَبى نُجومَهـا   ومَسْعاىَ منها فى شُدُوقِ الأراقِمِ
مِنَ الحِلْمِ أن تَستَعمِلَ الجَهلَ دُونَهُ   إذا اتّسَعتْ فى الحِلْمِ طُرْقُ المَظالِمِ
وأنْ تَرِدَ الماءَ الذى شَطْرُهُ دَمٌ   فَتُسْقَى إذا لم يُسْقَ مَن لم يُزَاحِمِ

فأنت واجد فيها طبيعة المتنبى كلها التى سيصورها شعره إلى آخر ديوانه : جوع وأحاديث ، كما يقول المثل ، وفلسفة فى الهواء ليس وراءها طائل ولا غناء .

و يمضى الشاعر حتى يبلغ صاحبه ، فيمدحه مدحا لا بأس به ، ليس خيراً ولا شراً

مما ألفناه من مدحه للذين مدحهم ، غير بدر بن عمار ، حتى يصل إلى وصف الجيش فيحسن إحساناً ظاهراً فتن المتقدمين . وما أرى إلا أن تأثير بَشَّار فيه ظاهر جدًّا ، وذلك قوله :

وذِى لَجَبٍ لاذُو الجناحِ أمامَهُ بناجٍ وَلا الوحشُ المُثارُ بسالِمِ
تَمُرُّ عَليهِ الشَّمسُ وَهْىَ ضعيفةٌ تُطالعُهُ من بَينِ رِيشِ القَشاعِمِ
إذا ضَوءها لاَقى من الطَّيرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فوق البَيْضِ مِثلَ الدَّراهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ والبَرْقُ فَوْقَهُ من اللمعِ فى حافاتِهِ والهَماهِمِ

ثم اقرأ هذه الأبيات الثلاثة :

أرَى دونَ ما بَيْنَ الفُرَاتِ وبَرْقَةٍ ضِراباً يُمَشِّى الخيل فوقَ الجَماجِمِ
وطَعْنَ غطاريفٍ كأنْ أكُفَّهُمْ عَرَفْنَ الرُّدَيْنِيَّاتِ قبل المعَاصِمِ
حَمَتْهُ على الأعداء من كل جانبٍ سيوفُ بنى طُغْجِ بن جُفٍّ القَماقِمِ

فإن لها خطرها . فالمتنبى يشير فيها إلى ما كان من محاولة سيف الدولة أن يغير على جنوب الشام منتهزاً موت الإخشيد ، لينقض ما كان قد تم بينهما من الصلح ، وما كان من نهوض كافور لرده عن ملك الإخشيديين ، وإلزامه الحدود التى تم عليها الصلح مع الإخشيد . وما أتردد فى أن المتنبى كان ينتظر عاقبة هذه الحرب بين كافور وسيف الدولة ، ليمضى إلى مصر ، أو ليرجع إلى شمال الشام . ولعله كان يقدر أن كافوراً لن يكتفى بإكراه سيف الدولة على رعاية الصلح ، بل سينتهز الفرصة ليسترد شمال الشام ، ويمحق الحمدانى محقاً . ولو قد فعل لما أبطأ المتنبى عن اللحاق به ومحاولة الانقطاع إليه . ولكن كافوراً لم يزد على أن حمى المعاهدة ، واضطر سيف الدولة إلى رعايتها ، واحتفظ بالحدود التى أقرّها الإخشيد .

وإذن فقد استقرت فى شمال الشام دولة عربية يظهر أنها قوية شديدة البأس ، مستقرها حلب لن يستطيع أولو الأمر فى بغداد أن يصلوا إليها لمكان ناصر الدولة

فى الموصل . فالمتنبى متردد الآن بين الفسطاط حيث كافور الأسود وأنوجور التركى ، و بين حلب حيث الملك العربى الفتى ، وحيث البيئة العربية الخالصة . وقد أنفق المتنبى وقته عند هذا الأمير الإخشيدى الشاب فى الرملة ، منتظراً ومتفكراً ، وكأنه قد انتفع بما لقى عند بدر بن عمار من المحنة ، وتعلَّم شيئاً من حياة القصور ومعاشرة الأمراء . فهو ينادم الأمير الشاب منادمة الشاعر الفطن اللبق، الذى يعرف هوى سيده فيسبق إليه ، والذى يحسن التملق و يسرف فى المدح ، و ينزل عند رغبة مولاه ، يقول الشعر حين تدعو الحاجة إلى قوله ، وحين لا تدعو إليه حاجة . يكره الخمر ولكنه يشربها إذا قال له سيده : بحقى لتشربن هذه الكأس . ثم لا يتحرج أن يقول هذا الشعر الذى قد يرضى الأمير الشاب ، ولكنه يغضب الله و يغضّ من المروءة :

سقَانِي الخَمرَ قولُكَ لى بحَقِّى ووُدٌّ لم تَشُبْهُ لى بِمَذْقِ
يَميناً لو حَلَفتَ وأنتَ ناءٍ عَلَى قَتلِي بها لَضَرَبتُ عُنْقِى

ثم يأخذ الكأس ويقول :

حُيِّيتَ مِن قَسَمٍ وأفدى مُقسِما أمْسَى الأنامُ لَهُ مُجِلاًّ مُعْظِما
و إذا طَلَبتُ رِضا الأميرِ بِشُرْبِهاَ وأَخَذتُها فَلَقَدْ تَرَكتُ الأحْرَمَا

ولم يقصر المتنبى فى خدمة سيده الجديد ؛ فهو يغدو عليه مع الصبح ، ويروح إليه مع المساء ، ينادمه إذا استقر ، و يصحبه إذا انتقل إلى مكان قريب أو بعيد ، ويحدّثه ويحدث أصحابه بما يسليهم و يرضيهم، و بما يفزعهم ويزعجهم أحياناً ، كالذى كان حين حدثهم عما رأى من إغارة القرامطة على الكوفة فى صباه ، فجزع الناس لهول ما سمعوا. فقال المتنبى هذه الأبيات التى تدل على أنه لم يصدف عن القرمطية إلا كارهاً :

أباعِثَ كُلِّ مَكْرُمةٍ طَمُوحِ وفارسَ كُلِّ سَلهَبةٍ سَبُوحِ
وَطاعِنَ كُلِّ نَجْلاَء غَمُوسٍ وعاصِيَ كُلِّ عَذَّالٍ نَصِيحِ
سَقانِى اللهُ قَبلَ الموتِ يَوماً دَمَ الأعداءِ من جَوفِ الجُرُوحِ

وكأن المتنبى قد اكتفى بهذه المنادمة ، وما كان يرتجل فيها من هذا المدح القصير.

ولكن الأمير كان يريد قصائد طوالا كالميمية . فعاتب المتنبي في إعراضه عن مدحه. ولم ينشط المتنبي لهذا المدح ، فاعتذر إليه بهذه الأبيات :

تَرْكُ مَدْحِيكَ كالهجاءِ لِنَفْسِي وقليـلٌ لكَ المَدِيحُ الكثيرُ
غيرَ أني تركتُ مُقتضَبَ الشِّعـ ـرِ لأمرٍ مِثلي بهِ مَعذورُ
وسَجاياكَ مادِحاتُكَ لا لَفْـ ـظِي وجُودٌ عَلَى كلامي يُغِيرُ
فَسَقى اللهُ مَن أُحِبُّ بِكَفَّيْـ ـكَ وأسقاكَ أيُّهذا الأميرُ

وكان قريباً من هذا الأمير الشاب رجل من أشراف العلويين يعرف بأبي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى ، وكان أثيراً عند الأمير، وكان يرغب فى أن يمدحه المتنبي ولا يبلغ من ذلك ما يريد ، فتوسط له الأمير عند الشاعر ، وقبل الشاعر بعد امتناع . وهى فيما نرى أول مرة يحس المتنبي فيها أنه قد عظم فى أعين الناس وفى أنفسهم . وقد مدح هذا العلوى بالبائية التى مطلعها :

أعيدُوا صباحى فهوَ عِندَ الكَواعِبِ وردُّوا رُقادِي فهوَ لحظ الحَبائبِ

والتى لا أقف منها إلا عند قوله :

أتاني وَعِيـدُ الأدعياء وأنَّهُم أعَدُّوا لِيَ السُّودان فى كَفرِ عاقبِ
ولو صَدَقوا فى جِدِّهِم لَحَذِرْتُهُم فهل فيَّ وَحْدِي قَولُهم غَيرُ كاذِبِ
إليَّ لَعَمْرِي قَصْدُ كلِّ عجيبـةٍ كأني عَجيبٌ فى عُيونِ العَجائبِ

وهؤلاء الأدعياء هم الذين عرّض بهم فى ميميته التى حللناها آنفاً حيث يقول :

وفارقتُ شَرَّ الأرضِ أهلاً وتُربةً بهـا عَلَوِيٌّ جَدُّهُ غيرُ هاشِمِ
بلا اللهُ حُسَّادَ الأمير بِحِلْمِهِ وأجلَسَهُ منهم مَكانَ العَمائمِ

وكأن هذا العلوى وأصحابه كانوا فى طبرية ، وكأنهم كانوا شيعة للفاطميين يخفون بغضهم للإخشيد ، وكأنهم كرهوا من المتنبي قرمطيته القديمة وقصده إلى الإخشيدى فى ذلك الوقت ، فأرادوا أن يصدُّوه عن الرملة ، وأرصدوا له السودان ليردوه أو ليقتلوه .

وأقف كذلك من هذه البائية عند هذا الشعر الذى يصور استهانة المتنبى بالدين ، وتلونه فى الرأى ، وذلك قوله :

وأبهَرُ آياتِ التِّهـامىِّ أنَّهُ أبُوكَ وأجدَى مالكم من مَناقِبِ

وواضح أن أبهر آيات النبى إنما هو القرآن لا أبوّته للعلويين . ولا تقف عند تمحل الشراح لهذا البيت ؛ فإنه اعتذار لا غناء فيه . ثم يقول :

إذا لم تَكُنْ نَفسُ النسيبِ كأصلهِ فماذا الذى يُغني كِرامُ المناصِبِ
وما قَرُبتْ أشـباهُ قَومٍ أباعِدٍ ولا بَعُدتْ أشباهُ قَومٍ أقارِبِ
إذا عَلَوِىٌّ لم يَكُن مِثلَ طاهِرٍ فما هُوَ إلاّ حُجَّةٌ للنَّواصِبِ

وفى هذا الكلام تعريض ظاهر بالفاطميين . ثم يقول :

هُوَ ابنُ رسُولِ الله وابنُ وَصِيّهِ وشِبهُهُمَا شَبّهْتُ بَعدَ التّجارِبِ

وقد عاد المتنبى هنا شيعة علويًّا كما كان فى بغداد حين مدح فى صباه محمد بن عبيد الله العلوى بداليته التى وصفناها فى أول هذا الحديث .

فالمذاهب السياسية والدينية عنـد المتنبى وسيلة لا غاية كما ترى . وفى أثناء هذا الوقت كله استقر الأمر بين كافور وسيف الدولة على الصلح الذى أمضاه الإخشيد قبل أن يموت ، واستقر رأى المتنبى على أن يعود إلى البيئة العربية فى شمال الشام ، بعد أن كان يبغض هذه البيئة أشد البغض ، ولا يعود إليها ولا يقيم فيها إلا كارهاً . وقد استأذن أميره الشاب فى الرحيل فأذن له ، وانصرف المتنبى مودعاً إياه بقصيدة لم يحفظ الديوان منها إلا هذه الأبيات :

ماذا الوداعُ وداعُ الوامِقِ الكَمِدِ هـذا الوداعُ وداعُ الرُّوحِ للجَسَدِ
إذا السَّحابُ زَفَتْهُ الرّيحُ مُرتَفِعاً فلا عدَا الرَّملةَ البَيْضاء من بَلَدِ
ويا فِراقَ الأميرِ الرّحْبِ مَنزِلُهُ إنْ أنتَ فارَقتنا يَوماً فلا تَعُدِ

٧

مضى المتنبي من الرملة حتى انتهى إلى طرابلس فى طريقه إلى شمال الشام . وما كان يقدر أنه سيلقى فى هذه المدينة ما يؤخر سفره إلى حيث يريد . وما كان يقدر بنوع خاص طبيعة هذا العائق الذى سيمسكه فى طرابلس حيناً . هو الآن فى الثانية أو الثالثة والثلاثين من عمره ، واختلفت عليه أحداث وخطوب منذ خرج من السجن لم ينتصر عليها وإنما انتصرت عليه . ولكنى حدثتك ، وما أنت فى حاجة إلى هذا الحديث ، بأن الذى انهزم فى المتنبي ليست طبيعته الخالصة ، وإنما هى طبيعة تكلفها الشاعر وخدعه عنها لفظه وغروره . فأما طبيعته الخالصة ، وهى طبيعة الشاعر المتهيئ للنبوغ ، فقد انتصرت من غير شك ، وكان ما حدث له فى طرابلس دليلا واضحاً على أن انتصارها كان عظيما وفوزها كان مبيناً حقا . وأنت تذكر أنه حين خرج من السجن مدح إسحاق بن كيغلغ وإلى حمص للإخشيد ومُخرِجَهُ من السجن بقصيدته الرائية التى يقول فيها :

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائِرُهُ وغَيَّضَ الدمعَ فانهلَّت بَوادِرُهُ

ولم يستطع أن ينشده إياها فيما يقول الديوان ؛ لأن الأمير كره ذلك ، وتقدم إليه فى أن يبرح الأرض كما رجحنا . فقد كان إسحاق بن كيغلغ هذا ما يزال على ولايته حين مر المتنبي بطرابلس ، وكان قد انتقل إليها من حمص ليبعد مستقره بعض البعد عن الحدود بين الإخشيديين والحمدانيين . فلما انتهى المتنبي إلى طرابلس وعرف مكانه ، رغب فى أن يمدحه كما مدح غيره من عمال الإخشيديين وقوادهم وأمرائهم . ونظر المتنبي فإذا هذا الأمير الذى كان يرغب عن شعره منذ اثنتى عشرة سنة يرغب فى شعره الآن . فلا تسل عن كبرياء الشاعر، وما امتلأت نفسه به من الزهو والغرور،

وإذا هو يمتنع على الأمير ويأبى أن يجيبه إلى المدح الذى رغب فيه . ويحتال الأمير فى ذلك فلا يوفّق ، وتشق عليه هذه الإهانة ، فيمسك الشاعر فى طرابلس لا يلقيه فى السجن ولا يخلى بينه وبين السفر ، وإنما يمسكه سجيناً كالطليق ، وطليقاً كالسجين . ولسنا ندرى كم أقام المتنبى على هذه الحال فى طرابلس ، ولكن الظاهر أنه تغفّل العيون التى أرصدت له ، ففرّ من المدينة لا يقصد إلى الشمال مخافة أن يطلب فيؤخذ ، بل يقصد إلى الجنوب مشرقا ، وهو آمن أن يطلب من هذه الناحية . وإذا هو فى دمشق بعد حين . ويخيل إلىّ أنه كان يريد الأمن والعافية أثناء إقامته فى دمشق ، حتى تتاح له الفرصة فيستأنف رحلته إلى الشمال ، وأنه من أجل هذا استجار بعلىّ بن صالح الروذبارى والى دمشق ، ومدحه بالزائية التى ذكرناها آنفاً . وهذه الزائية خليقة أن نقف عندها حيناً ؛ لأنها تستحق شيئاً ولو قليلا من التأمل والتفكير . وحسبى أن ألفتك من أمرها إلى ثلاثة أشياء :

الأول والثانى منهما مشتركان بينها وبين أمثالها من هذه القصائد التى اختار لها المتنبى هذه القوافى الصعبة النادرة ، كذاليته فى مدح مساور بن محمد الرومى ، وقد مرت بك ، وكشينيته فى مدح أبى العشائر ، وستراها بعد حين .

والثالث مقصور عليها ، ولكن له خطره فى تصوير التزام المتنبى لرأيه حين يأمن ويستغنى ، وتضحيته بهذا الرأى حين يخاف أو يطمع أو يحتاج . فأما الأمر الأول من هذه الأمور الثلاثة ، فهو أن صعوبة القافية وامتناعها يكلفان الشاعر شططاً ، ويضطرانه إلى أن يصطنع ألفاظاً ليست من لغة الشعر فى شىء ، وإنما هى إلى العامية المبتذلة أدنى منها إلى لغة الشعراء ، ولكن ندرة القافية تضطر الشاعر إلى اصطناعها ، فيتورط فى ذلك لا مستخذيا منه ولا مستشعراً خجلا أو حياء .

وانظر إلى هذا البيت :

حَمَلَتْهُ حَمَائِلُ الدَّهْرِ حتى هِىَ مُحْتَاجَـةٌ إلى خَرَّازِ

وإلى قافيته المبتذلة . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسانُ المَعَالى   عن حسانِ الوُجوهِ والأعجاز

فهل تعرف أسمج من هذه القافية وأصفق من هذا الطباق ؟ وانظر أيضاً إلى هذا البيت :

تَقْضَمُ الجَمْرَ والحَدِيدَ الأعادى   دُونَهُ قَضْمَ سُكَّرِ الأهْوازِ

فلولا القافية وتحكمها فى الشاعر وامتناعها عليه ما احتاج هذا البيت إلى سكر الأهواز .

والأمر الثانى أن احتياج الشاعر إلى القوافى يستعبده للقافية ، ويُكرهه على أن يستعبد الشعر ومعانيه للقافية أيضاً . فهو يجمع الألفاظ التى تصلح قافية زائية أو ذالية أو شينية ، فإذا اجتمع له منها ما أراد ، نظم قصيدته على الزاى أو على الذال أو على الشين . وقد يُضطر إلى معنى من المعانى ، لا لشىء إلا ليضع فى اخر البيت كلمة من الكلمات تصلح قافية . وانظر إلى هذا البيت :

سَلَّهُ الرَّكْضُ بَعْدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ   فتَصَدَّى لِلغَيْثِ أهلُ الحِجازِ

فلولا أنه محتاج إلى أن يقيم بيته على الحجاز لما ذكر نجدا ، ولما نظم البيت كله . وانظر كذلك إلى هذا البيت :

مَلِكٌ مُنشِدُ القَرِيضِ لَدَيهِ   يَضعُ الثَّوْبَ فى يَدَىْ بزَّازِ

فقد جعل ممدوحه ملكا وبزّازاً ، لا لشىء إلا لأنه لا يريد أن تفلت منه هذه الكلمة المبتذلة . وانظر أيضاً إلى هذا البيت :

ويَرَى أنَّهُ البَصِيرُ بهذا   وهْوَ فى العُمْىِ ضائعُ العُكَّازِ

فالمعنى فى هذا البيت كله يتبع العكاز ولا يستدعيه . ولست أدرى أين قرأت أن فكتور هوجو كان يجمع القوافى ويهيئها قبل أن ينظم شعره . ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن ذوق فكتور هوجو كان يأبى عليه أن يذلّ للقافية حتى يتورط فى الابتذال . وما أظن إلا أن الشعراء جميعاً يستعرضون ما قد يتهيأ لهم من القوافى ، ليختاروا منها لا ليحكّموها فى أنفسهم وفى أذواق الناس .

ولعلى قصصت فى غير هذا الكتاب ما رأيته من المرحوم زكى باشا حين كان يضع مقدمته لكتاب التاج ، وكان يريد السجع ، فانتهى إلى كلمة « المذكور » أو «المشهور» لا أدرى ؛ ولم يجد لها مقابلا فالتمسه وأطال التماسه ؛ فلما أعياه ذلك قرأ باب الراء كله من القاموس المحيط .

كذلك أو قريباً من ذلك صنع المتنبى فى هذه القصائد التى آثر فيها القوافى النادرة. وكذلك أو قريباً من ذلك صنع الصولى[1] فيما كان يُحْدِث من الشعر لمولاه الراضى فى هذا العصر نفسه أى أوائل القرن الرابع . وأنت واجد من ذلك فى كتاب الأوراق ما يرضيك و يغيظك معا .

أما الأمر الثالث فأشد من هذين الأمرين خطرا؛ فقد مدح المتنبى قبل هذا الرجل جماعة من غير العرب ، ولكنه كان يتجنب التعرض لمدح أجناسهم الأجنبية و يكتفى بمدح أشخاصهم . فإن تجاوز أشخاصهم ، لم يعدُ ما لآبائهم من سابقة فى الإسلام وفى ظل الدولة العربية . أما فى هذه القصيدة فالمتنبى الذى اتخذ العربية لنفسه مذهباً سياسيا وفلسفيا ، يخرج عن مألوفه ، فيمدح هذا الرجل الفارسى ، و يمدح الفرس ، و يرقى بمدحه إلى الفرس قبل الإسلام . وانظر إليه كيف يقول :

لَيسَ كُلُّ السَّرَاةِ بالرُّوذبارِ ىِّ ولا كُلُّ ما يَطِيرُ بِبَازِ
فارِسِىٌّ لهُ من المجدِ تاجٌ كانَ من جَوْهَرٍ على أَبْرَوَازِ
نفسُهُ فَوقَ كُلِّ أصلٍ شَرِيفٍ ولَوَانّى لهُ إلى الشمسِ عازِ
شَغَلَتْ قَلبَهُ حِسانُ المعالى عن حِسانِ الوُجوهِ والأَعْجازِ

إلى أن يقول :

بِكَ أَضحَى شَبا الأَسنّةِ عِندى كَشَبا أسْوُقِ الجَرادِ النَّوازِى
وانثَنَى عَنِّىَ الرُّدَيْنِىُّ حتى دارَ دَوْرَ الحروفِ فى هَوَّازِ
وبآبائِكَ الكِرامِ التأَسِّى والتَّسَلِّى عَمَّنْ مَضَى والتَّعازِى

(١) انظر وصف الصولى لعلاقته بالراضى فى القسم الثانى من كتاب الأوراق .

تَرَكوا الأرضَ بَعدَ ما ذَلَّلُوها ومَشَتْ تَحْتَهُم بلا مِهْمازِ

فالمتنبي هنا شُعوبِىٌّ صريح ، لولا أننا نعرف أنه شاعر ساخر بالناس و بممدوحيه خاصة ، أو بأكثرهم على أقل تقدير .

وفي دمشق هجا المتنبي إسحاق بن كيغلغ بميميته اللاذعة المشهورة[1] والتي أولها :

لِهَوَى القُلوبِ سريرةٌ لا تُعلَمُ عَرَضاً نَظَرتُ وخِلْتُ أَنِّي أَسْلَمُ

وفي دمشق عرف المتنبي أن إسحاق خرج للقاء الروم وتوعّده ؛ فقال فيه الأبيات التي أولها :

أتانِي كلامُ الجاهِلِ ابنِ كَيَغْلَغٍ يَجُوبُ حُزوناً بَيْنَنَا وسُهولا

ثم بلغه أن غلمان إسحاق عَدَوْا عليه فقتلوه ؛ فقال الأبيات التي أولها :

قالوا لنَا ماتَ إسحاقٌ فقُلْتُ لَهُم هذَا الدَّواءُ الَّذى يَشْفِي مِنَ الحُمُقِ

وقد أعرِضُ لهذا الهجاء في غير هذا الموضع؛ فحسبنا الآن أن نلاحظ أنه يدل على أن عداوة المتنبي كانت باقية قاسية يعجز الموت نفسه عن محوها .

ولسنا ندرى كم أقام المتنبي في دمشق ، ولكن المحقق أنه خرج منها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة بعد مقتل ابن كيغلغ قاصداً إلى أنطاكية. والديوان ينبئنا بأنه نزل ببعلبك ؛ فأكرمه حاكمها عليّ بن عسكر ، وخلع عليه وأجازه وطمع في مدحه، ولكن المتنبي لم يزد على أن قال له هذه الأبيات :

رَوِينا يابنَ عَسكَرٍ الهُماما ولم يَترُكْ نَداكَ بنا هُياما

وَصارَ أَحَبُّ ما تُهْدِي إلينا لِغَيرِ قِلًى وَداعَكَ والسَّلاما

ولم نَمْلَلْ تَفَقُّدَكَ المَوالِي ولم نَذْمُمْ أيادِيَكَ الجِساما

ولكِنَّ الغُيُوثَ إذا توالَتْ بِأَرْضِ مُسافِرٍ كَرِهَ الغَماما

وما أظن إلا أن هذا البيت الأخير يصور ملل المتنبي وتبرمه لا بالعطاء ، فقد

(١) وقد قال : إنه أنشأ هذه القصيدة في طرابلس وتركها عند صديق له وكلفه أن يذيعها بعد أن يهرب ويبلغ مأمنه ، (انظر الواحدى صفحه ٣٣٩) .

كان أحرص من أن يتبرم بالعطاء ، بل بهذا الإلحاح عليه فى طلب المديح .
وقد مضى المتنبى من بعلبك حتى جاوز حدود الإخشيديين ودخل أرض الحمدانيين ؛ فاستقبل حياة جديدة ، مخالفة كل المخالفة لما ألف وما ألفنا من حياته .

وهو الآن فى الثالثة والثلاثين من عمره وقد أصبح شاعراً عظيما يتحدث الناس به و بشعره فى شمال الشام وجنوبها ، وفى مصر عند الإخشيديين ، وفى العراق عند العباسيين والبويهيين .

وهو يعرف هذه الشهرة و يقدرها و يغالى بها ؛ فلا يمدح إلا من يريد أن يمدح ، وقد يمتنع على قوم ربما ودّ فى يوم من الأيام لو استمعوا له أو التفتوا إليه . ولعلك تلاحظ أن ظاهرة قد اطّردت فى حياة هذا الشاعر . فهو لم يستطع أن يرقى بفنه إلا فى ظل حام يحميه و يعطف عليه ، وهو لم يستطع أن يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقى بفنه شيئاً فشيئاً إلا فى كنف الأشراف والسادة والأمراء ، كأنه النبت الطفيلى لا ينمو ولا يزهر إلا فى ظل الشجر الضخام المرتفعة فى السماء .

وثب فنُّه وثبته الأولى فى اللاذقية عند التنوخيين ، ثم وثب وثبته الثانية فى طبرية عند بدر بن عمار ، ثم استمسك واحتفظ بقوته أثناء المحنة الثانية . ولـكنه أزهر ونما وتضوّع نشره فى ظل الإخشيدى الشاب . وها هو ذا الآن يتجاوز هؤلاء الأمراء والحكام الصغار إلى أمير خطير ، هو سيف الدولة ؛ ولـكنه لا يبلغ سيف الدولة فجأة ، و إنما يتوسل إليه بابن عمه أبى العشائر فى أنطاكية . فلنتبعه فى هذه المدينة لنرى ماذا يصنع فيها ، وأى وسيلة يبتغى إلى إرضاء هذا الحاكم ليرقى على أكتافه إلى سيف الدولة .

٨

ويظهر أنه لم يرحل من دمشق حين أراد الرحيل وحين أمنت له الطريق ، وإنما تأخر فيها عن رضا واختيار ، لا عن سخط وإكراه ؛ فقد بلغه فيما يُظَنّ أن حال أبي العشائر في أنطاكية ليست على ما يحب ، وأنه قد انهزم لبعض المغيرين عليه ، وتعرّض للخطر ، فلبث هو في دمشق يريد أن يعلم على من تدور الدائرة ، كما انتظر في الرملة يريد أن يعرف عاقبة الحرب بين سيف الدولة وكافور .

ودارت الدائرة على عدو أبي العشائر ، فكرّ هذا بعد الهزيمة منتصراً ، وانتهت أخبار فوزه إلى المتنبي ، فخف من دمشق ، وقد أعد فيها أولى مدائحه لهذا الحاكم . وكأنه في ذلك الوقت كان مشغوفاً بشوارد القوافي ، فآثر لقصيدته قافية الشين ، وخضع فيها لمثل ما خضع له في زائيته التي مدح بها الروذباري من الذل والصغار أمام تحكم القافية الصعبة . ولست في حاجة إلى أن أدلك على مظاهر هذا في هذه القصيدة؛ فحسبك ما قلت من ذلك في القصيدة الماضية ، وأنت واجد في الشينية للقراءة الأولى من ذلك ما تشتهي وما لا تشتهي .

ومطلع هذه القصيدة غريب لا يخلو من «حأحأة» «وشأشأة» ثقيلتين مصدرها تحكم القافية هذا ، وهو قوله :

مَبيتى من دِمَشْقَ عَلَى فِراشِى حَشاهُ لى بِحَرٍّ حَشایَ حاشِ

ومن يدرى ! لعل المتنبي وبعض المعجبين به كانوا يجدون في هذه الحأحأة والشأشأة جمالا وظرفا . والله يهب حسن الذوق لمن يشاء . ولست أقف من هذه القصيدة إلا عند قوله :

أتَى نَبَأُ الأمِيرِ فَقِيلَ كَرُّوا فقُلْتُ نَعَمْ ولو لَحِقُوا بِشَاشِ

يَقُودُهُمُ إلى الهيْجَا لَجُوجٌ يُسِنُّ قِتَالَه والكَرُّ ناشى

وأسرجْتُ الكُمَيْتَ فَناقَلتْ بى على إعقاقِها وعلى غِشاشى

فالمتنبي يتكثّر فى هذه الأبيات ويزعم أنه لما علم بكر الأمير أسرع إليه يشاركه فى حسن البلاء . وأكبر الظن أنه كان خائفاً أن يبلغ أبا العشائر منهزماً . فلما علم بانتصاره خف إليه . وقد وصل المتنبي عند أبى العشائر وهو مكبر لنفسه مستشعر عظمته وتفوقه على الشعراء . وهو من أجل ذلك يهاجم ، ولا ينتظر أن يضطر إلى إلى الدفاع . فانظر إلى قوله :

فَسِرْتُ إليْكَ فى طَلَبِ المَعالِي وسَارَ سِوَاىَ فى طَلَبِ المَعَاشِ

ومدح المتنبى أبا الشعائر بعد أن استقر عنده بقافيته المشهورة التى أولها :

أَتُرَاها لِكَثْرَةِ العُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمعَ خِلقَةً فى المآقِى

وفى هذا البيت مظهر من جمال تبدو فيه صنعة وتكلف . ولكن اقرأ ما بعده فسترى تكلفاً لا يطاق :

كيْفَ تَرْثِى التى تَرَى كلَّ جَفْنٍ راءها غيرَ جَفْنِها غيرَ رَاقِى

وما أرى إلا أنك تضيق مثلى بهذا التكلف المرذول الذى يظهر فى هذا اللفظ المعقد الرث كأنه نسج العنكبوت . ثم يقول :

أنتِ مِنَّا فَتَنْتِ نَفْسَك لكِنَّـ ـكِ عُوفيتِ من ضَنًى واشتِياقِ

ولم يكفه ما مضى من سخف حتى أمعن فى هذا السخف الجديد ، فجعل صاحبته تعشق نفسها ، ولكنها لا تشكو ألم العشق ؛ لأنها ظافرة من نفسها بما تريد من الوصال . ثم يقول :

حُلْتِ دُونَ المَزارِ فاليَومَ لو زُرْ تِ لحَالَ النُّحُولُ دُونَ العِناقِ

وهو رجوع إلى المعنى الذى استخرجه فى صباه ورجع إليه كثيراً بعد ذلك ، وهو قوله :

كفى بِجِسْمِى نُحُولاً أننى رَجُلٌ لولا مُخَاطَبَتِى إيَّاكَ لَمْ تَرَنى

وانظر إلى هذا البيت الذى يخاطب فيه ممدوحه ، والذى تتحكم القافية فيه تحكما ثقيلا :

لو تَنَكَّرتَ فى المَكَرِّ لقَومٍ حَلَفُوا أنّكَ ابنُهُ بالطلاقِ

ولكن قف عند هذه الأبيات ، فسيعجبك ما فيها من حكمة ، وسيلفتك ما فيها من فخر :

إلْفُ هذا الهواءِ أَوقعَ فى الأنْـ فُسِ أنَّ الحِمامَ مُرُّ المذاقِ
والأسى قَبلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجزٌ والأسَى لا يكونُ بعدَ الفِراقِ
كم ثَراءٍ فرَّجْتَ بالرُّمحِ عنهُ كان من بُخْلِ أهلِهِ فى وَثاقِ
والغِنَى فى يدِ اللَّئيمِ قَبيحٌ قَدْرَ قُبحِ الكريمِ فى الإملاقِ
ليسَ قَولى فى شمسِ فعلكَ كالشمـ سِ ولكنْ كالشمسِ فى الإشراقِ
شاعرُ المَجْدِ خِدْنُهُ شاعِرُ اللفْـ ظِ كلانا ربُّ المعانى الدِقاقِ
لم تزَلْ تسمعُ المديحَ ولكِنَّ صَهِيلَ الجيادِ غَيرُ النُّهاقِ

واحفظ قوله «شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ» ؛ فإن هذا المعنى نواة — إن صح هذا التعبير — ستنبت وتنمو وتعطى شعرا كثيراً مختلفا ألوانه حين يتصل المتنبى بسيف الدولة.

وليس من شك فى أن تعريضه بالشعراء ، ثم تصريحه بذمهم والغض منهم فى البيت الذى رويناه آنفاً ، حين جعل نفسه جوادا ، وجعلهم حميرا ، قد هاج الشعراء عليه وأغراهم بالكيد له . فلم يَنُوا عن ذلك ولم يقصروا فيه ، ولكن المتنبى لم ينهزم لهم ولم يفر منهم ، كما فعل مع الذين كادوا له عند بدر بن عمار ، وإنما ثبت لهم وألح فى الهجوم عليهم ؛ وكان يرى أن هذه الموقعة حاسمة بينه و بين الدهر الذى يخاصمه . فهو إن انهزم رُدَّ إلى شقاء متصل ، وإن انتصر بلغ ما أمّلة من الوصول إلى سيف الدولة . وقد تم له الانتصار بهذه القصيدة الرائعة التى هى أروع ما قال فى أبى العشائر ، والتى روينا لك بعضها فى أول هذا الكتاب ، ومطلعها :

لا تَحسَبُوا رَبْعَكُمْ ولا طَلَلَهْ أوّلَ حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ

والمضى فى قراءة هذه القصيدة يُقنعك بأن المتنبى كان يتمثل حين أنشأها لامية الأعشى التى أولها :

إنَّ محلاً وإنّ مُرْتَحَلاً وإنّ فى السَّفْرِ إذْ مَضَوْا مَهَلا

والغزل فى أول القصيدة حلو يبلغ النفوس على ما فيه من تكلف غير مملول . فإذا فرغ منه وثب إلى الدفاع عن نفسه والفخر بها فى شعر مرّ لاذع مُسكت للخصم .

ولست فى حاجة إلى أن أُعيد روايته ؛ فقد رويته فيما مضى من هذا الحديث . ثم يصل إلى أبى الشمائر فيمدحه مدحا عذبا شائقا متينا يصلح للغناء . وقلما يصلح مدح المتنبى للغناء قبل وصوله إلى سيف الدولة . وانظر إلى قوله :

مَا لِيَ لاَ أمْدَح الحُسَيْنَ وَلاَ أبذُلُ مِثْلَ الوُدِّ مِثْلَ ما بَذَلَهْ

أأَخْفَتِ العَيْنُ عِنْدَهُ أثراً أَم بَلَغ الكَيْذُبانُ مَا أمَلَهْ

ثم انظر إلى قوله :

قد هَذَّبتْ فَهمَهُ الفَقَاهَةُ لى وهَذَّبَتْ شِعْرِىَ الفصاحةُ له

فَصِرْتُ كالسيفِ حامِداً يَدَهُ لايَحْمَدُ السَّيفُ كلَّ مَنْ حَمَلَهْ

وأنا أختار للمتنبى فى أبى العشائر كلمتين أخريين يقول فى إحداهما :

الناسُ مَا لم يَرَوْكَ أشباهُ والدَّهرُ لفظٌ وأنتَ معناهُ

ويقول فى الأخرى :

لامَ أُناسٌ أبا العشائرِ فى جُودِ يَدَيهِ بالعَيْنِ والوَرِقِ

وللمتنبى فى أبى العشائر مقطوعات كثيرة أُخرى فى موضوعات مختلفة . فقد سار الشاعر مع هذا الأمير سيرته مع علىّ بن ابراهيم التنوخى وبدر بن عمار والحسن بن عبيد الله الإخشيدى ، فكان نديما سريعاً إلى قول الشعر ، مسرفا فى الارتجال ، مطيعا لمولاه ، يقول حين يريده على القول وحين لا يريده عليه .

وله كلمة أخرى قالها معاتباً لأبى العشائر حين أرصد له نفراً من غلمانه ليقتلوه فأفلت منهم . ولكن أوان الحديث عن هذه الكلمة لم يأن بعد . وأنا أرجح أن أبا الطيب قد وصل إلى أبى العشائر فى أواخر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فأتمها عنده، وأقام معه وجها من سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، حتى قدم سيف الدولة أنطاكية فى جمادى الأولى من هذه السنة ، فمدحه واتصل به وانتقل معه إلى حلب .

الكتاب الثالث

١

وقد صحب المتنبي سيف الدولة تسع سنين أو ما يقرب من تسع سنين . مدحه فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين بالميمية التى أولها :

وَفاؤُكُما كالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طاسِمُهْ   بِأن تُسْعِدا والدمعُ أَشْفَاهُ ساجِمُهْ

وأنشده لآخر مرة سنه خمس وأر بعين الميمية التى أولها :

عُقْبَى اليَمِين عَلَى عُقْبي الوَغَى نَدَمُ   ماذا يَزِيدُكَ فى إقدامِكَ القَسَمُ

ومدحه كالمودع له سنة خمس وأر بعين أيضاً بالأبيات التى أولها :

أيا رامياً يُصْمِي فُؤَادَ مَرامِهِ   تُرَبِّى عِداهُ رِيشَها لِسِهامِهِ

ولم يُنشده إياها ، و إنما أرسلها إليه حين انصرف من حلب مغاضباً ، وقد أظهر الذهاب إلى إقطاع له قريباً من معرة النعمان . وكأنه لم يمدحه بهذا الشعر إلا ليخدعه عما أزمع من الهرب ، وليكفّ الطلب عن نفسه . ولم تكن القصيدة التى مدحه بها فى أنطاكية بسنة سبع وثلاثين أول شعر قاله فيه ؛ فقد رأيت أنه مدحه فى عهد الشباب سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بميمية أولها :

ذِكْرُ الصِّبَا ومَراتِـعِ الآرامِ   جَلَبَتْ حِمامِي قبلَ وَقْتِ حِمامِى

ولم يختم المتنبي شعره فى سيف الدولة حين أنشده أو حين ودّعه سنة خمس وأر بعين وثلثمائة ، بل ذكره فى مصر تصريحاً حينا وتعريضا حينا آخر ، ثم مدحه فى الـكوفة ورثى أخته . وكان آخر ما مدحه به البائية التى أولها :

فَهِمْتُ الكِتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ   فَسَمْعاً لِأَمْرِ أميرِ العَرَبْ

أرسلها إليه من الـكوفة فى ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة . فهو إذن قد

عرفه فى الثامنة عشرة من عمره ومدحه فى الثامنة والأربعين من عمره . عرفه عن بعد فمدحه عن بعد، ثم عاشره وفارقه ومدحه عن بعد أيضاً .

وليس من الإسراف فى شىء أن يقال إن للمتنبى فى سيف الدولة ديواناً خاصا يمكن أن يستقل بنفسه . وهو إن جمع فى سفر مستقل لم يكن من أجمل شعر المتنبى وأروعه وأحقه بالبقاء ، بل من أجمل الشعر العربى كله وأروعه وأحقه بالبقاء . وقد مدح المتنبى عدداً ضخما من أشراف الناس وأوساطهم ، ثم اتصل بالأمراء والحكام ، ثم اتصل بعد ذلك بالممتازين من أمراء الدولة الإسلامية فى الشرق والغرب ، ووفق للإجادة وللروعة أحياناً فى كثير مما قال فى هؤلاء الناس .

ولكن شعره فى سيف الدولة ممتاز بما لم يمتز به سائر شعره : امتاز بالكثرة ؛ فالديوان يحفظ لنا من قول المتنبى فى سيف الدولة نيفاً وثمانين قصيدة ومقطوعة ، وهو مقدار ضخم لم يجتمع فيما أظن لشاعر من الشعراء القدماء فى خليفة أو ملك أو أمير . ولم يجتمع للمتنبى نفسه فى أحد من ممدوحيه غير سيف الدولة . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ؛ فقد انقطع المتنبى لسيف الدولة تسعة أعوام كاملة لم يمدح أثناءها أحداً غيره ، ولم يقل أثناءها شعراً إلا وهو يتمثل سيف الدولة ، فيتحدث عنه ويتحدث .

وقد انقطع جماعة من كبار الشعراء المتقدمين منذ العصر الجاهلى إلى عصر المتنبى ، لجماعة من الخلفاء وأشراف الناس ، ولكنهم لم يقفوا أنفسهم على هؤلاء الخلفاء والأشراف كما فعل المتنبى مع سيف الدولة ، وكما كان يفعل مع غيره من الأمراء والأشراف الذين حموه وأظلوه .

فلم يشغل زهير بهرم عن غيره ، ولم يشغل به عن الشعر الخالص . ولم يشغل الحطيئة بعلقمة بن عُلاثة ولا بالزِّبْرِقان ولا بالوليد بن عقبة عن غيرهم من الذين كان يتناولهم بالمدح أو بالهجاء . وقد انقطع الأخطل ليزيد بن معاوية ، ولكنه كان

يقول الشعر فى غير يزيد ، وانقطع لعبد الملك بن مروان ، ولكنه كان يقول فى غير عبد الملك بن مروان . ومن قبل ذلك انقطع النابغة للنعمان . ثم فى أيام الأخطل فرغ جرير للحجاج دهراً ، وفرغ الفرزدق لسليمان بن عبد الملك حيناً . وانقطع الكميت لبنى هاشم ، وانقطع السيد الحميرى لهم أيضاً . واتصل بشار بجماعة من الخلفاء ، واتصل أبو نواس بجماعة منهم كذلك ، وانقطع للأمين أثناء خلافته . وانقطع مروان ابن أبى حفصة للمهدى والرشيد ، وأكثر البحترى شعره فى المتوكل. ولكن واحداً من هؤلاء أو من غير هؤلاء لم يقف حياته الفنية وغير الفنية تسعة أعوام كاملة على مولاه ، إنما كانوا يُصْفون سادتهم وحماتهم بعناية خاصة ، ولكنهم يبيحون لأنفسهم أن يمدحوا غيرهم من جهة ، ويبيحون لأنفسهم أن يقولوا فى غير المدح من جهة أُخرى .

والرواة يتحدثون بما كان من انقطاع جرير للحجاج وإغراقه فى مدحه ، حتى كره ذلك عبد الملك ، فأعرض عن جرير ولم يسمع له إلا بعد سعى وشفاعة وإلحاح .

والرواة يروون هذا على أنه من الأشياء النادرة . وذلك يدل من غير شك على أن انقطاع الشاعر لخليفة أو عامل أو أمير فى القرون الثلاثة الأولى لم يكن معناه نزول الشاعر لمولاه عن نفسه وشخصيته وحريته كما فعل المتنبى غير مرة فى حياته ، وكما فعل مع سيف الدولة بنوع خاص . وتعليل هذا يسير فيما يظهر إذا لاحظنا تغير الحياة السياسية والاقتصادية ، وما نشأ عن هذا التغير من التنافس العنيف بين الأمراء والحكام فى القرن الرابع . فقد كان هذا التنافس يقوم على أن يُؤْثِر كل أمير أو حاكم نفسه ودولته بالخير ، وبكل ما من شأنه نشر الدعوة لهما والإشادة بذكرهما . فلم يكن من اليسير لشاعر من الشعراء أن يمدح أميرين أو حاكمين إلا أن يكون أحدهما ظلا للآخر ومتصلا به ، بحيث يكون مدحه وسيلة لا غاية وسبباً لا غرضاً .

ولو أن المتنبي همّ بمدح أحد غير سيف الدولة أثناء اتصاله به فى حلب ، أو بمدح أحد غير كافور أثناء اتصاله به فى الفسطاط ، لما كانت عاقبة ذلك عليه إلا و بالا ونكراً .

فلنلاحظ هذه الظاهرة فى نفسها ؛ فقد ينتهى بنا درسها واستقصاؤها إلى نتائج قيمة فى تحقيق التاريخ الأدبى لهذا العصر . ولنلاحظ هذه الظاهرة بالقياس إلى شخصية المتنبي ؛ فهى تقفنا على أخص ما يمتاز به هذا الرجل من التناقض الغريب بين رأيه فى نفسه وسيرته بين الناس . فهو قد كان فى شبابه لا يطمح إلا إلى الحرية ، ولا يطمع إلا فى الاستقلال . وهو قد ألقى نفسه فى السجن ، وعرّض نفسه للموت فى سبيل حريته واستقلاله . ولكنه لم يكن يظفر برعاية أمير من الأمراء أو سيد من السادة ، إلا نزل له عن نفسه ، وضحى فى سبيله بهذه الحرية وذلك الاستقلال . وأغرب من هذا أن سيف الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره من الأمراء والملوك فحسب و إنما شغله أيضاً عن الشعر الخالص . فقد رأيت أن غير المتنبى من فحول الشعراء لم يكونوا يُفنون أنفسهم وفنهم فى سادتهم وحماتهم. وقد كان رجل كأبى نواس يستطيع أن ينقطع للأمين ، ولكنه مع ذلك يقول فى الخمر أو فى الوصف أو فى الهجاء أو فى غير ذلك من فنون الشعر ، كانت له حياته يتصرف فيها كما يحب . فأما المتنبي فإنه لا يعرض لفن من فنون الشعر ، ولا يلم بلون من ألوان الكلام ، إلا إذا كان متصلا بسيف الدولة اتصالا قريباً . وهو قد فعل هذا نفسه حين اتصل ببدر بن عمار ، وكاد يفعل ذلك حين اتصل بالأمير الإخشيدى الشاب فى الرملة ، لولا أن ألح عليه الأمير نفسه فى مدح صديقه العلوى . ولما انقطع لكافور بعد انقطاعه لسيف الدولة ، وقف شعره عليه أثناء اتصاله به . ولم يمدح فاتكا إلا بعد مشقة وجهد واستئذان فيما يقال . ولو أنه رضى عن كافور رضاه عن سيف الدولة ، لما فكر فى فاتك ، ولما فكر فى الشعر الخالص الذى لا يتصل بشخص كافور . فهذا كله يدلنا على أن المتنبى كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وعلى أنه كان عبداً للطمع والمال ، لا للجمال والفن .

ويمتاز شعر المتنبي في سيف الدولة بشيء آخر غير الكثرة هو التنوع . فمع أن سيف الدولة هو الموضوع الذي يدور حوله شعر المتنبي أثناء هذه الأعوام التسعة ، فقد كان هذا الشعر مختلف الأنواع والألوان والفنون . ولم يكن هذا الاختلاف ناشئاً عن رغبة الشاعر في التنويع والافتنان ، وإنما كان ناشئاً عن أن حياة سيف الدولة نفسه كانت مختلفة الأنحاء والوجوه . فقد كان سيف الدولة أميراً عربيا ، شريف الأصل، كريم النسب ، جواد اليد ، بعيد الهمة . وهو من أجل هذا يتقاضى المتنبي مدحه ، كما يمدح أمراء العرب الذين يتصفون بهذه الصفات .

وكان سيف الدولة مجاهداً يناضل عن الإسلام ، ويحمى ثغور المسلمين من قِبَل الروم ، وكانت له مع هؤلاء مواقع حسن بلاؤه فيها منتصراً ومنهزماً ؛ فكان من هذه الناحية يتقاضى المتنبي مدحه كما يُمْدَح المجاهدون والحامون للثغور والزائدون عن حوزة الدين. وكان سيف الدولة أميراً ينافس أمراء آخرين ، ينافس قوماً في العراق، وقوماً في مصر ؛ فكان يتقاضى المتنبي أن يمدحه مدحاً يقدِّمه على منافسيه . وكانت لسيف الدولة رعية بدوية قليلة الشعور بحب النظام ، شديدة النقض للسلطان القوى ، كثيرة الجنوح إلى الشغب والخروج والانتقاض ، وكان سيف الدولة يردّها إلى الطاعة ، ويأخذها بالإذعان ؛ فكان يتقاضى المتنبي أن يمدحه كما يُمدح الأمير الذي يأخذ رعيته بالحزم والعزم ، ويحملها حيناً على الشدة ، وحيناً على اللين . وكان سيف الدولة صاحب دعابة ولهو ، وصاحب ترف ونعيم حين تسمح له السلم بالاستمتاع من ذلك بحظ قليل أو كثير ؛ فكان يتقاضى المتنبي أن يكون له نديماً مواتياً ، يصرِّف شعره على ما تقتضيه المنادمة من اختلاف ألوان الحياة واختلاف ألوان القول . ثم كان سيف الدولة بعد ذلك يُكبر المتنبي ويؤثره ويختصه بما لا يختص به غيره من ندمائه وشعرائه والعاملين في قصره والمختلفين إليه ؛ فكان ذلك يثير حسداً وكيداً ، وكانت غطرسة المتنبي تزيد هذا الكيد وذلك الحسد تلظّياً واضطراماً .

وكان سيف الدولة يفي للمتنبي ما وسعه الوفاء ، ولكنه كان كغيره من الأمراء ، يسمع للوشاة ، ويميل إلى الكائدين ؛ فكان المتنبي مضطرًّا إلى أن يدافع عن نفسه بالعتاب والاستعطاف وهجاء الخصوم والمنافسين . ثم كان سيف الدولة رجلا من الناس تمتحنه الأيام بما تمتحن به الناس جميعاً من فقد الأبناء والأقرباء والأحباء ؛ فلم يكن بدٌّ للمتنبي من أن يعزِّيه ويرثي له من تستأثر به المنية من دونه .

وإذن فقد كان في تنوع هذه الحياة التي كان يحياها سيف الدولة تنوُّع للشعر الذي كان يقوله أبو الطيب فيه . ونشأ عن ذلك أن سيف الدولة قد شغل المتنبي بنفسه عن كل شيء ، وعن كل إنسان . ولكنه أتاح له أن يلمّ بطائفة من الفنون الشعرية ، لم يكن ليلم بها لو أنه قصر نفسه على المدح الخالص . فما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوِّضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ، إن صح هذا التعبير .

ونحن إذن نستطيع أن نعتبر هذه الأعوام التي قضاها المتنبي عند سيف الدولة خير أعوامه ، وأخصبها وأغناها وأكثرها حظا من الإنتاج المختلف المتنوع .

وخصلة ثالثة يمتاز بها شعر المتنبي في هذا الطور ، وهي أنه قد استطاع لا أن ينشئ فنًّا جديداً من فنون الشعر ، بل أن ينمي فنا من هذه الفنون ويقوِّيه ، ويُكثر القول الجيد فيه ، حتى يمنحه من الامتياز والاستقلال ما يجعله فنا قائماً بنفسه .

أريد بهذا الفن وصف الجهاد بين المسلمين والروم . فمن الحمق أن يقول قائل أو يظن ظان أن أبا الطيب قد ابتكر هذا الفن أو خرج به عما ألِف القدماء . فوصف الجهاد بين المسلمين والروم قديم منذ كان الجهاد بين المسلمين والروم . وقد امتاز جماعة من الشعراء في هذا الوصف . ويكفي أن نذكر ما قاله أبو تمام ، وما قاله البحتري . ولكن أبا تمام والبحتري وغيرهما من الشعراء الذين سبقوا المتنبي لم يفرغوا لهذا الفن كما فرغ له، ولم يقفوا عليه أكثر جهدهم كما وقف عليه أكثر جهده . ثم هم لم يشتركوا

فى الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ، ولم يشهدوا مواقعه كما شهدها المتنبي ، ولم ينعموا كما نعم المتنبي ، ولم يشقوا كما شقى المتنبي ، بما كانت هذه المواقع تُعقب من انتصار أو اندحار . فهم كانوا يقولون الشعر فى وصف هذا الجهاد متأثرين بفنهم وحده ، أو قل بفنهم وأملهم . وكان المتنبي يقول متأثراً بما يرى قبل كل شىء ، ثم بالفن والأمل بعد ذلك .

ومن هنا تفهم السبب فيما تحسه من تأثُّر خاص حين تقرأ وصف المتنبي لهذا الجهاد بين المسلمين والروم : تأثُّر لا تجده حين تقرأ ما كان يقوله أبو تمام للمعتصم ، أو البحترى للمتوكل .

فأنت تجد عند هذا وذاك فنًّا وجمالا ، ولكنك تجد فنا وجمالا لا يكادان يخلوان من الحرارة والنشاط .

فإذا قرأت وصف المتنبي لهذا الجهاد وجدت فيه ناراً تضطرم ، ولا تكاد تمس قلبك حتى تشيع فيه ، وإذا قلبك يضطرم أيضاً حماسة ونشاطا .

ومصدر هذا أن المتنبي فى هذا الوصف لم يكن يصدر عن مدح سيف الدولة والرغبة فى إرضائه وإثارة إعجابه بنفسه وإعجاب الناس به ، كما كان يفعل أبو تمام والبحترى، وإنما هو يصدر عن هذا ويصدر معه عما كان يثور فى نفسه من العواطف، وما كان يدور فى رأسه من الخواطر حين كان يشهد الموقعة ويتبع العدو منتصراً أو يولِّى أمامه منهزماً . وكان يصدر مع هذا وذاك عن انفعالات المسلمين التى كانت تثور حوله أثناء الاستعداد للحرب ، وأثناء الاشتراك فى المعركة ، وبعد الانتصار أو الفرار .

ثم كان المتنبي يصدر بعد هذا كله عن هذا الانفعال الآخر الذى كان يشهده حين كان يثور فى نفس العدو منهزماً ومنتصراً ؛ فقد كان المتنبي يمدح سيف الدولة من غير شك بهذا الشعر ، ولكنه لم يكن يصور سيف الدولة وحده ، وإنما

كان يصور معه نفسه ، ويصور جماعة المسلمين المجاهدين ، ويصور جماعة الروم أيضاً .

ومن هنا تجد فى وصف المتنبي لحروب سيف الدولة عند الثغور فتوة عربية اجتماعية، إن صح هذا الوصف ، وترى هذه الفتوة العربية الاجتماعية تشيع فى وصف المتنبي حية قوية مضطرمة شديدة الاضطراب ، كأنها الكهربا لا تكاد تتصل بهذا الشعر حتى ينتقل إليك ما صوّر فيه المتنبي من حياة هؤلاء المجاهدين ، وما كان يملؤها من نشاط فيه الأمل والابتهاج ، وفيه الاكتئاب والابتئاس ، وفيه الثقة بالنفس والإيمان بالحق والارتفاع عن صغائر الأمور دائماً .

ونحن نستطيع أن نفهم عجز الأستاذ بلاشير عن أن يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي ، وأن نعلله وإن لم يكن فى حاجة إلى هذا التعليل . فجنسية الأستاذ واختلاف مزاجه وطبعه ، وأخشى أن أذكر دينه أيضاً ، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلا ضئيلا ، وربما جعله تأثراً عكسيا ، وربما دفع الأستاذ إلى الغض من هذا الشعر ، والازدراء له[(١)] . أما نحن فإن هذا الشعر يثير فى نفوسنا عواطف أخرى ، ويستتبع فيها حركات لا تنتظر من نفس الأستاذ بلاشير وأمثاله من العلماء الأوروبيين .

وقد يقال إن المتنبي أغرق وأسرف ، وعظم من أمر هذه المواقع أكثر مما ينبغى ، وأضاف إليها من الخطر أكثر مما تستحق ، وأعرض عن تصوير الهزيمة ، ولم يُعنَ إلا بتصوير الانتصار . ولكن يجب أن نتفق ؛ فلم يكن المتنبي مؤرخا ولا محققا ،

---

(١) وأنا فى الوقت نفسه أخالف صديقى الدكتور عبد الوهاب عزام أشد الخلاف فيما ذهب إليه من تقديم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر القصصى القديم كله . فهذا غلو لا سبيل إلى قبوله مع ما هو محقق من انقطاع أسباب الموازنة بين شعر المتنبي هذا وقصص الهند واليونان والرومان .

(راجع كتاب ذكرى أبى الطيب ، للدكتور عبد الوهاب عزام ، صفحة ١١١) .

وإنما كان شاعراً ، وشاعراً ليس غير . أستغفر الله ! بل كان شاعراً يشترك في الجهاد ، يذوق لذته ويشقى بآلامه . فالذين يطالبون هذا الشاعر بالتاريخ وتصوير الحق كما وقع ، يسرفون عليه ، ويسرفون على أنفسهم ، ويسرفون على الشعر نفسه . وأين كانت تقع حرب طروادة التي وصفت الإلياذة طوراً من أطوارها من هذه الحروب التي شهدها المتنبي ووصفها تسعة أعوام كاملة ! أفيعاب شعراء الإلياذة بأنهم لم يصفوا التاريخ كما كان ، أم يحمد من هؤلاء الشعراء أنهم صوروا نفوس الجماعات والأفراد التي اشتركت في هذه الحرب أبدع تصوير وأروعه ؟

وبعد ، فهل من الحق أن المتنبي أسرف كل الإسراف ، وتكثّر حين كان يجب الاقتصاد ؟ يجب أن نلاحظ أن معظم البلاد الإسلامية في ذلك الوقت كانت منصرفة إلى نفسها ، مشغولة بأمورها الخاصة عن هذه الثغور الرومية ، وأن هذا القسم من شمال سوريا والجزيرة كان وحده الناهض بحماية هذه الثغور : ينهض بذلك على ضآلته وقلة مصادره المالية والعسكرية ، وينهض بذلك نهوضاً حسناً يلقى فيه النصر ، ويلقى فيه الهزيمة أحياناً . ولكن أمام أي قوة كان هذا القسم من شمال سوريا يثبت أثناء هذا الجهاد المتصل العنيف ؟ أمام الإمبراطورية البيزنطية الضخمة التي مهما يكن من أمرها ، فليس من الممكن أن نفكر في الموازنة بينها وبين هذا الطرف الصغير اليسير من أطراف المسلمين .

فإذا نظر أبو الطيب فرأى دولة ضخمة كالدولة الإسلامية ساهية لاهية ، مشغولة بما يفسد حياتها من اللهو والعبث ومن الخصومة والاضطراب ، ورأى فتى عربيا قد ثبت مع من حوله من هؤلاء العرب الذين أُقصوا عن ملكهم ورُدُّوا عن سلطانهم لهذه الإمبراطورية الضخمة ، فحمى منها الثغور وذادها عن حوزة الإسلام ، واقتحم عليها ملكها حتى أبعد في الغارة أحياناً — إذا نظر المتنبي فرأى هذا كله ، وامتلأت

نفسه به إعجاباً وتيهاً فتغناه أروع غناء وأبقاه ، أيمكن أن يوصف بأنه مسرف متكثر يتجاوز الحق ويفسد التاريخ ؟ ! كلا ! إنه لا يتجاوز الحق ولا يفسد التاريخ بالقياس إلى الذين لا يحسنون استنباط التاريخ من الشعر ، ولا يفرقون بين مذاهب الشعراء ومذاهب المؤرخين .

ولنعد إلى ما أخذنا فيه فنقول : إن المتنبي إذن لم ينشئ بشعره فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم فنًّا جديداً ، وإنما ارتقى بهذا الفن حتى انتهى به إلى أقصى ما كان قد قدِّر له من كمال . وأنت تشعر بهذا شعوراً قويا واضحاً حين تقرأ شعر المتنبي وشعر أبى فِرَاس فى وصف هذا الجهاد . فكلا الشاعرين قد شهد المواقع واشترك فيها وذاق لذاتها وآلامها ، ثم وصف ما تركت فى نفسه وفى نفس غيره من الأثر . ولكنك واجد فى وصف المتنبي قوة وفتوة ونشاطاً وعنفاً ، لا تجدها فى شعر أبى فراس الذى ظهرت فيه دقة الحس ورقة العاطفة ؛ فهو لا يخلو من فتور لا يلائم هذه الحياة المنيفة التى كان يحياها هؤلاء العرب من المسلمين فى ذلك الوقت ، ولعله يلائم الترف الذى كان يشمل القصرين فى أوقات السلم : قصر سيف الدولة فى حلب ، وقصر أبى فراس نفسه فى مَنْبِج . أنت واجد حين تقرأ هذين الشاعرين ، فرق ما بين القوة التى ترتفع بك إلى أقصى ما تستطيع أن تبلغ من أمل وثقة وعنف ، والضعف الذى ينحط بك إلى الحضيض ، ولكنه يحتفظ بك معلقاً فى الهواء ، لا تبلغ الأرض فتمشى عليها ، ولا تبلغ أعلى الجو فتحلق فيه تحليق النسر .

على أنى أخشى أن يخدع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبي عن أنفسهم بعض الشيء ، فيظنوا أن هذا الفن هو القصص ، كما نجده فى الإلياذة وأشباهها من آيات الشعر القصصى القديم والحديث . وقد خدع الأستاذ بلاشير نفسه عن هذا الشعر وعن الشعر الحماسى كله ، فسماه قصصا . والواقع أن فى شعر هذا المتنبي كثيراً من مميزات الشعر القصصى : فيه قوة المعنى ، وفيه جزالة اللفظ ، وفيه روعة الوصف للحرب وأهوالها وبلاء الأبطال فيها ،

وفيه الإشادة بنفس الجماعة وما ترتقى إليه حين تُبْلى فتحسن البلاء ، وحين تُمتَحَنُ فتحسن احتمال المحنة . ولكن فيه عنصراً يميزه من الشعر القصصى و يردّه إلى الغناء ردًّا قويا ويلزمه مكانه من الشعر العربى المألوف ، وهو أن الشاعر لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة ، و إنما هو يذكرها دائماً حتى حين يغرق فى وصف سيف الدولة ، أو حين يغرق فى وصف الحرب والحار بين . فشخصية المتنبي ظاهرة قوية فى شعره الرومى ، لا يستطيع القارئ و إن بعد العهد بينه و بين الشاعر أن ينساها أو يُعرض عنها ، و إنما هى تفرض نفسها عليه فرضاً . وقد لا يكتفى المتنبى بحضور شخصيته فى ذهنه وفى ذهن سامعيه وقارئيه ، فإذا هو يذكرها تصريحاً و يحدِّث عنها فى غير لبس ولا التواء . وأخص ما يمتاز به الشعر الغنائى من الشعر القصصى هو هذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذى يمثل الشاعر أمامك فى كل لحظة ، و يقنعك بأن الشاعر لا يصف و إنما يتغنى ، فإذا وصف فوصفه أداة من أدوات الغناء ووسيلة من وسائله . فليس شعر المتنبى فى وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصاً ، و إن اشتمل على كثير من مميزات القصص ، ولكنه غناء ؛ لأنه يشتمل على أخص مميزات الغناء .

ومن هنا يخطئ من يوازن بينه و بين شعر الإلياذة فى غير تحفظ ولا احتياط . ومن هنا يخطئ كذلك من يزعم أن المتنبى قد أدخل فى الشعر العربى فنا لم يكن فيه وهو الفن القصصى . فالمتنبى لم يزد على أن أخذ فن الحماسة القديم فنماه وقواه حتى انتهى به إلى أرقى أطواره .

وخصلة رابعة يمتاز بها شعر المتنبى فى هذا الطور أيضاً ، وهى أنه قد وثب بشعره حين اتصل بسيف الدولة وثبته الأخيرة التى رفعته إلى الأوج وضمنت له مكانه بين الفحول من شعراء العرب ؛ لا لأنه استحدث فنًّا جديداً ، فقليل من شعراء العرب من استحدث فنا جديداً ، وقد كان ذلك فى صدر الإسلام وفى أول أيام العباسيين ، ولا لأنه قد جدد من أوزان الشعر وقوافيه ما قدُم وطال عليه العهد ، ولا لأنه قد أضاف

إلى هذه الأوزان وزناً لم يكن معروفا من قبل ، فليس المتنبي في شيء من هذا حظ ما، بل لأنه ملك ناصية الفن حقاً، وجعل يتصرف بألفاظه ومعانيه كما كان يتصرف بها الفحول ، وأثبت شخصيته قوية واضحة ممتازة من غيرها ، وأصبح مرآة لنفسه لا لأبي تمام ولا للبحتري ، وأصبحنا نستطيع أن نقرأ القصيدة من شعره ، فنقول : إنها قصيدته هو لم يتأثر بها هذا الشاعر أو ذاك ، على حين كنا قبل هذا الطور من أطواره ، نقرأ القصيدة من شعره فنحس وراءها المثل الذي احتذاه ، والنموذج الذي اتبعه ؛ فمرة نحس أبا تمام ، ومرة نحس البحتري ، وحينا نلمح الحطيئة ، وحيناً نلمح الأعشى ، وربما خيّل إلينا أننا نرى زهيراً . ولست أذهب في هذا الكلام مذهب القدماء من خصوم المتنبي ، حين كانوا يزعمون أنه أخذ هذا المعنى من هذا الشاعر أو أخذ هذا اللفظ من ذاك ، وإنما أذهب مذهباً آخر ، وهو أن المتنبي كان أحياناً يجعل الشاعر القديم أمامه ، أو يجعل قصيدة بعينها من قصائد شاعر بعينه أمامه حين ينظم هذه القصيدة أو تلك ، فيظهر أثر هذا في شعره أراد ذلك أم لم يرد ، ويظهر هذا الأثر شائعاً في الوزن والقافية ، وفي اللفظ والمعنى ، وفي روح القصيدة ، إن جاز لنا أن نستعمل هذا اللفظ ، بحيث تحس هذا الأثر ، ولا تكاد تحصره أو تحدده أو تدل عليه . فأنت حين تقرأ داليته التي أولها :

أَقَلُّ فِعالي . بَلْهَ أَكْثَرَه مَجْدُ

لا تذكر الحطيئة أثناء قراءة الأبيات الأولى ، فما أكثر الشعر العربي الذي يقوم على وزن كهذا الوزن، وقافية كهذه القافية! ولكنك لا تكاد تمضي في قراءة القصيدة حتى تفرض عليك دالية الحطيئة فرضاً . وكذلك الأمر في لاميته التي أولها :

لا تَحْسَبُوا رَبْعَكُم ولا طَلَلَهْ

متكلفة الغزل على جمال فيه ، محتفظة بشخصية المتنبي في أولها وفي وسطها وفي آخرها . ولكن امض في قراءة القصيدة فستتراءى لك،على كره منك لامية الأعشى ، وستقرأ قوله :

والنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

فلا تملك نفسك أن تذكر قول الأعشى فى لاميته :

والشيء حَيْثُ ما جُعِلا

فإذا بلغنا طور المتنبي عند سيف الدولة ، وقد أنفق الشاعر فى صحبة هذا الأمير عاما أو عامين ، وشهد بلاء الأمير ، وتأثر بالحياة معه مقيما وظاعنا ، فإن هذه الظاهرة تستخفى من شعره استخفاء تامًّا . و إذن أنت تستطيع أن تقول : إنه أخذ هذا المعنى أو هذا اللفظ من هذا الشاعر أو ذاك ، ولكنك لا تستطيع أن تقول : إنه تأثَّر فى هذه القصيدة ، قصيدة هذا الشاعر أو ذاك .

لفظ المتنبي إذن فى هذا الطور جزل ، لا يستطيع المتنبي أن يبلغ به جزالةً أجزل مما وصل إليه . ومعناه فخم دقيق مستقيم إلى أقصى ما يستطيع الشاعر أن يبلغ من الفخامة والدقة والاستقامة .

وللمتنبي فى هذا الطور عيوبه اللفظية والمعنوية التى لا تأتيه من تقليد غيره ، أو لا تأتيه من تعمد التقليد ، إن أردت دقة التعبير ، و إنما تأتيه من تكوين نفسه وذوقه وطبعه ومزاجه الخاص : أُدير عقله وشعوره وحسه على هذا النحو ، فأدير تعبيره على هذا النحو نفسه أيضاً .

ونحن بعد أن يترك المتنبي سيف الدولة نستطيع أن نلاحظ فى شعره هذا الشعور أو ذاك وهذا الحس أو ذاك ، ولكننا لن نستطيع أن نلاحظ أن شعره قد ارتقى أو نما أو تجاوز الطور الذى انتهى إليه فى حلب . وسنلاحظ أن الناحية الغنائية تقوى جدًّا فى شعره بعد مفارقة سيف الدولة ؛ لأنه سيفرغ لنفسه على نحو ما . وسنلاحظ أيضاً أنه قد يقصر عما تعوّد أن يبلغ من الآماد ، وقد يضعف شعره ، وقد يصبح تكلفاً وتصنعاً ، ولكنه لن يتجاوز الرقى الذى بلغه فى هذا الطور .

وواضح أن رقى شعر المتنبي فى هذا الطور من أطوار حياته ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها . فالبيئة نفسها كانت تقتضى أحد أمرين : فإما أن يرقى المتنبي و يعلو حتى يمتاز

من خصومه ومنافسيه، وإما أن يظل حيث كان حين اتصل بسيف الدولة ، فلا يكون فرق بينه و بين غيره من الشعراء .

ولعلك لم تنس ما لاحظناه من أن رقيّ شعر المتنبي حين لحق ببدر بن عمار ، كان نتيجة لأسباب ، من أهمها هذه البيئة العراقية الناقدة التى لم يظفر بها المتنبي قبل ذلك . فالبيئة التى كانت تحيط به عند سيف الدولة كانت أرقى جدًّا من البيئة التى أحاطت به عند بدر بن عمار : كانت أرقى، وكانت أشد تنوعا واختلافا . ولست فى حاجة إلى أن أصف لك البيئة التى أحاطت بسيف الدولة فى حلب ؛ فقد كثر كلام الناس فى وصفها حتى أصبح الوقوف عندها إطالة و إملالا . و إنما ألاحظ أن بيئة بدر بن عمار كانت بيئة ضئيلة ضيقة تلائم سلطان هذا العامل اليسير وما كان يستطيع أن يمنح من المال، وتلائم فى الوقت نفسه ضآلة عمله وخضوعه لسلطان أمير آخر هو ابن رائق الذى كان يتلقّى سلطانه من بغداد . فأما بيئة سيف الدولة فقد كانت تلائم ما كان لهذا الأمير من سلطان مستقل بالفعل ، له كل مميزات القوة والثروة والغنى : سلطان لا يتلقاه صاحبه من بغداد ، و إنما يستمده من سيفه ومن بلائه فى قتال الروم والثبات للإخشيديين . سلطان ينافس به صاحبه أصحاب السلطان فى بغداد وفى الفسطاط ، و يبيح للمتنبي — كما سنرى — أن يعرّض بالخليفة حيناً ، و يصرح بمهاجمته حيناً آخر . سلطان يشبه إذن سلطان بغداد ، و يكاد يمتاز منه ، بل يمتاز منه بأنه سلطان عربى خالص لا يتسلط عليه الأعجمى ولا يتأثر بالذوق الأجنبي . وما أظنك فى حاجة إلى أن ألفتك إلى أن حال السلطان فى بغداد كانت سيئة كل السوء فى هذا العصر بالقياس إلى ما تحتاج إليه الحياة الأدبية من التقوية والتنمية والتشجيع . فقد كان الخليفة معسراً أشد الإعسار فى أكثر الأوقات . ويكفى أن تقرأ كتاب الأوراق للصولى لترى مع كثير من الألم والحزن كيف كان الراضى يعتـذر بضيق ذات اليد عن إرضاء حاجة شعرائه وندمائه إلى العطاء . وكان السلطان الفعلى وما يتبعه من الثراء الفعلى إلى جماعة من قادة الأتراك ، ثم إلى هذا الأمير الديلمى

وحاشيته . وواضح جداً أن هؤلاء الأتراك والديلم مهما يكن من حبهم للشهرة وحرصهم على المنافسة ورغبتهم فى تشجيع العلم والأدب ، فقد كان لهم من ذوقهم الأجنبى ومن تعصبهم على العرب ومن شعوبيتهم بوجه عام ، ما يحول بينهم و بين الفراغ للحياة الأدبية العربية الخالصة ، على نحو ما كانت الحال عليه فى بغداد قبل ضعف الخلفاء وفساد الأمر فى قصر الخلافة .

وربما كان استعداد السلطان لتشجيع الأدب وحمايته فى مصر خيراً من استعداده فى بغداد ، ولكن السلطان على كل حال كان إلى جماعة من الأجانب ، من الأتراك والروم والسودان . فهم كانوا يحمون الأدب ويشجعونه؛ لأن طبيعة الحياة كانت تقتضى ذلك ، ولأن المنافسة السياسية كانت تفرضه . فأما فى حلب فقد كان الأمر مختلفاً كل الاختلاف : الأمير عربى متعصب للعرب ، مبغض للشعوبية . والبيئة من حوله عربية طامحة إلى المجد ، حانقة على الغاصبين فى العراق ومصر . والذوق عربى قد ورث حب الأدب عامة ، وحب الشعر خاصة، عن هذه البادية العربية التى كانت ما تزال حوله تمده وتغذوه . وليست الحاجة إلى المنافسة أقل منها فى بغداد أو الفسطاط، ولعلها أكثر منها . ثم لم تكن هذه الدولة السورية فقيرة ولا معسرة ، وإنما كانت ضخمة الثروة ظاهرة الغنى . وليس من شك فى أنها كانت تكسب من حرب الروم أكثر مما تنفق فيها .

فلا غرابة فى أن تزدهر الحياة العقلية والأدبية فجأة حول هذا الأمير العربى الفتى، وفى أن يسرع إليه العلماء والأدباء والشعراء يلتمسون فضله وحمايته ، فيجدون عنده ما يلتمسون وفوق ما يلتمسون . ولعله كان يدعوهم إليه ويرغِّبهم فى جواره ترغيباً .

وأنا أعلم أن هذه النهضة العقلية والأدبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة فى سوريا الشمالية . وقد رأينا فى صدر هذا الحديث أن البيئة العربية فى شمال سوريا كانت جاهلة فى شباب المتنبى ، وأن جهلها قد أثر فى شعر المتنبى آثاراً ظاهرة نكاد نلمسها بأيدينا . إنما طرأت هذه النهضة على سوريا الشمالية طروءاً وظهرت فيها فجأة حين

نهض فيها هذا الفتى العربى ، فازدحم حوله الكتّاب والشعراء والعلماء والفلاسفة .

ولم يكن اتصال هذه الدولة الناشئة بالروم فى غير انقطاع ليضعف من هذه النهضة أو ليحد آفاقها ، وإنما كان خليقاً أن يزيدها قوة ، بما يثير من نشاط فى النفوس ، وبما يحدث من اختلاط مستمر بين العرب والروم أثناء الحرب والسلم ، لكثرة من كان يقع فى إسار المسلمين من الروم ، ومن كان يقع فى إسار الروم من المسلمين .

ولست أزعم أن حلب كانت فى ذلك الوقت أرقى من بغداد ، أو أنها كانت تعدل بغداد فى حظها من الحضارة والترف العقلى والمادى ؛ فهذا مخالف لطبيعة الأشياء . وليس من المعقول أن تشبّه مدينة نهضت فجأة بمدينة هى مستقر النهضة الإسلامية منذ عهد بعيد ، كانت فيها آثار الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل والمعتضد ، وكانت عاصمة مادية ومعنوية لهذه الدولة الضخمة ، وهى الآن قد فقدت سلطانها المادى ، ولكن سلطانها المعنوى ما يزال قويا بعيد الصوت فى الآفاق .

ولكن ليس من شك فى أن شاعرنا قد لقى فى حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل ، فيها غذاء لعقله ، وإرهاف لحسه ، وتقوية لشعوره ، وفيها قبل كل شىء وبعد كل شىء ، ملاحظة متصلة ، ونقد مستمر ، وحسد وكيد ، وتنافس فى الظفر برضا الأمير .

وإذن فمن الحق على المتنبى لنفسه أن يُعْنَى بفنه أشد العناية وأدقها ، وأن ينتفع بكل ما حوله لتصبح هذه العناية خصبة منتجة حقا . وقد فعل المتنبى من غير شك ، فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة ، وظهرت آثار هذا كله فى شعره الذى قاله فى هذا الطور .

٢

وكانت ثقافة سيف الدولة نفسه واسعة عميقة فيما يظهر ؛ فقد كان ، على احتفاظه بكثير من خصال البداوة ، أبعد الناس عن حيـاة البدوى الجاهل الذى لا يعرف الشجاعة والبأس والكرم والجود ، وكانت بيئته الخاصة التى نشأ فيها تهيئه لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة فى العـلم والأدب ، والأخذ بأسباب الحضارة الراقية الزاهية التى كانت مسيطرة فى بغداد .

فهو لم يخرج من البادية فجأة ، وإنما سبقت أسرته إلى شىء غير قليل من المجد ، وشاركت فى الحياة السياسية ، ونهضت ببعض المناصب العامة ، ثم انحازت إلى فكرة القومية من جهة ، وتأثرت بالطمع وحب النفس من جهة أخرى ؛ ففكرت فى الاستقلال ، وسعت إليه . وظفرت به . وأيسر النتائج لهذا أنها أخذت بأسباب الترف ، وعاشت عيشة المتسلطين ، ولم ترسل أبناءها هملا بغير تربية ولا تثقيف ، وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين ، وعلّمتهم ما لم يكن بدٌّ من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال . وثقافة سيف الدولة تظهر فى أحاديثه ومحاوراته ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلساؤه من العلم والأدب والفن ، وقدرته على التمييز الدقيق بين ما كان يقال فى مجلسه من الصواب والخطأ ، ومن الجيد والردئ ، ورغبته فى أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء والأدباء والكتّاب والشعراء ، وفى أن تتفرع فيها الثقافات ، فتوجد الفلسفة إلى جانب العلم ، وتوجد علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب .

وما كان الرجل يصنع هـذا عن جهل ، ولا عن غرور ولا عن رغبة فى المنافسة للمنافسـة من حيث هى ، بل عن بصيرة وحسن رأى ، وعلم بما يأتى وما يدع ،

وتقدير صحيح لأثر الحياة العقلية المزدهرة فى نشر الدعوة ، و إعلان ما كان يريد لملكه ودولته من أبهة وجلال .

وكانت مجالس سيف الدولة فى أوقات السلم كمجالس أمثاله من الأمراء وأصحاب السلطان : مدارس يتثقف فيها الجاهل ، ويتهذب فيها ذو الطبع الغليظ ، وتشتد فيها عناية كل واحد من الذين يشتركون فيها ويختلفون إليها بأن يعظم حظه من الثقافة ، ويزداد علمه سعة وعمقاً ، ويزداد طبعه رقة وتهذيباً ، ويزداد لسانه مرونة ولباقة . ولعل سيف الدولة نفسه كان أشد الناس انتفاعا بهذه المدرسة ، واستفادة مما يلقى فيها من العلم ويدار فيها من الحديث ؛ فكانت ثقافته تزداد وعلمه ينمو من يوم إلى يوم . ولست أستبعد أن يكون سيف الدولة قد أضاف إلى مشاركته فى الثقافة الشائعة لوقته ، مشاركة فيما هو أعمق من هذه الثقافة وأدنى إلى الجد . فما أظن فى أنه حمى الفارابى ، ويسّر له أسباب الحياة لمجرد الرغبة فى الفخر والتكثر . وما أستبعد أن يكون سيف الدولة قد ألمّ شيئاً باليونانية وثقافة اليونانيين ، لاتصاله اليومى أثناء حياته كلها باليونان وشؤون اليونان . فمن الحق على الشاعر الذى يريد أن ينقطع لأمير كهذا الأمير ، ويشارك فى مجلس كمجلس سيف الدولة ، أن يهيئ نفسه لذلك أحسن تهيئة ، ويُعِدَّها له أقوى إعداد .

والرواة يحدثوننا ، والديوان يحدثنا ، بأن المتنبى قد جد فى ذلك فأحسن الجد ، وأتيح له فى ذلك أحسن التوفيق . فلم يكن المتنبى كما عرفت صاحب مجون ولهو ، ولم يكن محبا للراحة والفراغ . فلا غرابة فى أن تتحدث الأخبار بأنه كان كثير القراءة ، يطيل مصاحبة الكتب ، حتى يمضى عليه فى ذلك أكثر الليل .

وإذن فلم يكن رقى شعر المتنبى فى هذا الطور شيئاً مفاجئاً ، ولا أثراً من آثار المصادفة ، وإنما كان شيئاً طبيعيا ، ونتيجة لازمة لهذه الحياة الجديدة التى انغمس فيها ، ولما كان قد ركّب فى طبعه من ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، وحدّة الذهن ، وقوة العقل والشعور معاً .

رُكِّب طبعه على هذا النحو ، ووجد عند سيف الدولة راحة من الجهد ، وفراغا للجد من الأمر ، وصادف بيئة خصبة مثقفة ذكية ناقدة ، وأميراً ليس أقل من هذه البيئة خصبا ولا ذكاء ولا ثقافة ولا ميلا إلى النقد . فلم يكن له بد من أن يلائم بين نفسه و بين هذه البيئة ، ومن أن يجعل نفسه خليقاً بصحبة هذا الأمير . فإذا أضفت إلى ذلك نشاط الأمير الذى لا يفتُر ، وحسن بلائه فى سبيل المجد ، وحسن جهاده فى حماية الإسلام والمسلمين ، وحسن سخائه بالمال ، لم تنكر من هـذه الوثبة التى وثبها المتنبى فى هذا الطور من حياته قليلا ولا كثيراً .

٣

وكان شعر المتنبي كما رأيت متنوعا كحياة الأمير الذى انقطع له ، فوقف نفسه وجهده على مدحه والإشادة به والثناء عليه . وما أحتاج إلى أن أتكلف ما كنت أتكلفه من قبل فى توقيت القصائد والمقطوعات وتاريخها ؛ فالديوان يكفينا هذه المهمة ، فهو يوقت هذه القصائد و يؤرخها ، ولا يكاد يهمل إلا توقيت المقطوعات القصار وتأريخها ؛ لأنها فيما يظهر كانت متصلة منتشرة فى الأعوام التى اصطحب فيها الشاعر والأمير ، فلم يكن فى توقيتها وتأريخها كبير عناء . وما أحتاج كذلك إلى تأريخ حياة سيف الدولة ؛ فإنى لا أريد الحديث عن هذا الأمير ولا تصوير سيرته ، بل أنا لا أعرض له إلا من حيث الحاجة إليه فى تصوير حياة المتنبي والحديث عن شعره . ولم يقصر المؤرخون القدماء والمحدثون فى إنصاف هذا الأمير وتصوير ما كان يمتاز به من قوة ، أو ما كان يعيبه من ضعف وتقصير .

وما أحتاج كذلك إلى أن أتعمق فى درس كل الشعر الذى قاله المتنبي فى سيف الدولة ؛ فإن هذا شيء يطول و يوشك ألا ينقضى . وما أشدّ حاجتى إلى أن أفرغ من هذا الحديث ، وأدع المتنبي وحياته إلى موضوع آخر من هذه الموضوعات الكثيرة التى أنا مشغوف بقراءتها والكتابة فيها ! فحسبك وحسبى أن نقف وقفات قصارا عند نماذج مختلفة من هذه الفنون التى طرقها المتنبي فيما قال من الشعر لسيف الدولة ، على أن تكون هذه النماذج التى نلمّ بها مغنية عما لا ندرسه ولا نقول فيه .

ولننظر قبل كل شيء إلى المدح الخالص الذى قاله المتنبي فى سيف الدولة ، والذى

اشترك فيه سيف الدولة مع غيره من الأمراء الممدوحين ، أو اشترك فيه المتنبي مع غيره من المادحين .

ولنختر أول ما قاله المتنبي فى مدح سيف الدولة من الشعر حين اتصل به فى أنطاكية سنة سبع وثلاثين . فنحن نلاحظ أنه أكثر من قوله الشعر فى سيف الدولة أثناء هذه السنة الأولى ؛ فقد مدحه فى أنطاكية نفسها بقصائد ثلاث : إحداها هذه الميمية التى سنطيل الوقوف عندها شيئاً . والأخريان قالهما حين عزم سيف الدولة على الرحيل ، وحين أخذ فيه . ثم ماتت أم سيف الدولة فرثاها ، ثم أُسر ابن سيف الدولة واستنقذه الأمير ، وقال المتنبى فى ذلك شعراً . ثم تعرّض أخو سيف الدولة لخطر من قِبَل البويهيين ، وهمّ سيف الدولة بنصره ، فقال المتنبى فى ذلك شعراً . ثم أراد الأمير شاعره على أن يصحبه فى هذه الحملة التى همّ بها ، فقال المتنبى فى ذلك شعراً . ومن المحقق أن أسبابا عارضة لم يحدثها المتنبى قد دعته إلى الإكثار من قول الشعر فى هذا العام أو فيما بقى من هذا العام . ولكن من المحقق أيضاً أننا نحس فى هذا الشعر كله ، ولا سيما فى القسم الأول منه ، أن المتنبى كان حريصاً كل الحرص على أن يرضى أميره ويظفر بمودته واصطناعه إياه ، وأنه قد ظفر من ذلك بما كان يريد ، فأصبح شاعراً رسميا ، وأصبح الأمير حريصاً على صحبته ، يَهُمّ بالسفر فيدعوه إلى مرافقته .

فلننظر إذن فى بعض هذا الشعر ، ولنختر منه الآن هذه القصائد الثلاث التى قالها المتنبى لأميره بمجرد أن اتصل به فى أنطاكية حين كان الأمل وحده هو الذى يدفعه إلى المدح والثناء . والنظرة السريعة فى القصيدة الأولى تترك فى أنفسنا أثراً غريباً . فالفرق عظيم جدًّا بين لهجة الشاعر فيها ولهجته فى القصيدة الأولى التى مدح بها بدر بن عمار : كان مدحه لبدر بن عمار كما رأيت مندفعاً شديد الاندفاع لا يكاد يملك نفسه ، ولا يسيطر على ما يثور فيها من عواطف الفرح والابتهاج . وكان كما رأيت يلائم بين شعوره وشعره ، فيصطنع البحر المتقارب الذى ينحدر به انحداراً ،

و يصور إسراعه إلى الأمير ، واندفاعه إلى هذه الواحة الخضراء التى لاحت له فى صحراء مجدبة .

أما ميميته الأولى فى سيف الدولة ، فلا تصور اندفاعاً ولا إسراعاً ، و إنما تصور أناة ومهلا وتعمداً لطول الروية والإمعان فى التفكير . وأنا أُقدِّر أن المتنبى كان فى الخامسة والعشرين حين اتصل ببدر بن عمار ، وكان فى الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة . وأنا أُقدر أثر الشباب فى ذلك الاندفاع، وأثر الكهولة فى هذه الأناة. بل أنا أُقدر أيضاً أن المتنبى كان بائساً يائساً حين أُتيح له الاتصال ببدر ، وأنه كان راضياً مطمئنا حين اتصل بسيف الدولة . بل أنا أُقدر بعد هذا وذاك أن المتنبى كان قليل الشهرة ، ضئيل الحظ من نباهة الذكر حين اتصل ببدر ابن عمار، وكان بعيد الصوت مرتفع المكانة حين اتصل بسيف الدولة .

وكل هذا كاف لتعليل اندفاعه فى طبرية، وأناته فى أنطاكية . ولكنى لاأستبعد مع هذا أن تكون تجربة المتنبى عند بدر قد علمته الاحتياط حين يتصل بالملوك والأمراء ، وألقت فى رُوعه أن الخير أن يصطنع الأناة والروية ؛ فلا يُلقى بين يدى ممدوحيه بنفسه كلها وأمله كله ، و إنما يعطيهم من ذلك بمقدار ، و يدّخر لنفسه منه ما قد ينفعه حين يحتاج إليه . بل أنا أُرجح أن تجربة المتنبى عند بدر وعند غيره من الناس قد علمته ألا يكشف عن نفسه كلها لأحد ، وأن يقسم حماسته قسمين ، يحتفظ لنفسه بأحدهما ، و يجعل الآخر مادة يأخذ منها ليعطى ممدوحيه .

ومهما يكن من شئ فقد كان للمتنبى حين أقبل على سيف الدولة فى أنطاكية مظهران متناقضان : فأما أحدهما فظهر الأناة والحذر ، وأما الآخر فظهر الحرص على إرضاء أميره العظيم .

وشيء ثالث لا بد من تقديره فيما أظن ، وهوأن المتنبى قد حقق فى نفسه الفرق بين ممدوحه الجديد وممدوحيه السابقين ، وحقق فى نفسه الفرق بين البيئة التى كانت تحيط بسيف الدولة والبيئات التى كانت تحيط بممدوحيه الآخرين ، فأقدم على مدح

سيف الدولة والتحدث إلى بيئته ، لا فى شىء من الأناة والحذر فحسب ، بل فى شىء من التهيب والإشفاق أيضاً .

وما أرى إلا أنه استعد لمقامه هذا بين يدى سيف الدولة وأصحابه ، فأحسن الاستعداد وأطاله ، وتقدم إلى فنه أن يمده بكل ما يملك من قوة وخصب وغناء . وحرص على أن تكون قصيدته الأولى لهذا الأمير خليقة بمقامه الأول بين يديه ، وعلى أن يقرأ أصحاب الأمير وندماؤه هذه القصيدة أو يسمعوها ، فإذا هم مضطرون إلى أن يقدروها ويحسبوا لصاحبها حساباً ، ويعترفوا بأن الشاعر وشعره خليقان حقا بالعناية والتفكير .

من أجل هذا كله كظم المتنبي عواطفه ، وأخضع آماله وأهواءه لنظام دقيق شديد حقا ، وادّخر إرسال نفسه على سجيتها ، لمواقف ومقامات أُخرى حين تزول الكلفة بينه و بين الأمير ، وحين تؤمن له البيئة الجديدة بنباهة الذكر وارتفاع الشأن والمهارة فى الفن . و إذن فليصطنع المتنبي لهذا المقام الخطير ما يلائمه من فخامة الوزن ، وضخامة القافية ، وجزالة اللفظ ، ودقة المعنى وارتفاعه أيضاً .

وأنت واجد هذه الخصال كلها فى هذه القصيدة الميمية . ويكفى أن تقرأ مطلعها لتعرف أن الشاعر قد تعمده تعمدا ، وقصد إليه مع سبق الإصرار ، كما يقول أصحاب القانون ؛ لا لشىء إلا ليبهر و يسحر ويصدم السامعين ، و يفرض عليهم نفسه ، ويُكرههم على الاعتراف بأن هذا الشاعر الجديد ليس شاعراً ما ، ليس أول مقبل كما يقول الفرنسيون ، وإنما هو شاعر يعرف كيف يدير رأيه فى رأسه ، وكيف يدير لسانه في فمه ، وكيف يقول البيت من الشعر ، فيكلِّف سامعيه وقارئيه كثيراً من الجهد والعناء ليفهموه ثم ليذوقوه . ولن يقنعنى أحد بأن المتنبي قد أرسل نفسه على سجيتها فى هذا البيت وقاله فى غير تكلف وتعمد . والمتنبي عندى أعقل وأذكى وأعلم بالشعر وأبرع فيه من أن يندفع إلى هذا البيت اندفاع الذى لا يعلم ما يأتى وما يدع ، إنما أراد المتنبي أن يُعَنِّي خصومه الذين عرفهم أو افترضهم ، وأن يكلِّفهم التفكير فى

تفسير هذا اللغز الذى استفتح به قصيدته ، أو هذه الألغاز التى مضى فيها أثناء القسم الأول من هذه القصيدة :

وَفاؤُ كما كالرَّبْعِ أَشْجاهُ طاسِمُهْ بأَنْ تُسْعِدَا والدَّمْعُ أَشفاهُ ساجِمُهْ

من ذا الذى يستطيع أن يزعم أن المتنبى أراد أن يعبر عما فى نفسه ، فلم يجد وسيلة إلى هذا التعبير إلا هذا البيت الذى اشتد فيه الالتواء والتعقيد ؟!

ولنلاحظ أن المعنى الذى قصد إليه متكلف فى نفسه، لم يصدر عن نفس سمحة مرسلة مع طبعها ، وإنما صدر عن شاعر يريد أن يأتى بشىء جديد لم يتعود الناس والمثقفون منهم خاصة أن يسمعوه : يريد أن يفجأ سامعيه ويأتيهم بشىء لا عهد لهم به . فمتى سمع الناس تشبيه وفاء الأصدقاء بربع الأحباء ؟ وأى علاقة بين هذين الطرفين من أطراف التشبيه ؟ وإذن فهذا المعنى الغريب محتاج إلى تعبير غريب ، ولا بد للشاعر من أن يتأنق فى لفظه كما تأنق فى معناه ، ولا بد من أن تكون الغرابة مظهر هذا التأنق اللفظى ، كما كانت الغرابة مظهر ذلك التأنق المعنوى . وما دام قد شبه الوفاء بالربع ، فليفسر هذا التشبيه بما يزيده غرابة وطرافة وإمعاناً فى البعد عن المألوف . فكما أن الربع يكون أشجى للنفس وأبلغ فى إثارة الحزن كلما أمعن فى الدروس وامحاء الآثار والدنو من البلى ، فوفاء صاحبيه أشد إثارة للحزن كلما ضعف وقل وتضاءلت آثاره . والمتنبى يؤدى هذا المعنى الغريب فى تعقيد قد قصد إليه وتكلفه . فهو كان يريد أن يقول وفاؤكما بمساعدتى كالربع أشجاه طاسمه . فأخر الجار والمجرور عمدا ، وأخبر عن المبتدأ قبل أن يتم وصفه بهذا الجار والمجرور . ثم لماذا اصطنع كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة الشائعة المألوفة وهى الطامس ؟ أتراه فعل ذلك لأن القافية أعيته وهو لم يأخذ بعدُ فى القصيدة ؟ كلا ؛ هو أقدر على اللفظ والقافية من ذلك ، ولكنه تعمّد الإغراب ، وتعمد أن يثير حاجة النحويين إلى الاستطلاع والبحث ، وأن ينبئهم بأنهم إن كانوا ربحاً فقد لاقوا إعصارا ، وأنهم سيجدونه حين يذكرون الغريب ويخوضون فى حل المشكلات النحوية واللغوية .

ثم اقرأ البيت الثانى :

وما أنا إلاّ عاشِقٌ كلُّ عاشق أعَقُّ خَليلَيْه الصَّفِيَّيْنِ لائمُــه

فالشاعر لم يُقلع بعد عن التكلف والرغبة فى الإغراب ، يعمِد إلى ذلك فى معناه ، ثم يعمد إليه فى لفظه أيضاً . فانظر أولاً إلى هذا الفصل الذى تعمده «وما أنا إلاعاشق» ، ثم يقطع الحديث ليستأنف تصوير شأن العاشق على نحو طريف فى الشعر يألفه أصحاب المنطق أكثر مما يألفه الشعراء : «كل عاشق * أعق خليليه الصفيين لائمه» ، وهذا النحو الملتوى من الإخبار عن هذا العاشق قد تعمده الشاعر ، ليثير استطلاع النحويين وينبئهم بمكانه من القدرة على تصريف الكلام . وأى صعوبة كان يجدها الشاعر لو أراد أن يؤدى هذا المعنى على نحو مألوف ، فقال : كل عاشق يسوءه أصفى أخلائه ويعقه بلومه والزراية عليه . ثم يقول المتنبي :

وقد يَـتَزَيَّا بالهَوَى غيرُ أهـله ويَسْتَصْحِبُ الإنسانُ مَن لا يلاَئمُه

وكأنه قد رحم سامعيه وقارئيه ، وأراد أن يريحهم من هذا الإغراب ويرفه عليهم بعض الترفيه ، فألقى عليهم هذا البيت مثلين سائرين يؤديهما فى أعذب لفظ وأوجزه ، وأشده إمعانا فى الاستقامة والاعتدال ، حتى يُدهش سامعيه من أن يكون قائل هذا البيت السهل الجزل الصحيح المستقيم ، هو قائل ذينك البيتين الممعنين فى العسر والغرابة والالتواء .

أنظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يستأنف فيهما الحديث استئنافا ، كأنه قد قطعه مع أنه لم يقطعه ؛ فهو ما زال يتحدث إلى صاحبيه ، وهو يزعم لهما أنه سيقف بالأطلال ، وسيطيل فيها الوقوف ، وسينظر إلى الآثار وسيمعن فى النظر إليها رغم بخلهما عليه بالإسعاد وتعريضهما له باللوم . ولــكن انظر كيف يؤدى هذا المعنى ، فيعدل عن الخبر إلى الإنشاء ، وعن النبأ إلى الدعاء . وانظر إلى قوله : «بليت بلى الأطلال» ولائم بينه وبين قوله لصاحبيه : «وفاؤكما كالربع» ، ثم انظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت ، واستحضر ما سمعت وعلمت من عناية القدماء به وإكثارهم القول فيه ،

وقل لنفسك ما قلته لك آنفا : إن الشاعر لم يقصد إلا أن يفجأ سامعيه ويبهرهم بالإغراب في المعاني والألفاظ :

بَلِيتُ بِلَى الأطلالِ إنْ لم أقِفْ بها وُقُوفَ شَحِيحٍ ضاعَ في التُّرْبِ خاتَمُه

وقد أرضى الشاعر حاجته إلى الإغراب ومفاجأة السامعين به ، وأحس أنه قد ملأ نفوسهم إعجاباً به وتهيبا له ، فصور ذلك تصويراً جميلاً رائعاً لا يخلو من التحدى في هذا البيت الجميل الرائع :

كئيباً تَوَقّانى العَواذِلُ في الهوَى كما يَتَوَقَّى رَيِّضَ الخَيلِ حازِمُه

فهو إذن عاشق عنيف في عشقه ، محب خشن في حبه ، لا يحفل بتقصير صاحبيه عن إعانته ، ولا بإلحاحهما في لومه . وهو شديد على عواذله حتى إنهن ليتوقينه ويجتنبن عذله ، ولا يدنون منه إلا حذرات مشفقات مترفقات كما يدنو الحازم من الفرس الجموح الشموس ليدير عليه الحزام . أتراه يصور نفسه لسيف الدولة ، ويعطيه فكرة عن أخلاق هذا الشاعر الذى يقف الآن بين يديه مادحاً ويريد أن يكون أثيراً عنده ومقصوراً عليه ؟ أتراه ينذر أصحاب سيف الدولة هؤلاء الشعراء والأدباء وينبئهم بأنه ليس من اليسر والسهولة بحيث ينتظرون أو يرجون ، وإنما هو فرس جامح عنيف ؟ كلا الأمرين ممكن . ولكن هناك شيئاً محققاً لا شك فيه ، وهو أن الشاعر برغم حرصه على الاتصال بسيف الدولة لا يُلقى نفسه عليه إلقاء ، ولا يظهر التهالك على القرب منه ، وإنما هو كما قدمت يدنو حذراً محتاطاً مشترطاً لنفسه . وهذا يفسر ما رواه القدماء من أنه لم يتصل بسيف الدولة إلا بعد أن احتاط واشترط لنفسه ما لم يتعود الشعراء أن يشترطوه على الأمراء .

ولست أدرى أصحيحٌ ما روى الرواة من هذه الشروط أم هو متكلف منحول ؟ ولكن الذى ليس فيه شك عندى هو أن المتنبي أقدم على مدح سيف الدولة في شيء من العزة لم يألفه حين كان يمدح غيره من الأمراء والرؤساء .

ثم انظر إليه كيف ينحرف عن صديقيه المقصرين في الوفاء له ، وعن عواذله

المشفقات من القرب منه ، إلى صاحبته التى تعذّبه وتضنيه ، فيتحدث إليها فى لهجة يريدها على أن تكون لهجة غناء وحنين ، فلا يكاد يبلغ ذلك ؛ لأن فى نفسه بقية من قوة ، وفضلا من عنف ، وحاجة إلى التكلف والإغراب :

قِفِي تَغْرَمِ الأُولَى مِنَ اللحظِ مُهْجَتِى   بِثَانيـةٍ والمُتلِفُ الشىءَ غارِمُه

أتراه يريد أن يبهر الفقهاء من أصحاب سيف الدولة كما بهر النحاة واللغويين ؟ وإلا فما هذه القضية الفقهية التى صورها فى هذا البيت ، فزعم أن صاحبته قد أضاعت عليه مهجته بالنظرة الأولى ، فلا بد من أن تردها عليه بالنظرة الثانية ؛ لأن من القضايا المسلّمة عند الفقهاء أن المتلف الشىء غارمه . ولكنه لا يطيل فى مداعبة الفقهاء كما أطال فى مخاشنة اللغويين والأدباء ، وإنما يندفع إلى الغناء الهين اليسير ، فيبلغه فى غير مشقة ولا جهد ، بل يبلغه فى شىء من العذوبة والظرف فى هذا البيت على أقل تقدير :

سقاكِ وحَيَّانا بِكِ اللهُ إنمـا   عَلَى العِيسِ نَوْرٌ والخدورُ كمائمُهُ

واقرأ هذا البيت الآخر ، فليس هو أقل من سابقه ظرفاً ، وإن كان معناه قريباً كل القرب مألوفاً كل الإلف ، وإن كان الشطر الثانى منه لا يخلو من تأنق فى اللفظ ما أشك فى أنه يداعب به فريقاً من أصحاب سيف الدولة :

وماحاجةُ الأظعانِ حولَكِ فى الدُّجَى   إلى قَمَرٍ ما واجدٌ لكِ عادِمُهْ

وما أرى إلا أنه قد قصد بهذا الطباق بين الوجود والعدم إلى مداعبة المتكلمين ، كما قصد بالإتلاف والغرم إلى مداعبة الفقهاء . فهذه الأبيات وحدها ، إن صح فهمى لها وتفسيرى لما قصد إليه المتنبى بها ، تصور لنا الحاشية التى كانت تصحب سيف الدولة وتحضر مجلسه ، حين أنشده المتنبى هذه الميمية فى أنطاكية .

على أن الشاعر لم يقف عند هؤلاء الناس وحدهم من أصحاب سيف الدولة ، وإنما أراد أن يرضى فريقاً آخرين ليسوا من أصحاب النحو واللغة ، ولا من أهل الفقه والدين ، ولا من رجال الفلسفة والكلام ، وإنما هم من أهل البادية وأصحاب الحرب

والمشغوفين بالجمال والبأس معاً ، والمحتفظين بالسنّة البدوية القديمة فى سيرتهم العملية والعقلية جميعاً . فانظر إليه كيف عاد إلى المألوف من سُنّة امرئ القيس والفرزدق وابن أبى ربيعة ، فى وصف صاحبته ، وما يدل عليها من الطيب ، وما يقوم دونها من البأس والسلاح :

حَبِيبٌ كأنَّ الحُسْنَ كان يُحِبُّهُ فآثَرَهُ أو جارَ فى الحُسنِ قاسِمُهْ
تَحُولُ رماحُ الخَطِّ دُونَ سِبائِهِ وتُسْبَى لهُ من كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ
ويُضحِى غُبارُ الخيلِ أدنَى سُتورِهِ وآخِرُها نَشْرُ الكِباءِ المُلازِمُه

ثم يعود الشاعر إلى نفسه بعد أن فرغ من الناس ، فيستأنف ما ألف من الغناء الفلسفى الذى يصوره فيما يذكر من شدة الدهر عليه وحسن احتماله لهذه الشدة وصبره على ما يلقى من المكروه ، وفى إرسال الأمثال السائرة والحكم الشائعة التى تجد النفس راحة فيها حين تقولها وحين تسمعها .

وقف وقفة خاصة عند هذا البيت ؛ فلست أدرى لماذا أجد فيه حلاوة مُرّة لا آخر لها ، إن جاز مثل هذا القول . وهذا البيت عندى هو خير ما فى القسم الأول من القصيدة :

فلا يَتَّهِمْنِى الكاشحونَ فإنَّنى رَعَيْتُ الرَّدَى حتى حَلَتْ لى عَلاقِمُه

وقد فرغ المتنبى من الناس وفرغ من الأشياء ومن الزمان ، وفرغ من نفسه إن كان يستطيع أن يفرغ من نفسه ، وانتهى إلى سيف الدولة . فماذا قال له ؟ لا شك أنه شهد استعداد المدينة لاستقبال الأمير قبل مقدمه بزمن بعيد ، ورأى هذه الفازة أو هذا السرادق الذى نصب ليستقبل الأمير فيه وفود المرحبين به والمهنئين له بما أحرز من فوز وظفر . ولا شك فى أن هذه الفازة قد أعجبته وراقته وراعه ما صور عليها من المناظر التى تمثل الحياة والأحياء ، وتمثل الحرب والسلم أيضاً . ولا شك فى أن هذه الخيمة كانت بعض الغنائم التى أُخذت من الروم . فليصفها المتنبى ، وليجعل وصفها أول سبيل يسلكه إلى مدح سيف الدولة .

والخطأ كل الخطأ أن يظن قارئو هذا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير أن المتنبي قد ارتجل هذا الوصف ارتجالا . فليس فى هذه القصيدة شيء مرتجل ، وإنما هى قصيدة مصنوعة قد هيئت للأمير قبل مقدمه . ولا شك فى أن المتنبي قد اختلف إلى هذه الخيمة التى نصبت قبل مقدم الأمير ، فرأى ما كان عليها من الصور وتفكر فيه ، ثم قال فيه ما قال .

والخطأ كل الخطأ أيضاً أن يظن ظان أن المتنبي قد ابتكر هذا الوصف وجاء به من عند نفسه ؛ فالشعراء قد سبقوا إلى وصف الصور منذ عهد بعيد . والناس كلهم يذكرون وصف أبى نواس للكؤوس العسجدية التى صوّر كسرى فى قرارتها ، وصوِّرت فى جنباتها مهاً تدّريها بالقِسِيِّ الفوارس ، ثم ملئت بالخمر الممزوجة بالماء :

فَلِلخَمرِ مازُرّتْ عليه جُيوبُهـا ولِلْماءِ ما دَارَتْ عليه القَلاَنِسُ

والناس كلهم يذكرون أيضاً وصف البحترى لما كان على الإيوان من تصاوير قد برع الفن فى تصويرها وإشاعة الحياة والنشاط فيها ، حتى :

تَصِفُ العَينُ أنَّهم جِدُّ أحيا ءِ لَهُمْ بينَهُمْ إشارَةُ خُرْسِ

يَغْتَلِي فِيهِمُ ارْتيـابِىَ حتى تَتَقَرّاهُمُ يداىَ بِلَمْسِ

وقد ألمّ المتنبي نفسه فى شبابه بوصف الصور التى صوِّرت على الخيام ، ولكنه ألم بهذا الوصف إلماماً سريعاً جدًّا حين قال فى نونيته التى يمدح بها بدر بن عمار ويعتذر فيها إليه :

سَلَكَتْ تَماثيلَ القِبابِ الجِنُّ من شَوْقٍ بها فأَدَرْنَ فيـكَ الأعيُنا

ولست أرتاب فى أن الشاعر قد استحضر وصف القدماء للصور والتماثيل حين وصف هذه الخيمة التى ضُربت لسيف الدولة ، وانتفع بهذا الوصف فى كثير من المعانى التى ألم بها ، ولكن ذلك لم يضعف من شخصيته ولم يغضّ من فنه ؛ لأنه احتفظ فى هذا الوصف بروحه القوى ولفظه الجزل ، واستغل عظمة سيف الدولة والخصومة القائمة بينه وبين الروم .

ومذهب المتنبى فى هذا الوصف يسير لا جهد فيه ولا عناء ، أو قل لا يظهر فيه الجهد ولا العناء ، وهو مذهب مأخوذ عن القدماء أيضاً ، قد سلك فيه الشاعر طريق الشعراء من قبله : يرى صور الرياض فيقول إنها رياض لم ينشئها السحاب . ويرى صور عقود الدر فيقول : إنه در لم يثقبه ثاقب ولم ينظمه ناظم . وهو مذهب القدماء حين كانوا يقولون إن عيون الحسان سهام لم يرشها رائش ، وإنها مرضى ولكنها صحاح :

صَوَّبْنَ حِينَ أَرَدْنَ أَنْ يَرْمِينَنِي ... نَبْلاً بِلاَ رِيشٍ ولا بِقِدَاحِ
ورَمَيْنَ مِنْ خَلَلِ السُّتورِ بأَعْيُنٍ ... مَرْضَى يُخَالِطُها السَّقامُ صِحَاحِ

فإظهار الاختلاف بين الحقائق الحكية والصور الحاكية، وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور ، هذا التشابه الذى ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان، هما سبيل المتنبى ومذهبه إلى إجادته الفنية فى هذا الوصف. وظاهر أنه مذهب يسير قد كان يبهر القدماء ويخلبهم ، ولكنه إن أرضانا فهو يثير على ثغورنا ابتساما فيه كثير من الحب لهذه السذاجة والعطف على أصحابها . ثم للمتنبى مذهب آخر مأخوذ من القدماء أخذاً هو إشاعة الحياة فى صور الأحياء ؛ فهذه الوحوش التى تتحارب حيناً وتتسالم حيناً آخر حين تعبث الريح بالخيمة ، تذكِّر جدًّا بالجيوش التى كان يُزجيها كسرى تحت الدِّرَفْس فى شعر البحترى ، لولا أن صور البحترى كانت تستمد حياتها ونشاطها من قوة الفنان لا من تحريك الريح لجدران الإيوان، كما كانت تحرك خيمة سيف الدولة ؛ لأن جدران الإيوان كانت أثبت من أن تهزها الريح ، ولأن صور الإيوان كانت أنشط من أن تحتاج إلى معونة خارجية لِتُخَيِّلَ إليك أن الحياة شائعة فيها . فشخصية المتنبى فى هذا الوصف لا تأتى من معناه ، وإنما تأتى من هذا اللفظ الضخم الذى تشيع فيه القوة والجزالة ، ثم من تصوير سيف الدولة عظيما مهيباً يذلّ أمامه ملك الروم ، وتضطر الملوك إلى أن تقبِّل البساط بين يديه؛ لأن أعناقها تتقاصر عن تقبيل كمه أو لثم يديه . فإذا فرغ المتنبى من وصف هذه الخيمة وتصوير

عظمة الأمير وهيبته وهو يستقبل فيها الوفود ، خلص للأمير نفسه ، فوصفه مطلقاً لا تحصره خيمة ولا يحتويه مكان . فانظر إلى هذا البيت :

له عَسكَرا خيل وطيْرٍ إذا رَمَى   بهـا عَسكراً لم تَبْقَ إلاّ جماجِمُهْ

فالمعنى الذى ألمّ به الشاعر قديم بعيد العهد بالقدم ، لم يبتكره الشاعر من عند نفسه ، وإنما سبق إليه النابغة[1] فى مدح الغسانيين ، وسبق إليه أبو نُوَاس[2] فى مدح بعض الأمراء العباسيين . ولكن شخصية المتنبى مع ذلك ممتازة من شخصيتى هذين الشاعرين وغيرهما من الذين ألموا بهذا المعنى مجلين أو وقفوا عنده مفصّلين . ذلك أن القدماء كانوا يزعمون أن سباع الطير قد عرفت حسن بلاء الممدوحين فى الحرب ، فهى تتبعهم لتأكل ممن يقتلون . وهذا المعنى نفسه لم يبتكره الشعراء ، وإنما سبقت إليه البلاغة الشعبية حين كان العرب فى جاهليتهم يزعمون أن الضباع تتباشر بالحرب لما ستنجلى عنه من جيف القتلى ؛ وذلك قول الشنفرى :

لا تَدْفِنونى إنَّ دَفْنِى مُحَرَّمٌ   عَليكم ولَـكِنْ أبْشِرِى أُمَّ عامرِ

فمن تباشر الضباع بالحرب تباشرت طير الشعراء بها أيضاً ، ثم عرفت الأبطال الذين يحسنون البلاء فيها ، فتبعتهم ثقة بأنها ستجد من صرعاهم ما يكفل لها الغذاء .

أما المتنبى فإنه قد انتفع بهذا كله ، ولكنه لم يجعل طير سيف الدولة طفيلية تتبعه لتعيش ، وإنما جعلها بعض جنوده ، فهى تتبعه محاربة لا متطفلة . وليس هذا هو المهم ، على أنه فى نفسه قيم ، بل المهم أن المتنبى قد جعل للأمير جيشين : جيشاً فى

(١) قال النابغة :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدى بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم   من الضاريات بالدماء الضوارب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها   جلوس الشيوخ فى ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله   إذا ما التقى الجمعان أول غالب
(انظر قصيدته المشهورة :   * كلينى لهم يا أميمة ناصب *)

(٢) قال أبو نواس :

تتأيا الطير غـدوته   ثقة بالشبع من جزره
(انظر قصيدته :   * أيها المنتاب من عفره *)

الأرض تحمله الخيل ، وجيشا فى السماء يحمله الجو . ومن قبل سيف الدولة لم يتأمر الخلفاء والملوك والأمراء على جيوش تطير فى الجو . فالفكرة نفسها جديدة ، والصورة التى تثيرها هذه الفكرة طريفة ، والعظمة التى يخرج بها الممدوح منهما رائعة ، وشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل أمام الفحول الذين سبقوه ، ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم . وكذلك الأمر فى البيت الذى يأتى بعد هذا بقليل :

سَحابٌ منَ العِقْبانِ يَزحَفُ تَحتَها سَحابٌ إذا استَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُه

فالمعنى فى هذا البيت هو المعنى نفسه فى البيت الذى سبقه ، ولكن التصوير فيه يبلغ بالمتنبى أرفع ما يستطيع أن يسمو إليه من الروعة والجمال الفنى المخيف . أترى إلى هذه السحاب من العقبان تسعى تحتها سحاب من الجيش ! أترى إلى العدو وقد رأى هذه السحب التى يركب بعضها بعضاً ، ويدفع بعضها بعضاً ، وتزدحم بها الأرض والجو معاً ! ثم لا تقف براعة المتنبي عند هذا ، ولكنه يقلب الأوضاع المألوفة فى عرف الناس ، فإذا السحب العليا تستسقى ما دونها من السحب ، وقد ألف الناس أن يستسقى الأسفل الأعلى ، فإذا الأعلى هنا يستسقى الأسفل ، والصوارم هى التى تسقى السحب العليا بما تريق لها من الدماء . قل إن المتنبي لم يبتكر أصل المعنى ، فلن ينازعك فى ذلك أحد . ولكن لا تنازع أنت فى أنه قد ألمّ بهذا المعنى القديم اليسير فاستثمره أحسن استثمار ، وارتفع به إلى جوهر الشعر ، واستطاع أن يروع سامعيه وقارئيه بالتعبير والتصوير جميعاً .

ودع هذين البيتين ، واقرأ معى هذين البيتين الآخرين ، فسترى فيهما جمالا يأتيهما أكثره من اللفظ وأقله من المعنى ، وسترى فيهما جزالة حلوة يذوقها الذين يحبون النحو ويألفون ما فيه من العلل والتأويل :

فقد مَلّ ضَوءُ الصُّبحِ مِمّا تُغيرُهُ وَمَلّ سَوادُ الليـلِ مِمّا تُزاحِمه

وَمَلّ القَنا مِمّا تَدُقُّ صُدورَه وَمَلّ حَديدُ الهِندِ مِمّا تُلاطِمُه

فهذا الفعل الذى يتكرر أربع مرات ويضيف الملل إلى الصبح ، وإلى الليل ،

وإلى الرماح ، وإلى السيوف ، يروع السامع ويُكرهه على أن يتبع الشاعر فى شىء من الدهش والنشاط ؛ فما تعود الناس أن يجدوا من الصبح والليل والرماح والسيوف مللا أو سأماً . وأنت فى غير حاجة إلى أن أنبهك إلى جزالة اللفظ وضخامته ، ولكن انظر إلى قوله :

* فقد مل ضوء الصبح مما تغيره *

يريد مما تغير فيه . وإلى قوله :

* ومل حديد الهند مما تلاطمه *

يريد مما تلاطم به ؛ فإلغاء حرف الجر ووصل الضمير بالفعل مباشرة وبغير وساطة ، كما يقولون ، مذهب من مذاهب الفصحاء من الأعراب له جمال حلو يذوقه الذين يحسنون علل النحو ويجيدون تخريج الكلام . وإذا لم تكذبنى الذاكرة فى هذا المكان الأجنبي البعيد عن المراجع والكتب ، فقد استحسن المبرد قول الشاعر القديم(١) :

تَحِنُّ فَتُبْدِي ما بها من صَبابةٍ وأُخْفِي الذى لولا الأَسَى لقَضَانِي

يريد لقضى علىّ ، فألغى الحرف ووصل الضمير .

انظر بعد ذلك إلى هذين البيتين اللذين يطغى فيهما المتنبي على شعراء سيف الدولة الذين كانوا يمدحونه قبل أن يعرف المتنبي طغياناً عظيما :

غَضِبتُ لهُ لمـا رأيتُ صِفاته بلا واصفٍ والشعرُ تَهذِي طَماطِمُهْ
وكنتُ إذا يَمَّمْتُ أرْضاً بعيدةً سَرَيتُ فكنتُ السِّرَّ والليل كاتِمه

أترى إليه وقد أحس أن الشعراء سيمكرون به ، ويكيدون له حين يضيقون بتقدمه على الأمير ومكانه عنده ، فآثر أن يبدأ بالهجوم ، وبالهجوم الصريح الذى لا كيد فيه ولا التواء ! فهو قد سمع بسيف الدولة وصفاته الغُرّ حين كان بعيداً عنه شديد البعد . ومعنى هذا أن شهرة سيف الدولة قد طبّقت الآفاق ، ونظر المتنبي فلم

(١) الكامل للمبرد ص ٢١ (طبع ليبزيج)

يجد لهذه الصفات واصفاً يلائم ما هى أهل له من العظمة والجلال ، وإنما سمع شعراً سخيفاً يهذى به المتشاعرون الذين لا يحسنون العربية ، ولا يجيدون التصرف بفصيح الكلام ؛ فغضب لهذه الصفات الغر التى لا تجد واصفاً ، ولهذا الأمير الماجد الذى لا يجد شاعراً يلائم مجده ، فأقبل من مكان بعيد جداً ، ولكنه أقبل مستخفياً لا يحسه أحد ولا يشعر به أحد ، كأنه السر قد طوى الليل عليه ضميره طيا ، ثم ظهر فجأة بين يدى الأمير فأنشده فأرضاه وبهر من حوله ، وأفحم الذين تعودوا أن ينطقوا بين يديه ، هو الشمس التى تخفى الكواكب ، وهو النسر الذى يلتهم صغار الطير . والمعنى كما ترى قديم قد أكثر فيه الفرزدق وجرير والأخطل ، ولكن الصورة التى صاغه فيها المتنبي ساحرة باهرة من جهة ، ومحنقة مثيرة للسخط من جهة أخرى .

فهذا السر الذى يكتمه الليل جميل ، وهذا الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الشعراء خليق أن يحفظ الصدور ويملأها ضغينة وحقدا ، وقد فعل . ولكن المتنبي آثر أن يكون مهاجما على أن يكون مدافعاً . وقد جرب موقف الدفاع عند بدر بن عمار فلم يغن عنه شيئاً ، فليجرب عند سيف الدولة خطة الهجوم ، وقد أغنت عنه ، فاستطاع أن ينعم بالحياة فى ظله تسعة أعوام .

لم يمض المتنبي فى مدح الأمير ويسلك إلى هذا المدح مذهباً يظهر لنا يسيراً كل اليسر ، ولكنه فيما أظن كان طريفاً فى عصره كل الطرافة . فالأمير يلقب سيف الدولة ، فما يمنع المتنبي أن يجعله سيفا ، ويضيف إليه ما يضاف إلى السيف حيناً ، ويرفعه عن المألوف من صفات السيف حيناً آخر ؟ ! فالمجد هو الذى سل سيف الدولة ، والخليفة هو الذى تقلد هذا السيف ، والله هو الذى أخذ بقائمه وجعل يضرب به الأعداء . والسيوف تقطع حيناً وتنبو آخر ، ولكن سيف الدولة قاطع دائماً . والسيوف تقطع الأجسام وتضرب الهام ، ولكن سيف الدولة أكبر من الهام والأجسام ، فهو يقطع شدائد الدهر ولزبات الزمان .

واقرأ هذين البيتين وانظر إلى الجمال الذى يأتى فيهما من حسن الملاءمة والمتابعة بين الطباق والمبالغة :

تُحارِبُهُ الأعداء وَهْىَ عَبيدُهُ ... وتَدَّخِرُ الأموالَ وَهْىَ غَنائمُهْ

وَيستكبِرون الدّهرَ والدّهرُ دُونهُ ... ويَستَعْظِمونَ الموتَ والموتُ خَادِمُهْ

وما أرى إلا أن المتنبى قد بهر وراع وملأ القلوب والأسماع بهذه القصيدة الفذة. ولكن هذا شيء، والوصول إلى قلب سيف الدولة شيء آخر. فليس سيف الدولة يكفيه أن يمدح برائع الشعر وبارع القصيد، ولكنه ملك يحتاج إلى أن يشعر بأن أتباعه وصنائعه خدم له لا يُكبرون أنفسهم ولا يسرفون فى المغالاة بها، كما يفعل المتنبى أو كما فعل فى هذه القصيدة.

وإذا كان المتنبى قد بهر سيف الدولة فهو محتاج إلى أن يبلغ حبه ورضاه، وقد بلغ من ذلك ما كان يريد، فيما أرجح، بالقصيدتين اللتين مدحه بهما حين همّ بالرحيل وحين أخذ فيه. فالمتنبى فى هاتين القصيدتين مخالف كل المخالفة للمتنبى الذى رأيناه فى هذه الميمية : هو خادم من خدم الأمير، ورجل من رجال القصر قوام حياته الذلة والملق. ولست أريد أن أطيل بتحليل هاتين القصيدتين فهما أيسر وأهون وأوضح من أن تحتاجا إلى تحليل. ولكن اقرأ هذا الشعر واقرنه إلى ما قرأت فى الميمية، فسترى براعة المتنبى فى الكبرياء حين يريد الكبرياء، وفى الذلة حين يحتاج إلى أن يكون ذليلا :

لَيتَ أنَّا إذا ارتَحَلْتَ لكَ الخيـ ... ـلُ وأنَّا إذا نَزَلْتَ الخيـامُ

وما رأيك فى هذا الشاعر العظيم الذى يفاخر الشعراء ويستعلى عليهم، ويسرف فى الكبرياء والخيلاء، يتمنى أن يكون فرساً يحمل الأمير إذا سار، أو خيمة تُظِلُّ الأمير إذا أقام؟ ولكن لا ينبغى أن ننسى أن المتنبى مُنَافِس ومنافَس فى رضا الأمير، وأن الذلة والملق أقرب الطرق وأيسرها إلى بلوغ هذا الرضا .

فأنت ترى فى آخر الأمر أن المدح الخالص الذى أقبل به المتنبي على سيف الدولة ليس شيئاً فذا مبتكراً معجزاً إن قسته إلى ما كان الفحول يمدحون به الخلفاء والأمراء . ولكنه ليس مدحاً ساقطاً زريا متهالكا ككثير من المدح الذى كان يقوله المتنبي نفسه لغير سيف الدولة من الناس . ولعله خليق أن يكون كغيره من مدح الفحول فى القرن الأول والثانى ، وهو من غير شك أرفع وأبرع وأرق مما تعوّد الشعراء المعاصرون أن يعرضوه على الأمراء والرؤساء وعلى سيف الدولة نفسه . فلا غرابة فى أن يحس الأمير أنه يسمع مدحاً جديداً لم يتعود سماعه من قبل . وكانت شهرة المتنبي قد سبقته إلى الأمير ، وهذا المتنبي نفسه قد أقبل مادحاً مجيداً للمدح ، متملقاً بارعاً فى التملق .

فليصطنعه الأمير لنفسه ، وليتخذه شاعراً يستعلى به على الملوك والأمراء .

٤

وقد ألمّت بسيف الدولة أحداث امتحن بها فى نفر من أقربائه وخاصته ، ولم يكن بدٌّ للمتنبى من أن يقول فى ذلك شعراً ، نهوضاً بما يجب أن ينهض به شاعر القصر من العزاء والرثاء ، ووفاء بما يجب أن يفى به الصديق للصديق من حقوق المودة والحب والإخاء ؛ فقد ماتت أم سيف الدولة فى السنة التى اتصل به المتنبى فيها ، فرثاها الشاعر باللامية التى مطلعها :

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعَوالِي وتَقْتُلُنا المنونُ بلا قِتالِ

وفى أوائل سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وفى شهر صفر بالضبط ، مات لسيف الدولة طفل ، هو أبو الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة ، فرثاه المتنبى باللامية التى مطلعها :

بِنَا مِنْكَ فوقَ الرَّمْلِ ما بِكَ فى الرَّمْلِ وهذا الذى يُضنِى كذاكَ الذى يُبلِى

وفى هذه السنة نفسها مات ابن عم لسيف الدولة كان عاملا له على حمص ، وهو أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وسنعود إلى ذكره بعد حين ، فرثاه المتنبى بالدالية التى يقول فى أولها :

ما سَدِكَتْ عِلَّةٌ بِمَوْلودِ أكرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بنِ داوُدِ

وفى رمضان من سنة أربعين وثلاثمائة فقد سيف الدولة خادمه وقائده التركى يماك ، فعزّاه المتنبى بالبائية التى أولها :

لا يُحْزِنِ اللهُ الأميرَ فإنّنى لآخُذُ من حالاتِهِ بنَصِيبِ

وفى رمضان من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ماتت أخت سيف الدولة الصغرى ، فعزّاه عنها المتنبى باللامية التى يقول فيها :

إن يكُنْ صَبرُ ذِى الرَّزِيئةِ فَضْلا فَكُنِ الأفْضَلَ الأعَزَّ الأجَلاَّ

ثم فارق الشاعر أميره ، واختلفت بينهما الخطوب ، ومضت على ذلك أعوام حتى كانت سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، فماتت أخت سيف الدولة الكبرى خولة التى كانت تعرف بست الناس ، والمتنبي حينئذ فى الكوفة ، فأنفذ إلى الأمير مرثيته البائية التى أولها :

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بنتَ خَيرِ أبِ ... كِنايةً بِهما عن أشرَفِ النَّسَبِ

فقد قال المتنبي إذن لسيف الدولة مراثى ستا ، رثى فيها أمه وابنه وأختيه وابن عمه وخادمه التركى . وهذه القصائد أكثر ما قال المتنبي فى هذا الفن من فنون الشعر ؛ فقد رأيناه قبل ذلك يرثى جدّته ، ويرثى بعض التنوخيين على لسان قومه ، وسنراه بعد ذلك يقول رثاء آخر ولكنه قليل . ولكن هذه القصائد إن كانت لا تخلو من جيد الشعر ورائعه ، فليست هي خير ما قال المتنبي فى الرثاء . ومصدر ذلك فيما يظهر أن المتنبي قال أكثرها أداء للواجب ونهوضاً بالحق ، لا استجابة للعاطفة ، ولا إعراباً عن الضمير ؛ فهو قد لجأ فيها إلى فنه وعقله أكثر مما صدر فيها عن قلبه وشعوره . ومن هنا نحس فيها كثيراً من البرد ، فإن لم يكن برد فنحن نحس فيها الفتور ، لا نكاد نستثنى منها إلا القصيدة التى رثى فيها خولة ست الناس بعد أن طال فراقه للأمير ، واشتد حنينه إليه ، وألمت به وبالأمير خطوب جعلت كل واحد منهما فى حاجة إلى صاحبه . ولعل التجارب التى امتحن بها المتنبي بعد فراقه لسيف الدولة ، ولعل تقدم سنه وطول تفكيره فى الحياة والأحياء — لعل هذا كله قد أثر فى هذه القصيدة الأخيرة ، فأشاع فيها حزناً أيسر ما يوصف به أنه كان عميقاً حقا .

ونحن فى حاجة إلى أن نقف عند بعض هذا الشعر وقفات قصيرة ، لا لشىء إلا لنتبين المذهب الفنى الذى اصطنعه المتنبي فى هذا الرثاء . ولنلاحظ قبل كل شىء ظاهرتين نجدهما فى هذا الرثاء :

إحداهما تُفيض عليه شيئاً من قوة وتُشيع فيه حظا من حرارة ، وتجعله خليقاً أن

يبعث الحزن ويدعو إلى الروية والتفكير ، وهى اعتماد المتنبي فى هذا الرثاء على عقله وعلى عقله الفلسفى خاصة ، والتجاء المتنبي إلى كثير من الحكمة الشائعة فى الأمم على اختلاف البيئات والعصور ، ومهارته فى صوغ هذه الحكم صوغا قوامه الدقة والإيجاز معا ، ثم إرسالها أمثالاً سائرة تصلح لتعزية الناس وأخذهم بالصبر والإذعان فى كل زمان ومكان .

والظاهرة الأخرى كانت تنفع المتنبي فى حياته الواقعة ، وكانت ترضى الأمير حين كان يستمع لهذا الرثاء ، ولكنها فى حقيقة الأمر تفسد الرثاء على الشاعر إفساداً ، وتصور قصور الشاعر وعجزه ونضوب قريحته ، وهى مدحه المستمر للأمير ، واتخاذ الرثاء وسيلة إلى هذا المدح . فهذه الظاهرة تُلقى فى رُوعك أن الشاعر لم يصدر فى رثائه عن حزن ولا عن ألم ، ولم يصطنع فى رثائه لهجة صادقة ، وإنما أدى واجباً لم يكن له بدٌّ من أدائه ، وكان يضيق بأداء هذا الواجب أحياناً ، فيستعين عليه بهذا المدح الذى يتملق الأمير ويلهيه عما يكون فى رثائه من القصور أو التقصير . ونحن ننظر قبل كل شىء فى رثاء المتنبي لأم الأمير سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وما أظن إلا أنك ستوافقنى على أن الشاعر اعتمد على فنه أكثر مما اعتمد على أى شىء آخر ، وتأنق فى هذه القصيدة تأنقاً خاصا ؛ لأنه كان حديث العهد بالأمير ، حريصاً على أن يرضيه ، ويتمكن من نفسه ، ويقهر حسّاده ومنافسيه .

وأول هذه القصيدة فلسفة عامة ، يعتمد فيها الشاعر على هذا اليأس الشائع الذى ألفه الناس حين يفكرون فى قسوة الموت وشموله ، وأنه لا محيد عنه ولا وقاء منه . وليس فى هذا الكلام شىء جديد إلا صيغته ، وهذا الروح الحزين الشاحب الذى يترقرق فيه ؛ وذلك حيث يقول :

نُعِدُّ المَشْرَفيّةَ وَالعَوَالِى وتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلاَ قِتالِ
ونَرْتَبِطُ السَّوابِقَ مُقْرَباتٍ وما يُنْجِينَ مِن خَبَبِ اللَّيالى
ومن لم يَعْشَقِ الدُّنيا قَدِيماً ولَـكِنْ لا سَبِيلَ إلى وِصالِ

نَصِيبُكَ فى حَياتكَ من حَبيبٍ نَصِيبُكَ فى مَنَامِك من خَيالِ

فإذا فرغ المتنبي من هذا الكلام العام الذى لا حظ له من شخصية ولا من ابتكار، تغنّى نفسه وما ألمّ به من المحن، وما تتابع عليه من الخطوب، وما تلقّى به هذه المحن والخطوب من حسن الصبر والاحتمال، فى هذين البيتين اللذين شاعا، وامتلأت بهما النفوس، وانطلقت بهما الألسنة، حتى خرجا أو كادا يخرجان عن ملك المتنبي، وأصبحا ملكا أو ترجمانا عن كل من ألحت عليه الأحداث، وتتابعت عليه الأرزاء والخطوب. وهما قوله :

رَمَانِى الدَّهْرُ بالأرْزَاء حَتَّى فُؤادِى فى غِشاء من نِبَالِ
فَصِرْتُ إذا أصابَتنِى سِهامٌ تكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

ومع ذلك فأصل المعنى الذى قصد إليه الشاعر شائع مألوف لا طرافة فيه ولا ابتكار؛ فكل الناس يحس إذا كثرت الأحداث عليه أنه قد استفاد من ذلك تجربة وصبراً، ومرن على احتمال الآلام والأرزاء، وإنما الطرافة فى هذه الصورة التى عرض المتنبي فيها هذا المعنى حين جعل الأرزاء التى ألحت عليه نبالاً قد ثبتت فى قلبه ودارت حوله، حتى أصبحت له غشاء ووقاء، وحتى أصبح قلبه بمأمن من أن تبلغه النبال الطارئة إذا رُمى بها؛ لأنه فى درع من النبال الأولى. فالأرزاء تَفُلُّ الأرزاء، والنصال تتكسر على النصال .

ولست أدرى لماذا لا يبلغ هذا التصوير من نفسى شيئاً، ولا أرى فيه إلا براعة شاعر، ومهارة فنان قد واتته طبيعته، واستجابت له ألفاظه؛ فجاء بصورة ربما تروق ولكنها لا تبلغ القلب ولا تؤثر فى النفس. وربما كانت هذه الألفاظ التى تذكّر بالحرب وتصورها قد أشاعت فى هذين البيتين من القوة والفتوة والجلد، ما حببهما إلى الناس حين تلح عليهم النوائب، وتأخذهم الأرزاء من كل مكان، وحين يحتاجون إلى الشجاعة والتحدى، وتكلف الرجولة، والثبات للخطوب. على أن المتنبي لم يكد

يحاول إتمام هذا المعنى حتى قصر به لفظه ، فتورّط فى شىء من الاضطراب يثقل احتماله ، ويثقل التمثل به أيضاً ، وذلك قوله :

وَهان فما أُبالِى بالرّزايا لِأَنّى ما انتَفَعْتُ بأَن أُبالى

وقد كان نَفَسُ المتنبى فى هذا الغناء قصيراً ، فلم يستطع أن يتعمق النفوس ولا أن يثير أشجانها .

ثم انظر إليه حين وصل إلى الفقيد التى أراد أن يرثيها كيف ضعف وتهالك وأدركه الخور والفتور ، فلم يصنع شيئاً ولم يأت بجديد ، وذلك قوله :

وهذا أوّلُ النّاعِينَ طُرّاً لِأَوّلِ مَيْتَةٍ فى ذا الجَلالِ

كأَنَّ المَوْتَ لم يَفْجَعْ بِنَفْسٍ ولم يَخْطُرْ لِمَخلُوقٍ ببال

صَلاةُ اللهِ خالِقِنا حَنُوطٌ عَلَى الوَجهِ المُكَفَّنِ بالجَمالِ

فالبيت الأول من هذه الأبيات على يسر معناه وسهولته ، وقرب مأخذه وابتذاله بين الناس جميعاً ، غامض لا يخلو من سخف . والبيت الثانى منها محتمل على ابتذاله. فأما البيت الثالث فقد أحس القدماء سماجته ، وما أظن المحدثين أقل لهذه السماجة إحساساً ، وهى سماجة تأتى من اللفظ ، وتأتى من المعنى جميعاً ، ولعلها كذلك تأتى من العجز عن إقامة الوزن والاضطرار إلى لفظ « خالقنا » وصفاً لله لا لينزهه عما لا يليق به ، ولا ليبسط سلطانه على ما قد يشك الناس فى أن سلطانه شامل له مبسوط عليه ، بل ليقيم وزن البيت ليس غير . ثم انظر إلى قوله :

فإنّ لهُ ببطنِ الأرض شَخْصاً جديداً ذِكْرُناه وَهْوَ بالِى

فأنت واجد فيه سماجة لفظية فى قوله « ذكرناه » . فهذا الكلام إن أقره النحو لا يقبله الشعر . وأنت واجد كذلك سماجة معنوية فى هذا الطباق بين الجديد والبالى. فما كان ينبغى لشاعر يعزّى الأمير عن أمه أن يتعجل ذكر البلى ، ولا أن يلم به ؛ وحسبه من فقد الأمير أمه داعياً إلى الحزن اللاذع والألم الممض . والشاعر يعزى ، فما يحسن

به أن يذكر البلى والانحلال ، وما إلى ذلك من الأعراض التى تلم بأجسام الموتى ، والتى لا يحب الأحياء أن يتمثلوها .

ولست أطيل التعليق على ما فى هذه القصيدة من الرثاء ؛ فكله فاتر أو قريب من الفتور . ولكن انظر إلى هذا البيت :

وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنا مَنْ وَجَدْنا قُبَيْلَ الفَقْدِ مفقودَ المِثالِ

فما رأيك فى هذه الفأفأة ، وفى هذه القنقنة ، وفى هذه الدأدأة ؟ ثم ما رأيك فى هذا الجهد العنيف الذى يتكلفه الشاعر ويفرض علينا أن نتكلفه ، ليؤدى هو ونفهم نحن معنى مبتذلا لا خطر له ولا غناء فيه ؟ فالشاعر لا يزيد على أن يقول إن أم الأمير لم يكن لها نظير فى حياتها ، ففقدها من أجل ذلك أفجع الفقد وأشده أذى . والمعنى أيسر كما ترى من أن يُتَكَلَّف لفهمه وأدائه هذا العناء . على أن المتنبي يثب من هذا البيت السخيف إلى هذين البيتين اللذين يروع معناهما وإن أدرك لفظهما شىء من التقصير ، وهما قوله :

يُدَفِّنُ بَعضُنا بعضاً ويَمشى أواخِرُنا عَلَى هامِ الأوالى
وكم عَيْنٍ مُقَبَّلةِ النَّواحِى كَحِيلٍ بالجنادِلِ والرِّمالِ

وما أرانى فى حاجة إلى أن أنبهك إلى أن هذين البيتين قد أثرا فى التشاؤم العلائى وما نشأ عنه من فلسفة تأثيراً بعيداً عميقاً . ولكن أى فرق فى الأداء ! فاقرأ هذين البيتين ، ثم اقرأ دالية أبى العلاء ، وانظر كيف استطاع شاعر المعرة أن يستغل هذا المعنى ويصوره فى أروع الشعر :

صاحِ هَذِى قبورُنا تَملأُ الرَّحْـ ـبَ فأَيْنَ القُبورُ من عَهْدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَدِيمَ الـ أَرْضِ إلاَّ مِنْ هـذه الأَجْسادِ
وقَبيحٌ بِنا وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ هَوَانُ الآباءِ والأَجْدادِ

وهل أنا فى حاجة إلى أن أقف بك عند هذين البيتين اللذين طارت شهرتهما فى الآفاق ، وهما قوله فى آخر القصيدة :

رَأَيتُكَ فى الذين أرَى مُلوكاً كأنَّكَ مُستقيمٌ فى مُحالِ
فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ مِنهُمْ فإنَّ المِسْكَ بَعضُ دَمِ الغَزالِ

وفى البيت الأول عندى تعريض بأصحاب الملك فى الفسطاط و بغداد . والبيت الثانى ليس جديداً ، و إنما سبق المتنبى نفسه إليه قبل أن يتصل بسيف الدولة ، فلما اتصل به نزل له عنه ونقله إليه ، وذلك قوله :

وما أنا مِنهُمُ بالعَيْشِ فِيهِم ولكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغامُ

والمتنبى على كل حال حر فى أن يسرق نفسه و يكرر معناه .

وليس رثاء المتنبى لابن سيف الدولة خيراً من رثائه لأمه ، و إنما هو كلام متكلف يظهر فيه الجهد ، وتبدو فيه السماجة بين حين وحين ، وتحس وأنت تقرؤه أن الشاعر عيال على الذين سبقوه من الشعراء ، وعلى أبى تمام خاصة . ولن أقف بك من هذا الرثاء لذلك الطفل إلا على أربعة أبيات ، فى اثنين منها عاد المتنبى إلى ذوقه المريض ، فذكَّر الأب بما سيصيب ابنه من البلى والانحلال ، وذلك قوله :

بِنا مِنْكَ فَوقَ الرَّمْلِ ما بكَ فى الرَّمْلِ وهذا الَّذِى يُضْنِى كذاكَ الذى يُبلِى

وقوله ملحا فى هذا المعنى :

أيفطِمُهُ التَّوْرَابُ قبلَ فِطامِهِ ويأكُلُهُ قَبلَ البُلُوغِ إلى الأكْلِ

وأما البيتان الآخران ، فقد وثب فيهما إلى معنى فلسفى رائع ، فتح به لأبى العلاء باباً من الشعر أتى فيه بالأعاجيب . وأكبر الظن أن المتنبى قد ظفر بهذا المعنى فى بعض قراءته الفلسفية . وذلك حيث يقول :

إذا ما تَأَمَّلْتَ الزمانَ وصَرْفَهُ تَيَقَّنْتَ أنَّ المَوتَ ضَربٌ منَ القَتْلِ
وما الدَّهْرُ أهلٌ أن تُؤَمَّلَ عِندَهُ حَيَاةٌ وأن يُشتاقَ فيهِ إلى النسلِ

ونمر مسرعين برثاء المتنبى لخادم سيف الدولة وقائده التركى ؛ فليس فيه ما يحتاج إلى الوقوف عنده ، لولا أن المتنبى يتركنا نشعر بأنه يرثى هذا التركى على كره منه ؛ فهو مضطر إلى إرضاء الأمير ، ولو خُلِّى بينه و بين حريته لأعرض عن هذا الرثاء .

فانظر إليه كيف يقول :

لأبــقى يَماكُ في حَشاىَ صبابَةً إلى كُلِّ تُركِيٍّ النِّجَارِ جَليبِ
وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أبْيَضٍ بِمُبارَكٍ وَلاَ كلُّ جَفْنٍ ضيّقٍ بِنَجيبِ

فهذا الخادم التركي فذٌّ بين الترك ، ومع ذلك خليق ألا يجزع الأمير عليه ؛ لأنه سيجد عوضاً منه في العرب النزارية :

و إنَّ الَّذِى أمسَتْ نِزارُ عَبيدَهُ غَنِيٌّ عَنِ استِعْبادِهِ لِغريبِ

ومع ذلك فما أريد أن أدع هذه القصيدة دون أن أثبت هذين البيتين اللذين فتح بهما المتنبي أيضاً باباً من أبواب الفلسفة المحزونة المتشائمة لشعر أبي العلاء :

سُبِقْنا إلى الدُّنيا فلو عاشَ أهلُها مُنِعنا بها من جَيْئةٍ وذُهُوبِ
تَملَّكَها الآتى تَملُّكَ سالبٍ وَفارَقَها الماضى فِراقَ سَليبِ

ولما رثى المتنبي أخت سيف الدولة الصغرى ، عزّاه ببقاء أخته الكبرى فقال :

فاسَتَأْثَرَ المَنونُ شَخصين جَوْرًا جَعَلَ القَسْمُ نفسَهُ فيه عَدْلا
فإذا قِستَ ما أَخَذْنَ بما أغْـ دَرْنَ سَرّى عن الفُؤادِ وَسَلَّى
وتَيَقَّنْتَ أنَّ حَظَّكَ أوْفَى وَتَبيَّنْتَ أنَّ جَدَّكَ أعْلَى

وسنرى أنه ذكر هذا المعنى واستدرك رأيه فيه حين رثى أخته الكبرى سنة اثنتين وخمسين. ولكن لا ندع هذه القصيدة دون أن نلاحظ أنها من أجزل ما قال المتنبي لسيف الدولة من رثاء ، ودون أن نرى هذه الأبيات التي تصور أحسن تصوير علم المتنبي بطبائع الناس ، وحرصهم على الحياة ، وتفتح لأبي العلاء باباً من أبواب الفلسفة والتفكير . وذلك قوله :

وَلَذِيذُ الحَياةِ أنفسُ فى النَّفْـ سِ وأشهَى من أن يُمَلَّ وأحلَى
وَإذا الشيخُ قال أُفٍّ فما مَـ لَّ حَياةً وإنّما الضَّعفَ مَلاَّ
آلةُ العَيشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فإذا وَلَّيــا عَنِ المَرْءِ وَلَّى
أبداً تَستَرِدُّ ما تَهَبُ الدُّنْـ يَا فياليتَ جُودَها كانَ بُخلا

فَكَفَتْ كَوْنَ فَرحةٍ تُورِثُ الغَـ ـمَّ وَخِلٍّ يُغَادِرُ الوَجدَ خِلاّ
وَهْيَ مَعشوقةٌ عَلَى الغَدْرِ لاَتَحْـ ـفَظُ عَهْدًا ولاَ تُتَمِّمُ وَصْلا
كُلُّ دمعٍ يَسيلُ منها عَليها وبِفَكِّ اليَدَيْنِ عَنها تُخَلَّى
شِيَمُ الغانِيَاتِ فيها فما أدْ رِى لِذَا أَنَّثَ اسْمَهَا الناسُ أم لا

وليس من شك فى أن أجمل ما قال المتنبى من الرثاء لسيف الدولة ، إنما هى القصيدة الأخيرة التى رثى بها أخته خولة . ومصدر ذلك كما قدمنا ما تصوَّره هذه القصيدة من الحب الذى امتحنه الدهر فثبت للامتحان ، ومن هذا الحنين المتصل بين الصديقين . وما أرى أن هذه القصيدة تدل على صلة قريبة أو بعيدة ، أو على شبه صلة قريبة أو بعيدة بين المتنبي وهذه الفقيدة . وكل ما يمكن أن يفهم منها أن الشاعر يتحدث بأن هذه الفقيدة بَرّته وأحسنت إليه عن بعد ، كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب . وقد يكون هذا حقا ، وقد يكون كلام شاعر . والفرق عظيم على كل حال بينه وبين رأى من رأى أن قد كان بين الشاعر وبينها حب أو ما يشبه الحب[1] .

وأول هذه القصيدة شعر مألوف تأنق فيه الشاعر ، وقصد به إلى المدح أكثر مما قصد به إلى الرثاء . وذلك قوله :

يا أُخْتَ خَيْرِ أخٍ يا بنتَ خَيْرِ أبٍ كِنَايَةً بِهِما عن أشرَفِ النَّسبِ
أُجِلُّ قَدْرَكِ أن تُسْمَىْ مُؤَبَّنَةً ومَن يَصِفْكِ فقد سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وبيتان آخران قد أحسن الشاعر فيهما الملاءمة بين مدح الأحياء ورثاء الموتى كل الإحسان ، وهما قوله :

غَدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ مِنْ عَدَدٍ بِمَنْ أصبتَ وكم أسكَتَّ من لَجَبِ
وكم صَحِبْتَ أخاهَا فى مُنَازَلَةٍ وكم سَأَلتَ فلم يَبْخَلْ ولم تَخِبِ

(١) انظر : المتنبي ، لمحمود افندى شاكر (المقتطف جـ ١ مجلد ٨٨ ص ١٣٠) .

فرائع حقا لوم الموت على هذا الغدر القبيح الذى تورّط فيه حين خان الصديق وعقّ المحسن إليه . فكم صحب الموت سيف الدولة فى الحروب ! وكم جاد سيف الدولة على الموت بما كان يريد من نفوس ، فكان من الحق عليه ألا يخون صديقه هذا الجواد الوفى الذى لم يبخل عليه بنفس ولم يخيب له أملا .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أودعهما الشاعر كل ما كان قلبه يستطيع أن يحتمل من حزن ودهش وجزع ، فامتلآ روعة وجمالا ، حتى سارا مسير الأمثال فى حياة المتنبى نفسه ، إن صح ما يقول الرواة :

طوَى الجَزِيرةَ حَتّى جاءنى خَبَرٌ فَزِعتُ فيه بآمالى إلى الكَذِبِ
حَتّي إذا لم يَدَعْ لى صِدقُهُ أملاً شَرِقْتُ بِالدَّمعِ حَتّى كاد يَشْرَقُ بى

ونحن نفهم أن يَشْرَق المتنبى بالدمع ، ونعجز عن أن نفهم كيف يشرق الدمع بالمتنبى ، ولكنها نفثة المصدور وصيحة المحزون ، تنطقه بغير الصواب أحيانا .

وهل ترى أروع فى تصوير العطف على الصديق والرفق به والحنين إليه من قوله :

أرَى العِرَاقَ طَوِيلَ الليل مُذْ نُعِيَتْ فكيفَ لَيلُ فَتَى الفِتيانِ فى حَلَبِ

ثم انظر كيف يدفع عن نفسه سوء الظن به ، ويؤكد اشتراكه فى الحزن واللوعة وسفك الدمع ، بأرق لفظ وأعذبه وأبرعه فى تصوير الألم والوفاء :

يَظُنُّ أنَّ فُؤَادِى غَيْرُ مُلْتَهِبٍ وأنَّ دَمْعَ جُفُونِى غَيرُ مُنْسَكِبِ
بَلَى وَحُرْمَةِ مَن كانتْ مُرَاعِيةً لِحُرْمَةِ المَجْدِ والقُصّادِ وَالأدَبِ
وَمَن مَضَتْ غَيْرَ مَوْرُوثٍ خَلاَئقُها وَإنْ مَضَتْ يَدُها مَورُوثةَ النَّشَبِ

ويعجبنى من وصفه للفقيد قوله :

وإنْ تَكُنْ خُلِقَتْ أنثَى لقَدْ خُلِقَتْ كَرِيمةً غيرَ أُنثَى العقلِ والحسبِ

وهو عندى خير من قوله فى أم سيف الدولة :

وَلَوْ كانَ النساء كَمَنْ فَقَدْنا لَفُضِّلَتِ النســاء عَلَى الرجالِ
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ولا التّذكيرُ فضلٌ للهــلال

ففى هذين البيتين تــكلّف وتأنّق يُخرجان التفكير عن طوره فى وقت ينبغى أن تسترسل فيه النفس مع الحزن ، وألا تشغل عنه بوضع الدعاوى وإقامة الأدلة عليها .

وقد يُعجَب الناس إعجابا شديدا بهذين البيتين ، ولـكنى أراهما كلاما من كلام الشعراء . ولعل مصدر الإعجاب بهما جمال اللفظ ليس غير ، وهما قوله :

فَلَيْتَ طالعةَ الشمْسَينِ غائبةٌ وليتَ غائبةَ الشمسين لم تَغِبِ
ولَيتَ عَيْنَ الّتى آبَ النهارُ بهـا فِدَاء عَينِ التى زالتْ ولم تؤُب

ثم ذكر المتنبى عزاءه لسيف الدولة عن أُخته الصغرى ببقاء أُخته الـكبرى منذ ثمانى سنين ، فاستدرك رأيه فى هذه التعزية ، فقال :

قد كان قاسَمَكَ الشَّخصَيْنِ دَهْرُهُما فَعاش دُرُّهُما المَفْدِيُّ بِالذَّهَبِ
وَعادَ فِى طلَبِ المَتْرُوكِ تارِكُهُ إنّا لَنَغفُلُ والأيامُ فى الطَّلَبِ
ما كانَ أقْصَرَ وقتاً كان بَيْنَهُما كأنّهُ الوَقتُ بينَ الوِرْدِ والقَرَبِ

ثم ينتهى المتنبى بهذه القصيدة إلى فلسفة مظلمة حزينة أقل ما يقال فيها أنها تصوِّر شكه فى خلود النفس ، وانحرافه بهذا الشك عن طريق المسلمين ، و إحساسه التعب من هذا الشك والارتياب ، وتفتح بابا فلسفيا آخر لشعر أبى العلاء .

وأُحب أن تلاحظ أن المتنبى يصطنع فى هذه الأبيات لغة أصحاب الـكلام أكثر مما يصطنع لغة الشعراء . وسيقلده أبو العلاء فى هذا النحو من التعبير ، كما يذهب مذهبه فى هذا النحو من التفكير .

وأحب أن ألاحظ آخر الأمر أن البيت الذى يختم المتنبى به قصيدته صورة رائعة مظلمة لليأس الفلسفى المهلك الذى يؤذن بالشيخوخة وما يتبعها من العجز والإعياء . وهذا كله حيث يقول :

تَخَالَفَ الناسُ حَتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ إلاّ عَلَى شَجَبٍ والخُلْفُ فى الشَّجَبِ
فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المرْءِ سالمةً وقيلَ تَشْرَكُ جِسمَ المرْءِ فى العَطَبِ
ومَنْ تَفَكَّرَ فى الدُّنيا ومُهْجَتِهِ أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجْزِ والتَّعَبِ

فأنت ترى من درس هذا الرثاء كله أن المتنبي لم يبتكر فى هذا الفن شيئاً عند سيف الدولة ، ولعله انتهى بين حين وحين إلى معنى غريب أو فكرة قيمة . ولكن رثاءه على كل حال عادى دون المتوسط . وخير ما فيه هذه الإلمامات القصيرة ببعض الآراء الفلسفية ، التى كانت بذوراً صالحة لفلسفة أبى العلاء .

٥

وقال المتنبي لسيف الدولة قصائد خمسا ، يصف فيها ما كان من اضطراب البادية عليه ، وما كان من ردّه هذه البادية إلى الهدوء والنظام بالقوة حتى تُذعن له ، ثم بالعفو والحلم حتى تأمن له القلوب وتُخلص فى حبه النفوس .

وقد عرضنا لواحدة من هذه القصائد الخمس فيما مضى من هذا الحديث ، وهى الميمية التى مدحه بها حين كانا شابين فى الثامنة عشرة من عمرهما ولم ينشده إياها ؛ وذلك حين أوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس و بنى ضَبّةَ ، وأولها :

ذِكَرُ الصِّبا ومَرَاتِعِ الآرام　　　جَلَبَتْ حِمَامِى قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِى

ولسنا فى حاجة إلى أن نعيد القول فى هذه القصيدة . ولم يكد يتصل المتنبي بسيف الدولة حتى خرجت جماعة من القرامطة فى السماوة ، فأغاروا على حمص ، وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان ، وأبوا أن يردّوه إلا أن يأخذوا من أخيه فداء عظيما ، فأطمعوا فى الفداء كسباً للوقت ، ونهض إليهم سيف الدولة فأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه الأسير ، ولكنه استنقذه جريحاً ، فلم يلبث أن مات ، ورثاه المتنبي كما علمت .

وقد قال المتنبي فى هذه الواقعة لاميته التى أولها :

إلامَ طماعِيَةُ العاذِلِ　　　ولا رَأْىَ فى الحُبِّ للعاقِلِ

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة أحدث بنو كلاب حدثاً وارتحلوا ، فلحقهم سيف الدولة وردهم إلى الطاعة ، ثم شملهم بعفوه ؛ فقال المتنبي فى ذلك بائيته التى أولها :

بِغَيْرِكَ راعياً عَبِثَ الذِّئابُ　　　وغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ الضِّرابُ

وفى سنة أربع وأربعين وثلاثمائة فى أغلب الظن تجمعت قبائل من قيس وثارت

على ملك سيف الدولة ، فنهض لها الأمير ، وتتبعها حتى لحقها عند تَدْمُر ، فصنع بها صنيعه بكلاب . ولم يشهد المتنبي هذه الواقعة ، ولـكنه قال فيها قصيدتين ، أولاهما القافية التي أولها :

تَذَكَّرتُ ما بَينَ العُذَيبِ وبارِقِ   مَجَرَّ عَوالينا ومَجْرَى السَّوابِقِ

وكأن هذه القصيدة لم تشفِ نفس سيف الدولة ، فوصف القصة لشاعره ، وتقدّم إليه أن يستأنف القول فيها ؛ فقال الرائية التي أولها :

طِوالُ قَنًا تُطاعِنها قِصارُ   وَقَطْرُكَ في نَدًى وَوَغًى بِحارُ

وأيسر ما يُسْتَخْلَص من هذه القصائد الأربع أن الحياة الداخلية فى ملك سيف الدولة لم تكن كلها أمناً ولا هدوءاً ، وإنما كانت تضطرب وتفسد من حين إلى حين . وليس من شك فى أن أهل البادية قد أحدثوا أحداثاً أخرى لم يصفها المتنبي؛ لأنها لم تكن ذات خطر ، ولأن سيف الدولة لم ينهض بنفسه لقمعها . ومعنى هذا كله أن ما كان سيف الدولة يلقاه من المشقة ويحتمله من الجهد ويظهره من حسن البلاء فى جهاد الروم ، لم يكن ليردّ عنه كيد الذين كانوا يكيدون له من وراء ظهره فى الحاضرة والبادية جميعاً . والذين يدرسون تاريخ هذا العصر درساً مفصلا دقيقاً يعلمون أن أثرة الملوك والأمراء وتنافسهم فى السيادة والقوة ، قد تجاوزا فى ذلك الوقت كل حد معقول حتى تغلبا أو كادا يتغلبان على الشعور الإسلامى الخالص ، فضلا عن اجتماع الرأى على مذهب بعينه من المذاهب الإسلامية .

فقد كان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يُعين الروم على خصمه سرًّا أو جهراً برغم أنه كخصمه مسلم ، وأن الروم عدوٌّ له ولهذا الخصم . وكان من هؤلاء الملوك من لا يكره أن يعين القرامطة على خصمه سرًّا أو جهراً برغم أنه متفق مع خصمه فى بغض النظام القرمطى والفساد القرمطى فى السياسة والدين جميعاً .

ومن هذا كله نفهم المذهب الفنى الذى قصد إليه المتنبي فى هذه القصائد الأربع . فهو من جهة يعيب الثائرين على الأمير ، ويظهر ألمه لتمردهم عليه ، ومحاولتهم بهذا

التمرد أن يصرفوه عن جهاد الروم . وهو من جهة أخرى يمدح الأمير بالبأس والحزم اللذين يصطنعهما فى تأديب هؤلاء الثائرين وردِّهم إلى الطاعة وتوقير السلطان والنظام . ثم يمدحه بالحلم والعفو اللذين يصطنعهما لتأليف القلوب والاحتفاظ بهؤلاء العرب الذين هم قوّته على عدوّه المنافسين له من المسلمين ، ومادته فى حرب عدوه المخاصمين له من الروم .

ونحن نقف وقفة قصيرة عند لاميته التى قالها فى ثورة القرامطة بعامل الأمير فى حمص ، لنرى كيف تحوّل المتنبى عن مذهبه الذى كان يراه فى الشباب ، وأخذ يذم الآن ما كان يحمده أمس ، ويحرّض الأمير على قوم لم يزيدوا على أن ساروا سيرته التى دفعته إلى السجن ولم يكد يتجاوز العشرين من عمره . وأنت إذا قرأت هذه القصيدة معجَب بما وفق له المتنبى فيها من البراعة الأدبية والسياسية معاً . فهو فى القسم الأول من هذه القصيدة ناسب متكلف على عهده فى النسيب ، ولكنه تكلُّف خفى جدا نكاد نحسه فى المعنى ، ولا نحسه فى اللفظ بحال من الأحوال . وغزله فى هذا القسم حلو حقا يصلح للغناء ، بل هو غناء خالص ليس فيه شك . فإذا فرغ من هذا الغزل الرقيق الجميل خلص إلى أبى وائل أسير القرامطة من أهل بادية السماوة ، وتغيرت لهجته ، فإذا هو شاعر بدوى خالص ، تجد فى شعره جزالة اللفظ البدوى دون أن تلقى غلظة أو خشونة أو شططا . وأنت لا تجد هذه الجزالة فى اللفظ وحده ، ولكنك تجدها فى المعنى أيضاً . فالشاعر يصف الخيل ومسيرها فى طلب العدو وما قطعت إليه من طريق ، ثم يصف إيقاعها بالعدو وظهورها عليه ، وانهزام العدو أمامها ، ثم يهزأ بهذا العدو فى لباقة ورشاقة تجمعان خفة الحاضرة إلى رصانة البادية . وقد اصطنع الشاعر هذا الوزن السريع المتحدر ، وزن المتقارب الذى يلائم اندفاع الخيل وإسراعها فى طلب العدو ، وما يكون بينها وبينه من كرٍّ وفر ، ومن إقدام وإحجام ، ويلائم كذلك إسراع الأمير إلى نجدة ابن عمه واستنقاذه من يد العدو .

وكم كنت أحب أن أقف عند ما فى هذه القصيدة من جمال الغناء فى أولها ،

ومن جمال الوصف فى سائرها ، ولكن هذا يطول . فلنقف عند بعض أبياتها لنرى ما أشرت إليه من انحراف المتنبي فى سهولة عن رأيه القديم واستهزائه بالذين يرون ما كان يرى ويفعلون ما همّ أن يفعل ، ثم رجوعه بعد هذا كله إلى شىء من الحسرة والحزن لما يصيب أصحاب الهم البعيد من إخفاق قبل أن يبلغوا ما هموا به .

فانظر إلى قوله :

فَلَقِّيِنَ كلَّ رُدَيْنِيَّةٍ ومَصْبوحَةٍ لَبَنَ الشائِلِ
وجَيْشَ إمامٍ على ناقَةٍ صحيحِ الإمامةِ فى الباطِلِ

وانظر إلى قوله :

خُذُوا ما أتاكُم به واعْذِرُوا فإنَّ الغَنِيمةَ فى العاجِلِ
وإن كانَ أعْجَبَكُمْ عامُكُم فعُودُوا إلى حِمْصَ فى قابِلِ
فإنَّ الحُسَامَ الخَضِيبَ الذى قُتِلْتُم بهِ فى يَدِ القَاتِلِ

ثم يعود إلى الاستهزاء بزعيم هؤلاء القرامطة فيقول :

وإنى لأعْجَبُ مِنْ آمِلٍ قِتالاً بِكُمْ على بازِلِ
أقَالَ لهُ اللهُ لاَتَلْقَهُمْ بِماضٍ عَلَى فَرَسٍ حائلِ
إذا مَا ضَرَبْتَ بهِ هامَةً بَرَاهَا وغَنَّاكَ فى الكاهِلِ

وانظر إلى هذين البيتين الآتيين ؛ فما أشك فى أن المتنبي يذكر فيهما نفسه وأشباهه من المغامرين :

وَلَيْسَ بأوَّلِ ذِى هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بالنَّائِلِ
يُشَمِّرُ لِلُّجِّ عن ساقِهِ ويَغْمُرُهُ الموجُ فى الساحِلِ

وانظر إلى هذا البيت ، فإنه عندى تعريض بل تصريح باتهام بغداد بالإعانة على سيف الدولة . وما أستبعد أن تكون السياسة البغدادية هى التى أغرت هؤلاء القرامطة بالشام ليفسدوا فيها الأمر على الحمدانيين والإخشيديين معاً ، كما ستفعل

بعد ذلك لتفسد الأمر على الفاطميين . ولكن المتنبي حريص حَذِرٌ فى هذا التعريض أو التصريح ، وما أرى إلا أنه يستمد حرصه وحذره من سيف الدولة نفسه .

وانظر إليه كيف يعزّى الأمير فى آخر القصيدة عن خيانة الخائنين ، وغدر الغادرين ، وكيد الكائدين له من أهل العراق :

فهنّأكَ النَّصْرَ مُعْطِيكَهُ   وأرضاهُ سَعْيُكَ فى الآجِلِ
فَذِى الدارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ   وأَخْدَعُ مِن كِفَّةِ الحابِلِ
تفانَى الرِّجالُ عَلَى حُبِّها   وما يَحْصُلونَ على طائِلِ

وفى هذين البيتين الأخيرين بذرة من بذور الفلسفة العلائية . وهذه القصيدة عندى من أجود شعر المتنبي ، وهى من القصائد النادرة التى تحلو فيها روح الشاعر ، ويخف ظله على القارئين والسامعين . وما أرتاب فى أنها ضمنت له حب سيف الدولة ؛ لأنه وجد فيها جمال الفن ، وقوة الوصف وذكاء القلب ، واللباقة السياسية التى تمكنه من أن يغيظ الخصوم دون أن يُضطر إلى الحرج .

وليست البائية التى قالها المتنبي لسيف الدولة حين أدّب الكلابيين بأقل جودة وروعة ورشاقة ولباقة من هذه اللامية ؛ فقد وفق فيها المتنبي أحسن التوفيق للملاءمة بين جزالة اللفظ وسهولته ، و بين دقة المعنى و براعته ، وأحسن اختيار الوزن فعمد إلى الوافر، وهو كما تعلم يسير سهل سريع لا يكاد يتأتّى فيه الوقوف ، وليس أقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع اليسير فى الفضاء الواسع السهل الذى لا تقوم فيه الجبال ولا تنبثّ فيه العقبات ، ولا يريد من المنير إلا أن يجدّ فى الطلب ويُخَلِّى الأعنة للخيل. فإذا انتهى إلى المطلوبين أخذهم بهجوم لا عسر فيه من طبيعة الأرض، ولا مشقة فيه تحتاج إلى أناة أو مهل ، وإنما هو الانقضاض على العدوّ كما تنقضّ الصاعقة ، والاندفاع إليه كما يندفع السيل ، ثم الظفر به كأن لم تكن حرب ولا قتال .

وقد أعرض المتنبي فى هذه القصيدة عن الغزل والغناء ؛ لأن نشاط الحرب فى هذه الموقعة البدوية الخالصة كان قد ملأ قلبه من جهة ، ولأن هذه القصيدة الحماسية غناء كلها من جهة أخرى . فالشاعر يصف بأس الأمير وسطوته و إسراعه إلى قمع الثورة وتأديب الجناة ، ويصف إمعان الثائرين فى الهرب ، و إمعان السلطان فى الطلب . وهو فى هذا كله يصطنع لغة الحماسة والفخر ، كما تعوّد القدماء من شعراء البادية أن يصطنعوها ، لولا أن فى هذه اللغة روحا عذبا سهلا يُدنيها من الحضارة ولا ينأى بها مع ذلك من البداوة . فإذا ظفر الأمير بهؤلاء الثائرين فأسر الرجال وسبى النساء وأتاحت له القدرة أن يبطش بالأسرى والسبايا ، عاد بالعفو على هؤلاء البائسين فرد إليهم الحرية والحياة ، وعاد بالرحمة والكرامة على هؤلاء البائسات فردهن إلى أوليائهن لم يمسسهن أذى ، ولم يُلحِق بهن السباء مكروها ؛ فهن يعدن إلى أوليائهن حرائر قد ظفرن من كرم الأمير بالزينة والنعيم والطيب . وأى عار فى أن يقعن فى أيدى الأمير ، وهن إنما يخرجن من يد ولىّ كريم ليقعن فى يد ولى كريم ، لهن الأمن والحصانة عند هذا ، كما كان لهن الأمن والحصانة عند أولئك .

والمتنبي يؤدّى هذه المعانى كلها فى لفظ رشيق ليس فيه التصريح المؤذى ولا التعريض المريب ، و إنما هو الحديث يملؤه الصفو والطهر والبراءة من كل ما يؤذى النفوس . ثم يصل المتنى إلى الاستعطاف ، فيذكر الأمير بمكان هؤلاء الناس منه فى النسب ، ونفعهم له حين تشتد الخطوب . وهو لبق حقا يلح فى الاستعطاف ، حتى يُظهر كلاباً أذلة خاضعين لسلطان هذا الأمير العظيم ، ثم يعود عليهم بالفخر فيُظهرهم أعزة قاهرين لغيره من الأمراء لو قصد إليهم ؛ فهو يرضى حاجة كلاب إلى العفو ، كما يرضى حاجتها إلى الكرامة ، وهو يرضى حاجة سيف الدولة إلى الحلم كما يرضى حاجته إلى تصوير بأسه وشدته . وهو فى أثناء هذا كله لا يقصر فى التعريض الرفيق جدًّا بالذين شبُّوا هذه الثورة وأضلوا هؤلاء الثائرين . واقرأ هذه الأبيات :

تَرَفَّقْ أيُّها المَوْلَى عَلَيهمْ   فإنَّ الرِّفقَ بالجانى عِتـاب
وإنَّهمُ عَبيدُكَ حَيثُ كانوا   إذا تَدْعُو لِحادثة أجابوا
وعَيْنُ المُخطِئين هُمُ وليسُوا   بأوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتابوا
وأنتَ حَياتُهمْ غَضِبَتْ عليهم   وهَجْرُ حياتِهم لَهُم عِقابُ

ثم اقرأ هذه الأبيات :

ولَوْ غَيْرُ الأميرِ غَزَا كِلاباً   ثَنَاهُ عن شُمُوسِهمُ ضَبابُ
ولاَقَى دُونَ ثأيِهمُ طعاناً   يُلاقِى عندَهُ الذئبَ الغُرابُ
وخَيلاً تَغتَذِى رِيحَ المَوامِى   ويَكفيها مِنَ المـاءِ السَّرابُ

واقرأ بين هذه الأبيات وتلك تعريضه بالكائدين فى هذا البيت :

وجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهاءُ قَوْمٍ   وحَلَّ بغيرِ جارِمِه العَذابُ

وأنت تذكر أن قد كان للمتنبى عهد بالكلابيين فى صباه ؛ فقد نزل بهم ومدح سيداً من ساداتهم بمَنْبِج حين أقبل من العراق ، وشهد مجالس لهوهم أيضاً . فلست أستبعد أن يكون المتنبى قد وفى لهؤلاء الناس ، وعرف إحسانهم إليه ، وبِرَّهم به ، فجزى خيراً بخير ، وإحساناً بإحسان .

لست أقف من القافية التى قالها فى ثورة المتألبين من قيس إلا عند القسم الأول منها ؛ لأن فيه حنيناً ، لا أقول إلى وطنه الذى وُلد فيه ، ولكن إلى البادية العراقية التى ذهب إليها فى صباه ، فأقام فيها حيناً ، ثم عاد إلى الكوفة . ولهذا الحنين عندى خطره ؛ لأنه يرجح ما أفترضه من أن البيئة البدوية التى ارتحل إليها فى ذلك العهد وأقام فيها كانت بيئة قرمطية . فاقرأ هذه الأبيات :

تذَكَّرْتُ ما بينَ العُذَيْبِ وبارقٍ   مَجَرَّ عَوالِينا ومَجْرَى السوابِقِ
وصُحبةَ قومٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهم   بفَضْلاتِ ما قد كَسَّرُوا فى المَفارِقِ
وليـــلاً تَوَسَّدْنا الثَّوِيَّةَ تحتَه   كأنَّ ثَراها عَنْبرٌ فى المَرافقِ

واقرأ هذه الأبيات التى يُحدث فيها الطباق والتقسيم ظرفاً خفيف الدعابة ، محبباً إلى الذوق والسمع جميعاً :

سَقَتْنى بهـا القُطْرُبُّلِيَّ مَلِيحةٌ على كاذبٍ مِنْ وَعْدِها ضَوْءُ صادِقِ
سُهادٌ لِأجْفـانٍ وشمسٌ لِنَاظِرٍ وسُقْمٌ لِأبْدَانٍ ومِسْكٌ لِنَاشِق
وأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَه كلُّ عاقلٍ عَفِيفٍ ويَهْوَى جِسْمَه كلُّ فاسق

ولهذا البيت الأخير خاصة قيمته ؛ لأنه يصور طرفاً من رأى المتنبي فى لون من ألوان الإثم كان الشعراء يتهالكون عليه ، ويسرفون فيه ، ويتنافسون فى وصفه منذ فَتَح لهم بابه أبو نواس ومعاصروه ، وهو اللهو بالغلمان .

فلم يكن المتنبي يكره — فيما يظهر من هذا البيت — أن يجد الأُنس عند الشباب من الغلمان إذا اجتمع لهم الجمال والأدب ، ولكنه كان يرتفع عما دون ذلك من الإثم. ولعل هذا يعلل إعراض المتنبي عما يسمونه الغزل المذكَّر فى شعره .

وقف كذلك عند هذين البيتين اللذين يصوران أسف الشاعر لاشتغال الأمير بثورة البادية عن حرب الروم :

فما حَرَمُوا بالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً ولكِنْ كَفَاها البَرُّ قَطْعَ الشواهِقِ
ولا شَغَلوا صُمَّ القَنَـا بقلوبِهمْ عَنِ الرَّكْزِ لكن عن قلوبِ الدَّماسِقِ

ولا تدع القصيدة دون أن تقرأ هذه الأبيات التى يروعك الشاعر فيها بتصوير الخضوع والطاعة وتأثيرهما فى نفس سيف الدولة حين تقدّمت بهما نُمَيْر مُؤثرة لهما على الثورة والخروج :

لَوَفْدُ نُمَيْرٍ كانَ أرشَدَ مِنهمُ وقد طَرَدوا الأظعانَ طَرْدَ الوسائِقِ
أعَدُّوا رِماحاً من خُضُوعٍ فطاعَنوا بِها الجَيْشَ حَتَّى رَدَّ غَرْبَ الفَيالِقِ
فلم أرَ أرْمَى منهُ غَيرَ مُخاتِلٍ وأسرى إلى الأعداء غَيرَ مُسارِقِ
تُصِيبُ المَجانِيقُ العِظامُ بِكَفِّهِ دَقائقَ قد أعْيَتْ قِسِيَّ البَنادِقِ

والرائية التى قالها المتنبي فى هذه الثورة نفسها رائعة خليقة بالتحليل ، مستوجبة للإعجاب كالبائية ، ولكني لا أقف عندها تجنباً للإطالة وكراهةً للإعادة . وإنما أحب أن تقرأ هذين البيتين لترى إلحاح المتنبي فى الأسف لتحوُّل الأمير مضطرا عن قتال عدوه من الروم إلى قتال أوليائه من العرب :

وكُنْتَ السَّيفَ قائِمُهُ إليهمْ وفى الأعداء حَدُّكَ والغِرارُ
فأمْسَتْ بالبُدَيَّةِ شَفْرَتاهُ وأمسَى خَلْفَ قائِمِهِ الحِيارُ

وأُحب أن تقرأ أيضاً هذين البيتين اللذين يرفق الشاعر فيهما أجمل الرفق حين يريد أن يهوِّن على المنهزمين ما أدركهم من الهزيمة أمام الأمير :

بَنُو كَعْبٍ وما أثَّرْتَ فيهمْ يَدٌ لم يُدْمِها إلاّ السِّوارُ
بها مِنْ قَطْعِهِ ألَمٌ ونَقْصٌ وفيها من جَلالته افتِخارُ

٦

ولما اتصل المتنبي بسيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة لم يعرض لما كان بينه وبين الروم من حرب إلا لماما؛ لأنه لم يكن قد شهد مواقعه مع الروم من جهة، ولأن هذه المواقع لم تكن ملهمة للفخر والحماسة من جهة أخرى؛ فقد انهزم المسلمون للروم في تلك السنة، وغلب هؤلاء على حصن الحدث فدمروه.

فقنع المتنبي إذن في مدحه الأمير بالتعريض والإلمام اليسير، حتى إذا كانت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة شهد المتنبي مع سيف الدولة غزوة للروم، وكانت هذه الموقعة خطيرة حقا؛ فقد انتصر فيها سيف الدولة انتصاراً مؤزراً أول الأمر، فاقتحم الحدود، وأمعن في بلاد الروم حتى أبعد وملأ يديه من الغنيمة، ثم استحالت إلى هزيمة؛ فقد صعب القفول على الغزاة، أثقلتهم الغنائم والأسرى، ولصق بهم العدو، وأخذ عليهم الطرق. وأبلى سيف الدولة في الدفاع عن المسلمين بلاء حسناً، ولكنه لم يبلغ من التوفيق ما كان به خليقاً، فتفرق عنه أصحابه، ولم ينج هو إلا بعد جهد. وقال المتنبي في هذه الموقعة قصيدتين: أولاهما الميمية التي قالها حين عرض الأمير جيشه قبل الهجوم، وأولها:

لهـذا اليوم بَعْدَ غَدٍ أريجُ ... ونارٌ في العَدُوِّ لها أجيجُ

والأخرى العينية التي قالها بعد الهزيمة يسلي بها الأمير، وينذر بها الروم، وأولها:

غَيري بأكثرِ هذا الناسِ يَنْخَدِعُ ... إن قاتلُوا جَبُنُوا أو حَدَّثوا شَجُعُوا

وفي سنة أربعين وثلاثمائة نهض سيف الدولة للقاء الروم، وكانت نيته أن يغسل عن المسلمين وعن نفسه وضر الهزيمة التي أصابتهم في العام الماضي، فتهيأ للزحف من المكان نفسه الذي عرض فيه الجيش سنة تسع وثلاثين. ولكن المسلمين علموا أن

جيش العدو صخم كثير العدد فهابوه . وتقدم الأمير إلى الشاعر أن يثبِّت قلوبهم ويحرضهم على القتال، فقال نونيته التي أولها :

نَزُورُ دِياراً ما نُحِبّ لها مَغْنَى ونَسْأَلُ فيها غيرَ سُكَّانِها الإِذْنا

وأنشدها المتنبي لا بين يدى الأمير وحده، بل أمام جماعة المسلمين ، فرد إلى قلوبهم الثقة وأثار فيها الحماسة ، ثم اندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل ، فاكتسح العدو أمامه اكتساحاً ، وأمعن في الغزو . وكان يريد أن يصل إلى خَرْشَنة ، ولكن الشتاء أقبل وسقط الثلج ، فلم يستطع الأمير أن يتقدم ، فعاد بجيشه مظفراً هذه المرة ؛ ولم يستطع الروم أن يضايقوه ، ولا أن يأخذوا عليه الطريق ؛ فقال المتنبي في ذلك داليته التي أولها :

عَواذِلُ ذاتِ الخالِ فيَّ حَواسِدُ وإنَّ ضَجيعَ الخَوْدِ مِنِّى لَماجِدُ

وفى أوائل سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة زحف سيف الدولة على مَرْعَش فأزال عنها الروم وأقام حصنها ، وعاد مظفراً . فقال المتنبي في ذلك بائيته التي أولها :

فَدَيناكَ من رَبْعٍ وإن زِدْتَنا كَرْبا فإنَّكَ كُنتَ الشَّرْقَ للشَّمسِ والغَرْبا

وقد كثر الأسرى من الروم عند سيف الدولة، وكثر أسرى المسلمين عند الروم ، وأقبل رسول ملك الروم في آخر هذه السنة يَسْفِر في الفداء ، فاستقبله سيف الدولة في حفل فخم يريد أن يُلقى به الرعب في نفسه ، وجاء غلمان الأمير بلبؤة مقتولة فألقوها في طريق السفراء ومن حولها أشبالها أحياء . وأقبل المتنبي لينشد قصيدته التي أعدها للحفل ، فلما رأى اللبؤة وأشبالها ارتجل هذه الأبيات الثلاثة :

لَقِيتَ العُفاةَ بآمالِها وزُرْتَ العُداةَ بآجالِها
وأَقْبَلَتِ الرُّومُ تَمشِي إليـ ـكَ بين الليوث وأَشبالِها
إذا رأَتِ الأُسْدَ مَسْبِيَّةً فأَيْنَ تَفِرُّ بأطفالِها

ثم قام بين يدى الأمير، فأنشد القافية التي هيأها لهذا المقام ، ومطلعها :

لَعينَيْكِ ما يَلْقَى الفؤاد وما لَقِي ولِلحُبِّ مالم يَبقَ منّي وما بَقِي

وفى سنة اثنتين وأربعين عبر سيف الدولة الفرات ، وزحف من عنتاب على بلاد الروم ، فاجتاز الحدود ، وأمعن حتى أغار على مَلَطْيَةَ ، ثم عاد مظفراً غانماً بعد خطوب أحسن فيها البلاء . فلما انتهى إلى آمد بلغه أن الروم قد أغاروا على أنطاكية ، فخف إليهم وأغذّ فى السير حتى لحقهم قافلين عند مرعش ، فأوقع بهم وغنم منهم ، وأسر قسطنطين ابن قائدهم برداس فوكاس وعاد موفوراً . فقال المتنبى فى ذلك لاميته التى أولها :

لَيالِيَّ بَعْدَ الظّاعِنين شُكُولُ طِوالٌ ولَيْلُ العاشِقِين طَويلُ

وفى سنة ثلاث وأربعين أقبل سفراء الروم ، وأُدخلوا على سيف الدولة فى حفل فخم ؛ فأنشد المتنبى فيه رائيته التى يقول فيها :

ظُلْمٌ لذا اليَوْمِ وَصفٌ قبلَ رُؤْيته لا يَصْدُقُ الوَصْفُ حَتى يَصْدُقَ النَّظَرُ

وكأنه لم يعلم بما كان السفراء يحملون فى هذه السفارة . فلما انتهى الحفل عرف أنهم كانوا يسعون فى هدنة . فقال لاميته التى مطلعها :

دُرُوعٌ لِمَلْكِ الرُّوم هذِي الرسائِلُ يَرُدُّ بها عن نَفْسِهِ ويُشَاغِلُ

وفى هذه السنة نفسها نهض سيف الدولة بعد فراغه من ثورة الكلابيين إلى حصن الحدث ، وكان المسلمون قد انهزموا عنه للروم سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة كما قدمنا . فأراد سيف الدولة فى هذه السنة أن يسترده ويقيمه . وعلم الروم بمسيره إليه ، فأسرعوا فى جيش ضخم اشتركت فيه أمم مختلفة ليردّوه عنه ، ولكن سيف الدولة سبقهم إليه . على أنه لم يكد يستقر حتى ظهرت جيوش الروم ، فلقيهم المسلمون ، وكانت الصدمة الأولى عنيفة عليهم ، فتضعضعوا شيئاً وكادوا ينهزمون ، لولا أن الأمير أقدم لا يلوى على شىء ، ومضى يشق الصفوف حتى انتهى إلى مكان القائد العام برداس فوكاس ، فانهزم الروم هزيمة منكرة ، وأقام سيف الدولة الحصن وعاد مظفراً . فقال المتنبى ميميته التى أولها :

عَلَى قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأْتِى العَزائِمُ   وتأْتِى على قَدْرِ الكِرامِ المكارِمُ

وفى المحرم من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة أقبل سفراء ملك الروم على سيف الدولة يطلبون المدنة فأُدخلوا عليه ، وأنشده المتنبى بحضرتهم ميميته التى أولها :

أرَاعَ كَذا كلَّ الأنام هُمامُ   وسَحّ لهُ رُسْلَ الملوكِ غَمامُ

ومن إلحاح المتنبى على الأمير فى هذه القصيدة أن يمنح السفراء ما يطلبون من الموادعة ، أستخلص أن الأمير نفسه كان راغباً فى هذه الهدنة ليقمع ثورة القبائل القيسية التى رجّحتُ فيما مضى أنها كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

وفى هذه السنة نفسها نقض الروم الهدنة فيما يظهر ، وأغاروا على حصن الحدث يريدون أن يستردوه ، ولـكن سيف الدولة نهض لهم . فلما علموا بمقدمه جلوا عن الحصن وعادوا أدراجهم . فقال المتنبى لاميته التى أولها :

ذِى المعالى فَلْيَعْلُوَنْ مَن تَعالَى   هَـكَذا هَـكَـذا وإلاَّ فَلا لا

وفى المحرم من سنة خمس وأربعين وثلاثمائة علم سيف الدولة أن الروم قد همّوا بالغارة على آمِد ، فنهض إليهم ؛ فلما علموا بمقدمه عادوا أدراجهم ، ولـكنه تبعهم وأمعن حتى هزمهم على تل البطريق ، ودمر حصوناً وقلاعاً وعاد . ولـكنه وجد الدروب قد أُخذت عليه ، فـكانت بينه وبين الروم موقعة عظيمة كتب له فيها النصر وانهزم الروم ، وقد تركوا ألوفاً من القتلى وعدداً ضخما من الأسرى . وعاد سيف الدولة ظافراً إلى آمد . فأنشده المتنبى نونيته التى يقول فيها :

الرَّأْىُ قَبلَ شَجاعةِ الشُّجعانِ   هُوَ أوّلٌ وَهِىَ المَحَلُّ الثانى

وفى هـذه السنة نفسها أُعيد حديث الوقعة الماضية فى مجلس سيف الدولة ، وما كان الروم قد قدّروا من أخذ الطريق عليه والإيقاع به ، ثم ما كان من إخلاف ظنهم . فأنشد المتنبى ميميته التى أولها :

عُقْبَى اليَمِينِ على عُقْبى الوَغَى نَدَمُ   ما ذا يزيدُكَ فى إقدامِكَ القَسَمُ

وهى كما يقول الديوان آخر ما أنشد المتنبى من الشعر بين يدى سيف الدولة فى

حلب . وتاريخ هذه القصائد كلها مفصل أحسن تفصيل فى كتاب الأستاذ بلاشير ، وفى بحوث الأستاذ جبريلى عن حياة المتنبى ، وفى كتاب الأستاذ كنار عن سيف الدولة . وعلى هذه الكتب مع الديوان كان اعتمادنا فيما قدمنا من التاريخ . وكنا خليقين ألا نعيد فى هذا الإيجاز ما فصّلوه فأحسنوا تفصيله ، لولا أنهم كتبوا فى الفرنسية والإيطالية ، وأن كتبهم ليست فى أيدى قراء العربية .

وكل هذا الشعر ، كما قلنا فى أول الحديث عن صلة المتنبى بسيف الدولة ، رائع بارع ، خليق بالدرس والتحليل . ولكننا سنصنع به ما صنعناه بغيره من شعر المتنبى فى سيف الدولة ، فنكتفى بالوقوف عند نماذج منه تُغنى عن الوقوف عند سائره .

٧

ولندع الجيمية التى قالها المتنبى فى أوائل الحرب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة؛ فإنها لا تزيد على أن تكون تحريضاً للحسين ، وتثبيتاً للمسلمين وحثًّا لهم على الهجوم ، وثناء على الأمير بما هو أهله ، ثم إنذارًا للنصارى بما سيصبّ عليهم من نار الحرب . وكان المتنبي فى هذه الجيمية القصيرة عظيم الأمل ، بل واثقاً كل الثقة بالفوز ، ثم كانت سيرة المسلمين بعد هذه القصيدة محققة كل التحقيق لذلك الأمل ، مصدقة كل التصديق لهذه الثقة . فقد انتصر المسلمون فى غزوهم هذا الطويل ، وهزموا عدوهم أشنع الهزيمة فى كل موطن لقوهم فيه، حتى انتهوا إلى خرشنة كما قدمنا . وكان الأمير يريد أن يمضى فى الغزو ، ولكن بعض أتباعه سئموا الحرب وأشفقوا من الإبعاد فى الغزو ، فطلبوا الرجوع إلى أوطانهم وألحوا فى ذلك ، فاستمع لهم الأمير . فلما رجعوا مثقلين بالغنائم والأسرى ، تبعهم العدو منغصاً عليهم قفولهم ، آخذاً عليهم الطرق ، حتى كانت الهزيمة التى لم تأخذ من نفس سيف الدولة برغم تعرّضه فيها لأشد الأخطار . .

وقصيدة المتنبي التى وصف بها هـذه الحرب وما كان فيها من نصر مؤزّر ، ثم من هزيمة منكرة ، تصور الحوادث أجمل تصوير وأروعه وأصدقه معا . ثم هى تصور فوق الحوادث نفس المتنبي ، وما ثار فيها من العواطف المختلفة والأهواء المتباينة . ثم هى بعد هذا كله تصور نفس الأمير وقد عاد محزوناً كئيباً نادماً خائب الأمل ، ولكنه مع ذلك يتحرق شوقاً إلى الانتقام، ولا يكاد يطمئن ولا يستقر حتى يبلغ منه ما يريد .

وهذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام. وقد رتّبت هذه الأقسام فيما بينها أحسن ترتيب

وأدقه ؛ كأن القصيدة رسالة ذات أربعة فصول، ولكنها قصة تبدأ من آخرها، إن صح هذا التعبير : تبدأ من آخرها ، ثم تستأنف من أولها بعد ذلك .

فأما الفصل الأول فيصور لنا المتنبي نفسه ، بعد أن عاد المسلمون إلى حلب ، وقد خلا إلى نفسه وأمعن فى التدبر لما شهد وما سمع وما وجد أثناء هذه الحوادث الطويلة العنيفة ، وإذا هو محزون كئيب ، كاسف البال ، يائس من الناس، ساخط على هذه الحياة التى صورتهم شجعاناً فى القول ، جبناء فى العمل ، كراماً إذا وعدوا ، بخلاء حين يطالب إليهم الوفاء ، أوفياء إذا تحدثوا ، خونة غادرين إذا امتُحنوا . ثم هو لا يكتفى بهذا اليأس والسخط ، بل هو لا يريد أن يستسلم لهذا اليأس والسخط ، وإنما هو يجد فى نفسه بقية خفية من أمل . فليست طبيعة الناس شرًّا كلها ، وليس من المستحيل أن يخرجوا على هذه الطبيعة فيلائموا بين القول والعمل ، وبين الوعد والإنجاز . وإذن فهو يحثهم دون أن يصارحهم على أن يأخذوا بالثأر ، ويغسلوا عنهم هذا العار . على أنه لا يتحدث إليهم فى ذلك مباشرة ، وإنما يقيم نفسه مقامهم فيتحدث إليها . حتى إذا فرغ من ذلك، فصور الحزن واليأس، ثم صور الأمل والرجاء، انتقل إلى الفصل الثانى الذى هو فى حقيقة الأمر نتيجة طبيعية منطقية للفصل الأول.

كان يريد من الناس أن يغسلوا عن أنفسهم العار ؛ فأى حافز لهم أبرع من هذا الوصف الذى صور به انتصارهم فى أول الحرب ، واستعلاءهم على الروم ، واستحواذهم على الأرض وما فيها ومن فيها ، ودفعهم للمحاربين أمامهم يمضون هاربين لا يلوون على شىء ، وانتهاءهم بعد ذلك كله إلى أرباض خرشنة . وهو فى أثناء هذا الوصف يصطنع أروع ألفاظ الحرب ، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة ، وإشعار النفس العربية بالبأس والقوة ، وبالكرامة والعزة ، وبالشمم والإباء . فإذا انتهى إلى خرشنة فقد أتم الفصل الثانى من قصته ، ولا بد له من أن يأخذ فى الفصل الثالث .

وهذا الفصل الثالث دقيق جدًّا ؛ ففيه تصوير الهزيمة ، وقد كانت الهزيمة منكرة

حقا . فكيف السبيل إلى ذلك دون أن يَفُتَّ الشاعر فى أعضاد المسلمين، و يُشْمِتَ بهم العدو ، و يزيد فى شماتة الروم .

ليس الأمر عسيراً كل العسر ؛ فقد تعود الشعراء القدماء منذ العصر الجاهلى أن يذكروا الهزيمة و يعتذروا منها . ولكن المتنبى يستغنى عن وصف الهزيمة ، بل يهمله إهمالا ، ويكتفى بالاعتراف بها فى شيء من الإجمال والغموض ، ثم يتحول إلى المنتصرين من الروم ، فينذرهم و يوعدهم ، و يذكّرهم بما أصابهم من الهزائم ، و يتنبأ لهم بما سيصيبهم منها . وهو لا يرى الهزيمة إلا امتحاناً للمسلمين ، و تمحيصاً لهم ، وتنقية لجيشهم من الضعفاء والجبناء . وهو يعترف بأن الروم قد أسروا جماعة من المسلمين ، ولكنهم لم يأسروا أحداً ذا بأس أو حفاظ ، و إنما أسروا جماعة من الموتى وأشباه الموتى ، من موتى النفوس على كل حال ؛ فالروم ضباع ، والضباع لا تظفر بالأحياء ، ولا تنعم إلا بالموتى .

فإذا أتم حديثه إلى الروم منذراً موعداً ، لم يبق له إلا الفصل الرابع والأخير من فصول القصة ، وهو تعزية الأمير نفسه من نفسه ، وتهوين الأمر عليه ، ثم إعلان رأى الأمير فيما كان ، وأمل الأمير فيما سيكون .

وقد صور المتنبى هذا الفصل تصويراً مؤثراً حقًّا ؛ فهو قد رفع الأمير عن اللوم ونزهه عن العار ، بل هو قد رفع الأمير فوق الشمس ، بحيث لا يستطيع أحد أن يرفعه ولا أن يضعه ، و بحيث لا يستطيع العار أن يسمو إليه . إنما العار كل العار على الذين خذلوه وأسلموه وتفرّقوا عنه، والمجد كل المجد لهذا الأمير الوحيد الذى انهزم عنه الجيش فثبت للعدو ، ولم يحم منه نفسه وحدها ، و إنما حمى منه الجيش المنهزم أيضاً . والأيام دول، والزمان يخطئ و يصيب ؛ فقد أخطأ فى ذات الأمير هذه المرة ، وهو مصلح خطأه من قابل . وهل أرض الروم إلا مصطاف الأمير حين يُقبل الصيف ، ومرتبع الأمير حين يُقبل الربيع ! فالسيف معتذر إلى الأمير ، والدهر منتظر أمر الأمير ، وويل للروم بعد ذلك !

وكذلك تنتهي هذه القصيدة الرائعة من قصائد المتنبي. وقد وفّق الشاعر فيها كل التوفيق من ناحيتين :

من الناحية العلمية ، فهوقد وبّخ المنهزمين أشد التوبيخ ، وعنّفهم أقصى التعنيف ، ولـكنه لم يُصْغِرْهم في أنفسهم ، ولم يدفعهم إلى اليأس من الظفر والانتقام . وهو قد عرف للروم انتصارهم ، ولكنه لم يسرف في تعظيم هذا الانتصار والتنويه به ؛ لأنه لا يريد أن يفُلّ من حد المسلمين ، ولا أن يكسر قلوبهم . ومن الناحية السياسية ، فهو قد ضمن للأمير حسن السمعة ، وذاد عنه ألسنة السوء ، وردّ عنه شماتة الشامتين به من هؤلاء الملوك المسلمين الذين يتربصون به الدوائر ، وينتظرون له المكروه . وهو في الوقت نفسه قد حفظ له وفاء الرعية ، وأشعرها بأنها قد خذلته وقصرت في ذاته ، وأن له عليها حقًّا يجب أن تؤديه إليه، فتنصره وتفنى في نصره إذا استأنف الحرب في العام المقبل .

ولم يكن توفيق المتنبي سياسيًّا وعمليًّا فحسب ، بل كان توفيقاً فنيًّا قبل كل شيء . فلهجة الشاعر في القصيدة صادقة كل الصدق ، حارة كل الحرارة ، وألفاظه ومعانيه ملائمة أشد الملاءمة لهذا الصدق الحار ؛ لأن المتنبي قد شهد الموقعة ورأى أطوارها كلها، واستيقن أن الهزيمة لم تأت عن ضعف في المسلمين ولا عن تقصير، إنما الحرب سجال يوم لك ويوم عليك . ولولا أن طبيعة الموقف تقتضي أن يلوم المنهزمين شيئًا ليربط على قلوبهم وليحفزهم إلى الجهاد ، لما فكّر المتنبي في لومهم قليلا ولا كثيراً .

وأنا أُحب الآن أن تقرأ أطرافاً من هذه القصيدة ، لتحس من جمالها وروعتها بعض ما أُحس . فانظر إلى غنائه الحزين في أولها :

غيري بأكثرِ هذا الناس يَنْخَدِعُ ... إنْ قاتَلوا جَبُنُوا أو حَدّثُوا شَجُعُوا
أهلُ الحَفيظةِ إلا أنْ تُجَرِّبَهُمْ ... وفي التَّجارِبِ بَعدَ الغَيِّ ما يَزَعُ
وما الحياةُ ونَفْسي بَعدَ ما عَلِمَتْ ... أنَّ الحياةَ كما لا تشتَهِي طَبَعُ
لَيسَ الجَمالُ لِوَجهٍ صَحّ مارِنُه ... أنْفُ العَزيزِ بِقَطْعِ العِزِّ يُجتَدَعُ

ثم انظر إليه بعد هـذا اليأس كيف يعود إلي استفزاز المسلمين واستنهاضهم للانتقام ، فيقول :

أأطرَحُ المجدَ عن كتفِي وأطلُبهُ . وأترُكُ الغَيْثَ فى غِمْدى وأنتجع

وانظر إليه كيف خلص إلى سيف الدولة فى هـذا البيت الذى يجمع الظرف والقوة معاً ، فقال :

بالجَيشِ يمتَنِعُ الساداتُ كُلُّهُمُ والجَيشُ بابنِ أبى الهيجاء يمتَنِعُ

ثم انظر إليه كيف يصف غارة سيف الدولة حين انقضّ على الروم كالصاعقة فلم يثبتوا له . وانظر كيف يلائم فى السرعة بين الوصف والموصوف ، فيصل إلى خرشنة كما وصل إليها الأمير فى غير مهل ولا أناة ، ثم يقيم عليها بعد ذلك كما أقام الأمير عزيزاً منتصراً مباهياً بالعزة والانتصار :

قادَ المَقانِبَ أقصَى شُرْبِها نَهَلٌ عَلَى الشَّكِيمِ وأدنى سَيرِها سِرَعُ
لا يَعتَقِي بَلَدٌ مسراهُ عن بَلَدٍ كالموتِ لَيسَ لهُ رِيٌّ ولا شِبَعُ
حتى أقامَ على أرباضِ خَرْشَنَةٍ تَشقَى به الرُّومُ والصُّلبان والبِيَعُ
للسَّبْيِ ما نَكَحُوا والقَتْلِ ماوَلَدُوا والنَّهْبِ ما جَمَعوا والنَّارِ ما زَرَعوا
مُخْلًى له المَرْجُ مَنصُوباً بِصارِخَةٍ لَهُ المَنابِرُ مشهوداً بها الجُمَعُ

ثم يمضى المتنبى فى وصف ما كان للمسلمين من قوة و بأس ، وما كان يملأ قلوب الروم من فزع وجزع ، وما أحدث المسلمون من قتل ، وما تركوا فى نفوسهم من حزن . يصف هذا كله مستأنياً فى وصفه ، مستلذًّا هذا الوصف، مصطنعاً فيه الإطالة والتفصيل ؛ كأنه قد أشرف على الروم من أكمة مرتفعة عند خرشنة ، فهو يلقى عليهم فى ذلك خطبة بشعة قوامها الحديد والنار والضرم والدماء .

ثم انظر إليه كيف يتحدث إلى الروم بعد ذلك عن هذه الهزيمة العارضة بعد أن سجّل النصر تسجيلا :

قُلْ للدُّمُسْتُقِ إنَّ المُسلِمين لَكُمْ خانوا الأميرَ فجازاهُمْ بما صَنَعُوا

وَجدتُمُوهُم نِياماً فى دِمائِكُمُ كأنَّ قتلاكُمُ إيّاهُمُ فَجَعوا
ضَعْفَى تَعِفُّ الأعادِى عن مِثالهِمُ منَ الأعادِى وإن هَمُّوا بِهِمْ نَزعوا
لاتَحْسَبوا مَنْ أسرتُمْ كانَ ذارَمَقٍ فلَيسَ يأكُلُ إلاَّ المَيْتَةَ الضَّبُعُ
هَلَّا عَلَى عَقَبِ الوادِى وقد صَعِدَتْ أُسْدٌ تَمُرُّ فُرادَى لَيسَ تجتمع
تَشُقُّكم بقَناها كُلُّ سَلْهَبَةٍ والضَّرْبُ يأخُذُ مِنكُمْ فَوْقَ ما يَدَع
وإنَّما عَرَّضَ اللهُ الجُنُودَ بِكُمْ لِكَي يَكُونوا بِلا فَسْلٍ إذا رَجَعوا
فَكُلُّ غَزْوٍ إليكم بَعدَ ذا فَلَهُ وكُلُّ غازٍ لَسيفِ الدّولَةِ التَّبَعُ

وانظر إليه كيف يتحدث إلى سيف الدولة فى هذين البيتين :

وهل يَشِينُك وَقتٌ كُنتَ فارِسَهُ وكانَ غيرَكَ فيهِ العاجزُ الضَّرِعُ
من كان فَوقَ مَحَلِّ الشمسِ مَوْضِعُهُ فلَيسَ يَرفَعُهُ شىءٌ ولا يَضَعُ

وانظر آخر الأمر إلى هذا البيت ، وهو من أروع ما قال المتنبى فى سيف الدولة ، بل فى غيره من الممدوحين أيضاً :

الدهرُ مُعْتَذِرٌ والسيفُ مُنْتَظِرٌ وأرضُهُمْ لَكَ مُصطافٌ ومُرتَبَعُ

وقد صدق الأمير وَعْدَ شاعره ، واعتذر الدهر من خطيئته ، وظفر السيف بما كان ينتظر ؛ فلم يَحُلِ الحول حتى نهض سيف الدولة لقتال الروم وظفر بهم ، وكاد يبلغ خرشنة لولا الثلج . وقد قال المتنبى فى هذه الموقعة قصيدتين أيضاً ، يحرِّض الجيش فى أولاهما ، ويسجل الفوز فى أخراهما .

ولكنى لا أقف عند هذا الشعر ، فاقرأه إن شئت ؛ فأنت واجد فيه من الجمال والروعة ما يرضيك . ولن أقف كذلك عند قافيته التى قالها حين أُدخل السفراء على سيف الدولة ، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، وإن كانت خليقة بالإعجاب . إنما أصل مسرعاً إلى هذه اللامية التى هى عندى آية المتنبى فى سيف الدولة ؛ لأنها

جمعت خصالاً ما أراها اجتمعت فى غيرها من القصائد التى وصف فيها جهاد الأمير للروم . صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموءل التى أولها :

إذا المرء لم يَدْنَسْ من اللُؤْمِ عِرْضُه فكُلُّ رِداء يَرْتَديه جَميلُ

فاصطنع الوزن نفسه ، والقافية نفسها ، واللغة نفسها أيضاً ، بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعانى والأساليب ، ولكنه لم يصنع ذلك تقليداً ولا احتذاء ، وإنما أعجبه هذا المذهب الشعرى ، فعارض السموءل ولم يتخذه إماماً . وهو حين ذهب هذا المذهب الفنى أجرى فى القصيدة روحا عذباً غريباً ليس من اليسير وصفه ولا تصويره ، ولكنك تحسه إحساساً قويًّا ، بل أنت تقرأ القصيدة ، فإذا هذا الروح يسبق ألفاظها ومعانيها إلى قلبك ، ويُشيع فى نفسك خفة وطربا ، لا تجدهما حين تقرأ أى قصيدة أخرى من قصائد المتنبى .

والغريب أن هذا الروح العذب الخفيف يحتفظ بعذوبته وخفته فى القصيدة كلها ، ولكنه مع ذلك يتخذ أشكالا ، وإن شئت فقل يتخذ ألوانا مختلفة ، تتباين بتباين المعانى والموضوعات التى يطرقها الشاعر فى هذه القصيدة . فهو على عذوبته حزين شاحب كئيب ، يثير فى نفسك الحنان والرحمة والألم الهادىء حين يتغنَّى الشاعر فى هذا الغزل الذى بدأ به القصيدة . فإذا انتهى الشاعر إلى المدح ووصف الموقعة خلع عن هذا الروح العذب الخفيف دائماً حزنه وشحوبه وكآبته ، واتخذ ثوباً زاهى الألوان إلى أبعد حد ، يمسه ضوء الشمس ، فتضطرب ألوانه وتتموج تموجاً ساحراً ، وإذا هو يغلبك على نفسك ، وإذا نفسك تتموج معه كما يتموج . والشاعر يصف الحرب وصفاً دقيقاً . وكانت الحركة النشيطة السريعة أخص ما تمتاز به هذه الحرب ، بل كانت هذه الحرب تمتاز بخصلة أُخرى لعلها نتيجة لهذه الحركة ، وهى الجرأة التى لا تسمح بمهل ولا أناة ، ولا تبيح روية ولا تفكيراً ، وإنما هى اندفاع متصل إلى أمام ، يزداد عنفه من وقت إلى وقت ، لا يحفل بالمصاعب ولا يقف عند المقاب ،

و إنما يقتحم كل مايعترضه و يكتسح كل مايلقاه ، يصعد حين تعترضه الجبال، و ينحدر حين ينتهي من القمة إلى السفح ، و يعدو حين ينتهي إلى السهل : حركة وجرأة هما أشبه شيء بنشوة النشوان الذي يأتي ما يأتيه عن فرح ونشاط ، لا سعة فيهما لتعقل أو تدبر .

وكذلك فعل سيف الدولة في هذه الحرب ؛ فقد خطرت له فجأة فاندفع إليها من حرّان لا يلوى على شيء حتى أمعن في بلاد الروم واقتحم مَلَطْيةَ . فلما أراد العودة من درب إرمينية وجد الدرب قد أُخذ عليه ، وكان خليقاً أن يتدبر وأن يقدّر أنه قد أُخذ من ورائه أيضاً ، وأن يحتال في اقتحام الدرب ، ولكنه أبى أن يضيع الوقت ، فكرّ راجعاً في سرعة الطير ، واقتحم ملطية مرة أخرى غير مبال بما كان العدو قد أعدّ له من أمامه ، وبما كان خليقاً أن يلحقه من وراء . ثم انتهى في هذه السرعة الجريئة الغريبة إلى مَخْرَج من بلاد الروم فسلكه . وظن الروم أنه قد انصرف عنهم ، ولكنه لم يلبث أن عاد إليهم مرة أُخرى ؛ فدمر وخرّب وسلب الغنائم والنفوس ، ومضى حتى أدرك الفرات فاقتحمه اقتحاماً على ظهور الخيل . ولم يكد ينتهي إلى آمِد و يعلم بعبث الروم حول أنطاكية ، حتى خف وأغذّ وأخذ الروم عند مَرْعَش وهم قافلون فمزّقهم تمزيقاً ، وأضاف إلى ما كان عنده من الغنائم والأسرى ، وأخذ ابن القائد نفسه وعاد مظفراً .

كان سيف الدولة نشوان قد أسكرته الحرب، فمضى فيها لا يقف ولا يتدبر . وأتيح له النصر ، فإذا هذا النصر نفسه يُسكر شاعره المتنبي ، و إذا هو ينشيء هذه القصيدة صورة دقيقة مطابقة كل المطابقة للأصل الذي أراد وصفه وتصويره . فأنت ستحس ، حين تقرأ هذا الوصف ، الحركة والنشاط اللذين أحسهما المتنبي حين تبع سيف الدولة في غارته الجريئة السريعة تلك ، لا يكاد يطمئن ولا يستقر ولا يستريح .

وستمضى أنت فى قراءة القصيدة كما مضى المتنبى فى اتباع سيف الدولة ، مندفعاً من بيت إلى بيت ، متنقلا من مقام إلى مقام ، صاعداً مع الجيش حين يصعد ، ومنحدراً مع الجيش حين ينحدر ، ودائراً مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجما مع الجيش حين يهجم على العدو . ثم إن هذا الروح العذب الخفيف على احتفاظه بعذوبته وخفته ، يخلع هذا الثوب ذا الألوان المشرقة المتألقة إذا فرغ من هذا الوصف ، ليتخذ ثوباً آخر ليس شديد التأنق والإشراق ، ولكنه حالك بعض الشيء ، أو قل قاتم يكاد يمعن فى القتوم ، لولا أن شيئاً من البهجة يترقرق فيه بين حين وحين ، وذلك حين يلتفت الشاعر إلى ما وراء سيف الدولة من بلاد المسلمين وإلى من حول سيف الدولة من ملوك المسلمين ، فلا يرى إلا ذلاً وضعة ، وإلا خمولا وخموداً ، وإلا إقبالا على اللهو ، وعكوفاً عن اللذات ، وضجيجاً وعجيجاً لا غناء فيهما ولا طائل منهما فى هذا الوقت الذى يجدّ فيه الجد بين سيف الدولة وعدوّه من الروم ؛ فإذا الظفر الذى ينتهى إلى البطولة حيناً ، وإذا الهزيمة التى تنتهى إلى البطولة حيناً آخر ، وإذا الثقة بالنفس والنهوض بالواجب والاطمئنان إلى الله على كل حال . فإذا فرغ الشاعر من هذا التعريض الحزين الفرح ، خلع عن روحه العذب الخفيف ثوبه هذا ، وأفاض عليه ثوباً آخر هو ثوب الفخر بالنفس والاعتزاز بالكفاية الشخصية والبراعة الفنية . وكأنه رضى عن قصيدته وعن فنه بعد أن سمع قصائد الشعراء الآخرين ورأى فنونهم . وهو ساخط على هؤلاء الشعراء الذين يعجزون عن مجاراته ، ويقصرون عن بلوغ غايته ، فلا يسعهم إلا أن يسعوا به ويكيدوا له ، ويتألبوا عليه . وهو قد أشرف عليهم وأخذ يرمقهم مزدرياً لهم ، محتقراً لما يقولون ويفعلون .

فالمتنبى يبدأ القصيدة بنفسه حزيناً مفتخراً ، ويختم القصيدة بنفسه مبتهجاً منتصراً ، ويمنح أكثر القصيدة وخير ما فيها لا لسيف الدولة وحده ، بل له وللجماعة المجاهدين معه فى سبيل الله ، الذائدين عن حوذة الإسلام وحسب العرب ، وللجماعات أخرى من المسلمين لاهية عن الجدّ ، ساهية عن المجد ، منصرفة إلى المخازى والآثام . فالشاعر

مغنٍّ ، والشاعر مادح ، والشاعر قاصٌّ ، والشاعر هاج ، والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع أكثر فنون الشعر فى هذه القصيدة التى لم تُسرف فى الطول .

قلت لك إن هذه القصيدة عندى أروع ما قال المتنبى لسيف الدولة من الشعر . واقرأ معى بعض أبياتها ، فسترى أنى لست مسرفاً فيما أقول :

لَيالِيّ بعد الظاعنِين شُكُولُ   طِوالٌ وليلُ العاشِقِينَ طَوِيلُ
يُبِنَّ لِىَ البَدْرَ الّذى لا أُرِيدُهُ   ويُخفِينَ بدرًا ما إليه سَبيلُ
وماعِشتُ من بَعد الأحِبّةِ سَلْوَةً   ولـكنّنى لِلنائباتِ حَمُولُ

لماذا بدأ المتنبى قصيدته بهذا الغناء الحزين ، وقد عرفناه إذا امتلأتْ نفسه إعجاباً ورضا يعرض عن النسيب وينصرف عن الغناء ويهجم على موضوعه هجوماً لا يبتغى إليه الوسائل ، ولا يبسط بين يديه المقدمات ؟ ستقول لأنه شاعر يريد أن يتأنق فى فنه ، وأن يبهر سامعيه ، وأن يهيئهم لاستماع ما سيقص عليهم من أنباء الحرب ، وما سيعرض عليهم من أوصافها . وقد يكون هذا حقا . وما أكثر ما يفعل الشعراء هذا ! وما أكثر ما يكون أحدهم ممتلئاً بموضوعه ، شاعراً بأن الناس من حوله ممتلئون بهذا الموضوع ، ولـكنه مع ذلك لا يسرع إليه ولا يبلغه حتى يدور إليه فى أنحاء من الغناء ! نعم ! ولكنى أرى فى نفس المتنبى شيئاً آخر غير هذا التأنق الفنى والترفق الذى يعمد إليه الشعراء ، فيها حزن دفين ، يصدر أحياناً عن نفس الشاعر التى لم تُدرك من آمالها شيئاً ، أو لم تكد تدرك منها شيئاً ، ويصدر أحياناً أُخرى عن حال هذه الأُمة الإسـلامية التى تُبْلى فتحسن البلاء ، وتجاهد فتحسن الجهاد ، ولـكنها حيث هى لا تتقدم خطوة ، ولعلها تتأخر خطوات . هذه الحرب التى أبلى فيها سيف الدولة كأحسن ما يُبلى الأمراء المجاهدون ، ماذا أفاد منها المسلمون ؟ وماذا أفاد منها سيف الدولة ؟ وماذا أفاد منها المتنبى إذا تعمقت فى الأمر ونفذت إلى حقائق الأشياء ؟ المسلمون حيث هم لم يمدّوا حدودهم ولم يؤمنوها من غارة الروم . والمسلمون حيث هم لم تصلح أحوالهم الخاصة ، ولم تبرأ سياستهم الداخلية من الإغراق

فى الفساد . وسيف الدولة حيث هو يظفر اليوم ليستأنف الحرب غداً ، وقد ينتصر غداً ، وقد تدور عليه الدائرة ، لم يأمن بأس الروم، ولم يأمن مكر المنافسين . والمتنبي نفسه حيث هو ، يمدح الأمير اليوم مهنئاً كما مدحه أمس معزياً ، وقد يهنئه غداً وقد يعزيه ، ولـكنه سيظل شاعراً مادحاً على كل حال . وهو مع ذلك محسَّد يُكاد له ويؤتمر به ويدبَّر له السوء . حياته متشابهة كحياة المسلمين ، وكحياة الأمير . وإذن فهذه الليالى المتشابهة فى الطول ، المتشابهة فى أنها تبدى له البدر الذى لا يريده ، وتخفى عليه البدر الآخر الذى يهواه كل الهوى ، ويطمح إليه كل الطموح ، ولا يجد إليه مع ذلك سبيلا ، هذه الليالى المتشابهة التى أمضَّته وثقلت عليه لتشابهها ، لم لا تكون رمزاً لهذه الحياة المتشابهة التى تُمِضُّ وتثقل بتشابهها ؟ لماذا ننظر إلى الشعراء دائماً كما ننظر إلى الأطفال وهم يلعبون ؟ لماذا نبخل عليهم بأن نظن بهم الرجولة والبطولة أحياناً ؟ وأى صفات الناس أدنى إلى الرجولة والبطولة ، وأقرب إلى حال الفن الرفيع من هذا السأم وهذا الضيق بالتشابه حين يتصل ويطول ؟ أحقٌّ أن هذا البدر الذى تخفيه الليالى على المتنبي هو صاحبته هذه التى يزعم أنها ظعنت عنه ، وأن الأسباب قد تقطعت به من دونها ؟ لم لا يكون هذا البدر شيئاً آخر غير هذه الفتاة الأعرابية التى تحميها الأسنّة والرماح ؟ لم لا يكون البدر رمزاً لهذه الآمال النائية وهذه الهموم البعيدة التى تاقت إليها نفس الشاعر منذ أحس الحياة وقَدَر على النشاط ، والتى أنفق ما أنفق من حياته دون أن يبلغها أو يدنو منها ؟

لو أنك سألت المتنبي نفسه عن هذه الليالى المتشابهة فى الطول والعقم ، وعن هذا البدر الخفى العزيز، لما أجابك بغير ما يقول الناس ؛ فهو شاعر يتغنى ، وهو إنما يجيد الغناء ويبرع فيه ، لأنه يتغنى بما لا يحققه ولا يحيط به علماً .

فجائز بل مرجح أن يكون المتنبي بعيداً كل البعد عن أن يفكر فى هذه المعانى التى أشرت إليها وأفضت فيها ، ولـكنه مع ذلك يتغنى هذه المعانى نفسها ؛ لأنه

شاعر. وأبرع الشعراء من عرض لما يفوته من مطالب الفن ، فتعلق بأذياله وطار فى أثره دون أن يبلغه أو ينتهى إليه .

ما أشد سأم المتنبى وضيقه بهذه الليالى المتشابهة الطوال ! ولكنه مع ذلك حى يغدو ويروح ويستمتع بلذات الحياة . أتراه سلا عن أحبته أو زهد فيهم ؟ كلا ! ولكنه صبور ، صبور جَلْد ، قد تعلّم الثبات للحوادث واحتمال الملمات . أفتراه يبكى حقا فى إثر هذه الفتاة الأعرابية ؟ أم هو يبكى فى إثر هذه الآمال التى لا يدنو منها إلا نأت عنه ، ولا يطلبها إلا فاتته وعزّت عليه ؟ أو لسنا جميعاً نأمل ثم يدركنا اليأس ، ونرجو ثم يصيبنا القنوط، ونحيا مع ذلك يائسين قانطين، كما كنا نحيا آملين راجين ! بل قل إن هذا اليأس الذى يدركنا لا يكاد يستقر فى نفوسنا ، وإنما هو يؤذينا ويصيبنا حتى يدفعنا إلى الشكاة ، ويثير فى نفوسنا الحزن ، ويُطلق ألسنتنا بالغناء ، ثم يتجاوزنا ، وإذا الأمل يستقر مكانه ، وإذا نحن جاهدون فى السعى ، مستأنفون للنشاط ، مُجِدُّون للأمل ، نسعى فى إثر ما فاتنا، ونلح فى تحقيق ما أملنا ؛ وإذا نحن نتمنى الفرح والمرح ، والفوز والظفر ، ثم يبلغنا العجز ، ثم يعاودنا اليأس ، ثم نستأنف غناء الحزن والأسى ، وما نزال كذلك حتى نفرغ من الأمل والحياة ، أو يفرغ منا الأمل والحياة .

كل هذا أفهمه من هذه الأبيات الثلاثة الحزينة التي بدأ المتنبى بها قصيدته ، وما يعنينى أن يكون المتنبى قد أراد هذا أو لم يرده ؛ فأنا لا أطلب من الشاعر أن يُفهمنى ما أراد حقا . وأنا لا أقيس براعة الشاعر بقدرته على أن يفهمنى ما أراد حقا، وإنما أريد من الشاعر البارع كما أريد من الموسيقى الماهر أن يفتح لى أبوابا من الحس والشعور ومن التفكير والخيال . وما أشك فى أن المتنبى قد وفق لهذا التوفيق كله فى هذه الأبيات .

وامض فى قراءة الأبيات التى تأتى بعد هذا ، فسترى أن الشاعر ماضٍ فى تَغَنّي يأسه الممض، وحزنه اللاذع ، وضيقه بهذا التشابه الممل .

ألست ترى أن كل هذا الألم الذى يصوره ويشكو منه لم ينشأ إلا عن هـذا الفراق الذى نشأ عن رحيلٍ واحدٍ فى الحياة : فراقٍ من الممكن أن يعقبه لقاء ، ورحيل من الجائز أن يعقبه اجتماع الشمل ! فكيف إذا أقبل الرحيل الذى لا عودة منه ، والفراق الذى لا لقاء بعده ! كيف إذا أقبل الموت فأتم اليأس إتماماً وقطع الأمل قطعاً !

ثم انظر إلى هذا الشاعر ، وقد أحس أن أمله قد فاته ، وأن غايته قد بعدت منه ، وأن الأسباب قد تقطعت به دون غايته ؛ فهو يتعلق بأرثّها وأوهاها . هو يتمنى أن يلقى فى كل يوم روضة تهبّ عليها ريح الشمال ؛ لأن هذه الروضة وهـذه الريح ، هما اللتان تدنيانه من حبيبته وتقرّبانه إليها بما تثيران فى نفسه من الذكرى . هو يتعلق بالأسباب الواهية فى فرحه كما يتعلق بالأسباب الواهية فى حزنه أيضاً . يبتهج بالروضة وريح الشمال، كأنهما تحملان إليه رَوْحاً من حبيبته ، ويَشْرَق بالماء لأنه يذكّره ماء آخر قد نزلت عنده حبيته وهو لا يستطيع إليه وصولا . كذلك هو يبتهج بالنصر؛ لأنه يدنيه من أمله ، أو يخيّل إليه أنه يدنو من أمله . وكذلك هو يبتئس بالنصر؛ لأنه يثير فى نفسه صورة ذلك النصر الحق الذى يريد أن يبلغه فلا يستطيع :

وَإنَّ رَحِيلاً وَاحِداً حَالَ بَيْنَنَا وفى الموْتِ منْ بَعْدِ الرَّحِيلِ رَحِيلُ
إذَا كانَ شَمُّ الرَّوْحِ أدْنَى إلَيْكُمُ فلاَ بَرِحَتْنِي رَوْضَــةٌ وقَبُولُ
وما شَرَقِى بالماءِ إلاَّ تَذَكُّراً لماء بِهِ أهـلُ الحبيبِ نُزُولُ
يُحرِّمُهُ لَمْعُ الأسِــــنَّةِ فَوْقَهُ فلَيْسَ لِظَمآنٍ إلَيْــهِ وُصُولُ

وانظر إليه كيف يتحدث عن الليل والنجوم ، وعن الصبح والحبيب فى الأبيات التالية ؛ فسترى أن شكاة الشاعر مستمرة ملحة ، وأن حزنه عميق بعيد ، وأن نفسه ساعية جادة فى هذه الطريق التى تُظْلِم فتغمرها باليأس ، وتضىء فتثير فيها الرجاء :

أمَا فى النُّجُومِ السائرَاتِ وغَيْرِهـا لِعَيْنِى عَلَى ضوءِ الصَّباحِ دَليــلُ

أَلَمْ يَرَ هذا اللَّيلُ عَينَيكِ رُؤْيتِى فتَظهرَ فيــــــهِ رِقّةٌ ونُحُولُ
لقِيتُ بدَرْبِ القُـلّةِ الفَجْرَ لَقْيةً شَفَتْ كَمَدِى واللَّيلُ فيـه قتيلُ
ويوماً كأنَّ الحُسْنَ فيهِ عَلامةٌ بَعَثْتِ بها والشَّمسُ مِنكِ رَسُولُ

وليس كل الناس شاعراً كالمتنبى ، وليس كل الناس يحس ما يحسه الشعراء من الحزن ويحب ما يحبه الشعراء من الغناء . وما أرى إلا أن المتنبى لو كان حرًّا يستطيع إرسال نفسه على سجيتها لأطال غناءه هذا الجميل ، ولاستخرج من اختلاف اليأس والأمل على قلوب الناس نفحات حلوة وألحاناً مشجية ، ولكنه شاعر الأمير وترجمان هؤلاء الجند ، والأمير مترقب للمدح ، والجند مترقبون للفخر والحماسة ؛ فليقطع الشاعر على قلبه الحزين غناءه ، وليرضِ الأمير والجيش كما أرضى نفسه ، وهو يخلص إلى المدح والوصف خلوصاً جميلاً ، فيقول :

وَما قَبْلَ سَيفِ الدولةِ اثّارَ عاشِقٌ وَلا طُلِبَتْ عِنـدَ الظَّلامِ ذُحُولُ
ولـكنّهُ يأتى بكُـلِّ غريبـةٍ تَرُوقُ عَلَى استِغرابِهـا وتَهُولُ
رَمَى الدرْبَ بالجُرْدِ الجِيادِ إلى العِدَى وَما عَلِموا أنَّ السِّهامَ خُيولُ
شَوائِـلَ تَشوالَ العَقارِبِ بالقَنا لهَا مَرَحٌ من تَحتِـهِ وصَهيلُ

وما أظنك إلا راضيا عن تشبيه الخيل بالسهام مرة ، ومُعْجَباً بتشبيهها مرة أخرى ، وقد أديرت أسنّة القنا نحو أعجازها ، بالعقارب وقد شالت بأذنابها . وما أراك إلا محسًّا ما أحسه المتنبي من نشاط الخيل ، وإعلانها هذا النشاط بالمرح والصهيل .

ولكن امض فى القراءة :

وَمَا هى إلاَّ خطرةٌ عَرَضَتْ لَهُ بحَرّانَ لَبَّتْها قَنـــاً ونصولُ

فقد خطرت الغارة إذن لسيف الدولة فجأة فى حَرّان ، فلم يكد يدعو إليها حتى استجاب له الجيش واندفع فى الهجوم . فانظر إليه كيف يصور هذا الهجوم :

فَلَمَّا تَجَلَّى من دَلُوكٍ وصَنْجةٍ عَلَتْ كُلَّ طَودٍ رايةٌ ورَعِيلُ

عَلَى طُرُقٍ فيها عَلَى الطُرْقِ رفعة وفى ذِكرها عند الأنيسِ خُمُولُ

فأنت ترى الخيل وقد انتهت إلى آخر السهل المنبسط عند دلوك وصنجة، و إذا هى تصعد مرتقية فى الجبال ، و إذا هى تبلغ قمم الأطواد فتزحمها بنفسها وحركاتها كما تملأ الجو بالرايات والأعلام. والعدو من هذا كله ساهٍ لاهٍ، لا يعرف ما دُبِّر له ولا يقدِّر ما سيق إليه .

ولكن اقرأ :

فما شَعَرُوا حَتَّى رأوْها مُغيرةً قِباحاً وأمَّا خَلْقُها فجميـلُ

سَحائِبَ يُمْطِرْنَ الحَدِيدَ عليهمُ فـكُلُّ مَكانٍ بالسُّيوفِ غَسِيلُ

فهم إذن قد أُخذوا على غِرّة ، وصُبّ عليهم الموت من هذا العارض الذى أمطرهم حديداً ، وغسل أرضهم بما صبّ عليها من السيوف .

وأَمْسَى السَّبَايا يَنْتَحِبْن بِعِرْقَةٍ كأَنَّ جُيُوبَ الثاكِلاتِ ذُيولُ

وقد ملأ سيف الدولة يديه من الغنيمة والسبي وعاد ، فخُيِّل إلى العدو أن العاصفة قد أقلعت ، وأن العارض قد انجلى ، وأن سيف الدولة قد انصرف عنهم وقد كان سيف الدولة يريد أن ينصرف ، ولـكنه وجد الطريق قد أُخذت عليه ، وهذا ما لم يقله المتنبي، ولم يجزع سيف الدولة ولم يُضِع وقته ، و إنما عاد أدراجه فأمطر العدو بأسا جديداً . فانظر كيف يصور المتنبي هذا أجمل تصوير :

وَعادَتْ فَظَنُّوها بِمُوْزارَ قُفَّلاً وليَسَ لها إلاَّ الدُّخُولَ قُفُولُ

فَخاضَتْ نَجِيعَ الجمع خَوْضاً كأنَّهُ بِكُلِّ نَجِيعٍ لَمْ تَخُضْهُ كَفِيلُ

تُسايِرُها النِّيرانُ فى كلِّ مَسْلَكٍ به القَومُ صَرْعَى والديارُ طُلُولُ

وانظر كيف يصور المتنبي كرور سيف الدولة عليهم ، واقتحامه ملطية مرة أُخرى :

وكَرَّتْ فَمَرَّتْ فى دِماءِ مَلَطْيَةٍ مَلَطْيَةُ أُمٌّ لِلْبَنِينَ ثَكُولُ

وأَضْعَفْنَ ما كُلِّفْنَهُ من قُباقبٍ   فأضْحَى كأنَّ الماءَ فيهِ عليلُ

وقد انتهى سيف الدولة بجيشه غانماً مظفراً إلى الفرات. فانظر كيف يصور المتنبى اقتحام النهر على ظهور الخيل:

ورُعْنَ بِنَا قَلْبَ الفُرَاتِ كأنَّما   تَخِرُّ عليه بالرجالِ سُيُولُ

يُطارِدُ فِيهِ مَوجَهُ كُلُّ سابحٍ   سَوَاءٌ عَلَيهِ غَمْرَةٌ ومَسِيلُ

تَرَاهُ كأنَّ الماءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ   وأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحدَهُ وتَليلُ

على أن عبور الفرات لم يكن آخر الخطوب التى سيلقاها الجيش قبل أن يبلغ مأمنه بما حوى من غنيمة وسبى؛ فما زالت أمامه قلاع وحصون للروم يجب أن يقتحمها وقد فعل:

وفى بَطْنِ هِنْزِيطٍ وسِمْنِينَ لِلظُّبا   وصُمِّ القَنَا مِمَّنْ أَبَدْنَ بَدِيلُ

طَلَعْنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا   لهَا غُرَرٌ ما تَنْقَضِى وحُجُولُ

تَمَلُّ الحُصُونُ الشُّمُّ طُولَ نِزَالِنَا   فَتُلْقِى إلَيْنَا أَهْلَهَا وتَزُولُ

وانتهى سيف الدولة إلى حصن الران فيما يقول المتنبى، وإلى آمد فيما يقول المؤرخون. والمتنبى عندنا أصدق. وقد أراد سيف الدولة أن يريح خيله لا أن يستريح هو؛ فقد تعبت الخيل والجيش، وهو جَذَع البصيرة، قارح الإقدام، كما يقول قَطَرِىٌّ. على أن الظروف أبت له أن يستريح أو يُريح؛ فقد انتهت إليه الأنباء بأن الروم يصنعون فى بلاد المسلمين صنيعه فى بلادهم، فيغيرون على ما حول أنطاكية. فلا بد إذن لسيف الدولة من أن يلحقهم أو يقطع عليهم الطريق، وقد نهض لذلك ووفِّق فيه. فانظر كيف يصور المتنبى نهوضه وتوفيقه، وهو يبدأ بوصف الطريق البعيدة الشاسعة، ثم بإدراك العدو والإيقاع به:

وبِتْنَ بحِصْنِ الرّانِ رَزْحَى مِنَ الوَجَى   وكلُّ عزيزٍ للأميرِ ذَليلُ

وفى كلِّ نفسٍ ما خَلاَهُ مَلاَمَةٌ   وفى كلِّ سَيْفٍ مَا خَلاهُ فُلُولُ

وَدُونَ سُمَيْسَاطَ المطَامِيرُ والمَلا   وأَوْدِيَةٌ مَجْهُـــــولةٌ وَهُجُولُ
لَبِسْنَ الدُّجَى فيها إلى أرضِ مَرْعَشٍ   وللرُّومِ خَطْبٌ فى البِلادِ جَلِيلُ

وعند مرعش أدرك سيف الدولة جيش الروم ، وكان فى طليعة خيله :

فَلَمَّا رَأَوهُ وَحدَه قَبْلَ جَيشِهِ   دَرَوْا أَنَّ كُلَّ العالمين فُضُولُ
وأَنَّ رِماحَ الخَطِّ عَنهُ قصيرةٌ   وأَنَّ حَديدَ الهِنْـدِ عَنهُ كَليلُ
فأَورَدَهم صَــدْرَ الحِصانِ وسَيْفَهُ   فَتًى بأْسُهُ مِثْـلُ العَطاء جَزِيلُ
جَوادٌ عَلَى العِلَّاتِ بالمـالِ كُلِّهِ   ولـكنهُ بالدارعِينَ بَخِيــــلُ
فوَدَّعَ قَتْلاهُمْ وشَيَّعَ فَلَّهُمْ   بضَرْبٍ حُزُونُ البَيْضِ فيه سُهُولُ
عَلَى قَلْبِ قُسطَنطينَ منهُ تَعجُّبٌ   وإنْ كانَ فى ساقَيهِ منهُ كُبُولُ

فقد انتهت الموقعة وختمت القصة كما رأيت بهذا الانتصار الذى انهزم له الروم وفر له قائدهم، وقد ترك ابنه قسطنطين أسيرا . ولكن الشاعر لم ينته بعدُ، فلا بد له من أن ينذر ويوعد ، ومن أن يسخر ويستهزئ ، ومن أن يتحدث بالنذير والوعيد وبالسخرية والاستهزاء إلى هذا القائد المنهزم وقد آثر نفسه وحياته على ابنه هذا الأسير :

لَعَلَّك يَوْماً يا دُمُسْتُقُ عائدٌ   فكَم هاربٍ ممـا إليـه يؤولُ
نَجَوْتَ بإحدَى مُهجَتَيْكَ جريحةً   وخَلَّفْتَ إحدَى مُهْجَتَيك تَسِيلُ
أَتُسلِمُ لِلخَطِّيَّـةِ ابنَكَ هارِباً   ويَسكُنُ فى الدنيا إليكَ خَليلُ
بِوَجهِكَ ما أَنسَاكَهُ من مُرِشَّةٍ   نَصِـيرُكَ منهـا رَنَّةٌ وعَوِيلُ
أَغَرَّكُمُ طُولُ الجُيُوشِ وعَرضُها   عَلِيٌّ شَرُوبٌ للجُيُوشِ أَكولُ
إذا لم تكُنْ لِلَّيْثِ إلاَّ فَرِيسةً   غذاهُ ولم ينفعْكَ أنَّكَ فيــلُ
إذا الطعنُ لم تُدخِلْكَ فيه شَجاعةٌ   هِىَ الطَّعنُ لم يُدخِلْكَ فيهِ عَذُولُ
وإنْ تكُنِ الأيَّامُ أَبصرنَ صَولَةً   فقد علَّم الأيَّامَ كيفَ تَصُولُ

وقد فرغ المتنبي من حديث الروم بهذا البيت ، والتفت إلى أعداء سيف الدولة من ملوك المسلمين ، ثم إلى أعدائه هو من الشعراء المنافسين . ولكنا ندع ذلك الآن لنعود إليه بعد حين .

وكم كنت أريد أن أقف عند قصائد أخرى من هذا الشعر ربما كانت أقل من هذه القصيدة روعة وجمالا ، ولكن لها مكانها الرفيع من التفوق والامتياز ، لا بين شعر المتنبي وحده ، بل بين الشعر العربي كلِّه أيضاً . ولكني قد أطلت في الحديث عن هذا الشعر الذي هو خليق أن يفرد لدرسه كتاب خاص .

وأنا أُحب على كل حال أن تقرأ في مثل هذا التدبر والتحليل من هذا الشعر القصائد التي أولها :

عَلى قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأْتي العَزائمُ وتأْتي على قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ

* * *

أراعَ كَذا كلَّ الأنامِ هُمامُ وسَحَّ لهُ رُسْلَ المُلوكِ غَمامُ

* * *

ذِي المَعالي فَلْيَعْلُوَنْ مَن تَعالَى هٰكَذا هٰكَذا وإلَّا فلا لا

* * *

الرأْيُ قَبلَ شَجاعةِ الشُجعانِ هُوَ أوَّلٌ وَهيَ المَحلُّ الثاني

٨

وللمتنبي فى سيف الدولة شعر لم يُعْنَ به الذين درسوا الشاعر وديوانه حق العناية إلى الآن ، مع أنه فيما أعتقد خليق بالعناية كلها ؛ لأن له أثراً عظيما جدا فيما سيستقبل المتنبي من الحياة فى مصر و العراق .

والشراح والنقاد معذورون فى إهمالهم لهذا الشعر ؛ لأنه لم يستقل بقصيدة من القصائد ، ولا بمقطوعة من المقطوعات ، و إنما جاء عرضا فى قصائد المدح والوصف لمـا كان من جهاد سيف الدولة لعدوه من الروم ، أو للثائرين عليه من العرب . وهو الشعر الذى عرّض فيه المتنبي بأصحاب السلطان فى مصر والعراق تعريضاً خفيا مرة ، وواضحاً يكاد يبلغ التصريح مرة أخرى . وخطر هذا الشعر يأتى من أنه يُعيننا على أن نفهم ما لقيه المتنبى فى مصر من الإعراض ، وما انتهى إليه من الإخفاق ، وما اضطر إليه آخر الأمر من الهرب ، كما يعيننا على أن نفهم ما لقى المتنبي من الفتور فى العراق ، ثم من العداوة الصارخة فى بغداد خاصة . ولست أزعم أنى أستطيع أن أوضح أمر هذا الشعر كما أحب وكما ينبغى أن يتضح ، ولكنى أكتفى بالإشارة إليه والدلالة على بعضه . وأرجو أن يسمح الوقت لى أو لغيرى باستئناف الحديث فيه ، والرجوع به إلى أصوله القريبة والبعيدة من مصادر التاريخ .

وقد رأيت فى حديثنا عما قال المتنبي من الشعر لسيف الدولة ، حين ثار به الثائرون من القرامطة ، ثم من رعيته البدو ، أنه لم يكن يمتنع عن التعريض بالذين كانوا يؤلِّبون هؤلاء الثائرين أو يغرونهم من بعيد . وهؤلاء المؤلبون كما يمكن أن يكونوا من عمال سيف الدولة نفسه يمكن أن يكونوا من أهل العراق أو من عمال المصريين فى جنوب الشام . على أن تعريض المتنبي بهؤلاء الكائدين فى ذلك الشعر

لم يكن واضحاً كله . ومن شعر المتنبي ما هو أوضح منه وأظهر وأدنى إلى التصريح الذى لا يحتمل شكًا ولا لبسا .

و يخيل إلىّ أن المتنبى قد دفع إلى هذا بدافعين : أحدهما أنه حين كان يمدح سيف الدولة ويعجب بمضائه وحسن بلائه ، لم يكن يملك نفسه أن يعيب أولئك الملوك الآخرين الذين ينعمون بالحياة واللين ، وسعة الملك ، وضخامة الثروة ، فى غير مشقة ولا جهد . والآخر أن سيف الدولة نفسه كان يظهر على بعض ما يدبّر له من الكيد فى العراق أو فى مصر ، وكان الأمر يفسد أو يدنو من الفساد بينه وبين بغداد أو الفسطاط ، فيغرى شاعره بأن يمس هذه الناحية من نواحى السياسة الإسلامية ، لينذر أو يُعذر أو يغيظ .

وقد نستطيع أن نعدّ من هذا الشعر قصيدتين قالهما المتنبى يمدح بهما سيف الدولة حين فسد الأمر بين أخيه ناصر الدولة فى الموصل و بين معز الدولة البويهى فى بغداد . ولكن الشاعر فى هاتين القصيدتين لم يكن واضح التعريض ، وإنما آثر التعميم ، واكتفى بالمدح الذى يُظهر البأس والقوة ، ولا يُحرج مادحا ولا ممدوحا ، كما أن سيف الدولة نفسه أظهر الاستعداد لنصر أخيه دون أن يزحف بجيشه نحو الموصل . فكأن الأمر لم يزد فى هذه المرة على أن يكون وعيداً من بعيد . ولكن هناك مواقف أخرى لا يحتمل الأمر فيها شكا ولا مراء .

فلننظر قبل كل شىء إلى أول ما عمد إليه المتنبى من التعريض حين فسد الأمر بين ناصر الدولة و بين معز الدولة البغدادى . فاقرأ هذه الأبيات ، فسترى المتنبى يصور فيها اضطراب الأمر فى الموصل ، وما أدى إليه ذلك من وحشة فى حلب ومن فساد العلاقة بينها و بين بغداد ، ثم ينتقل من هذا التصوير إلى التهديد والوعيد :

عَلَى الفُرَاتِ أعاصِيرٌ وفى حَلَبٍ ... تَوَحُّشٌ لِمُلَقَّى النَّصرِ مُقْتَبَلِ
تَتْلو أسِنَّتُهُ الكُتْبَ التى نَفَذَتْ ... ويَجْعَلُ الخَيلَ أبْدَالاً مِنَ الرُّسُلِ

يَلـقى الملُوكَ فَلاَ يَلْـقَى سوَى جَزَرٍ وما أَعَدُّوا فلا يَلْـقَى سِوَى نَفَلِ

وسيف الدولة مُصانع للخليفة ، مكبر لسلطانه مع ذلك لا يريد أن يؤذيه ولا أن يُظهر خروجاً عليه ؛ فيقول المتنبي فى تصوير ذلك هذا البيت :

صانَ الخَليفَةُ بالأبطالِ مُهجَتَهُ صِيانةَ الذَّكَرِ الهِنـدِىِّ بالخِلَلِ

وانظر إلى هذه الأبيات الثلاثة التى يعود فيها المتنبى إلى الوعيد ، ويعلن أن الأمير عالمٌ بما يُكاد وما يراد فى عاصمة الخلافة :

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنهـا وَهْىَ ناظِرةٌ فمـا تُقَابِلُهُ إلاّ عَلَى وَجَلِ
قد عرَّضَ السَّيْفَ دُونَ النازِلاتِ بِهِ وظاهَرَ الحزْمَ بينَ النَّفْسِ والغِيَلِ
ووَكَّلَ الظَّنَّ بالأسرارِ فانكَشَفَتْ لهُ ضمائرُ أهلِ السَّهلِ والجبَلِ

وكأن إذاعة الأخبار بأن سيف الدولة يريد أن يزحف لنصر أخيه لا تكفى فى إنذار بغداد ورفع الضغط عن الموصل ؛ فيظهر سيف الدولة أنه آخذٌ فى الزحف ، ويطلب إلى المتنبى أن يصحبه ويتقدم إليه ، سرًّا فى أكبر الظن ، أن يقول فى ذلك شعرا . فيقول المتنبى قصيدة أخرى تأتى فيها هذه الأبيات :

وَلَهُ وَإنْ وَهَبَ المُلُوكُ مَواهبٌ دَرُّ المُلوكِ لِدَرِّهـــا أَغبـارُ
لِلّهِ قَلبُكَ ما تَخافُ مِنَ الرَّدَى ويَخافُ أنْ يَدْنُو إلَيكَ العارُ
وتَحِيدُ عن طَبَعِ الخَلائِقِ كُلِّهِ ويَحِيدُ عَنْكَ الجَحْفَلُ الجرّارُ
يا مَنْ يَعِزُّ عَلَى الأعِزَّةِ جَارُهُ وَيَذِلُّ مِنْ سَـطَواتِهِ الْجَبَّارُ

وكأن وعيد سيف الدولة هـذا قد انتهى إلى غايته ، فصلح الأمر بين الموصل وبغداد .

ولـمّا نهض سيف الدولة لقتال الروم ، وأتم بناء مرعش ، مدحه المتنبى ببائيته المعروفة ، ولـكنه ختم هذه البائية بأبيات لا يعرِّض فيها بمنافسيه من ملوك الإسلام

وإنما يصرِّح بذمهم تصريحاً ، ويسبهم في غير احتياط ، ويخص المصريين بشيء قاس من هذا الذم ؛ وذلك حيث يقول :

كَفَى عَجَباً أنْ يَعْجَبَ الناسُ أنَّهُ ... بَنَى مَرْعَشاً تَبّاً لِآرائِهِمْ تَبّا

وما الفَرْقُ ما بينَ الأنامِ وبَيْنَه ... إذا حَذِرَ المحذورَ واستَصعَبَ الصَّعْبا

لأمرٍ أعَدَّتْهُ الخِلافَةُ للعِدَى ... وسَمَّتْهُ دُونَ العالَمِ الصارِمَ العَضْبا

ولم تَفْتَرِقْ عنهُ الأسِنَّةُ رَحمةً ... ولم تترُكِ الشَّأْمَ الأعادِي لهُ حُبّا

ولكِنْ نَفاها عنهُ غيْرَ كرِيمَةٍ ... كَرِيمُ الثَّنا ما سُبَّ قَطُّ ولا سَبّا

وجَيشٌ يُثَنّي كُلَّ طودٍ كأنَّهُ ... خَرِيقُ رياحٍ واجَهَتْ غُصُنا رَطْبا

كأنَّ نُجومَ اللَيلِ خافَتْ مُغارَهُ ... فَمَدَّتْ عَلَيْها من عَجاجَتِهِ حُجْبا

فَمَنْ كانَ يُرضِي اللؤمَ والكُفرَ مُلكُهُ ... فهذا الذي يُرضِي المَكارِمَ والرَّبّا

فهو كما ترى يسب الذين أكبروا من سيف الدولة بناءه مرعش ، وهو كما ترى أيضاً مُصانع للخلافة ، لا يعرض لصاحبها بأذى ، ولكنه يصارح المصريين بالعداء ، فيعلن أنهم لم يتركوا ما تركوا من الشام لسيف الدولة كرامة ولا حبا ، وإنما نفاهم عنها نفياً . ثم يختم القصيدة ببيت ما أرى إلا أنه قصد به إلى معز الدولة ؛ فرماه بأنه يقيم ملكه على اللؤم والكفر ، على حين يقيم سيف الدولة ملكه على ابتغاء مرضاة الله .

فإذا كانت سنة اثنتين وأربعين ، وقال المتنبي لاميته الرائعة التي أطلنا الحديث عنها في الفصل الماضي، عرض لمنافسي سيف الدولة بهذين البيتين اللذين كان لهما أبعد الأثر في حياة المتنبي من الناحية السياسية والأدبية جميعاً ، وهما قوله :

فَدَتْكَ مُلوكٌ لم تُسَمَّ مَواضِياً ... فإنَّكَ ماضِي الشَّفرَتينِ صَقِيلُ

إذا كانَ بَعضُ الناسِ سَيْفاً لِدَولةٍ ... فَفي الناسِ بُوقاتٌ لَها وطُبُولُ

ومعز الدولة وحده هو المعنيُّ بهذين البيتين ، ما أشك في ذلك . فهو قد لُقِّب

بلقب يضاف إلى الدولة ، ولـكنه ليس ماضياً ولا عضباً ، و إنما هو لفظ ضخم لا يغنى شيئاً . والبيت الثانى صريح فى ذلك ؛ فقد جعل المتنبى أمير حلب سيفاً للدولة يحميها و يذود عنها ، على حين أن منافسه فى بغداد لا يزيد على أن يعلن عن الدولة أو عن نفسه بالبوقات والطبول .

وقد كان أثر هذا البيت عميقاً جدًّا فى الشرق الإسلامى كله ، وفى بغداد خاصة . فقد ذُكر هذا البيت حين وصل المتنبى إلى بغداد فى آخر حياته ، وعيب عليه فيها وفى غيرها من بلاد الشرق الإسلامى . و إذا لم تكذبنى الذاكرة فقد عابه الصاحب بن عبَّاد .

والغريب أن النقاد الأدباء مضوا مع أصحاب السياسة فى إنكارهذا البيت فعابوه ، مع أنى لا أعرف هجاء أقذع ولا أوجع ، ولا سهما أنفذ ، من هذا البيت الذى هو عندى من روائع المتنبى .

وفى هذه السنة نفسها عاد المتنبى إلى هـذا النحو من الكلام ، ولكنه خالف ما كان قد مضى عليه من رأى وسُنَّة ، بأمر سيف الدولة فى أكبر الظن . فقد كان المتنبى إلى الآن يوقِّر الخليفة ولا يعرض له بالسوء . فأما فى هذه القصيدة التى أنشدها سيف الدولة ، فى ميدان حلب عند عرض الجيش ، وهما على فرسيهما ، مهنئاً له بعيد الأضحى ، فإنه يهاجم الخليفة تصريحاً لا تلميحاً ، و يرسل إليه نذيراً لا لبس فيه ؛ وذلك حيث يقول :

فَوَا عَجبا مِنْ دَائِلٍ أَنْتَ سَيْفُهُ ... أَما يَتَوَقَّى شَفْرَتَىْ مَا تَقَلَّدَا
وَمَنْ يَجْعَلِ الضِّرْغامَ لِلصَّيدِ بازَهُ ... تَصَيَّدَهُ الضِّرْغامُ فيما تَصَيَّدَا
رَأَيتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ فى مَحْضِ قُدْرَةٍ ... ولو شِئْتَ كانَ الحِلْمُ مِنْكَ مُهَنَّدَا
وَمَا قَتَلَ الأَحْرَارَ كالعَفْوِ عَنْهُمُ ... وَمَنْ لَكَ بالْحُرِّ الذى يَحْفَظُ اليدَا
إذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ ... وَإنْ أنتَ أَكْرَمْتَ اللئِيمَ تَمرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فى مَوْضِعِ السَّيفِ بالعُلا مُضِرٌّ كَوَضعِ السَّيفِ فى مَوْضِعِ النَّدَى
ولَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْياً وَحِكْمَةً كما فُقْتَهُمْ حالاً وَنَفْساً ومَحْتِدا
يَدِقُّ على الأفكارِ مَا أنْتَ فَاعِلٌ فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى ويُؤْخَذُ ما بَدَا

فهو كما ترى صريح لا يعرّض ولا يُوَرِّى ، وإنما يسخر من الخليفة الذى يتقلد سيفاً يوشك أن يقتله ، ويرسل للصيد جارحا يوشك أن يصيده . وهو يغرى سيف الدولة بهؤلاء الذين عفا عنهم فأبطرهم العفو ، وأمهلهم فغرهم الإمهال ، واصطنع معهم الحلم فظنوه عجزاً ، وآثرهم بالكرامة فتلقّوه باللؤم والجحود . وهو يعجب من أناة سيف الدولة وحلمه ، ويحذّره مع ذلك عاقبة ذلك الحلم وهذه الأناة ، ويثق برأيه آخر الأمر فى كلام يملؤه الوعيد .

وبعد أن أنشد هــذه القصيدة بوقت قصير فى سنة ثلاث وأربعين بالضبط ، أُدخل سفراء الروم على سيف الدولة ، وأنشده المتنبي رائيته التى ذكرناها آنفاً ، وقال فيها هذين البيتين :

قَدِ استَرَاحَتْ إلى وَقْتٍ رِقابُهُمُ مِنَ السُّيوفِ وباقى القَومِ يَنتظِرُ
وقَــــد تُبَدِّلُها بالقَومِ غَيرَهُمُ لِكى تجمَّ رُؤُوسُ القَومِ والقَصَرُ

فلمن هذه الرقاب التى أينعت وحان قطافها ، ويوشك سيف الدولة أن يكون صاحبها أثناء إبقائه على الروم ؟ أهى رقاب أهل بغداد ؟ أهى رقاب أهل الفسطاط ؟ أم هى رقاب الكلابيين الذين ثاروا بسيف الدولة وأدّبهم فى هذا العام نفسه ؟

وفى آخر قصيدة أنشدها المتنبي بحلب قال هذه الأبيات التى لا شك فى أنه لم يُرِدْ بها إلا أهل العراق :

أَلْهَى المَمالِكَ عن فَخرٍ قَفَلْتَ بهِ شُرْبُ المُدامةِ والأوتارُ والنَّغَمُ
مُقلَّداً فوقَ شُكرِ اللهِ ذا شُطَبٍ لا تُستَدامُ بأمضى مِنهما النِّعَمُ
أَلقَتْ إليْكَ دِمَاءُ الرُّومِ طاعتَها فَلوْ دَعَوْتَ بلاَ ضَربٍ أجابَ دَمُ

ثم خرج المتنبي من حلب مغاضباً ، وأقام عند كافور ما أقام وعاد إلى العراق .. واستأنف سيف الدولة بره به وعطفه عليه ، فأنفذ إليه هدية ، وشكر المتنبي هذه الهدية فى لاميته المشهورة التى قال فيها معرضاً ومصرحاً وغير حافل بمكانه من العراق وقربه من أولى الأمر فى بغداد :

لَيْسَ إلاَّكَ يا عَلِىُّ هُمامٌ   سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ
كيفَ لا تأْمَنُ العِراقُ ومِصْرٌ   وسَرَاياكَ دُونَهَـــا والخُيُولُ
لو تَحَرَّفْتَ عن طَرِيقِ الأعادِى   رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمْ والنَّخِيل
ودَرَى مَنْ أعَزَّهُ الدَّفْعُ عَنهُ   فِيهِما أنَّهُ الحَقِيرُ الذَّليــلُ
أنْتَ طُولَ الحَياةِ لِلرُّومِ غازٍ   فَمَتى الوَعْدُ أنْ يكُونَ القُفُولُ
وسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ   فَعلَى أىِّ جانِبَيْكَ تَمِيلُ
قَعَدَ النّاسُ كلُّهُمْ عَنْ مَساعِيـ   ـكَ وقامَتْ بِهاَ القَنا والنُّصولُ
ما الّذِى عندَهُ تُدَارُ المَنَايا   كالّذِى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

وهذا البيت الأخير سهم صائب قد أرسل مباشرة إلى صدر صاحب الأمر فى بغداد .

وفى آخر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة تلقى المتنبي من سيف الدولة كتاباً بخطه يسأله المسير إليه ؛ فأرسل إليه بائيته المشهورة ، وقال فى آخرها :

أرَى المُسْلِمِينَ مَعَ المُشْركيـ   ـنَ إمّا لِعَجْزٍ وإمّا رَهَبْ
وأنتَ مَعَ اللهِ فى جانِبٍ   قَلِيــلُ الرُّقادِ كثِيرُ التَّعَبْ
كأنَّكَ وَحْــدَكَ وَحَّدتَهُ   وَدانَ البَرِيَّةُ بابنٍ وأبْ
فَلَيتَ سُيُوفَكَ فى حاسِدٍ   إذا ما ظَهَرْتَ عَليهم كَئِبْ
وَلَيتَ شَــكاتَكَ فى جِسْمِهِ   وَلَيتَكَ تَجزِى بِبُغْضٍ وحُبّْ

فهو كما ترى يكاد يقصر الإسلام على سيف الدولة لكثرة ما يجاهد الروم فى سبيله ، ويكاد يرمى المسلمين المنافسين له بالنصرانية لكثرة ما قصروا عن هذا الجهاد . ومَنْ عسى أن يكون هـذا الحاسد الذى يعرّض به المتنبي ولا يسميه ؟ أتراه يقصد إلى كافور ، أم إلى معز الدولة ؟

والغريب أنه يُنفذ هذه القصيدة إلى صديقه القديم فى الوقت الذى يتهيأ فيه ليمعن فى الشرق الإسلامى زائراً لابن العميد ، ثم لعضد الدولة .

ومهما يكن من شيء فقد يكشف التاريخ لنا يوماً عما كان لهذا الشعر السياسى من أثر فى علاقات هؤلاء الأمراء من المسلمين . ولكن الشيء الذى لا شك فيه هو أننا نعرف ما كان له من أثر في حياة المتنبي نفسه حين قصد إلى كافور ، وحين لجأ إلى العراق .

٩

وفن آخر قال فيه المتنبي لسيف الدولة شعراً كثيراً ، ولكنى أمرّ به دون أن أقف عنده ؛ لأنه فيا أرى لا يكاد يستأهل عناية أو درساً ، وهو عندى أسخف ما قال المتنبي لسيف الدولة من الشعر ، وهو قد قال مثله للأمراء الذين اتصل بهم وعاش فى ظلّهم . وقد رأيت أطرافا مما قال من ذلك لعلىّ بن إبراهيم التنوخى ، ولبدر بن عمار وللأمير الإخشيدى ، ولأبى العشائر . وهو هذا الشعر الذى ينزل فيه الشاعر عن كرامته دائماً ، وعن مروءته أحياناً ، و يبيع فيه فنه لمولاه بيعاً دنيئاً . أريد به شعر المناسبات الذى يقوله الشاعر مدفوعاً إليه بالتملق مرة ، و بالخوف مرة أخرى ، و بالمناسبة مرة ثالثة ، و بالطاعة مرة رابعة ، وعلى هذا النحو .

وكان الأمراء فى هذا العصر قساة على شعرائهم فيا يظهر ، يكلّفونهم ما يطيقون وما لا يطيقون ، ينتظرون منهم المدح حين ينشطون له ، وحين يفترون عنه ، و يريدونهم على أن يقولوا لهم الشعر فيا يستحق وما لا يستحق أن يقال الشعر فيه .

وكان الشعراء طيّعين مذعنين أذلة ، يدفعهم إلى ذلك الرغب والرهب جميعاً . وقد رأيت كيف أبطأ المتنبي عن مدح الإخشيدى الشاب ، فعاتبه فى هــذا الإبطاء ، واضطر الشاعر البائس إلى الاعتذار . وكذلك فعل سيف الدولة ، فاستبطأ مدح شاعره حيناً ، وتملل عليه أحياناً ، واقترح عليه غير مرة موضوعات يقول فيها الشعر ارتجالا ، منها القيم ، ومنها السخيف . وكان المتنبي البائس يذعن للأمر فيوفق مرة ، و يخطئه التوفيق مرات . فهذا بيت للعباس بن الأحنف يطلب منه أن يُجيزه ، وهــذا بيت آخر للعباس الصولى يطلب منه أن يجيزه أيضاً ، وهذا المؤذن يدعو إلى

الصلاة فيدرك الأمير وفى يده الكأس ؛ ولا بد للمتنبي من أن يقول فى ذلك شعرا وإلا سبقه غيره من الشعراء المنافسين إلى رضا الأمير وحبائه . وهذا سحاب يسقط والأمير فى بعض أسفاره ؛ فلا بد للمتنبي من أن يفضِّل سيب الأمير على فيض السحاب . وهذه خيمة الأمير تعصف بها الريح فتسقط فيتشاءم الأمير ، ويتحدث بذلك الناس ؛ ولا بد للمتنبي من أن يعتذر عن هذه الخيمة البائسة التى عصفت بها الريح ، ومن أن يتأذّن للأمير بأن هذه الحادثة آية من الله تؤذن بنصره القريب ، واعتراف من الخيمة بأن شخص الأمير أضخم وأعظم وأرفع من أن تظلله الخيام .

والأمير مريض، فيجب أن يرثى الشاعر له ويشفق عليه ، ويتمنى له الشفاء . وقد شفى الأمير ، فيجب أن يهنئه الشاعر ويتمنى له مزيداً من العافية وفضلا من طول البقاء .

وقد قلت إنى لا أحفل بهذا الشعر ولا أُطيل عنده الوقوف ، ولكنى أُحب مع ذلك أن أنبه من يقرأ شعر المتنبي ويدرس حياته ، إلى أن لهذا الشعر السخيف خطراً عظيما من ناحيتين :

الأولى : الناحية الفنية الخالصة ؛ فأكثر هذا الشعر كان يرتجل ارتجالا ، ولا يتهيأ الشاعر له ولا يعنى به ؛ وهو من هذه الجهة يصور طبع الشاعر كما هو دون أن يعمل فيه الاحتفال لقول الشعر ، والتهيؤ لنظم القصيد .

وكان طبع المتنبي ، كما يصوره هذا الشاعر الذى قاله لسيف الدولة ولغيره ، سمحاً سهلاً خصبا ، يواتى صاحبه فى غير مشقة، وقد يغمره حتى يشرف به على الغرق . وليس من شك فى أن المتنبي لم يحتفظ من فيض هذا الطبع الخصب إلا بأقله ، وترك أكثره يذهب به الزمان .

كان طبع المتنبي خصبا ، ولكنه لم يكن صافياً دائماً . وكان ذوق المتنبي حسنا ، ولكن بشرط أن يتهيأ للنقد ويشفق من الناقدين . فأما إذا أرسل الشاعر نفسه على سجيتها ، فقد كان شعره يتدفع تدفع السيل ويحمل كثيراً من الفساد .

والناحية الثانية : أن هذا الشعر كان موضوع التنافس بين الشعراء والتسابق بين الندماء ، كلهم يريد أن يكثر منه ويجيد فيه ليظفر بما يحرص عليه من رضا الأمير ونائله . وكان أعظمهم حظًّا من هذا الظفر ، محسَّداً بما ينال من الرضا والمال . وكان المتنبي من غير شك أخصب الشعراء الذين لزموا سيف الدولة ، وأغزرهم مادة ، وأسرعهم بديهة ، وأسبقهم إلى عطف الأمير ومثوبته . فإذا أضفنا إلى هذا تفوقه الذى لا شك فيه حين كان يُلقى قصائده الرسمية فى الحفل ، لم يصعب علينا أن نفهم ما أحاط بالمتنبي منذ اتصل بسيف الدولة من كيد ومكر وحسد ، نغّص عليه حياته فى كثير من الأوقات ، وعرّض صلته مع سيف الدولة للخطر يوماً ما ، ثم عرض حياة المتنبي نفسها للخطر حيناً، ثم انتهى بما لم يكن بدٌّ من الانتهاء إليه، وهو القطيعة بين الشاعر والأمير .

١٠

وليس العجيب ، وقد عرفت ما كان بين سيف الدولة والمتنبي من صلة ، أثناء هذه الأعوام الطوال التي اصطحبا فيها ، أن تفسد حياة المتنبي عند الأمير من حين إلى حين ، وإنما العجيب أن تسلم وتستقيم وتبرأ من الاضطراب والفساد . وقد رأيت أن المتنبي لم يأمن حسد الحساد حين اتصل بالتنوخيين في شبابه ، فاضطر إلى أن يدافع عن نفسه . ورأيت كذلك أنه لم يأمن الحسد والكيد عند بدر ، فاضطر إلى الهرب والفرار . ورأيت أيضاً أنه لم يأمن الكيد والدس عند أبي العشائر ، ولكنه ثبت للكائدين والدساسين وأخذهم بالقوة والحزم ، وظهر عليهم حتى اتصل بسيف الدولة .

وهذا يفسر ما قدمناه من أنه لم يُلق بنفسه على أمير حلب إلقاء ، وإنما سعى إليه راغباً فيه ، محتاطا منه فلما أنشده ميميته المعروفة لم يتهالك فيها ، وإنما وقف موقف الحذر المعتز بنفسه ، وأقدم إقدام المهاجم لخصومه المخوف للذين لم يعرفوه بعد ؛ حتى إذا كاد ينتهي من قصيدته قال مهاجماً للشعراء في غير ريث ولا مهل ولا ظرف :

غَضِبْتُ لهُ لَمَّا رأيتُ صِفاتِهِ بلا واصفٍ والشِّعْرُ تَهْذِي طَماطِمُهْ
وكُنْتُ إذا يممتُ أرضاً بَعيدةً سَرَيتُ فكُنتُ السِرَّ والليلُ كاتِمُهْ

فهو إذن قد دخل القصر على أصحاب سيف الدولة غازيا لا ضيفاً ، واتصل بحاشية الأمير مخاصما لا مسالما .

والرواة يقولون ، كما عرفت ، إنه اشترط لنفسه قبل أن يلزم الأمير ، وأن الأمير قبل شروطه ، ثم لم يلبث أن ملك قلب الأمير واستأثر بحبه ومودته ؛ فليس غريباً أن تكره حاشية الأمير ، ولا سيما الشعراء والأدباء من بينها ، مقدم الشاعر وما صحبه

من تهجم واستعلاء . وليس غريباً أن تضيق بالشاعر أشد الضيق حين ترى أن شعره يقع من الأمير موقعاً حسناً ، ثم تبغضه أشد البغض حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهى مكرهة على أن تظهر الصمت عن هذا الشاعر الوقح الذى يسوءها فى نفسها وفى مكانتها من صاحب القصر ، ثم يستأثر من دونها بالحظوة ، ثم يرتفع عنها فيما يمنح الأمير من الجوائز والعطاء ، ثم يلزم الأمير بعد ذلك لزوم الظل حين يظعن وحين يقيم . ثم هو بعد هذا كله لا يزداد إلا طموحا وجموحا ، وإلا علواً واستكباراً . وكلما أحس حب الأمير له وتقريبه إياه ازداد ازدراؤه لغيره ، واحتقاره لكل من سواه . ثم هو لا يكاد يقول شعراً حتى يمتلىء به غروراً وكبراً ، ولا يدع لشعره أن يرفع نفسه على الشعر كله ، وأن يرفع صاحبه على الشعراء جميعاً ، وإنما يرفع شعره ونفسه بهذا البيت وذاك ، يدسه فى هذه القصيدة أو تلك . وهو لا يكتفى برفع نفسه والفخر بها ، ولكنه لا يرفع نفسه إلا جدّ فى وضع غيره ، ولا يحمد شعره إلا ذم شعر الشعراء الآخرين .

وهو كما عرفت لم يستطع أن يقيم عند بدر إلا أشهراً ثم انهزم للكائدين . ولم يطل مقامه عند أبى العشائر ، ولم تظهر نتيجة الخصومة بينه وبين أعدائه عند هذا الأمير قبل أن يتصل بسيف الدولة . وكان من الجائز ألا تطول إقامته عند سيف الدولة ، وأن يفسد الأمر عليه بعد عام أو عامين بتأثير هذه الأخلاق والخصال التى قدمناها ، وما تستتبع من الكيد له والتألب عليه . ولكنه أقام عاما وعاما وعاما ثالثاً ، والحاشية تنكره وتضيق به ، وتبغضه وتكيد له ، وهو ثابت لا يتزعزع ، ومستقر لا يزول . والأمير يرفعه ويدنى منه مكانه ، ويؤثره على غيره من الشعراء والندماء ، فلا تزداد الحاشية إلا ضيقاً به وكيداً له . حتى إذا كانت الموقعة التى انتصر فيها سيف الدولة انتصاراً باهراً أول الأمر ، وانهزم فيها آخر الأمر انهزاماً منكراً ، قال المتنبى عينيته التى يعزّى بها الأمير وينذر بها الروم ، وكان شديد الوطأة على الجند اللذين تفرقوا عن الأمير وانهزموا للروم ، فقد وصفهم بالضعف والجبن والذلة ، واستيأس

منهم أو كاد يستيئس ، وأيأس الأمير منهم أو كاد يؤيسه .

وليس من شك فى أن كثيراً من الأشراف الذين انهزموا فى تلك المعركة لم يقع من أنفسهم ما قاله المتنبي موقعاً حسناً ، فأنكروه وكرهوه . وانتهز أعداء المتنبي وحساده هذه الفرصة ، فسعوا به ، وألّبوا عليه ، وكثر كلام الناس فى المتنبي ، واجترأ بعض الشعراء على أن يجاهره بالعداوة بعد أن كان يُسِرُّ له البغضاء ويدبر له الكيد .

ولسنا نعرف تفصيل ما حدث من هذا كله ، ولكنا نلاحظ أن المتنبي حين هنأ سيف الدولة بأخذ الثأر من الروم وانتصاره عليهم سنة أربعين وثلاثمائة ، يقول فى داليته المشهورة :

خَلِيلَيَّ إنِّى لا أرى غَيْرَ شاعرٍ   فَكَمْ مِنهُمُ الدَّعوى ومِنّى القصائِدُ
فَلا تَعجَبا إنَّ السُّيُوفَ كَثيرةٌ   ولَكِنَّ سَيفَ الدَّوْلةِ اليَومَ واحِدُ

فهناك إذن شعراء يدّعون الشعر ويكاثرون فيه المتنبي . والمتنبي يصوّب إليهم هذا السهم النافذ ، فيرى أنه الشاعر ، وأنهم الأدعياء ، ويرى أن قصائده هى الشعر ، وأن جهود غيره لا تتجاوز أن تكون دعوى لا طائل تحتها . فكما أن السيوف كثيرة ، ولكن سيف الدولة واحد ، هو الأمير ، فالناظمون كثيرون ، ولكن الشاعر واحد ، هو المتنبي .

ثم يمضى المتنبي فى مدح الأمير ، ولكنه يعود إلى هؤلاء الحساد والكائدين فيقول :

أُحِبُّكَ يا شَمْسَ الزمانِ وبَدْرَهُ   وإنْ لامنى فِيكَ السُّها والفراقدُ
وَذَاكَ لِأَنَّ الفَضْلَ عِندكَ باهرٌ   ولَيْسَ لِأَنَّ العَيْشَ عِنْدَكَ بارِدُ
فإنَّ قَليلَ الحُبِّ بالعقلِ صالحٌ   وإنَّ كَثيرَ الحُبِّ بالجهلِ فاسِدُ

فهو فى البيتين الأولين من هذه الأبيات الثلاثة يعرِّض لسيف الدولة فى لباقة وظرف ، بأن أمراء غيرَه يلومونه فى الانقطاع لصاحب حلب ، ومنهم مرتفع القدر

ومعتدله ، ولكنه لا يحفل بلوم هؤلاء الأمراء ، ولا يستجيب لإغرائهم ، لا إيثاراً لما يمنحه الأمير من لين العيش وخفضه ، بل إكباراً لفضل الأمير ومجده وتفوقه على غيره من الأمراء .

أما البيت الثالث ، ففيه إنذار لخصومه والساعين به عند الأمير ، و إنذار للأمير نفسه ؛ لأن هؤلاء الذين يظهرون الغلو فى حب الأمير والتهالك عليه ، قد يحتاجون إلى كثير من العقل ؛ لأن غلوهم وتهالكهم ربما أساء إلى الأمير ، على حين أن الاعتدال فى الحب مع العقل والنصح ، خير كله .

ومعنى هذا أن خصوم المتنبي لم يكتفوا بالجهر بعداوته ، ولكنهم سعوا عند الأمير ؛ وكأن الأمير قد أخذ يسمع لهم ، أو كأنهم قد أمّلوا فى الأمير أن يميل إليهم . فالمتنبي يصارح خصومه بالعداوة ، ويعرّض للأمير بالنذير تعريضاً . ولسنا ندرى ماذا حدث بعد ذلك ، ولكنا نرى الرواة يتحدثون بأن خصوم المتنبي قد اجترءوا على مجاهرة الأمير بالنعى عليه والطعن فيه ، حتى أنكر أبو فِراس أن يعطيه الأمير ثلاثة آلاف دينار فى كل عام أجراً على ثلاث قصائد .

ويظهر أن المتنبي قد أحس انصراف الأمير عنه وتقريبه لبعض خصومه ، فأراد أن يجزى إعراضاً بإعراض ، وأبطأ فى مدح الأمير . ثم أنكر الأمير منه هذا الإبطاء ، فلم ينشط للمدح ونشط غيره للكيد . ثم أظهر الأمير غضبه فأعرض عن المتنبي ذات يوم بمحضر من الناس . وعاد المتنبي خجلا كئيباً قد أُسقط فى يده ، وأراد أن يستدرك أمره فأرسل إلى الأمير هذه الأبيات :

أرَى ذلِكَ القُرْبَ صارَ ازْوِرَارَا   وَصَارَ طَوِيلُ السَّلاَمِ اختِصارا
تَرَكْتَنى اليَوْمَ فى خَجْلَةٍ   أَمُوتُ مِرَارًا وأحْيــــا مِرَارا
أُسَارِقُكَ اللَّحْظَ مُسْتَحْيِيًا   وأَزْجُرُ فى الخَيلِ مُهرِى سِرارا
وأَعْلَمُ أنِّى إذا ما اعتذَرْتُ   إلَيْكَ أَرَادَ اعْتِذارِى اعْتِذارا
كَفَرْتُ مَكارِمَكَ البــاهِرا   تِ إنْ كانَ ذلِكَ مِنِّى اخْتِيارا

ولـكِنْ حَمَى الشِّعْرَ إلاّ القَليـ ... لَ هَمٌّ حَمَى النَّوْمَ إلاّ غِرارا
وَمَا أنا أسْقَمْتُ جِسْمِى بهِ ... ولا أنا أضْرَمْتُ فى القلبِ نارا
فلا تُلْزِمَنِّى ذُنُوبَ الزَّمانِ ... إلىَّ أساء وإيَّاىَ ضارا
وعِنْدِى لَكَ الشُّرَّدُ السائرَا ... تُ لا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الأرضِ دارا
قَوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلِى ... وَثَبْنَ الجِبالَ وخُضْنَ البِحارا
وَلِى فيكَ ما لم يَقُلْ قائِلٌ ... وما لم يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سارا
... ... الخ الخ

فالشاعر كما ترى يسجل إعراض الأمير عنه وغضبه عليه ، ثم يعترف بالذنب ، ثم يعتذر منه ، مؤكداً أنه لم يتعمده ، وإنما اضطرته إلية هموم حالت بينه و بين النوم. ولم يثر هو هذه الهموم ، ولم يَدْعُها إلى نفسه ، وإنما صبَّها عليه الزمان . وهذه الهموم من غير شك لم يُثرها فى نفس المتنبى إلا خصومه الذين سعوا به عند الأمير فأفسدوا عليه قلبه ، وأفسدوا عليه القصر ، ولعلهم أفسدوا عليـه البيئة كلها فى حلب .

ثم يتحدث المتنبى إلى الأمير بأنه لم يقل فيه كل ما يجب أن يقال ، وبأن عنده له شعراً جيداً كثيراً . ثم تثوب إلى الشاعر عزته بعض الشىء ، فيذكِّر الأمير بما قال فيه من شعر سار حيث لم يستطع القمر أن يسير . ثم يتم الأبيات مادحا مستعطفاً ؛ ولكن الأمير فيما يظهر لم يقبل منه ولم يعطف عليه . وأدار المتنبى أمره فلم ير إلا أن يفجأ خصومه ويلقاهم وجهاً لوجه ، ويسترد قلب الأمير عنوة واقتداراً ، فيسعى ذات يوم إلى القصر ويُنشد الأمير بمحضر من خصومه جميعاً ، وعلى رأسهم أبو فراس ، ميميته الرائعة الخالدة التى أولها :

واحَرَّ قلباهُ مِمَّنْ قلبُه شَبِمُ ... ومَنْ بِجِسْمِى وَحالِى عِندَهُ سَقَمُ

وكلام القدماء والمحدثين فى هذه القصيدة أكثر وأغزر وأشد اختلافاً وتنوعاً من أن نقول فيها ، فلن نأتى بجديد . ولـكنا نلاحظ مسرعين أن المتنبى قد وفق فيها

لحظٍ لا بأس به من الإجادة الفنية ، سلك طريق ابن الرومى فألح فى العتاب حتى كاد يبلغ الهجاء ، وأسرف فى المدح ليصلح ما أفسد بالعتاب ، فكان يجرح بيد ويأسو بأخرى . ولم يقصر الأمر على ما بينه وبين سيف الدولة ، وإنما تجاوزه كما كان المقام يقتضى إلى السعاة والوشاة والحاسدين والكائدين ، فصارحهم بالشر مرة ، وعرّض لهم بالنكر مرة أخرى .

ولست فى حاجة إلى أن أروى أو أُلخص القصة التى تحدّث القدماء بها عن الإنشاد ، وما كان من ثبات المتنبى لهذا كله وإعراضه عن هؤلاء الخصوم ومضيه فى الإنشاد ، وسيف الدولة يسمع معرضاً مطرقاً حتى أتم قصيدته وانصرف .

وليس من شك فى أن هذه القصة قد ألفت تأليفاً فى وقت متأخر ، ولكنها على كل حال تعطى ظلاً لما كان فى مجلس سيف الدولة حين أُنشدت هذه القصيدة .

والشىء الذى لا شك فيه أيضاً هو أن المتنبى إن وفق لإرضاء الفن فى هذه القصيدة فقد أخطأه التوفيق لإرضاء سيف الدولة ، ولعله غاظ سيف الدولة أكثر مما أرضاه ، ولا سيما حين أنذر بأنه قد يرتحل إلى مصر فى البيت الذى سار مسير الأمثال :

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عن مَيامِنِنا ... لَيَحدُثَنَّ لِمَن ودَّعتُهُمْ نَدَمُ

ومهما يكن من شىء فقد اضطرب المجلس لإنشاد هذه القصيدة ، واشتد غضب الحاشية حتى انتهى إلى أقصاه حين رأت موجدة الأمير على هذا الشاعر الذى أراد العتاب فتحدّى ، ورغب فى الاستعطاف فانتهى إلى الوعيد والنذير . وقد خرج المتنبى من هذا المجلس آمناً كالخائف ، وخائفاً كالآمن ، وترك وراءه بغضاً وغيظاً وحنقاً . ويحدثنا الديوان بأن كاتباً من كتّاب الأمير ، عراقيا ، استأذن الأمير فى أن يسعى فى ذم الشاعر ، فرخّص له الأمير فى ذلك ، وانتهى ذلك إلى المتنبى فقال يهجوه :

أسامَرِىُّ ضُحْكَةَ كُلِّ رَاءِ ... فطِنْتَ وكنتَ أغبَى الأغبياءِ

صَغُرْتَ عَنِ المديحِ فقُلتَ أُهجَى ... كأنَّكَ ما صَغُرتَ عَنِ الهِجاءِ

وما فكّرتُ قبلَكَ في مُحالٍ ... ولا جرّبتُ سيفي في هَباء

على أن الأمر لم يكن فيما يظهر من اليسر بحيث ظن المتنبي؛ فقد تعرضت حياته للخطر حقا. وكيف لا تتعرض حياته للخطر وهو قد ملأ القلوب غيظاً وحفيظة، وعرّض بالأشراف من حاشية الأمير، وعلى رأسهم أبو فراس ومكانه من الأمير مكانه! ثم لم يكتف بذلك، بل أنذر الأمير نفسه بالتحول عنه إلى عدوه من المصريين. وكانت أخت أبي فراس عند أبي العشائر الذي حمى المتنبي حين جاءه لاجئاً إليه عائذاً به، وقدّمه إلى سيف الدولة ففتح له باباً إلى الأمل ثم إلى النعيم.

ولم يكن المتنبي حسن الوفاء لأبي العشائر؛ فهو لم يكد يتصل بسيف الدولة حتى أعرض عن غيره من الناس، ونسي أبا العشائر نسيانا تامًّا، فلم يذكره ولم يشر إليه. وكان الرجل خليقاً أن يلقى من صنيعته بعض الشكر على ما قدّم إليه من إحسان. فكان هذا كله ميسراً لشيء من الحلف الذي تم بين أبي العشائر وأبي فراس وأصحابه على قتل المتنبي غيلة إذا لم يكن من اليسير قتله جهرة في غير ذنب واضح يبيح دم رجل من المسلمين.

وكذلك تعرض المتنبي ذات ليلة في ظاهر حلب لجماعة من الغلمان أرصدهم أبو العشائر ليقتلوه، ولكنه أحسن الدفاع عن نفسه ثم نجا، وكأنه لجأ إلى صديق له من ذوي المكانة في حلب فأجاره وأخفاه، وجعل يسعى له في العفو عند الأمير. وجعل المتنبي نفسه وقد ثاب إليه رشده وسكت عنه الغضب، يعين مجيره على السعي له في العفو، فقال هذه الأبيات يعتب فيها على أبي العشائر ويصالحه:

ومُنْتَسِبٍ عِنْدِي إلَى مَنْ أُحِبُّهُ ... ولِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ حَفِيفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوقِي وما مِنْ مَذَلَّةٍ ... حَنَنْتُ وَلَكِنَّ الكَرِيمَ أَلُوفُ
وكُلُّ وِدادٍ لاَ يَدُومُ عَلَى الأذَى ... دَوَامَ وِدَادِي لِلْحُسَيْنِ ضَعِيفُ
فإنْ يَكُنِ الفِعْلُ الذي سَاءَ واحِدًا ... فأَفْعالُهُ اللاَّئِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

ونفسى لهُ نَفْسِي الفِدَاء لِنَفْسِهِ   ولكِنَّ بَعْضَ المالِكِينَ عَنِيفُ
فإنْ كانَ يَبْغِي قَتْلَها يَكُ قَاتِلاً   بِكَفَّيْهِ فالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

وكأن سيف الدولة أظهر استعداداً حسناً للعفو عن الشاعر إذا اعتذر من ذنبه، وتاب جهرة من خطيئته؛ فلم يتردد المتنبي فى أن يجهر بالاعتذار ويعلن التوبة، فقال هذه الأبيات:

ألاَ مَا لِسَيفِ الدولةِ اليومَ عاتِبا   فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى السُّيُوفِ مَضارِبا
ومَا لِى إذَا مَا اشْتَقْتُ أبصرْتُ دُونَهُ   تَنائفَ لا أشْتَاقُها وسَباسِبا
وقدكانَ يُدْنِى مَجلِسِى من سَمائِهِ   أُحادِثُ فيها بَدْرَها والكواكِبا
حَنانَيْكَ مَسئولاً ولبَّيْكَ داعِياً   وحَسْبِيَ مَوهُوباً وحَسْبُكَ واهِبا
أهذا جَزاءُ الصِّدْقِ إنْ كنتُ صادِقاً   أهذا جَزاءُ الكِذْبِ إن كُنْتُ كاذِبا
وإنْ كان ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فإنَّهُ   مَحا الذَّنْبَ كُلَّ المحوِ مَن جاء تائبا

وقد عفا الأمير عن شاعره، فكفَّ عنه خصومه، وآمنه على حياته، وأذن له فى العودة إلى القصر. فلما عاد المتنبي للقاء الأمير أحسن أهل القصر استقباله، فخلعوا عليه وهيئوه للدخول على الأمير تهيئة حسنة. ثم أُدخل على الأمير، فتلقاه لقاء فيه العطف والبر والمودة. وأعاد المتنبي اعتذاره، وأعلن الأمير عفوه، وخرج الشاعر من القصر تتبعه الهدايا والصلات، ثم عاد بعد حين فأنشد الأمير لاميته التى أولها:

أجابَ دَمْعِي وما الداعى سوَى طَلَلٍ   دَعا فلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبلِ

ولا أقف عند هذه القصيدة، فهى لا تعجبنى وإن أعجبت المعاصرين وأرضت سيف الدولة كل الرضا. إنما أروى هذا البيت السخيف السمج الذى تعمَّده المتنبي تعمداً ليغيظ خصومه، ويُظهر براعته من جهة، وابتهاجه بعودته إلى أرض الأمير من جهة أخرى:

أقِلْ أنِلْ أقْطِــعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أعِدْ زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ أدْنِ سُرَّ صِلِ

وقد أعجب الناس بهذه القصيدة حين أنشدت ، وطرب لها سيف الدولة ، فأجزل عطاء الشاعر لهذا الفوز حتى كاد يخرج عن طوره ؛ فقال المتنبي معجبا تياها مسرفا فى تحدى خصومه :

إنَّ هذا الشِّعْرَ فى الشِّعْرِ مَلَكْ سارَ فَهْوَ الشمسُ والدُّنيا فَلَكْ
عَدَلَ الرحمنُ فيهِ بَيْنَنا فَقَضَى باللَّفظِ لى والحَمْدِ لَكْ
فإذا مَرَّ بِأُذْنَىْ حاسِدٍ صارَ مِمَّنْ كانَ حَيًّا فَهَلَكْ

على أن المتنبي قد غلا فى الثقة ، وأسرف فى ازدراء الخصوم ، وتجاوز الحد فى حسن الظن بالأيام ؛ فلم تَطَّرِدْ حياته حلوة آمنة عند سيف الدولة . وما هى إلا أشهر حتى عاد الكيد له سيرته الأولى ، وكثر الطعن فيه واللهج به ، واضطر إلى أن يدافع عن نفسه ، و يهاجم حساده فى أكثر ما قال لسيف الدولة من القصائد .

ولسنا نروى كل ما قال من ذلك ، ولكنا نروى منه نماذج . فى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة يقول فى اللامية التى أفضنا فى ذكرها آنفا :

أنا السابِقُ الهادِى إلى ما أقولُهُ إذِ القَوْلُ قَبْلَ القائِلِينَ مَقُولُ
وَما لِكَلامِ الناسِ فيما يُرِيبُنِى أُصولٌ وَلا لِلْقائِلِيهِ أُصولُ
أُعادَى عَلَى ما يُوجِبُ الحُبَّ للفتى وَأهدَأُ والأفكارُ فِىَّ تَجُولُ
سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ داوِ فإنَّهُ إذا حَلَّ فى قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ
وَلا تَطْمَعَنْ مِنْ حاسِدٍ فى مَوَدَّةٍ وإنْ كنتَ تُبْدِيها لَهُ وتُنِيلُ

وفى هذه السنة نفسها يقول فى داليته المشهورة التى هنأ بها الأمير بعيد الأضحى :

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّى بِكَبْتِهِمْ فأَنْتَ الذى صيَّرْتَهمْ لِىَ حُسَّدَا
إذا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فيهِمُ ضَرَبْتُ بِسيفٍ يَقْطَعُ الهامَ مُغْمَدَا
وَما أنا إلاَّ سَمْهَرِىٌّ حَمَلْتَهُ فَزَيَّنَ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مُسَدَّدَا

وما الدَّهرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إذا قُلْتُ شعراً أصبحَ الدَّهرُ مُنْشِدا
فَسارَ بهِ مَن لا يَسيرُ مُشمِّرًا وغَنَّى بهِ مَن لا يُغَنِّي مُغَرِّدا
أجِزْنِي إذا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فإنما بِشِعْرِي أتاكَ المادِحُونَ مُرَدَّدا
ودَعْ كلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فإنَّنِي أنا الطائرُ المَحْكِيُّ والآخَرُ الصَّدَى
تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مالُهُ وأنْعَلْتُ أفرَاسِي بِنُعماكَ عَسْجَدَا
وقَيَّدْتُ نَفْسي في ذَراكَ مَحبَّةً ومَن وَجَدَ الإحسانَ قَيْداً تَقَيَّدَا
إذا سأَلَ الإنسانُ أيَّامَهُ الغِنَى وكُنتَ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْنَكَ مَوعِدا

فالمتنبي إذن ماض في استطالته على الشعراء واستعلائه على الخصوم ، لا يصطنع في ذلك رفقاً ولا أناة ولا تواضعا . وأعداؤه ماضون في الكيد له والوقيعة به ، يصطنعون في ذلك من المهارة ما لا يصطنع ، يُخفون الكيد حين يرون إقبال الأمير على شاعره ، ويظهرونه حين يحسون من الأمير مللا أو فتورا .

فإذا أنشد المتنبي في أوائل سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة بعد انصراف السفراء لاميته المشهورة ، قال فيها :

أفي كلِّ يَوْمٍ تحتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعيفٌ يُقاوِيني قَصِيرٌ يُطاوِلُ
لِسَانِي بِنُطْقي صامِتٌ عنهُ عادِلٌ وقَلْبي بِصَمْتي ضاحِكٌ منهُ هازِلُ
وأَتْعَبُ مَن ناداكَ مَن لا تُجِيبُهُ وأَغْيَظُ مَن عاداكَ مَن لا تُشاكِلُ
وما التِّيهُ طِبِّي فيهمُ غَيرَ أنني بَغيضٌ إليَّ الجاهِلُ المُتَعاقِلُ
وأكثَرُ تِيهِي أنني بكَ واثِقٌ وأكثَرُ مالِي أنني لكَ آمِلُ
لَعلَّ لسيفِ الدولةِ القَرْمِ هَبَّةً يَعيشُ بها حقٌّ ويَهلِكُ باطلُ
رَمَيْتُ عِداهُ بالقَوافي وفَضْلِهِ وهُنَّ الغَوازِي السالماتُ القَواتلُ

وواضح جدًّا أن صدر المتنبي قد ضاق بخصومه كل الضيق ؛ فهو يعلن ذلك

ويضج به ويستعين على خصومه بالأمير . وفى هذه السنة نفسها يقول فى ميميته المعروفة :

لكَ الحَمْدُ فى الدُّرِّ الذى لِىَ لَفْظُهُ فإنّكَ مُعْطِيهِ وإنّىَ ناظِمُ
وإنّى لَتَعْدُو بى عَطاياكَ فى الوَغَى فلا أنا مَذْمُومٌ ولا أنْتَ نادِمُ
عَلَى كلِّ طيّارٍ إليْهَا بِرِجْلِهِ إذا وَقعَتْ فى مِسْمَعَيْهِ الغَماغِمُ

وقد مضى شأن المتنبى مع خصومه على هذا النحو فى خطوب لا نعرف حقائقها ، ولكننا نلمحها من هذا الشعر وأمثاله ، حتى كانت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ، وأنشد المتنبى سيف الدولة آخر ما أنشده من الشعر ، وهى الميمية التى يقول فى آخرها :

لا تطلبنَّ كَرِيمًا بَعدَ رُؤْيته إنَّ الكرامَ بأسخاهُمْ يداً خُتِمُوا
ولا تُبالِ بِشِعْرٍ بَعدَ شاعِرِهِ قد أُفسِدَ القَولُ حتى أُحمِدَ الصَّمَمُ

فكأن هذا البيت الأخير كان مؤذنا بانقطاع الصلة بين الشاعر وأميره . وقد ظاهر خصوم المتنبى عليه فصرفوا عنه سيف الدولة ، وتبين ذلك للشاعر واضحاً جلياً حين كانت الخصومة بينه وبين ابن خالويه فى مجلس الأمير ، فيخرج ابن خالويه مفتاحاً من كمه فيشج به الشاعر حتى يسيل دمه فيخضب وجهه ، والأمير يرى فلا يقول ولا يصنع شيئاً . ويخرج المتنبى محزوناً منكسر النفس يكظم غيظاً عنيفاً ولا يستطيع أن يبين عنه مخافة أن تتكرر القصة التى مضت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. ويرى الشاعر نفسه محصوراً فى حلب أو معرّضاً فيها للموت ؛ فهو يعود إلى داره ، وقد استيأس من الأمير وأزمع الرحيل عنه ، ولكنه يتلطف فى ذلك ، فيمضى أياما فى هدوء ودعة وإعداد لأمره سرًّا . ثم يستأذن فى الذهاب إلى إقطاع له عند معرّة النعمان ، فيأذن له الأمير ، وقد علم ما دُبِّر له وأراد أن يُخلى بينه وبين الطريق ، أو جهل ما دُبِّر له وأراد أن يريحه منه ويستريح حيناً ، وهو ما أرجحه .

ويمضى المتنبى إلى إقطاعه فى ظاهر الأمر ، وقد أرسل إلى الأمير هذه الأبيات مبالغة فى التلطف والحيلة :

أيا رامياً يُصْمِي فؤادَ مَرامِهِ تُرَبِّى عِداهُ رِيشَها لِسهامِهِ
أسيرُ إلى إقطاعِهِ فى ثِيابِهِ عَلَى طِرْفِهِ من دارِه بِحُسامِهِ
وما مَطَرَتْنيهِ من البِيضِ والقَنا وروم العِبِدَّى هاطلاتُ غمامِهِ
فَتًى يَهَبُ الإقليمَ بالمالِ والقُرَى ومَن فيهِ من فُرسانِهِ وكِرامِهِ
ويَجعَلُ ما خُوِّلْتُهُ من نَوالِهِ جَزاءً لما خُوِّلتُهُ من كلامِهِ
فلا زَالتِ الشمسُ التى فى سَمائِهِ مُطالِعةَ الشمسِ التى فى لِثامِهِ
ولا زال تَجْتازُ البُدورُ بوجهِهِ فَتَعْجَبُ من نُقْصانِها وتَمامِهِ

وينتهى المتنبى إلى إقطاعه ، فلا يقيم فيه إلا ريثما يأمن الطلب فى أكبر الظن ، ثم ينسلّ منه ويمضى أمامه حتى يخرج من حدود الحمدانيين ، ويدخل أرض الإخشيديين ، ويطمئن به المقام حيناً فى دمشق ؛ وإذا هو قد ختم فصلا آخر من فصول حياته ، كان فيه النعيم كله ، وكان فيه شيء غير قليل من البؤس والشقاء، وكان فيه مجده الفنىّ حقا .

ومن الخطل أن نطيل القول أو أن نضيع الوقت فى البحث عن هذه المسألة التى أثارها النقاد ومؤرخو الأدب : أيهما خلّد ذكر صاحبه : سيف الدولة أم المتنبى ؟ فلم يكن المتنبى مجهولا ولا مغموراً حين اتصل بسيف الدولة . ولم يكن سيف الدولة خاملا ولا ضعيف الشأن حين عرف المتنبى ، وإنما كان كلا الرجلين قد فرض نفسه على معاصريه ، ذلك بشعره ، وهذا بسيفه ؛ فكان لكل منهما أثر خالد فى مجد صاحبه . وإنما أمر المتنبى مع سيف الدولة كما قال عمرو بن معدى كرب :

ولَو أنّ قَوْمِى أنطَقَتْنى رِماحُهمْ نَطَقْتُ ولكنّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

غير أن رماح سيف الدولة لم تجرّ، وإنما أنطقت الشاعر فنطق برائع الشعر وبارعه ، وكسا أميره منه حللا لا تفنى .

على أن المهم هو أن هذين الصديقين اللذين فرّق بينهما الكيد والحسد لم يتح لهما

بعد الفراق سلو ولا عزاء . فقد كانت فى نفس المتنبى حسرة لفراق سيف الدولة ، سنرى بعض مظاهرها فى شعره حين لجأ إلى كافور . وكانت فى نفس سيف الدولة حسرة لفراق المتنبى ، تظهر من اتصال الحديث فى مجلسه عن الشاعر ، ثم تظهر هذه الحسرة المشتركة من استئناف المودة بين الأمير وشاعره ، بعد أن أخفق المتنبى فى مصر وعاد إلى العراق . فهذا الأمير يستأنف البرّ به ويرسل إليه الهدايا ، والشاعر يمدحه باللامية التى أولها :

ما لَنا كُلُّنا جَوٍ يا رَسُولُ   أنا أهوَى وقلبُكَ المتبُولُ

ثم تموت أخت الأمير ، فيرثيها الشاعر بالبائية التى أولها :

يا أُختَ خَيرِ أخٍ يا بِنتَ خَيرِ أبٍ   كِنايةً بِهما عن أشرَفِ النَّسَبِ

ثم يشتد شوق الأمير إلى الشاعر ، فيكتب إليه بخطه يستقدمه ، ويهمّ المتنبى بالسفر إليه ، ويُنفذ إليه بائيته التى أولها :

فَهِمتُ الكِتابَ أبرَّ الكُتُبْ   فسَمْعاً لأمرِ أميرِ العَرَبْ

ولكنه يقول فيها :

وما عاقَنى غَيرُ خَوفِ الوُشاةِ   وإنّ الوِشاياتِ طُرْقُ الكَذِبْ
وتَكثيرِ قَوْمٍ وتَقْليلِهِمْ   وتَقْرِيبِهِمْ بيننا والخَبَبْ
وقد كان يَنصُرُهُمْ سَمعُهُ   ويَنصُرُنى قَلبُهُ والحَسَبْ
وما قلتُ للبَدْرِ أنت اللُّجَيْنُ   وما قلتُ للشمس أنتِ الذهَبْ
فيقْلَقَ منهُ البَعيدُ الأناةِ   ويَغضَبَ منهُ البطىءُ الغَضَبْ
وما لاقَنى بَلَدٌ بَعدَكم   ولا اعتَضْتُ مِن رَبِّ نُعمايَ رَبْ
ومَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعدَ الجَوا   دِ أنكَرَ أظلافَهُ والغَبَبْ
وما قِسْتَ كلَّ مُلوكِ البلادِ   فدَعْ ذِكرَ بَعضٍ بمَنْ فى حَلَبْ
ولوْ كُنتُ سَمّيتُهُمْ باسْمِهِ   لكانَ الحَديدَ وكانُوا الخَشَبْ

أفى الرَّأْيِ يُشْبَهُ أمْ فى السَّخَا ء أم فى الشَّجاعةِ أم فى الأدبْ

فالمتنبى إذن يهمّ ولا يفعل ، ويعزم ولا يُقدم ، يدفعه إلى الأمير الحب والوفاء والطمع والرجاء ، ويرده عنه خوف الوشاة والإشفاق من استئناف حياة يملؤها الحسد والكيد . وهو آخر الأمر لا يعود إلى الأمير ، وإنما يرجىء ذلك إلى أن يشفى حاجة فى نفسه ، فيشفى هذه الحاجة ، ثم يعترضه الموت قبل أن نعرف ما كان قد عزم عليه من الرجوع إلى الأمير أو الاستقرار فى العراق .

والغريب أن افتراق هذين الصديقين كان شرًّا عليهما جميعاً ؛ فلم يوفق المتنبى فى حياته العملية لرضا نفسه بعد فراق سيف الدولة . ولم يوفق سيف الدولة فى حياته السياسية بعد فراق المتنبى .

ألح الإخفاق على الشاعر ، كما ألحت العلة والفشل على الأمير . فلندع سيرة الأمير للتاريخ والمؤرخين ، ولنمض مع الشاعر فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل حياته .

الكتاب الرابع

١

وهناك مسألة خليقة بالتفكير ، وقد يكون فى حلها ما يعين على فهم حال المتنبي فى مصر : فلماذا لجأ المتنبي إلى بلاد الإخشيديين حين فارق سيف الدولة ، ولم يلجأ إلى العراق ؟ وظاهر أن هناك جواباً يسيراً على هذه المسألة ، ولكنه جواب لا يقنع ولا يمكن الاطمئنان إليه . فقد يقال إن المتنبي لم يذهب إلى العراق لسبب جغرافى ليس غير ؛ فهو لم يكن يستطيع أن يقصد إلى العراق من الطريق التى سلكها حين أقبل إلى الشام فى صباه ، أى من طريق الجزيرة ؛ لأن هذه الطريق كانت كلها إلى سيف الدولة وإلى أوليائه . فلم يكن له بدٌّ من أن يتخذ إلى العراق طريقاً أخرى يمر فيها من غير شك ببلاد الإخشيديين . وكذلك انتهى إلى دمشق ، فلم يستطع عنها زوالاً إلى طريق العراق ، بل زال عنها إلى طريق الفسطاط . وهذا الجواب كما ترى مقنع فى ظاهره . ولكنى أعتقد أن المتنبي لو كان قد صمم على الذهاب إلى العراق لما عدم الوسيلة إلى ذلك والحيلة فيه ، ولوجد من الأصدقاء فى مملكة الحمدانيين وفى مملكة الإخشيديين أنفسهم من يعينه على ذلك ، ويهيىء له الوسيلة إليه .

ولكن المتنبي لم يفكر فى الذهاب إلى العراق ، أو فكر فيه وأعرض عنه . بل أنا أرجح أنه قد أدار الحديث فى ذلك مع جماعة من أصحابه وأوليائه ، فنصح له هؤلاء بالعراق ، وأبى عليهم هو ، فتحولوا هم إلى العراق ، ومضى هو إلى مصر مخالفاً ، ثم ندم على خلافهم ، أو أظهر ما يدل على هذا الندم ، حين قال لكافور بعد ذلك بأعوام ، سنة تسع وأربعين وثلاثمائة :

وما شِئْتُ إلا أنْ أدُلَّ عَواذِلى ... علَى أنّ رأْيِى فى هَواكَ صوابُ
وأُعْلِمُ قَوْمًا خالَفُونى فشَرّقُوا ... وغَرّبْتُ أنِى قَدْ ظَفِرْتُ وخابوا

فظاهر من هذا الكلام أن قوماً من أصدقاء المتنبي وتلاميذه ضاقوا بحلب كما ضاق هو بها ، وهمّوا أن يزولوا عن ملك سيف الدولة كما همّ هو أن يزول عنه، فأجمعوا أمرهم بينهم على الرحيل . ولكنهم أداروا رأيهم فى البلد الذى يقصدون إليه : فأما أصحابه فآثروا بغداد ، وأما هو فآثر الفسطاط .

وقد يكون من المفيد أن نعرف الأسباب التى حملت المتنبي على إيثار الغرب ، وحملت أصحابه على إيثار الشرق .

فأما أصحاب المتنبي ، وهم فى أغلب الظن من العلماء وطلاب العلم، فلم يكن لهم من السابقة ما يصرفهم عن بغداد أو يزهّدهم فيها أو يخوّفهم منها ؛ لأنهم لم يذمّوا أهلها ولم يسيئوا إلى القائمين بالأمر فيها بقول أو فعل . ثم هم فى أغلب الظن عراقيون قليلا أو كثيراً ، وفدوا على حلب يطلبون فيها ما يطلبه الرجل المثقف الأديب فى بلد ناهض يكثر فيه العلم والجد والمال ، ثم أزعجوا عنها ، إما لأنهم قضوا منها وطراً ، وإما لأن صروف الحياة لم تتح لهم البقاء فيها ، فآثروا أن يعودوا إلى أوطانهم على أن يتغرّبوا فى غير طائل . و بغداد بعدُ مستقر الخلافة ، ودار العلم والحكمة ، وملتقى العلماء والأدباء من جميع الأقطار الإسلامية ؛ فلهم فى العودة إليها نفع محقق ، وليس عليهم منها بأس .

أما المتنبي فقد كان أمره مختلفاً أشد الاختلاف : كان العراق وطنه من غير شك ، ولكنه ولد فى ذلك الوطن شقيا ، ونشأ فيه بائساً ، وزال عنه كارهاً له زاهداً فيه . وعاد إليه فى شبابه فلم يطب له فيه مقام ، فزال عنه فى المرة الثانية كما زال عنه فى المرة الأولى ، كارهاً له زاهداً فيه . والمتنبي لم يتح للنسيان أن يُلقى بينه و بين العراق وأهله أستاراً صفاقاً أو رقاقاً ، و إنما جعل يذكّر العراق بنفسه ، ويعلن إلى العراق عداوته ، و يسرف فى إعلان هذه العداوة فى جميع الأوقات ، ولا سيما أثناء اتصاله بسيف الدولة . فقد أسرف فى ذلك كما رأيت إسرافاً شديداً، فهاجم معز الدولة، وهاجم الخليفة نفسه ، وآثر على ملكهما ملك هذا الأمير التغلبي ، ولم يصطنع فى ذلك حيطة ولا تحفظاً . ولعله لم يكن يتمنى فيما بينه و بين نفسه شيئاً كما كان يتمنى العودة

إلى العراق ، ولكنه كان يعلم حق العلم أن سبيله إلى العراق غير ميسرة ، وأن مقامه في العراق لن يكون حميد العاقبة ؛ فغرّب هو وشرّق أصحابه ، و بودّه لو يشرّق كما شرقوا .

وأنا أعلم أن المتنبي لم يهج أولى الأمر في بغداد وحدهم أثناء مدحه لسيف الدولة ، بل هجا معهم أولى الأمر في مصر ، وكان خليقاً أن يخاف مصر كما خاف العراق . ولكن من المحقق أن ما قاله في المصريين عند سيف الدولة لم يكن شيئاً بالقياس إلى ما قاله في البغداديين. فهو لم يعرّض بكافور ولا بالإخشيد وابنه تعريضاً واضحاً جليا. فلما صرّح بالنعى عليهم لم يزد على أن زعم أنهم لم يتركوا الشام لسيف الدولة حباً ولا كرامة ، و إنما نفاهم عنها سيف الدولة نفياً . فهو إذن قد زعم أنهم انهزموا له في الحرب . وليس هذا شيئاً يشين ، كما يشين ما كان يذكر به العراقيين من الجبن والخور ، ومن القصور والتقصير ، ومن العكوف على اللهو والمضى في إرضاء الشهوات والاغترار بمظاهر الملك وترك حقائقه لسيف الدولة الذى كان لا يُعْنَى إلا بجد الأمر ، ولا ينفق حياته إلا في جهاد الروم ، إلى غير ذلك مما قاله في التعريض والتصريح بأهل بغداد .

فقد كان فساد الأمر إذن بينه و بين العراق خطيراً . وكان إصلاح الأمر بينه و بين مصر ميسوراً سهلا . فإذا لاحظت أنه حين غاضب سيف الدولة وحاشيته سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة لم ينذرهم بأنه قد يذهب إلى العراق ، بل أنذرهم بأنه قد يترك ضُمَيْراً عن يمينه ليمضى إلى ملك الإخشيديين ، عرفت أن المتنبي نفسه كان يشعر بأن ملك الإخشيديين سيكون أرحب له صدراً من ملك الخلفاء العباسيين وأميرهم الديلمي . وللمتنبي بعد هذا كله عند الإخشيديين أصدقاء ليس له مثلهم في العراق ؛ فهو قد مدح جماعة من حكامهم وقادتهم قبل أن يتصل بسيف الدولة كما علمت . وهو قد اتصل اتصالا وثيقاً بأمير من أمرائهم في الرملة . وهو خليق أن يجد من هؤلاء أو من بعضهم حماية ورعاية وعونا على أن يتصل بالملك المصرى الشاب ،

أو بوصيه ووليه كافور .

وإذن فأنا لا أفهم إيثار المتنبي لمصر على العراق فحسب ، بل أريد أن أزعم أن المتنبي لم يفارق حلب ولم يترك سيف الدولة إلا بعد أن استوثق لنفسه عند الإخشيديين . وأكبر ظنى أن الرسل قد سعوا سرًّا بين المتنبي والإخشيديين فى آخر أوقاته بحلب ، وأن هؤلاء الرسل لم يضمنوا له الجوار والأمن عند الإخشيديين فحسب، وإنما جاءوه أيضاً بالوعود المطمعة والآمال المغرية . فلم يتحول عن شمال الشام إلى جنوبها إلا وهو يعلم ما يريد ، ويقدر أن حاله عند الإخشيديين ستكون خيراً من حاله عند الحمدانيين ، وأنه سيظفر فى ملك مصر بما لم يظفر به فى ملك شمال الشام .

وأنا من أجل هذا كله لا أطمئن إلى الأخبار التى يحدّثنا بها الرواة عن إقامة المتنبي بدمشق والرملة ، وإنما أقرؤها فى تحفظ شديد ، وأفهمها على وجه مخالف كل المخالفة لما فهمها عليه القدماء . فقد زعم القدماء أن الشاعر وصل إلى دمشق محزوناً ، وأن عامل الإخشيديين عليها ، وهو رجل يهودى يعرف بابن مالك ، تلقاه لقاء حسناً ، ولكنه طمع فى أن يمدحه المتنبي ، فلما لم يظفر منه بما أراد كاد له عند كافور . ويقول القدماء إن المتنبي تردد كثيراً فى الذهاب إلى مصر ، ثم يقولون — ويوافقهم بلاشير على ماقالوا — إنه ذهب إلى الرملة لاجئاً إلى صديقه الإخشيدى القديم الحسن بن عبيد الله ابن طغج ، وكان يريد أن يلزمه ، لولا أن كافوراً كتب يستقدمه وألح فى ذلك ، فسار الشاعر إلى الفسطاط كارهاً .

ولا أستبعد أن يكون المتنبي نفسه هو الذى قد تحدّث بهذا كله ، بعد أن عاد من مصر إلى العراق خائب الأمل، محزون النفس ، يائساً من كل ما كان ينتظر من كافور . فأما الذى أرجحه أنا فهو أن المتنبي قد أصلح أمره مع المصريين ، وترك حلب ، على أن يكون شاعراً رسميا لكافور ، ليغيظ سيف الدولة وأصحابه ، وليعرّفهم أنه إن لم يجد عندهم الأمن والرضا ، فسيجد عند عدوهم أكثر من الأمن والرضا : سيجد عند عدوهم الحكم والسلطان . وقد عرفنا أن المتنبي كان إذا اتصل بأمير انقطع له

حقا ، ولم يمدح أحداً من أصحابه والمقربين إليه . فهذا يبين لنا السبب فى أنه حين بلغ دمشق لم يمدح عامل الإخشيديين عليها . فإذا ذكرت ما افترضناه فى أول هـذا الـكتاب من جواز أن تكون هناك صلة بين هذا اليهودى الذى كان على دمشق ، وذلك اليهودى الذى سعى به عند عامل حمص فى شبابه حتى دفعه إلى السجن ، لم تستغرب إعراض المتنبي عن مدحه لهذا اليهودي الذى أحسن استقباله وأكرم مثواه .

وليس غريباً أن يكون هذا اليهودى قد طمع فى مدح المتنبي وضاق بما أصابه من الإخفاق ، كما جرى ذلك نفسه لإسحاق بن كيغلغ حين أراد الشاعر على أن يمدحه لمّا مر بطرابلس فى طريقه إلى أنطاكية . ومما يرجح هذا أن المتنبي ترك دمشق دون أن يستطيع اليهودى أن يمسكه فيها ، أو يرده عن الوجه الذى كان يقصد إليه . فلما وصل الشاعر إلى الرملة ، تلقاه الإخشيدى أحسن لقاء ، ووصله وأهدى إليه . وكان المتنبي خليقاً أن يمدحه رعايةً لما كان بينهما من عهد قديم ، ووفاء بحق هذه الهدايا والصلات . ولكن المتنبي لم يصنع من ذلك شيئا ؛ لأنه دخل ملك الإخشيديين . على أن يكون شاعر كافور لا شاعر غيره من الحكام والأمراء .

ومن أجل هذا نفهم إعراض المتنبي ، بعد أن وصل إلى مصر ، عن مدح من كان فيها من السادة والقادة ، ومن الأمراء والوزراء ، ووقف شعره كله أول الأمر على كافور حتى استيأس منه ، لم يمدح إلا فاتكا ، ولم يمدحه إلا بقصيدة واحدة ، ولم ينشئ هذه القصيدة إلا بعد أن أذن له بذلك كافور .

إذن فكل هذه القصة التى صيغت حول حيرة المتنبي واضطرابه وتردده وسوء حاله فى دمشق ثم فى الرملة ، ليست شيئا ، وإنما هى حديث لعل المتنبي نفسه هو الذى تعزَّى به عما لقى فى مصر من خيبة وإخفاق .

٢

وقد انتهى المتنبي إلى مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة بعد أن فارق سيف الدولة بأشهر . ولعل من الحق أن نلاحظ أنه فارق شخص سيف الدولة ولم يفارق ذكره ، بل لم يستطع أن يفارق ذكره إلى أن مات .

ولم يكن من اليسير أن تمحى صورة سيف الدولة من نفس المتنبي كما محيت منها صور الأمراء والسادة الذين اتصل بهم قبله ؛ فقد لقى المتنبي عند سيف الدولة خير ما لقى فى حياته كلها ، لا من جهة الثروة والغنى وخفض العيش ولين الحياة ، فقد كان ذلك شيئاً يسيراً ، يستطيع كافور أن يدره على المتنبي وأن يدر على المتنبي أكثر منه ؛ لأن ملك كافور كان أوسع وأثرى من ملك الحمدانى ، بل لأن سيف الدولة وحياة المتنبي معه كانتا مخالفتين من جميع الوجوه لحياة كافور ولحياة المتنبي مع كافور . وكانت حياة سيف الدولة حياة بطولة كلها ، تملؤها الحرب فى أكثر أوقاتها ، ويتحدث بها الناس فى جميع الأقطار الإسلامية وفى كثير من الأقطار البيزنطية أيضاً . وكان المتنبي يشارك سيف الدولة فى هذه الحياة وفيما كان يملؤها من بطولة . كان يشاركه فى ذلك مشاركة عملية ؛ فكان يغزو الروم معه إذا غزاهم ، وكان يستمتع بالنصر إذا أتيح النصر للأمير ، ويشقى بالهزيمة إذا كتبت عليه الهزيمة . وكان كذلك يشارك الأمير فى جهاده للثائرين به والخارجين عليه من أهل البادية ؛ فكان يبلو ألوان الحرب المنظمة وغير المنظمة ، وكان يحس لذاتها وآلامها المادية والمعنوية . وكان بعد هذا كله يتغنَّى هذه الحرب ، ويعلن مجدها الضخم إلى المسلمين وغير المسلمين : كان اللسان الرسمى لهذا الجهاد العظيم ، وكان فى الوقت نفسه اللسان الصادق لما يثور فى قلبه هو من عاطفة أو هوى أو شعور .

كانت حياته عند سيف الدولة إذن مملوءة بالنشاط الخصب الذى شغله عن نفسه وشغله بها فى وقت واحد؛ فقد كان المتنبى فى حاجة إلى أن يُشغَلَ عن نفسه و إلى أن يشغل بها. كان أبغض شىء إليه وأثقل شىء عليه وأقتل شىء له أن تضطره البطالة والخمود إلى أن يفرغ لنفسه فينظر فيها و ينظار إليها فى كل وقت. ولم يكن له بد من الحركة العنيفة المتصلة، ومن النشاط القوى المستمر. وحاجته هذه إلى الحركة والنشاط هى التى دفعته إلى ثورة الشباب. وضيقه بالبطالة والخمود هو الذى بغّض إليه الحياة والأحياء فى أيام محنته.

ثم كان المتنبى فى حاجة شديدة إلى أن يعود إلى نفسه بين حين وحين، فينظر إليها و ينظر فيها، فتسره ولا تسوءه، يسألها عما عملت فتجيبه بما يحمد و يرضى. فإذا شُغِل عن نفسه ثم عاد إليها ألهمته، و إذا هو شاعر فحل يتغنى نشاطه ونشاط الناس، ويُشيد بمجده ومجد الناس، و ينشد هذا الشعر الذى لا يلبث أن يشيع ويذيع و يملأ الآفاق والأقطار.

أما حياة كافور حين اتصل به المتنبى، بل قبل أن يتصل به المتنبى، فقد كانت حياة أمن وسلم، ودعة وهدوء. ليست حدوده مجاورة لحدود الروم، فيتكلف مثل ما كان سيف الدولة يتكلف من الهجوم والدفاع، ولا هى مجاورة لحدود العراق، فيخاف مثل ما كان سيف الدولة يخاف من الدس والكيد. ومن الحق أن الفاطميين كانوا يثيرون فى نفسه شيئا من القلق، ولكنه كان قلقاً يسيراً لا يؤرّق الليل ولا ينغّص النهار. والبلاد التى كان يحكمها كافور بلاد متحضرة منظمة، قد ألف أهلها الحضارة والنظام المدنى منذ عهد بعيد جدا، وقد انكسرت شوكة الذين ارتحلوا إليها واستقروا فيها من البدو منذ عهد بعيد؛ فهى قليلة الحظ من الثورة والاضطراب، قد فرغت لنفسها وظفرت باستقلالها، وفرغ الناس أو كادوا يفرغون من الطمع فيها والطموح إليها، إلا ما كان من الفاطميين الذين كان أمرهم لا يزال بعيدا كما قلنا من أن يثير القلق والخوف.

وقد تجاوز سلطان هـذه البلاد حدودها الطبيعية ؛ فهى متسلطة على فلسطين كلها ، وقسم لا بأس به من الشام ، وعلى أقطار واسعة وراء البحر الأحمر، وحدودها بعيدة آمنة من جهة الجنوب . و إذن ففى وسعها أن تنعم بالأمن والدعة ، وتفرغ لاستثمار أرضها الخصبة ، ولا سيما إذا ضُبِط فيها الأمر ، وحسنت فيها الإدارة ، ولم يكثر فيها الجور ، ولم يشع بين أهلها الفساد .

و يظهر أن أمور مصر كانت صالحة مطمئنة حقا فى ذلك الوقت ؛ فـكان أولياء الأمر فيها هادئين مطمئنين، يدبرون الملك أحسن تدبير ، و ينعمون بثمراته فى غير خوف ولا قلق . فأين هـذه الحياة الهادئة الوادعة المطمئنة من تلك الحياة القلقة المضطربة الخائفة ؟ وأين سكون كافور من قلق سيف الدولة ؟ و إذن فلن تكون حياة المتنبى عند كافور مملوءة بالحركة والنشاط ، كما كانت فى شمال الشام . و إذن فلن يُشغَل المتنبى عن نفسه ، ولـكنه سيشغل بها دائماً . و إذن فهو يفقد عند كافور أحد المؤثرين الأساسيين فى شاعريته ، هو يفقد نصف نفسه ، إن صح هـذا التعبير . و إذن فهو مضطر إلى أن يفكر فى نفسه دائماً ، و إلى أن ينظر فلا يرى غيرها . وهو يستحضر ماضيه فيرى آمالا خابت ، وأحلاماً ذهبت ، ونعيما زال ، وحسرات لاتزال لاذعة . ثم يحاول أن يفكر فى مستقبله فلا يرى أو لا يكاد يرى شعاعاً من أمل ولا بصيصاً من رجاء .

ماض كله خيبة و إخفاق حتى فى أحسن أوقاته ، ومستقبل مظلم ، وحاضر قلق لا ترضى به النفس ولا تطمئن إليه . فلا غرابة فى أن تسوء حياة الشاعر . ولا غرابة فى أن يسبغ الحزن واليأس على شعره رداء قاتماً لا يكاد يظهر فيه الإشراق والابتهاج .

٣

وقضية المتنبي مع كافور يسيرة جدًّا بالقياس إلينا ، و إن ظهرت للشاعر ولمعاصريه عسيرة معقدة . فهى تنحل فى حقيقة الأمر إلى أن المتنبي أحس القلق والضيق عند سيف الدولة ، فعرّض بالتحول عنه إلى مصر . وطمع المصريون فى تحويله إليهم ليضعفوا خصمهم ، وليستأثروا من دونه بسلاح من أمضى أسلحته ، وهو سلاح الدعوة والإذاعة ؛ فأغروا الشاعر وأطمعوه . ولم يفهم الشاعر هـذا الإطماع وذلك الإغراء على وجههما ، وإنما خدعه الغرور ، فظن أن القوم يصدُقونه ولا يكذِبونه ، وأنهم يريدون به الخير ، ولا يريدون أن ينتزعوه من يد مولاه الحمدانى . فاستجاب لهم ، وأسرع إليهم ، وانتظر تحقيق الوعد ، وتصديق الرجاء ، فلم يجد إلا سراباً لا يروى من ظمأ ولا يشفى من أوام .

أيهما المخطىء فى هذه القضية : أهو كافور الذى سار سيرة السياسى اللبق فاجتهد لنفسه ، واحتاط للملك ، وخذّل عن عدوه ، واصطنع فى ذلك ما يصطنعه الساسة المكرة من وعود لا تفرض على أصحابها الوفاء ، وأقوال لا تأخذ أصحابها بالصدق ؟ أم هو المتنبي الذى أسرف فى الاعتداد بنفسه ، وغلا فى حسن الظن بها و بالناس ، فلم يتدبر أمره ولم يحتط لنفسه ، و إنما اندفع فى غير روية ولا أناة ؟ إن الذين يقرءون شعر المتنبي ، وهـذه الحكم البالغة ، والأمثال السائرة التى يرسلها إرسالا و يكيلها كيلا ، يُخدَعون عن الشاعر ، فيظنون به الفطنة والحكمة والذكاء .. ولكن الذين يتدبرون سيرته ، و يقرءون فخره ومدحه وهجاءه ، يعرفون طبيعة الشاعر و يردّونه إلى مكانه الحقيقى من خصال الرجل الذكى اللبق . فقد كان المتنبي مغروراً من غير شك ، وكان مسرفاً فى الغرور ، وكان مكبراً لنفسه كل الإكبار . ولكن الشر كل الشر

أنه كان يظن من حين إلى حين أن الناس يرون فيه ما كان يرى فى نفسه، ويكبرونه كما كان يكبر نفسه ، ويعتدّون به كما كان يعتد بنفسه . وإلا فكيف نفهم أن ينفق المتنبي تسعة أعوام يمدح فيها الأمير الحمدانى ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق ، ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يَعِدونه ، صادقين ويبذلون له الآمال والأمانى وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء له والاطمئنان إليه ؟ مهما يكن من شيء فقد انخدع المتنبي لكافور ، وأقبل مستسلماً له ، متهالكاً عليه ، واثقاً به ، يظن أنه سيجد عنده من الرفعة ونباهة الشأن ما يغيظ به سيف الدولة الذى لم يعرف قدره ، ولم يرع حقه ، ولم يعص فيه الوشاة والكائدين .

وأنت تعلم أن المتنبي نشأ طامعاً فى الحكم ، طامحاً إليه ، مجاهداً فى سبيله ، وأنه احتمل فى ذلك ألواناً من الأذى ، وذاق فيه فنوناً من العذاب . فهذه الوعود تخيّل إليه أن الحكم منه قريب ، وأن السلطان يسعى إليه سعياً ويخطو إليه خطوات واسعة . فما له هو لا يسعى إلى هذا السلطان الذى يسعى إليه ، ولا يخطو إلى هذا السلطان خطوات واسعة كالتى يخطوها إليه ! لقد وعده المصريون بأنه سيتولى الحكم فى ولاية من الولايات أو إقليم من الأقاليم . هو إذن سيرتفع عن هذه المكانة التى كان يحرص عليها عند سيف الدولة . لن يكون شاعراً مأجوراً عند كافور كما كان شاعراً مأجوراً عند سيف الدولة ، بل سيكون والياً من الولاة وأميراً من الأمراء . سيجمع بين إمارة الشعر وإمارة الحكم . ستشهد له الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم . فما له لا يسرع إلى هذه الأمنية التى تريد أن تتحقق بعد أن استيأس منها وتعزّى عنها !

نعم ! إنه كان فى صباه وشبابه لا يطلب الحكم والسلطان لنفسهما ، ولا يراهما غاية لما كان يلقى من مشقة ويحتمل من عناء ، وإنما كان يراهما وسيلة إلى إصلاح النظام السياسى والاجتماعى ، ورد الأمن والعدل والعافية إلى الناس . وهو الآن يكتفى من الحكم بالحكم ، ومن السلطان بالسلطان، يراهما الغاية كل الغاية ، والأمل كل الأمل،

لا يفكر فى إصلاح النظام السياسى والاجتماعى ؛ لأن أحداً من الذين ثاروا لإصلاح هذا النظام لم يحاول إصلاحه ، ولأن الناس الذين يكرهون هـذا النظام ويشكون منه ويريدون تغييره ، لا يغيرونه ولا يعينون أحداً على هذا التغيير ، ولأن الناس الذين يتحرقون شوقاً إلى الأمن والعدل والعافية لا يكرهون أن يعيشوا فى ظل الخوف والجور والخطر . فهو لا يريد أن يصلح أمور الناس برغم أنوفهم ، وحسبه أن يصلح أمر نفسه . وأى إصلاح لأمر نفسه أكثر من أن يتولى الحكم وينهض بأعباء السلطان ، ويصبح رجلا يأمر فيطاع ، وينهى فيستمع له ! ومن يدرى ! لعل الشعراء يمدحونه بمثل ما يمدح به هو سيف الدولة أو غير سيف الدولة من الأمراء والولاة .

ومن الحق أنه كان فى شبابه شديد الضيق بهؤلاء العبيد الذين يُمَلَّكون على الأحرار ، وبهؤلاء العجم الذين يقضون فى أمور العرب ، وأنه كان يريد أن يثور ليرد إلى الأحرار حريتهم ، ويديل للعرب من العجم ، ويعيد هؤلاء الأرقاء الذين يستخشنون الخزّ حين يلبسونه ، وكانت تبرى بأظفارهم الأقلام ، إلى حالهم الأولى التى كانوا عليها قبل أن تدور الدنيا إلى الشمال ، بعد أن كانت تدور إلى اليمين .

كان يريد هذا كله ، وكان يحرص عليه كل الحرص ، وقد جاهد فى سبيله ، وذاق ذل الأسر وهوان السجن ، ولكنه أخفق واستيأس . ثم عاد إليه شىء من الأمل وحظ من الرجاء حين اتصل بهذا الأمير العربى الذى أحيا ما كان للعرب من مجد وبأس ، ولكنه نظر فإذا هذا الأمير نفسه لا يقدره ولا يسمع له ، وإنما يطيع فيه الوشاة والكائدين . فليدع الأحرار فى رق العبيد ما داموا يرضون لأنفسهم هذا الرق . وليدع العرب فى ظل العجم ماداموا ينعمون بالحياة فى هذا الظل . بل ليتجاوز هذا الطور من اليأس المتكبر والإعراض المستعلى ، وليصبح رجلا كغيره من معاصريه ، وليبع نفسه لعبد من هؤلاء العبيد ، وأعجمى من هؤلاء الأعاجم ، مادام هذا قد يجعله أميراً على بعض الولايات أو حاكما لبعض الأقاليم .

إلى هذا الحال انتهى المتنبى حين فارق سيف الدولة وألقى بنفسه بين يدى سيده

الجديد كافور . جحد ماضيه كله ، ورفض آراءه كلها ، ونزل حتى عما كان خليقاً أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء . ولا تقل إنه كان محتاجاً إلى هذه الذلة ، مضطرا إلى هذا الهوان ، عاجزاً عن أن يحيا حياة كريمة مستقلة خالصة للفن . فلم يكن المتنبي في ذلك الوقت بائساً ولا فقيراً ، بل كان بعيداً كل البعد عن البؤس والفقر : أخذ من سيف الدولة مالاً كثيراً جدًّا ، ولم يسرف في هـذا المال ، بل أسرف في حسن تدبيره وشدة القيام عليه حتى انتهى إلى البخل القبيح . وخرج من ملك الحمداني يسوق بين يديه مالا ضخما ، ويحيط به عدد ضخم من الرقيق . فلو شاء أن يعيش حرًّا كريماً مستقلا لما وجد في ذلك مشقة ولا جهداً . وقد يقال : إن حياة الشعراء في ذلك العصر لم تكن تسمح لهم بهذا اللون من الحياة . وقد يقال أيضاً : إن شاعرنا لم يكن يستطيع أن يُعرض عن مدح الأمراء والملوك ، ولو حاول ذلك لعرّضوه للأذى ، ولأكرهوه عليه إكراها .

قد يقال هذا كله ، ولكنه لا يغني عن المتنبي شيئاً ، ولا يزيد على أن يؤكد ما نذهب إليه من أن المتنبي إنما كان شاعراً كغيره من الشعراء ، ورجلا كغيره من الناس . قد رفع نفسه فوق قدرها ، وزعم لها ما ليس من أخلاقها ، وطمع فيما لا ينبغي لمثله أن يطمع فيه . ظن نفسه حرًّا ، ولم يكن إلا عبداً للمال . وظن نفسه أبيًّا ، ولم يكن إلا ذليلا للسلطان . وظن نفسه صاحب رأي ومذهب ، ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمراً وأهونهم شأناً .

وقد جاء بعد المتنبي رجل آخر رفع نفسه عن الدنيا وعن شهواتها ولذاتها ومنافعها العاجلة ، واحتقر الناس وازدراهم ، وأنكر الملوك والأمراء ، وزهد في التقرب إليهم والدنوّ منهم ، وأراد لنفسه أن تكون نفس الرجل الحر الكريم ، ولعقله أن يكون عقل الرجل الحكيم الفيلسوف ، فوفى لنفسه وعقله بكل ما أراد ، ولم يكن أقل شاعرية من المتنبي ، ولم تسعده الأيام كما أسعدت المتنبي ، فقد حرمته بصره ، ولم تتح له من الغنى والثروة ما يكفل له لين الحياة وخفض العيش . ومع ذلك عاش كريماً ، ومات

كريماً ، ولم يتعلق عليه أحد بذلة ، ولم يغتمز فيه أحد هفوة ، سخر من الزمان ولم يسخر منه الزمان، واستطال على السلطان وعجز السلطان عن أن يستطيل عليه ، وعاد من بغداد يشترط على أهل قريته أن يُخلوا بينه و بين حريته ، وألا يشركوه فيما يعرض لهم من خير ولا شر ، وألا يخرجوه معهم إن خرجوا من المدينة فارِّين أمام الروم ، وأن يقيموا فى المدينة إن أمنوا ، ويظعنوا عنها إن خافوا ، ويتركوه فيها على كل حال ؛ لأنه رفع نفسه فوق الأمن والخوف جميعاً . وما أرى إلا أنك قد عرفت هذا الرجل الذى أتحدث عنه ، وهو أبو العلاء .

فالفرق إذن بين هذين الرجلين ، هو الفرق بين الفيلسوف والرجل من سائر الناس . والذى أريد أن أصل إليه من هذا الحديث الطويل هو أن المتنبى قد ظن بنفسه غير ما كانت عليه . وما أكثر ما يُخْدَع الناس عن أنفسهم ! ولكن الغريب أن المتنبى لم يخدع نفسه وحدها ، وإنما خدع معها كثيراً جدا من الناس ، فظنوا به الفلسفة ، وليس هو من الفلسفة فى شىء ، وظنوا به الحرية والكرامة وإباء الضيم ، وليس هو من هذا كله فى شىء ، إنما هو رجل من أهل زمانه لم يمتز منهم بأخلاقه ، وإنما امتاز منهم بلسانه ، كما كان يمتاز غيره من الكتاب والشعراء .

أقبل المتنبى إذن على كافور وضيعاً ذليلا ،قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس. وقد رأينا فى بعض ما سبق من هذا الحديث أن المتنبى لم يصف أحداً كما وصف نفسه حين قال :

وإذا ما خَلاَ الجبانُ بأرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْـدَهُ والنِّزالا

فلنلاحظ الآن أنه لم يصف أحداً كما وصف نفسه حين قال أيضاً :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُـل الهوَانُ عليهِ ما لِجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ

فقد ماتت نفس المتنبي أو كادت تموت حين فارق سيف الدولة هاربا من الكيد ومكر الحاشية ، وباع كرامته وصداقته من كافور بثمن بخس هو أن يكون والياً فى ظل عبد :

يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْمِسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِه الْقَلَمُ

كما كان يقول فى شبابه ، وفى ظل من سيقول عنه فى آخر أيامه :

وأَسْوَدُ مِشْفَرُه نِصْفُهُ يُقَالُ لهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجى

ماتت نفسه أو كادت تموت ، ولم يبق منها إلا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقى منها ، إنما كان شر أجزاء نفسه وأهونها على الناس حين يلتمسون الخُلق والفلسفة ، وكان خير أجزاء نفسه وأكرمها على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء .

بهذا الرمق الذليل الخصب المهين القوى ، أقبل المتنبى على كافور ، فمدحه وتملقه ، ورغب إليه وطمع فيه . ومن هذا الرمق نفسه انصرف المتنبى عن كافور راغبا عنه زاهدا فيه ، هاجيا له ، كافراً بأنعمه ، مُشِيعاً فيه الفحشاء ، مذيعاً فيه كلمة السوء . وذنب كافور أنه عرف المتنبى كما كان ينبغى أن يعرف ، ووضعه فى الموضع الذى كان ينبغى أن يوضع فيه . رآه شاعراً يبيع المدح والثناء بالدراهم والدنانير ، فاشترى منه المدح والثناء بالدراهم والدنانير . ورآه أحمق يجهل قدر نفسه ، فجاراه فى هذا الحمق ليصرفه عن خصمه ، وليحمله على أن يكذّب نفسه وينكر ما كان قد قال فيه ، ويمدحه بعد أن كان قد ذمه . ووفِّق كافور لكل ما أراد . فذنب كافور إذن أنه كان عاقلا فطنا لبيبا ، لم يخدعه المتنبى . وما كان للمتنبى ولا لأبرع منه أن يخدع هذا الأسود الدميم الذى استطاع أن يتجاوز قدره ، وأن يفرض نفسه على الدولة الإسلامية كلها ، وأن يقتطع أحسن أجزائها ، فيستأثر فيه بالملك والسلطان . نعم ! ذنب كافور أنه كان عاقلا فطنا ، وأنه كان يحسن العلم بالناس ، ويضع الأمور فى مواضعها .

ولكن لا بأس على المتنبى من هذا التلون والاضطراب ؛ فنحن قد ربحنا من هذا التلون والاضطراب شيئا كثيرا : ربحنا هذا الشعر الذى حفظه لنا ديوان المتنبى بما فيه من مدح وهجاء ، ومن حزن وغناء ؛ فهو ، سواء ألاءم الحق أم لم يلائمه ، أعذب شعر المتنبى وأرقُّه ، وأصفاه وأصدقه تصويراً للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هذا الشاعر البائس الحزين .

٤

ولم تكن البيئة المصرية أقل من البيئة الحلبية خصبا ولا نشاطا ، ولا ثروة من العلم والفلسفة والأدب ، حين وفد المتنبي على الفسطاط . بل قد يكون من الخطأ أن نسوى بين البيئتين فى ذلك ؛ فقد كانت البيئة المصرية قديمة العهد بالحياة العقلية على اختلاف ألوانها ، أقدم عهدا بها من دار الخلافة نفسها . والناس جميعاً يعلمون أن علوم الدين وفنون الأدب ازدهرت فى الفسطاط قبل وجود بغداد .

ازدهرت فيها منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، ثم سلكت سبيلها إلى الرقى هادئة مطمئنة طوال القرن الثانى والثالث لم تضعف ولم تفتر ، ولم يدركها الجمود . ولعلها كانت تقوى حتى تتجاوز المألوف من النشاط أحيانا فى بعض فروع العلم أو فى بعض فروع الفن ، كالذى كان حين وفد الشافعى على مصر ، وأنشأ بها مدرسته آخر القرن الثانى وأول القرن الثالث ؛ فقد كان لهذا الحادث أثر عظيم فى تنشيط الحياة العقلية فى مصر . وكالذى كان حين اشتغل ابن طولون بأمر مصر ، فدفع الحضارة دفعة قوية نشط لها الشعر والنثر ، ونشط لها الفن أيضا .

وقد أتاح الإخشيديون لهذه الحياة العقلية ، التى كانت ترقى فى هدوء وتنشط فى اطراد ، ما مكّنها من المضى فى طريقها إلى القوة والرقى والتزيد من العمق والاتساع . ولست أزعم أن الفسطاط قد سبقت بغداد أو بلغت منزلتها فى ذلك العصر ، ولكنها كانت على كل حال قريبة من بغداد ومتجاوزة للحظ الذى انتهت إليه حلب من النهضة أيام سيف الدولة . وقد كان العلماء يَنْشَئون فى مصر ، وكان العلماء يفدون عليها من الأقطار الإسلامية فيعلّمون فيها ويتعلمون . ولم يكن هنالك فرع من فروع العلم والفن والفلسفة يزدهر فى بغداد إلا وله حظ من الازدهار فى مدارس الفسطاط ومساجدها ، وأندية السادة والقادة من أهلها .

وقد يكون هناك فرق بين الحضارة التي كانت تزدهر في ظل الإخشيديين والتي كانت تزدهر في ظل الحمدانيين . وهو أن الحضارة الحمدانية كانت جديدة طارئة ، فكانت محدثة تعلن عن نفسها فتسرف في الإعلان ، على حين أن الحضارة المصرية كانت تليدة مستقرة مؤثلة المجد ؛ فلم تكن تحفل بنشر الدعوة ، ولم ترغب في الإعلان .

و بعيد عن بالي كل البعد أن أفكر في الحضارة المصرية القديمة التي ازدهرت أيام الرومان واليونان ، وإنما أفكر في الحضارة الإسلامية العربية وأتحدث عنها ؛ فقد كانت الفسطاط مصراً من أمصار المسلمين ، له ما لأكثرها من الحظ في الأخذ بأسباب الأدب والعلم والفن . فلما أنشئت بغداد جذبت إليها معظم القوة العقلية التي كانت شائعة في الأمصار ، ولكنها لم تقتل الفسطاط كما لم تقتل البصرة والكوفة .

ولم تعرف الفسطاط منذ آخر القرن الأول عصراً غلب فيه الجهل وضعفت فيه الثقافة وانقطعت فيه المشاركة في هذا البناء العقلي الإسلامي العظيم ، على حين نرى أن المتنبي نفسه قد شهد شمال الشام وهو في حالة من الضعف والاضطراب وفتور النشاط العقلي ، ظهرت آثارها واضحة قوية في شعره أثناء الصبا والشباب .

وفرق آخر يمكن أن يلاحظ بين الحضارة التي لقيها المتنبي في مصر ، والتي تركها في حلب . وهو أن الحضارة المصرية كما كانت بعيدة العهد بالوجود في الماضي ، فقد اتصلت في المستقبل ، لم يضعفها زوال ملك الإخشيديين ، وإنما أتاح لها ملك الفاطميين فرصة مكنتها من منافسة بغداد والتفوق عليها ، على حين لم يكد سلطان الحمدانيين يضعف حتى ذوت أزهار الحضارة الحلبية ، وأسرع شمال الشام ، فعاد أو كاد يعود إلى الحال التي كان عليها حين زاره المتنبي في أوائل القرن الرابع . ومعنى هذا كله أن الحضارة المصرية لم تكن عارضة ولا طارئة ، لم يذك جذوتها قائد أو أمير ، فتخمد بزوال ملكه وانقضاء سلطانه ، وإنما أذكت جذوتها طبيعة مصر الخالدة

الهادئة، التى لا تحب الجعجعة ، ولا تتهالك على الفخر بما قد يعرض لها من لين الحياة .

هذه الحضارة المصرية لقيها المتنبى فى الفسطاط ، ولقيها متنوعة مختلفة ، ولقيها أشد عمقاً وتفاوتاً مما رأى فى حلب . فقد كان النشاط فى حلب محصوراً أو كالمحصور فى المتصلين بسيف الدولة ؛ لأن سيف الدولة هو الذى أنشأه ودعاه واشتراه بالمال . أما فى مصر فقد كان النشاط مفرّقاً فى غير مجلس : كان فى مجلس كافور ، وكان فى مجلس وزرائه وقادته ، وكان فى المساجد العامة وفى المدارس الخاصة . بل لم يكن فى الفسطاط وحدها ، وإنما كان فيها وفى غيرها من المدن الكبرى ، فى مصر العليا وفى مصر السفلى أيضاً .

ولم يكن بدّ للمتنبى من أن يحسب حساب هذا النشاط . ومن أن يقدِّر أن شعره سيُلْقَى فى الفسطاط بمثل ما كان يلقى به فى حلب من النقد والدرس والتحليل ، على أقل تقدير . وقد ظهر أثر هذا فى شعر المتنبى الذى قاله فى مصر ؛ فقد ظل الشاعر ملاحظاً نفسه ، مراقباً فنه ، لا يُظهر الشعر ولا ينشده إلا بعد الامتحان والابتلاء والتمحيص . ولست أغلو إن قلت : إن شعر المتنبى فى مصر أقل سَقَطاً من شعره فى حلب ؛ لأن المتنبى فيما يظهر كان يقدِّر العلماء والمثقفين المصريين أكثر مما كان يقدر العلماء والمثقفين الذين كان يلقاهم فى قصر الحمدانيين .

وثمّ سبب آخر لا بد من الإلمام به والإشارة إليه ؛ فأكثر ما يضعف شعر المتنبى فى حلب حين يقول الشعر فى المناسبات المختلفة مرتجلا حيناً ، وطائعاً للأمر حيناً آخر ، ومتكلفاً ليثبُت أمام منافسيه مرة ثالثة . أما فى مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد فى الديوان . ولم يحتج الشاعر إلى الارتجال ؛ لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك ؛ فلم يَصْفُ كافور للمتنبى ، ولا صفا المتنبى لكافور ، ولا كان بينهما من هذه المودة الخالصة المتصلة ما يدعو إلى ارتجال الشعر فى الموضوعات التافهة المتنوعة ، إلا أن يكون المتنبى قد جحد ذلك فيما بعدُ جحوداً ، ومحاه من ديوانه وذاكرته محواً ، ولم يرد أن يُبْقِى من هذا الشعر ما يصور نفسه

عارية أمام كافور ، كما أبقى منه ما صورها عارية أمام بدر والحسن بن عبد الله بن طغج وأبى العشائر وسيف الدولة .

ومهما يكن من شىء ، فشعر المتنبى الذى قاله فى مصر أو الذى ألهمته إياه مصر مختار كله ، برئ من السخف واللغو أو كاد .

٥

ونلاحظ هنا ظاهرة قد كنا نستطيع أن نلاحظها فى حلب أو فى غيرها من البلاد التى أقام فيها المتنبى ، لا نكاد نستثنى منها إلا الشىء القليل . نلاحظ أن البيئة الطبيعية لم تكن تؤثر فى نفس المتنبى كثيراً ؛ فقد كان يمر بالمدن والقرى ، و يعيش فيها دون أن يراها أو دون أن يظهر فى شعره أنه رآها أو أنها أثرت فى نفسه تأثيراً قويا أو ضعيفاً . ولولا أنه وصف بحيرة طبرية حين مدح علىّ بن إبراهيم التنوخى ، وألمّ إلماماً يسيراً بوصف لبنان حين مدح الأوراجى ، ووصف وادى بوّان حين مدح عضد الدولة ، وسمى طائفة من المدن والقرى والجبال تسمية — لولا هذا لقلنا : إن المتنبى قد مر بالدنيا ولم يرها . ولكننا نستطيع الآن أن نقول : إنه مر بالدنيا ورآها ، ولكنه لم يحفل بها . نستغفر الله ، بل لم يحفل بمظاهر الطبيعة فيها ؛ لأنه كان مشغولا عن الطبيعة بنفسه و بالناس . وهو كان يرفع بصره إلى السماء أحياناً إذا جنه الليل وأرّقه الحزن واليأس ، فيرى النجوم . ور بما وصف النجوم فأحسن الوصف ، ور بما صور الليل فأحسن التصوير ، ور بما أبدع فى وصف وادى بوان ، ور بما راع فى وصف بحيرة طبرية ، ولكنه فى هذا كله لم يكن يقصد إلى الوصف من حيث هو فن يُطْلَب لنفسه ، ويُتَّخَذ إلى الجمال الخالص ، و إنما كان يتخذ الوصف وسيلة إلى ما يثور فى نفسه من العواطف والأهواء .

فالطبيعة عنده ليست شيئاً ذا خطر ، و إنما الأمر الخطير حقا عند المتنبى شيئان : نفسه ليعبدها ، والناس ليبغضهم أشد البغض ، ويذمهم أقبح الذم ، ويتملق منهم أشنع التملق من يستطيع أن ينفعه بالجاه أو بالمال .

ومن هنا نفهم أن يزور المتنبى مصر ويقيم فيها أعواماً متصلة ، ثم لا يظهر للطبيعة

المصرية أثر يذكر فى شعره . فهو يسمى المقطّم فى مدحه لكافور ، وهو يسمى الأهرام فى رثائه لأبى شجاع ، وهو يذكر النواطير فى هجائه لكافور ، وهو يذكر السواقى فى مدحه لكافور وتعريضه بسيف الدولة ، ولكنه لا يزيد على التسمية والذكر .

وقد لاحظ الأستاذ بلاشير فى شىء من الدهش أنه حين طلب إليه كافور أن يصف داراً جديدة انتقل إليها، لم يزد على أن وصف كافورا نفسه وهنأه بهذه الدار . وقد كان موقع الدار من النهر والجبل وما يحف بها من الحدائق والبساتين ، خليقاً أن يلهم الشاعر شيئاً ، ولكن الشاعر لم ير إلا كافورا الذى يستطيع أن يمنح المال والولاية ، و إلا نفسه التى تتحرق جشعاً إلى المال وطمعاً فى الولاية . وليس فى شىء من هذا ما يدعو إلى الدهش ؛ فقد كان المتنبى كما قلنا لا يرى إلا نفسه والناس الذين يرغب إليهم أو يرغب عنهم . وهو لم يعرض عن طبيعة مصر وحدها ، و إنما أعرض عن طبيعة غيرها من البلاد ، إلا هذه الأماكن القليلة التى استثنيناها .

وأغرب من هذا كله أن المتنبى كان بدوى الطبع ، كثير الإقامة فى البادية ، كثير الاضطراب فى الصحراء ؛ فكان خليقاً أن يصور لنا بعض التصوير طبيعة البادية والصحراء . ولكنه لم يصنع من ذلك شيئاً ، وقد احتاج إلى أن يسلك سبيل الفحول من قبله ، فيصف الإبل والطرق والأسفار ، وما تكلّف من جهد وما تحمّل من عناء . ولكنه استعار هذا كله أو أكثره من الذين سبقوه ، ولم يضف أو لم يكد يضيف إليه شيئاً جديداً . وليس لذلك فيما أعتقد إلا سبب واحد ، وهو أنه كان يقطع الصحراء و يضطرب فى البادية ، ولا يرى فى هذه ولا فى تلك إلا نفسه و إلا عدوًّا يرهبه ، أو صديقاً يرغب إليه .

وليس أدل على ذلك من هذا الشعر الذى قاله حين هرب من مصر ، فوصف الطريق التى سلكها من الفسطاط إلى الكوفة ؛ فإنك لا تجد فى هذا الشعر الجميل الرائع من هذه الطريق الطويلة الشاقة التى كانت خليقة أن تُلهمه أبرع الشعر

وأروعه إلا تسمية للأماكن التي مرّ بها أو نزل فيها ؛ كأنه جغرافي يصف طريقاً من الطرق . نستغفر الله ! بل يسمى مواضع بعينها من هذه الطريق .

والمتنبي لم يهمل الطبيعة المصرية وحدها ، وإنما أهمل الحضارة المصرية أيضاً . فنحن نعرف أنه زار الفسطاط ، ولكننا نعرف هذا من التاريخ ومن هذه الأسطر التي يقدّم بها الديوان بين يدي القصائد التي يتألف منها شعره المصري . فأما الحياة في مدينة الفسطاط ، فأما ما كان يقوم فيها من العمارات ، فأما ما كان يملؤها من النشاط على اختلاف ألوانه ومظاهره ، فليس له في شعر المتنبي أثر ولا ظل . وما ينبغي أن ننكر ذلك أو نضيق به ؛ فلم يكن حظ حلب أو دمشق أو الرملة أو الكوفة أو أرّجان أو شيراز أو بغداد من شعره خيراً من حظ الفسطاط .

قلت لك : إنه كان يمر بالمدن والقرى ، ولا يكاد يراها . بل أغرب من هذا كله أنه خرج ذات ليلة من قصر سيف الدولة ، فصادف نهر قُوَيْق ، وقد مد وطغى على شاطئيه ، فقال في ذلك رجزاً ، ولكنك تقرأ هذا الرجز فلا ترى فيه النهر ولا ماءه ، وإنما ترى فيه سيف الدولة ؛ لأنه اتخذ هذا المظهر الشعري الذي كان خليقاً أن يلهم شعراً جميلا وسيلةً إلى مدح سيف الدولة ووصفه بالكرم والجود ؛ كدأبه حين كان يرى السحاب متكاثفاً أو يرى المطر منهمراً ، فلا يفتح الله عليه إلا باتخاذ السحاب والمطر وسيلة إلى تملق من كان في حاجة إلى أن يتملقه من الناس .

٦

وشعر المتنبي في كافور قليل بالقياس إلى شعره في سيف الدولة ، ولكنه مختلف متنوع، لا بأس بالوقوف القصير عند أنواعه وفنونه ؛ لأنها تصور لنا براعة الشاعر في معالجة هذه الفنون على تباين ما كان عليه من الأحوال . فهو قد مدح كافورا وطمع فيه واستنجزه وعده . وهو قد تغنّي حزنه ويأسه ، وخوفه وإشفاقه . وهو قد عرّض بسيف الدولة وعاتبه حتى انتهى أحياناً إلى الذم . وهو قد ألمّ ببعض وجوه السياسة الداخلية المصرية . ثم هو قد هجا كافورا فأسرف في هجائه . وهو بعد هذا كله قد مدح أبا شجاع فاتكاً ثم رثاه .

وإذن ففنون الشعر التي طرقها في مصر ، ليست أقل من فنون الشعر التي طرقها في حلب ، لم يُهمل إلا فنًّا واحداً هو خير ما أحسن من فنون الشعر ، وهو تصوير الجهاد بين المسلمين والروم . فهل كانت طريقته في معالجة الفنون التي ألم بها في مصر كطريقته في معالجة هذه الفنون نفسها حين ألم بها في شمال الشام ؟ لا ونعم .

أما لا ، فلأن عنصراً سياسيا من عناصر الإجادة الفنية عند المتنبي قد تأتّى له في شمال الشام ولم يتأتَّ له في مصر ، وهو الإعجاب الذي هو أساس الشعر والباعث له والدافع إليه . كان المتنبي معجباً بسيف الدولة ، ما إلى الشك في ذلك من سبيل . كان يريد أن يحيا في ظله ويظفر بجوائزه وينعم بنائله . هذا حق ، ولكنه قبل هذا وبعد هذا ، كان مكبراً للأمير الحمداني ، معجباً به ، مفتوناً بحسن بلائه في جهاد العدو من العرب والروم . وأحسب أنه لو لم يتصل بسيف الدولة لقال فيه الشعر وأكثر عليه الثناء . ولم يكن معجباً بكافور ولا محبًّا له ، بل هو كان يبغضه أشد البغض ، ويزدريه أشد الازدراء . أيكن مخطئا في ذلك أو مصيبا ؟ فهذا شيء

لا خطر له ، و إنما الواقع أنه كان يمقت كافورا و يزدريه . و إذن فهو عند ما كان يمدح سيف الدولة كان يصدر عن الإعجاب والرغبة ، وعند ما كان يمدح كافورا كان يصدر عن الرغبة وحدها ، وكان مضطرًا إلى أن يكظم عواطف البغض و يحمل نفسه على ما لا تريد . كان صادقاً أمام نفسه حين كان يمدح سيف الدولة ، وكان كاذبا منافقاً أمام نفسه حين كان ينشىء المدح و ينشده فى كافور . فإذا أتيحت له الإجادة فى سيف الدولة ، فليس فى ذلك غرابة ، و إذا أتيحت له الإجادة فى كافور فهذا هو الغريب حق الغريب .

وعلى عكس ذلك غضب المتنبي على سيف الدولة فعاتبه وألحّ فى عتابه ، وعرّض به وانتهى أحياناً إلى الهجاء ، ولكنه كان معجباً دائماً بسيف الدولة ؛ فلم يكن غضبه عليه إلا حزناً لفراقه ولوناً من خيبة الأمل فيه .

ثم غضب على كافور فعاتبه أول الأمر ، ثم هجاه بعد ذلك ؛ فكان مظهر الفن فى العتاب والهجاء معا كسا لمظهر الفن فى المدح . كان صادقاً أمام نفسه فى هجاء كافور فلا غرابة فى أن يجيد ، وكان كاذباً متكلفاً فى نعيه على سيف الدولة فلم يكن يبلغ منه شيئاً .

ولم تكن السياسة المصرية تهمّ المتنبي أو تعنيه ؛ لأنه لم يكن مشتركا فيها كما كان مشتركا فى السياسة الحمدانية ، ولأن هذه السياسة المصرية كانت من الهدوء والاستقرار بحيث لم يكن فيها ما يثير الشعر أو يلهم الشعراء . ولذلك قلّ شعر المتنبي السياسى عند كافور ، ولم يَقلْ منه إلا قصيدتين اثنتين سنقف عندهما بعد حين .

أما الفن الذى أجاده المتنبي و برع فيه ، أثناء إقامته فى مصر ، فهو الغناء ؛ فقد وفق المتنبي لنغمات جديدة لعله لم يوفق لمثلها فى شعره كله . ولم تكد تخلو من هذا الغناء قصيدة من قصائد المتنبي التى مدح بها كافوراً أو هجاه ، والتى مدح بها فاتكاً أو رثاه . وهو بعد هذا قد خرج عن مألوفه منذ زمن بعيد ، فاختص نفسه بشىء من الشعر لم يُشرك معها فيه أحداً بمدح أو هجاء .

وكنا نعرف ذلك من المتنبي فى صباه وشبابه ، فلما اتخذ الشعر صناعة ووسيلة إلى العيش ، أعرض عن القصائد الخالصة له ، وجعل قصيدته قسمة بينه و بين الممدوح ، له أولها وللممدوح آخرها . ولكنه حين انتهى إلى مصر وأنفق فيها شطراً من وقته ينتظر الوفاء بالوعد ، ورأى أنه لا يظفر بشيء ، وأنه لا يستطيع أن يجهر بكل ما يحس أو يعلن كل ما يجد ، تغنَّى حزنه وألمه وانتظاره وسخطه وندمه فى شعر رائع حقا .

ثم لم يكد يخرج من مصر و يستأنف حياته فى العراق وفارس حتى عاد إلى طريقته الأولى ، فجعل الشعر قسمة بينه و بين غيره من الناس .

ولم يُحدث المتنبي شيئاً ذا بال فى القصيدة التى مدح بها فاتكاً ، ولا فى المراثى التى قالها فيه ، و إنما مضى فى هذا المدح والرثاء على عادته المألوفة فى هذين الفنين ، فقلد غيره وقلد نفسه ، ولم يتجاوز ما سبق إليه من ذلك . وكل ما أحدثه أنه كان شديد الضِّغن على كافور ، فكان يعرِّض به فى رثائه أبى شجاع ؛ ولكن هذا ليس بالشيء الخطير ولا بالأمر الذى يحفل به .

فلنقف وقفات قصاراً عند نماذج من هذه الفنون التى ألمّ بها المتنبي فى مصر ؛ فهى فى حقيقة الأمر لا تحتاج إلى الوقفات الطوال ، ولكن إهمالها غير ممكن ولا ميسور .

٧

وقد مدح المتنبي كافورا بثمان قصائد ، أنشده أولاها في جمادى الثانية سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، وهي اليائية التي مطلعها :

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموتَ شَافيا وحَسْبُ المَنايا أنْ يكُنَّ أمانيا

وفي هذه السنة نفسها بنى كافور داراً ، وطلب إلى المتنبي أن يذكرها ، فأنشده همزيته التي أولها :

إنمـــا التَّهْنئاتُ للأكْفاء ولِمَنْ يَدَّنِي مِنَ البُعَدَاء

وفي هذه السنة كذلك أنشده بائيته التي أولها :

مَنِ الجَآذِرُ في زِيِّ الأعاريبِ حُمْرَ الحِلَى والمَطايا والجَلابيبِ

وفي آخر هذه السنة أنشده داليته التي أولها :

أوَدُّ منَ الأيَّامِ مالا تَوَدُّهُ وأشكُو إليها بَيْنَنَا وَهْيَ جندُهُ

فهو إذن ، كان مكثراً في مدح كافور لأول عهده به ، يريد أن يظفر بحبه أو بالمكانة عنده ، كما كان مكثراً في مدح سيف الدولة حين اتصل به سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة. ولكن سيف الدولة أرضى حبه للمال ، وأرضى إعجابه بجلائل الأعمال ، فمضى على الإكثار في مدحه . ولم يبلغ كافور من ذلك ما كان يبلغه سيف الدولة ، ففترت همة الشاعر بعض الفتور . فلما كانت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة انتقل كافور من دار إلى دار ؛ فأنشده تلك الأبيات التي أولها :

أحَقُّ دار بأنْ تُدعَى مُبارَكةً دارٌ مُبارَكةَ المَلْكِ الذى فيها

وفى هذه السنة نفسها أهدى إليه كافور فرساً ، فشكر له هديته بالميمية التى يقول فى أولها :

فِراقٌ ومَن فارَقتُ غَيرُ مُذَمَّمِ   وأَمٌّ ومنْ يَمَّمتُ خَيرُ مُيَمَّمِ

وفى شوال من هذه السنة مدحه بالبائية التى أولها :

أُغالِبُ فِيكَ الشوقَ والشَّوْقُ أغلَبُ   وأَعجَبُ مِن ذا الهَجْرِ والوَصْلُ أعجبُ

ثم أنشده فى شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة آخر مدائحه له ، وهى البائية التى أولها :

مُنًى كُنَّ لِي أنَّ البَياضَ خِضابُ   فَيخْفَى بِتَبييضِ القُرُونِ شَبابُ

ومن الخطأ أن يُظَنَّ أن المتنبي قد خص كافورا بهذه المدائح ، وإنما الصواب أنه جعلها قسمة بين ثلاثة أشخاص : الأول المتنبي نفسه ، حين كان يتغنى آلامه وأحزانه ، وحين كان يرغب إلى كافور فى تحقيق آماله ، ويستنجزه ما قدّم له من وعد . والثانى سيف الدولة حين كان يعيبه حيناً ويعاتبه حيناً آخر ، ويظهر الندم على فراقه ويعرّض بالعودة إليه مرة ثالثة . والشخص الثالث والأخير هو كافور .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندرس هذه القصائد كلها ؛ فبعضها يغنى عن سائرها ؛ لأن موضوعاتها ومعانيها متشابهة ، وإن اختلفت فيها ألوان التصوير والتعبير . فلننظر قبل كل شيء إلى هذه البائية التى أنشدها لأول عهده به ؛ فهى بطبيعة الحال مشتملة على هذه الموضوعات الثلاثة التى قدّمنا ذكرها .

فأما القسم الأول منها فغناء بآلام الشاعر وأحزانه لما أصابه من خيبة الأمل وما أدركه من الإخفاق . وهو فى هـذا القسم شديد على سيف الدولة ، مسرف فى الشدة عليه ، يريد أن يغيظه ويُحْفِظَه ، ويثير فى نفسه الندم على ما قصّر فى ذاته وفرّط فيه . وهـذه الشدة نفسها تصور ما كان يملأ قلب المتنبي ويفعم ضميره من الغيظ والحنق ومن الأسف والندم ؛ فنفسه تنازعه أشد النزاع إلى سيف الدولة ، وقلبه لا ينفك يهفو إليه . وهو يعنّف قلبه أشد التعنيف ، ويؤنب نفسه أوجع التأنيب

على هذا الحنين إلى من لا يستحق حنيناً ، والوفاء لمن لا يستأهل وفاء . وهو يرى سيف الدولة غادراً ، وينكر نفسه إن صَبَتْ إليه ، وينكر دموعه إن جرت فى أثره . وهو على ذلك لا يعدو أن يكون محبًّا ينسب بحبيبه ، ويبكى فى أثر هواه ، ويشتد فى اللوم والتعنيف على هذا الحبيب الذى أسرف فى الهجر ، حتى انتهى إلى الغدر . ولكنه يتجاوز هذا الغزل الحاد العنيف إلى شيء يوشك أن يكون هجاء ، لولا أننا نحس منه الغيظ المتأجج الذى ينتهى بصاحبه إلى التحدى ، وذلك حين يقول :

قَواصِدَ كافُورٍ تَوارِكَ غَيرِهِ   ومَن قَصَدَ البَحْرَ استَقَلَّ السَواقيا

فالشطر الأول من هذا البيت غيظ قد بلغ أقصاه ، وانتهى إلى التحدى الذى يصور ألم المتنبى أكثر مما يصور شيئاً آخر . والشطر الثانى من هذا البيت هو نتيجة هذا الغيظ ، وهو أشبه شيء بما يقوله العاشق الذى أخرجه الهجر عن طوره ، فأخذ يتسلَّى باللهو العارض ، والحب المتكلف ، والصبابة الكاذبة ، ويزعم للتى ملكت قلبه أن التى تمنحه اللذة والعزاء فلا تلذه ولا تعزِّيه ، أروع منها جمالا وحسنا .

ثم يمضى المتنبى فى مدح كافور إلى أن يقول :

إذا كَسَبَ الناسُ المَعالِيَ بالندَى   فإنَّكَ تُعطِى فى نَداكَ المَعالِيا

وغيرُ كثيرٍ أنْ يَزُورَكَ راجِلٌ   فيَرْجِعَ مَلْكاً للعِراقَيْنِ والِيا

فَقَد تَهَبُ الجَيْشَ الذى جاء غازِيًا   لِسائلِكَ الفَرْدِ الذى جاء عافِيا

فهو هنا يعرِّض بحاجته ويتجنب التصريح ، ولكن تعريضه واضح كل الوضوح . ويرجع إلى مدح كافور ، إلى أن يقول :

إذا الهِنْدُ سَوَّتْ بينَ سَيْفَىْ كَرِيهةٍ   فَسَيفُكَ فى كَفٍّ تُزِيلُ التساوِيا

فإذا هو يعود إلى سيف الدولة بتعريض الغائظ المغيظ . ومن قبلُ عرّض بسيف الدولة ففضل عليه كافوراً فى الرفعة والكرم حين يقول :

فجاءتْ بنا إنسانَ عَيْنِ زمانِهِ   وخَلَّتْ بَياضًا خَلْفَها ومآقيا

تَجُوزُ عَلَيها المُحْسِنِين إلى الذى   نَرَى عِندَهُم إحسانَهُ والأيادِيا

وعرّض بانهزام سيف الدولة لكافور فقال :

غَزَوْتَ بها دُورَ المُلوكِ فباشَرَتْ سنَابِكُها هاماتِهِمْ والمَغانيا

فأنت ترى أن النصيب الأوفى من القصيدة شائع بين المتنبي وسيف الدولة، يصرِّح مرة ويعرِّض أخرى ، ولكنه مع ذلك يمدح كافورًا فيحسن المدح دون أن يخرج عن المألوف أو يأتي بشيء جديد ، وإنما هي المبالغة في وصف جوده وذكائه ، وعزمه ومضائه ، وبأسه وعصاميته ، يؤدي هذا كله أداء حسناً ، لا مشقة فيه ولا جهد ، ولا تكلف فيه ولا عناء .

فإذا تركت هذه اليائية إلى البائية الرائعة التي مدح بها كافورا في شوال من السنة نفسها ، رأيت مذهبه فيها كمذهبه في القصيدة السابقة ؛ فهو يقسمها قسمين : قسما للغناء وقسما للمدح . وهو يذهب في غنائه مذهبين ، مختلفين ، يقصد بأحدهما إلى الرمز والإيماء ، وبالآخر إلى الفلسفة الصريحة . ويذهب بمدحه مذهبين أيضاً ، يخص بأحدهما كافورا ، ويشيع الثاني بين كافور وسيف الدولة والمتنبي نفسه . فأما اصطناعه للرمز والإيماء فحين يتغزل بالأعرابيات ويطيل في ذكرهن ويؤثرهن على الحضريات . وهذا الجزء من قصيدته مشهور شائع ، قد أعجب الناس به منذ زمن بعيد ، ولكنهم فهموه على وجهه الظاهر القريب . وأذهب في فهمه أنا مذهباً آخر ، فأرى فيه حنيناً إلى حياته في شمال الشام ، حيث البداوة أغلب من الحضارة ، وحيث البأس أظهر من اللين ، وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكروه . وكأن الشاعر قد ضاق بهذه النعمة الهادئة ، وهذا الخفض الآمن في مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد ، ولكنه لم يستطع أن يجهر بما يجد من ذلك ، فاتخذ الأعرابيات كناية عنه ورمزاً له ، كما اتخذ الحضريات كناية عما كان في مصر من حياة ناعمة فاترة فيها تكسُّر وخضوع .

والقدماء يعجبون أشد الإعجاب بهذا البيت من هذه القصيدة وهو :

أَزُورُهُمْ وسَوادُ الليل يَشْفَعُ لي وأنثني وبَياضُ الصُّبحِ يُغري بي

وربما كنت رديء الذوق ، ولكني أحب أن أُعْجَبَ بهذا البيت فلا أظفر بما أريد من الإعجاب الخالص الذي لا يشعر به نقد ولا عيب . فما الذي يُعْجِب في هذا البيت ؟ هو هذا الطباق الكثير المتتابع ، الذي يحدث موسيقى ظاهرة التأثير في النفس . فالشاعر يطابق بين الزيارة والانثناء عنها . وهو يطابق بين السواد والبياض ، و بين الليل والصبح ، و بين الشفاعة له والإغراء به . و بعض هذا الطباق يكفي لإرضاء المشغوفين بالبديع . وهذا الطباق نفسه قد يرضيني ، لولا أني أجد في القافية انحداراً ثقيلا على السمع أشد الثقل . فأنت بين اثنتين : إما أن تجعل قوله « يغري بي » في مقام الكلمة الواحدة ، فتنطق بها موصولة ولا تشعر بما فيها من التفرق لتستقيم لك القافية على نظامها الموسيقي المألوف ، و إذن فقد أفسدت النطق وأسأت إلى الصوت اللغوي نفسه . و إما أن تنطق بهذه الجملة على وجهها ، فتشعر بأن لفظها يتألف من فعل وحرف وضمير ، وتنبر الباء ، إن جاز هذا التعبير ؛ و إذن فقد صح لك النطق اللغوي ، ونبت عليك القافية نبوًّا شنيعاً .

وسواد الليل كان يشفع المتنبي عند من ؟ عند عدوه ؛ فما يحتاج العدو إلى هذه الشفاعة وما يرضاها . وما أظنه إلا كان يريد أن سواد الليل كان يخفيه على الرقباء فيحميه منهم ، وأن بياض الصبح كان يُظهره للرقباء فيغريهم به ويعرِّضه لأذاهم . والمعنى قديم جدًّا طرقه عمر بن أبي ربيعة كما طرقه امرؤ القيس من قبل . فلم يزد شاعرنا على أن أوجزه أشد الإيجاز ، واصطنع فيه هذا الطباق الكثير الذي كان خليقاً أن يحسُن ، لولا ما ينتهي إليه من نبوّ القافية .

فإذا فرغ المتنبي من هذا الغزل الرمزي عمد إلى فلسفته الصريحة الواضحة فقال :

ومِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهةً ... تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبي غيرَ مخضوبِ
ومن هَوَى الصِّدْقِ في قَولي وَعادَتِهِ ... رَغِبتُ عن شَعَرٍ في الرأسِ مكذوبِ
لَيْتَ الحوادِثَ باعَتْني الذي أخَذَتْ ... مِنّي بِحلمي الذي أعطَتْ وتَجْرِيبي
فما الحداثةُ من حِلْمٍ بمانعـــةٍ ... قد يُوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبَّانِ والشِّيبِ

فهذا الكلام من أروع الشعر وأجمله ، يعجبنى فيه هذا الانتقال من إيثار الجمال البدوى الصريح ، الذى لم يُصْنَعْ ولم يُتَكَلَّف ، إلى إيثار الشيب الواضح الذى لا يخفيه الخضاب . ثم يعجبنى أيضا عدول الشاعر إلى الحق واعترافه بأنه يحتمل المشيب كارها له وراغبا عنه ، بعد أن صرّح بأنه لم يُرد أن يخفيه بالخضاب . فهو يؤثر الصراحة على النفاق ، وهو يؤثر الصدق على الكذب ، وهو يؤثر أن يكون شجاعا تؤذيه الشجاعة وتُعَنِّيه ، على أن يكون منافقا يغر نفسه بالآمال والأوهام . ثم هو بعد ذلك يتمنى العودة إلى الشباب و يضحّى فى سبيل ذلك لو استطاع بكل ما أفاد من علم وحلم . ومن الذى زعم أن العلم والحلم لا يستفادان إلا بالشيب والضعف وتقدُّم السن ! لقد يوجد العلم والحلم عند الشبان الذين لم يراعوا فى شبابهم ، كما يوجدان عند الشِّيب الذين اشتروهما بما أضاعوا من القوة والأمل والنشاط .

وكل هذه الفلسفة ، وكل هذا الغناء ، إنما يشير الشاعر به إلى هذا الحزن الغامض العميق الذى يملأ نفسه ، والذى يستطيع أن يفصِّل أسبابه . ولكنه لا يستطيع أن يحصره ولا أن يحيط به . ثم ينتهى الشاعر إلى كافور فيقول :

تَرَعْرَعَ المِلكُ الأُستاذُ مُكتهلاً قبلَ اكْتهالٍ أديباً قَبْلَ تأْديبِ
مُجرَّبا فَهِماً من قَبْلِ تجربةٍ مهذَّبا كَرَماً من غيرِ تَهذيبِ
حَتَّى أصابَ من الدُّنيا نهايتها وهمُّهُ فى ابتداءاتٍ وتَشبيبِ

ومن الناس من يظن أن المتنبى قصد بهذا الشعر وأشباهه إلى كلام ظاهره المدح ، و يمكن أن يلتوى به السامع أو القارئ لأن الشاعر قد التوى به إلى الذم .

وما أظن إلا أن هذا النحو من فهم شعر المتنبى فى كافور ، تكلُّف فى كثير من الأحيان ، يدفعنا إليه ما نعلمه من سوء رأى الشاعر فى ممدوحه ، ومن غضبه عليه وهجائه له . وليس المهم هو أن نفسر الشعر بما فسره المتنبى نفسه فى أحاديثه و دروسه بعد أن هرب من مصر ، ولا أن نفسر الشعر بما فسره به الشرّاح الذين سمعوا المتنبى وتأثروا بحديثه ، والذين سمعوا الأخبار أو صنّفوها حول و رود المتنبى على كافور

و إقامته . و إنما المهم أن نفترض أننا ظفرنا بهذا الشعر غُفْلاً من كل تفسير ، ولم نعلم من أمر قائله والمقول فيه شيئا . أفكنا نظن أن صاحبه قد التوى به عن وجهه الظاهر ، وأراد به خداعا ومكرا ؟ كلا ! إنما كنا نفهم فى يسر وسهولة أن الشاعر لم يُرِدْ إلا أن يصور عصامية الأمير و تفوقه ، وما أُتيح له من النبوغ والظفر بما لا يظفر به أذكياء الناس والذين كملت لهم العُدّة وتمت لهم أدوات الفوز ، دون أن يستعد لذلك أو يتهيأ له ، ودون أن يرث ذلك عن أب أو جد .

كذلك كنا نفهم هذا الشعر ، وما كان يخطر لنا أن قائله قصد به إلى وجه آخر من وجوه التعريض والتلميح . ولكن المتنبى فارق الأمير مغاضبا له ، ساخطا عليه ، نادماً على مدحه ، خَجِلاً من الإسراف فى هذا المدح ، مستخذيا من الخيبة والإخفاق ، مجتهدا بالطبع فى أن يأخذ ما أعطى و ينكر ما عرف و يغيِّر ما قال . وهو نفسه ينبئنا فى هجائه كما سترى أنه لم يمدح كافورا و إنما عبث به ، وأنه لم يكن يزوره مكبرا له بل ساخرا منه . ولكننا نعلم حق العلم أن هذا كلام شاعر مغيظ محنق . والمتنبى متَّهم عندنا فى أحد الحالين ؛ فإن صدق ما قاله فى الهجاء فقد كذب ما قاله فى المدح ، و إن صدق ما قاله فى المدح فقد كذب ما قاله فى الهجاء . وهو مع ذلك صادق عندنا فى الحالين ، بشرط أن نفهمه على وجهه ، لا كما يحب هو أن نفهمه ؛ فقد كان صادقا حين مدح كافورا ، وكان كاذبا فى الوقت نفسه : كان صادقا لأنه أراد المدح ولم يُرد غيره . وكان كاذبا لأنه لم يمدح عن يقين ولا عن إيمان ، و إنما مدح عن رغبة وطمع ، فقال غير ما يعتقد ، وأثنى بغير ما يرى .

وهو كذلك صادق كاذب فى هجائه : صادق لأنه كان يهجو عن غضب وسخط و بغض ، وكاذب لأنه كان يقول غير الحق و يذيع فى هذا الأمير من السيئات ما كان يكذِّبه فيما بينه و بين نفسه إذا خلا إليها . وما أكثر الأحوال التى يفرض فيها علينا البحث الصحيح أن نتَّهم الشعراء والكتّاب فيما يتحدثون به عن أنفسهم مادحين أو قادحين .

ويمضى المتنبى بعد ذلك فى مدح كافور فيقول :

يُدَبِّرُ المُلكَ من مِصْرٍ إلى عَدَنٍ ... إلى العِراقِ فأَرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ
إذا أتتها الرياحُ النُّكْبُ من بلدٍ ... فما تهبُّ بهـــا إلاَّ بترتيبِ
ولا تُجاوِزُها شمسٌ إذا شَرَقَتْ ... إلاَّ ومنهُ لها إذْنٌ بتَغْريبِ

وما أظن أحداً يقدِّر أن المتنبى كان يعبث فى هذا المدح ، وإنما لهجة الشاعر هنا صادقة صريحة ، تدل على إعجابه بهذا الأمير الذى سمت به همته وحدها من أسوأ الحالات إلى تدبير هذا الملك الواسع العريض . ولكن سعة هذا الملك وعرضه يُطمعان المتنبى فى رقعة منه ضيقة فى مدينة من مدنه أو قرية من قراه . ونفسه تتحرق شوقاً إلى هذه الولاية ، ولكنه مع ذلك لا يصرِّح فى هذه القصيدة كما لم يصرح فى القصيدة الماضية ، وإنما يكتفى بالتعريض الواضح الجلى بعد أن يمضى فى مدح الأمير مدحاً حسناً قويا. على أنه قبل أن يعرِّض بحاجته لا يُهمل التعريض بسيف الدولة ؛ فهو يقول :

قالوا هَجَرْتَ إليهِ الغَيْثَ قُلتُ لهمْ ... إلى غُيُوثِ يَدَيْهِ والشآبِيبِ
إلى الذى تَهَبُ الدَّوْلاتِ راحَتُهُ ... ولا يَمُنُّ على آثارِ مَوهُوبِ
ولا يَرُوعُ بمغْدُورٍ به أحَدًا ... ولا يُفَزِّعُ مَوفورًا بمنكوبِ

وظاهرٌ ما فى هذا الكلام من التعريض الواضح الثقيل بأخلاق سيف الدولة، وما فيه أيضاً من جحود الجميل وإنكار النعمة . وظاهر كذلك ما فى البيت الثانى من هذه الأبيات من تجاوز للحد فى انتقاص صديقه ومولاه القديم، والتلميح بحاجته التى يضحِّى فيها حتى بالحياء . فكافور لا يهب المال وحده ، ولا يهب من المال أكثر مما كان يهب سيف الدولة فحسب ، ولكنه يهب الدولات ؛ فهو يستطيع أن ينشىء دولا ، وأن يجعل لهذه الدول سيوفا .

وانظر إلى البيتين الأخيرين من هذه القصيدة ، فهما يغنيان عن كل تفصيل ،

لتعريض المتنبي بحاجته وتهالكه صادقا أو كاذبا على رضا الأمير ، و إشفاقه من الغضب أو السخط الذى قد يجر عليه الحرمان وخيبة الأمل :

يأيُّها المَلِكُ الغانى بِتَسْمِيةٍ ... فى الشَّرْقِ والغَرْبِ عن وَصْفٍ وتَلْقيبِ
أنتَ الحبيبُ ولكنى أعُوذُ به ... مِن أن أكونَ مُحِبًّا غيرَ محْبُوبِ

وأنا أمرُّ مسرعا بالدالية التى مدح بها المتنبي كافورا آخر سنة ست وأربعين وثلاثمائة. ولكنى أروى منها هذه الأبيات وحدها ؛ لأنها تصور أبلغ تصوير وأجمله ، تلك العلة التى حمّلت المتنبي فى حياته ما احتمل من جهد وعناء ، وألقته صريعا آخر الأمر فى مَهْمَهٍ من مهامه العراق . وهذه العلة هى قلبه الذى لا يقنع بشىء ولا يطمئن إلى حال، و إنما هو طامع أبدا ، طامح أبدا ، راغب فى التغيير ، قلق مهما يستقر :

وفى الناسِ مَنْ يَرْضَى بمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... ومركوبُه رِجلاهُ والثَّوْبُ جِلدُهُ
ولكنَّ قَلْباً بينَ جَنْبَيَّ ما لَهُ ... مَدًى يَنْتَهى بِي فى مُرادٍ أحُدُّهُ
يَرى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفُوفا تَرُبُّهُ ... فيختارُ أن يُكْسَى دُرُوعا تَهُدُّهُ
يُكَلِّفُنِى التهجيرَ فى كُلِّ مَهْمهٍ ... عَلِيقِى مَرَاعِيه وزَادِيَ رُبْدُهُ
وأمضى سِلاحٍ قلّدَ المرء نَفْسَهُ ... رجاءُ أبى المِسْكِ الكريمِ وقَصْدُهُ

ويطول انتظار المتنبي ويبطىء وفاء كافور ، ويبعد العهد بسيف الدولة ، فيهدأ الغيظ ويسكت الغضب، ويبقى الندم قويا لاذعا ، وإذا بنا نرى الشاعر يمدح كافورا سنة سبع وأربعين وثلاثمائة بهذه الميمية التى يكفى أن تقرأ مطلعها لتفهم منه ندم الشاعر ، وتتصور حاله النفسية ، وتتبين أنه سيحمد سيف الدولة فى القصيدة ويعتذر عن فراقه إياه ، يصور بذلك ندمه من جهة ، ويدعو بذلك كافورا إلى الوفاء من جهة أخرى :

فِراقٌ ومَنْ فارقتُ غَيرُ مُذَمَّمِ ... وأَمٌّ ومن يَمَّمْتُ خَيرُ مُيَمَّمِ

وتتقدم هذه السنة والشاعر منتظر ، والأمير مبطىء ، وندم الشاعر على ما خلّف وراءه يقوى ويشتد ويكلفه أحزانا وآلاما ، وإذا هو يهنىء كافورا بعيد الفطر ،

فيُنشده هذه البائية ، وهى آخر ما قال فى كافور عندى ؛ لأنها تصرّح عن نفس الشاعر تصريحا لا لبس فيه . فهو حامد لأثر سيف الدولة يجهر بين يدى كافور بندمه على فراقه . وهو واصف لما لقى من الجهد فى الفرار من حلب ، وهو مطالب كافورا بتحقيق أمله فى غير تعريض ولا تلميح ، وهو يشير إلى أنه قد بعد عن أهله وطال بعده عنهم ، واشتد لذلك حزنه وعظم ألمه ، وهو يحب أن يعود إليهم ، لولا أن الآمال تقيّده عند كافور . واقرأ هذين البيتين ، وانظر إلى تصويرهما للندم :

وللهِ سَيْرِى ما أَقَلَّ تَئِيَّــةً ... عَشِيَّةَ شَرْقِىَّ الحَدالَى وغُرَّبُ
عَشِيَّةَ أَحْفَى الناسِ بِى مَنْ جَفَوْتُهُ ... وأهدَى الطرِيقَينِ التى أَتَجَنَّبُ

واقرأ كذلك هذه الأبيات لترى ملله من طول ما اشتكى وتعتّب :

ألاَ ليت شِعرى هل أَقُولُ قَصِيدةً ... فلا أَشْتَكِى فيها ولا أَتَعَتَّبُ
وبِى ما يَذُودُ الشِّعْرَ عَنِّى أَقلُّهُ ... ولكنَّ قَلْبِى ياابْنَةَ القَوْمِ قُلَّبُ
وأخلاقُ كافُورٍ إذا شئتُ مَدْحَهُ ... وإنْ لم أَشَأْ تُملِى عَلَىَّ وأَكْتُبُ

وانظر بعد هذا إلحاح الشاعر على الأمير فى حاجته وتصريحه بهذه الحاجة فى غير لبس ولا غموض :

أبا المِسْكِ هل فى الكأسِ فَضْلٌ أنالُهُ ... فإنّى أُغَنِّي مُنْذُ حِينٍ وتَشْرَبُ
وهَبْتَ على مقدارِ كَفَّىْ زمانِنا ... ونَفْسِى على مِقدارِ كَفَّيكَ تَطلُبُ
إذا لم تَنُطْ بِى ضَيْعَةً أو وِلايةً ... فجودُك يَكْسُونِى وشُغْلُكَ يسلُبُ
يُضاحِكُ فى ذا العيدِ كُلٌّ حبيبَهُ ... حِذائى وأَبْكِى مَن أُحِبُّ وأَنْدُبُ
أَحِنُّ إلى أهلى وأَهْوَى لِقاءهُمْ ... وأَيْنَ مِنَ المُشتاقِ عَنْقاءُ مُغْرِبُ

ولكنه حسن الاستعداد للتعزى عن أهله بالبقاء مع كافور ، بشرط أن يحسُن هذا البقاء ، وأن يكون فيه الثراء والمجد معا :

فإنْ لم يكُنْ إلا أبو المِسْكِ أو هُمُ ... فإنَّكَ أَحلَى فى فُؤادِى وأَعذَبُ
وكُلُّ امْرِئٍ يُولِى الجَميلَ مُحَبَّبٌ ... وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

وفى هذا البيت الأخير نفس أبى الطيب كلها . فهو رجل لا يحب إلا نفسه . وهو سعيد حيث وجد من الناس الجميل، وهو راض حيث وجد المجد والعزة ، فأما الوطن والأهل والأصدقاء ، فتأتى بعد ذلك ، ولعلها لا تأتى .

ولا يحفظ الديوان لنا من مدحه لكافور سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة إلا قصيدة واحدة ، لم نحصها فيما أحصينا من قصائد المدح ؛ لأنا سنتحدث عنها فى فصل خاص مع قصيدة أخرى مدحه بها سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ولم نحصها أيضا فيما أحصينا.

وكذلك لا يحفظ الديوان من مدح المتنبى لكافور سنة تسع وأربعين وثلاثمائة إلا قصيدة واحدة هى البائية التى أنشده إياها حين لقيه لآخر مرة .

ثم لا يروى الديوان لنا مدحا لكافور فى سنة خمسين وثلاثمائة ، مع أن الشاعر لم يترك مصر إلا فى ذى الحجة من هذه السنة . أفيمكن أن يكون المتنبى قد أعرض عن مدح الأمير هذا الإعراض نحو سنتين كاملتين ولم يتهمه الأمير ولم ينكر سكوته هذا الطويل ؟ أما أن الأمير كان يتهم المتنبى ويرصد له الأحراس ويدس عليه الجواسيس ، فشىء يظهر أنه كان محققا . وأما أن المتنبى قد سكت عن مدح الأمير هذا الوقت الطويل ، فشىء أشك فيه كل الشك . وأكاد أقطع بأن المتنبى قد مضى فى مدح كافور سنة تسع وأربعين وسنة خمسين كعهده فى السنتين السابقتين . ولكنه أسقط هذا الشعر من ديوانه أو أسقط هذا الشعر من الديوان بعد المتنبى ولم يصل إلينا . وليس غريبا أن يستخذى المتنبى من كثرة ما استجدى فى غير فائدة ، فيسقط طرفا من هذا الاستجداء ، ولا يُبقى من شعره فيه إلا ما يقيم له الحجة عليه . ومهما يكن من شىء فإن قصيدته الأخيرة تصور يأسه أو قربه من اليأس ، كما تصور استخذاءه من شماتة أهل حلب فيه بعد أن حاول ما حاول وألح ما ألح ولم يظفر بطائل . وهو يقول ذلك لكافور فى لهجة مؤلمة حقا . فانظر إلى هذه الأبيات :

أَرَى لى بِقربى مِنكَ عيناً قَرِيرةً ... وإنْ كان قُرْباً بالبِعادِ يُشَابُ

وهل نافِعِى أن تُرفَعَ الحُجْبُ بيننا ... ودُونَ الذى أمَّلتُ منكَ حِجابُ

أُقِلُّ سلامى حُبَّ ما خَفَّ عنكُمُ وأسكُتُ كيما لا يَكُونَ جَوَابُ
وفى النَّفْسِ حاجاتٌ وفيكَ فَطانَةٌ سُكوتى بَيانٌ عِندَها وخِطابُ
وما أنا بالباغِى عَلَى الحُبِّ رِشْوَةً ضَعيفُ هَوًى يُبغَى عليه ثَوابُ
وما شِئتُ إلاَّ أن أَدُلَّ عَواذِلى عَلَى أن رَأيِى فى هَواكَ صَوابُ
وأُعْلِمَ قومًا خالَفُونى فَشرَّقُوا وغَرَّبتُ أَنِّى قد ظَفِرتُ وخابوا

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين يختم بهما القصيدة :

وما كُنتُ لولا أنتَ إلاَّ مُهاجِرًا لهُ كُلَّ يَومٍ بَلدةٌ وصِحابُ
ولكنَّكَ الدُّنيا إلىَّ حَبيبةً فما عنك لى إلاَّ إليكَ ذَهابُ

فهذا شعر مستعطف ذليل بائس، قد تقطعت به الأسباب أو كادت تنقطع . وهو يعلن حسرته ولهفته فى لهجة عذبة مؤثرة حقا . ولكن كافورا كان صاحب سياسة لا صاحب عاطفة، وقد كوّن رأيه فى هذا الشاعر وقضى فيه بأمره ، واتخذه أسيرا فى سجن ينعم فيه بلين الحياة وخفض العيش ، ورأى أن هذا يكفيه .

وأنت بعد النظر فى هذه القصائد كلها بتفصيل أوفى مما عرضت عليك مقتنع بأن المتنبى قد آثر نفسه وآثر سيف الدولة بخير ما فيها من الشعر ، وأن ما قدّم من المدح إلى كافور على جودة بعضه و توسط بعضه الآخر لم يكن يستحق أكثر مما أخذ المتنبى من مال هذا الأمير .

٨

وقد كادت الفرصة تسنح للمتنبي وتهيئ له العودة إلى الفن الذى برع فيه عند سيف الدولة ، وهو وصف الحرب وتصوير الجهاد ، ولكنها لم تلبث أن أخلفت الظنون واضطرت المتنبي إلى الهدوء الذى كان يكرهه ولا يحتمله إلا فى مشقة وعناء .

ففى سنة سبع وأربعين وثلاثمائة كانت وحشة بين كافور وبين أنوجور بن الإخشيد، سعى فيها المفسدون بين الملك ووليه، وجدُّوا فى السعى حتى أفسدوا بينهما وحتى كادت الحرب تشبّ . ثم اصطنع كافور الحلم والأناة كما اصطنع معهما العزم والحزم. وأحس الملك ضعفه عن الحرب وحاجته إلى وليه، فعاد الأمر بينهما إلى صفاء . وذكر المتنبي هذه القصة مرتين : المرة الأولى حين هنأ كافورا بعيد الفطر لهذه السنة ببائيته المشهورة التى تحدثنا عنها آنفا . والمتنبي فى هذه القصيدة يُجمل ولا يفصِّل ، ويكاد يؤثر التعريض على التصريح ، ولكنه مع ذلك حازم عازم ، منضم إلى كافور فى غير تردد ولا التواء ، معلن أن الملك مدين لهذا الرجل ببقائه وسلامته وقصور الأعداء فى الوصول إليه ، وقصور الأحداث عن البلوغ منه ؛ لأنه قام على هذه الدولة قيام الأب الجرىء الرحيم ، فرد عنها العدو الخارجى بالحرب ، ورد عنها البؤس والفقر والاضطراب بحسن السياسة والتدبير . فالذين يحسدونه أو يمكرون به أو يريدون صرف السلطان عنه طاغون باغون جاحدون للنعمة منكرون للجميل . وذلك حيث يقول :

يُريدُ بِكَ الحُسَّادُ ما اللهُ دافعٌ ... وسُمْرُ العَوالى والحَديدُ المُذَرَّبُ
ودُونَ الذى يَبْغُونَ ما لوْ تخلَّصُوا ... إلى المَوتِ منهُ عِشْتَ والطِّفلُ أشْيَبُ
إذا طَلَبُوا جَدْواكَ أعطُوا وحُكِّمُوا ... وإن طَلَبُوا الفَضْلَ الذى فيكَ خُيِّبُوا
ولوْ جازَ أنْ يَحْوُوا عُلاكَ وَهَبْتَها ... ولَكِنْ مِنَ الأشياءِ ما لَيْسَ يُوهَبُ

وأظلَمُ أهلِ الظُّلمِ مَن باتَ حاسِدًا لمَنْ باتَ في نَعمائِه يَتقَلَّبُ
وأنتَ الذي رَبَّيتَ ذا المُلْكِ مُرْضَعًا وليسَ لَهُ أُمٌّ سِواكَ ولا أبُ
وكُنتَ له ليثَ العَرينِ لِشبْله وما لَكَ إلاَّ الهِندوانيَّ مِخْلَبُ
لَقِيتَ القَنا عَنهُ بنفسٍ كَريمةٍ إلى الموتِ في الهَيْجا من العارِ تَهْرُبُ

ثم يقول :

ويُغنيكَ عَمَّا يَنسُبُ الناسُ أنه إليكَ تَناهَى المكرماتُ وتُنْسَبُ
وأيُّ قَبيلٍ يَستَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بْنُ عَدنانٍ فِداكَ ويَعرُبُ

وظاهرٌ ما في هذه الأبيات من اندفاع المتنبي في تأييد كافور وصدق لهجته في النهوض بالذود عنه . ولنذكر هذا البيت الأخير الذي يفدي الشاعر فيه هذا العبد الأسود بمعدّ ويعرب جميعاً ؛ فقد ينفعنا تذكر هذا البيت حين نرى هجاء المتنبي لكافور .

ولما تم الصلح واستقر الأمر بين الملك ووليه ، قال المتنبي داليته المشهورة يهنئ بها كافورا . وهي عندي من أجمل شعر المتنبي وأصدقه في تصوير ما يكون في مصر بين حين وحين من الفرقة وانشقاق العصا ، ثم من الوحدة واجتماع الرأي . ومن أبياتها ما يمكن إنشاده والتمثل به في هذا العصر الذي نعيش فيه ، وفي هذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث بصفة خاصة . ونلاحظ أن المتنبي قد أشار إلى الملك في هذه القصيدة ولكنه لم يسمه ، وقد أثنى عليه ولكنه اقتصد في الثناء ، وخص بالذكر والمدح الخالص كافورا . وانظر إلى أول القصيدة :

حَسَمَ الصلحُ ما اشتهته الأعادي وأذاعَتْهُ ألسُنُ الحُسَّادِ
وأرادَتْهُ أنفُسٌ حالَ تدبيـ ـرُكَ ما بَيْنها وبَيْنَ المُرادِ
صار ما أوْضَعَ المخبُونَ فيـه من عتابٍ زيادةً في الوِدادِ
وكلامُ الوُشاةِ لَيسَ عَلَى الأحْـ ـبابِ سُلْطانُهُ على الأضدادِ

إنما تُنجِحُ المقالة فى المَرْ ءِ إذا وافَقَتْ هَوًى فى الفُؤادِ

فهذا كلام سائغ اللفظ، قريب المعنى، ملائم لأهواء النفوس المجتمعة بعد افتراق، وعواطف القلوب المؤتلفة بعد اختلاف . وهو قد صور الفرقة والألفة اللتين كانتا بين الكافورية والإخشيدية سنة سبع وأربعين وثلاثمائة . وهو فى الوقت نفسه خليق أن يتمثله المصريون فى عصرهم الحديث كلما أتيح لهم الائتلاف بعد الاختلاف، والاتفاق بعد الافتراق . وقد عطف المتنبى على كافور بعد هذه الأبيات فوصف ثباته وحلمه وإعراضه عن الوشاة وامتناعه على دعاة السوء، فى كلام ما أرى إلا أنه يصلح للإنشاد فى هذا العصر الحديث، ويصور بعض النابهين الذين نحبهم من المصريين . قال :

ولَعَمْرِى لقد هُزِزْتَ بما قِيـ لَ فأُلفِيتَ أَوْثَقَ الأطوادِ
وأشارتْ بما أَبَيْتَ رِجالٌ كُنْتَ أَهدَى منها إلى الإرشادِ

ثم يقول :

نِلْتَ ما لا يُنَالُ بالبيضِ والسُّمْـ رِ وَصُنْتَ الأرْواحَ فى الأجْسادِ
وقَنَا الخطِّ فى مَراكِزِها حَوْ لَكَ والمُرْهَفَاتُ فى الأغْمادِ
ما دَرَوْا إذ رأَوْا فُؤادَكَ فيهمْ ساكِناً أنَّ رأْيَهُ فى الطِّرادِ

ثم يقول :

فبهذا ومِثْلِهِ سُدْتَ يا كا فورُ واقتَدْتَ كُلَّ صَعْبِ القِيادِ
وأطَاعَ الذى أطَاعَك والطاعَـ ةُ لَيْسَتْ خَلائقَ الآسَادِ

ثم يقول :

إنما أنتَ والِدٌ والأبُ القا طِـعُ أَحْنَى مِن واصِلِ الأولادِ
لا عَدَا الشَّرُّ مَنْ بغى لَكما الشَّـ رَّ وخَصَّ الفَسادُ أهلَ الفَسادِ
أنتُما ما اتفَقْتُما الجِسْمُ والرُّو حُ فلا احتجْتُما إلى العُوَّادِ

وانظر إلى هذه الأبيات العذبة التى يملؤها الحنان، والتى تصور أحسن تصوير

وأبدعه وأروعه ما يكون من تواصل بعد تقاطع ، ومن مودة بعد حفيظة وضغن ، والتى نحس معناها بين حين وحين ، ونود لو نحسه فى كل حين :

مَنَعَ الوُدُّ والرِعايةُ والسُّـو ددُ أن تَبْلُغَـا إلى الأحقادِ
وحقوقٌ تُرَقِّقُ القَلْبَ للقلـ ـبِ ولو ضُمِّنَت قلوبَ الجمادِ
فَغَدا المُلْكُ باهرًا مَن رآهُ شاكِرًا ماأَتَيْتُما مِنْ سَدادِ
فيهِ أيديكما على الظَفَرِ الحُلْـ ـوِ وأيْدِى قَوْمٍ على الأكبادِ
هـذهِ دَوْلَةُ المـكارِمِ والرأْ فَةِ والمَجْدِ والنَّدَى والأيادِى
كَسَفَتْ ساعةً كما تَـكْسِفُ الشَّمْـ ـسُ وعادَتْ ونُورُها فى ازدياد

أرأيت أجمل من هذا الكلام ، وأبرع من هذا التصوير ، وأنفذ من هذه المعانى إلى ضمائر النفوس ودخائل القلوب ، فى ألفاظ حلوة لينة جزلة رصينة ، وهى مع ذلك ترضى الذوق ولا تؤذيه ، وتقهر السمع ولا تشق عليه ! أرأيت شعراً أصدق فى تصوير اتفاق المصريين ، حين يتفقون برغم الكائدين والحاسدين ، من هذا البيت الذى يجمع الصدق والدقة وجمال اللفظ وعذوبة المعنى ومضاء الرأى ونفاذ البصيرة ورضا النفس وتحدِّى العدو :

فيـهِ أيديكما عَلَى الظَفَرِ الحُلْـ ـوِ وأيدِى قَوْمٍ عَلَى الأكبادِ

ويخلص المتنبى بعد ذلك إلى كافور فيختصه بالمدح ويقصر عليه الثناء ، ويصطنع الذوق والظرف ، فلا يستنجزه وعداً ولا يسأله شيئاً ، وذلك حيث يقول :

أَغْفَلَ الناسُ عن طريق أبي المِسْـ ـكِ وذلَّتْ له رِقابُ العِبـادِ
كَيْفَ لايُترَكُ الطَّرِيقُ لِسَيْلٍ ضَيِّقٍ عن أَتِيِّهِ كلُّ وادِ

ولما كانت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة عرضت فرصة أخرى كادت تدفع المتنبى إلى وصف الحرب ، ولكن الظروف حوّلتها عن وجهها ؛ فقد ثار شبيب العقيلى فى الشام ، واجتمع حوله عدد ضخم من الأعراب ، وعرّض النظام للخطر وأغار على دمشق وكاد يفتحها ، ولكنه سقط فى الميدان أثناء الهجوم صريعاً ميتاً لم يمسسه سيف

ولا رمح ولا سهم . واختلف الناس فى تفسير موته ؛ فظن بعضهم أن قد كان به صرع قضى عليه . وتحدّث قوم آخرون بأن السم هو الذى قتله ، وبأن كافورا هو الذى وجّه من دسّ له السم فى الطعام أو فى الشراب .

وقال المتنبى فى هذه القصة ميميته الغامضة ، التى يقال إنها أثارت أو قوّت الشكوك فى نفس كافور؛ لأن الشاعر لا يذم فى هذه القصيدة شبيبا، بل يحمده ويرثيه، ويُظهر الأسف الشديد عليه . وهو فى الوقت نفسه يحمد حظ كافور ويهنئه بمواتاة الأيام والحوادث له و ردّها عدوه عنه فى غير حرب ولا قتال . وأنا لا أقف فى هذه القصيدة موقف المُعْجَب المُسَائل ولا موقف المتشكك المستريب، ولا أظن أن كافورا قد شك فيها أو ارتاب بها . وما كان له أن يشك أو يرتاب ، وهو فيما أُرجح الذى أوحى هذه القصيدة وكلّف المتنبى أن يذهب فيها هذا المذهب ، ليخفى ما كان قد دبّر من كيد ، أو ما زعم الناس أنه دبر من كيد . وهذا من سيرة الساسة وأصحاب الدهاء معروف فى كل مكان ، وفى قصور الشرق التى يستأثر فيها الفرد بالحكم والسلطان بنوع خاص . وأول هذه القصيدة :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بكلِّ لِســانِ ولو كانَ من أعدائِكَ القَمَرانِ
وللهِ سِرٌّ فى عُلاكَ وإنما كلامُ العِدَى ضَرْبٌ من الهَذَيانِ

والناس يسيئون الظن بهذا البيت ، ويرى بعضهم أنه إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح ؛ كأن المتنبى قد جعل ارتفاع قدر كافور أثراً من آثار المصادفة ، ونوعا مما تتكشف عنه الظروف . ولكنى قدّمت لك أنى أرتاب فى ارتياب الناس هذا ، إن صح أن نصطنع أسلوب المتنبى فى الحديث . فالبيت مدح خالص لا غبار عليه ولا لبس فيه ؛ لأن الشاعر لا يريد إلا أن يقول : إن الله كتب العلا لكافور ، وهيأ له قهر الحوادث ، وذلل له المصاعب والعقبات، دون أن يكلفه جهدا أو يحمّله عناء ؛ لأنه أتاح له حظا موفقا سعيدا ؛ فمن الحق على أعدائه أن يعلموا أن الله معه ، وأن

الزمان مواتيه ، فلا يطمعوا فيه ولا يشكّوا فيما كتب له من فوز وتوفيق . والشعر الذى يأتى بعد هذا صريح فى تحقيق ما أراد الشاعر إليه ، وهو يقول :

أتَلْتَمِسُ الأعداءُ بَعْدَ الذى رأتْ قِيامَ دَليلٍ أو وُضوحَ بيانِ
رَأَتْ كلَّ مَن يَنْوِى لكَ الغدرَ يُبتَلَى بِغَدْرِ حَيـاةٍ أو بغَدْرِ زَمانِ

ولكن الناس بعد أن عرفوا ما كان من فساد الأمر بين الشاعر وكافور ، مشغوفون بالتماس التعريض والتلميح والالتواء فى كل ما قال المتنبي . وهم يحمّلون شعر الرجل ما لا يحتمل ، ويضيفون إلى المتنبي ما لم يرده ولم يفكر فيه. والناس معذورون؛ لأن المتنبي نفسه هو الذى استخذى من مدحه لكافور ففتح لهم هذا الباب .

والشاعر يمضى بعد ذلك فى رثاء شبيب والثناء عليه ، بما يخيل إلينا أن قلب المتنبي قد خفق بشىء من الحنان والعطف على هذا المخاطر الذى أعجله الموت عن تحقيق ما كان يريد . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان المخاطرون المخفقون يذكّرون المتنبي بما تعرّض له أثناء الشباب . ولعلك لم تنس أن شيئاً من هذا الشعور يظهر فى لاميته التى ذكر فيها إيقاع سيف الدولة بالقرامطة الذين أسروا ابن عمه أبا وائل تغلب بن داود .

فأنت ترى أن إلمام المتنبي بالسياسة المصرية كان يسيراً ؛ لأنها لم تكن سياسة حرب وقتال ، وإنما كانت سياسة مكر ودهاء . وليس المتنبي من المكر والدهاء فى شىء . وأيسر أصول المكر والدهاء ألا يظهر عليهما شاعر لا يمسك لسانه ، وهو، بعدُ ، غريب متّهم ، وطامع محروم .

٩

وأجمل ما قال المتنبي من الشعر فى مصر إنما هو هذا الغناء الذى صور فيه حزنه وألمه واغترابه ، وهذه البطالة التى فُرِضتْ عليه ، وهذا اليأس الذى جاهده خمس سنين . وقد استأثر هذا الغناء بشعره الذى قاله فى مدح كافور كما رأيت ، وبشعره الذي قاله فى هجاء كافور كما سترى . ولكن المتنبى قد تغنّى حزنه وألمه ، وما أحاط بنفسه من الكوارث والخطوب، فى شعر لم يقصد به إلى مدح ولا هجاء ، وإنما قصد به إلى الغناء وحده . كان طائراً تعوّد الهواء الطلق والفضاء العريض ، يرتفع فى السماء ما أتاحت له قوته العنيفة أن يرتفع ، فإذا أراد الراحة لم يقع إلا على الشواهق من قمم الجبال ، فإذا هو الآن سجين فى قفص ضيق، لعله من الذهب المرصع بألوان الجوهر ، ولكنه قفص على كل حال . وكان جواداً مرحاً فرحاً ، حياته كلها فى العَدْو والغزو ، ولذته كلها فى المرح والنشاط ، لا يطمئن ولا يرضى إلا إذا مضى أمامه فى البيد والمهامه ، مستمتعاً بحر النهار وبرد الليل ، أو اقتحم الصعاب والعقاب إلى العدوّ ثملاً بنشوة الظفر أو ألم الهزيمة ، فإذا هو الآن مرتبط فى الفسطاط عند قصر كافور ، قد مضغ الشكيم حتى ملّ مضغ الشكيم ، وقد أفنى مرحه ونشاطه فى هذه الحركات العنيفة المرحة التى يأتيها الجواد الأصيل فى الرباط لا تقدّمه ولا تؤخّره ، فإذا طالت عليه أضنته وعنّته وردته إلى الخمود والفتور .

هذه كانت حال المتنبي حين طالت إقامته فى الفسطاط ، يغدو على كافور ويروح إلى داره ، ويخلُص من حين إلى حين لهؤلاء الجلساء الذين كانوا يروون عنه شعره ، ويسألونه عن غريبه ومشكله . وما تعوّد الرجل هذه الحياة الهادئة الخاملة . فإذا أضفت إلى ذلك ، أن أمله فى كافور قد ألح عليه حتى أصبح مرضاً ، وأن حزنه

لفراق سيف الدولة قد طُبِــع فى قلبه حتى أصبح نُدوباً لا تزول ، وأنه كان يشعر شعوراً قوياً مؤذياً بأن كرامته قد أُهينت فى مصر ، وبأن الذين تحداهم فى حلب وتركهم مغاضباً لهم ، تنتهى إليهم أخبار حياته هذه المظلمة القاتمة ، فيسخرون منه ويشمتون به ، وقد تنقطع عنهم أخباره ، فيخلقون الأخبار من عند أنفسهم ، ويتحدثون بها فى مجلس صديقه القديم شامتين ساخرين .

إذا قدّرت هذا كله ، وذكرت أن نفس المتنبي كانت من الدقة والرقة ورهافة الحس ، بحيث يؤذيها أقل شىء ويثيرها أهون أمر ، عرفت أن الشاعر كان فى مصر تعساً مبتئساً ، خليقا حقاً بالرحمة والرثاء . وقد نفّس الرجل عن نفسه فى مدحه لكافور وفى هجائه إياه ، وحين خلا إلى نفسه ولم يفكر إلا فيها . ولكن شعره هذا الحزين الكئيب مخالف كل المخالفة ، فى طبيعته ونغمته ولهجته ، لما كان يقوله من الشعر الحزين أيام الشباب . فأنت تذكر شعره الذى شكا فيه أيام الشباب ، ومكر الزمن به ، وتنكُّر الحوادث له ، وتألُّب الخطوب عليه ، وأنت ترى أن ذلك الشعر قد كان ثائراً هائجاً، يظهر فيه الاضطراب العنيف ، والغضب الذى لا حد له والذى ينذر بالانفجار ، وينتهى أحياناً إلى ما يخرج به الشاعر عن طوره ، ويطرح فيه كل وقار .

وما أظنك تستطيع أن تجد فى كل ما قاله المتنبي من شعر الشكوى قبل زيارته لمصر إلا قصيدة واحدة أنكر فيها الشاعر نفسه ، واستسلم فيها للحزن والألم حيناً ، ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه ، واسترد قوته العنيفة ، وبأسه الشديد ؛ وهى الميمية التى قالها بعد أن فر من بدر بن عمار ، ولجأ حيناً إلى صديقه المُرِّىّ ، والتى أولها :

لا افتِخَــارٌ إلا لمنْ لا يُضَـامُ مُدْرِكٍ أو مُحارِبٍ لا يَنَامُ

فأما فى مصر فنحن نحس أن شيئاً قد انحطم فى نفس هذا الشاعر العنيف ، فإذا حزنه لا يصطنع لغة الغضب ولا لغة الثورة ، وإنما يصطنع لغة الشكوى والأنين ، كأنه

الجريح لا يستطيع أن يقبض على السيف ولا أن يبطش به ، ولا يملك إلا أن يئن أنين العاجز الكليل .

أكان مصدر ذلك أن شيئاً قد انحطم فى نفس المتنبى حقا مع تقدم السن واختلاف الأحداث ، ففارقه شبابه ، وتفرقت عنه خصال القوة والجراءة والبأس ، وبقى له عقله المفكر ، وقلبه الحساس ، ونفسه الشاعرة ، فهو يرى الألم ويحتمله ، ولا يرى فى نفسه القدرة على دفعه ؟ أم كان مصدر هذا أنه أسير فى مصر قد ضُربت حوله مراقبة شديدة ، وأُرصدت له العيون والجواسيس ، فهو مضطر إلى الحذر والاحتياط ، وهو مكره على القصد والاعتدال ؟

كلا الأمرين كان حقا ؛ فقد رشد المتنبى ونضج عقله المفكر ، فأدرك الضعفُ والفتور نفسه الثائرة ، وهو فى الوقت نفسه أسير سجين ، مشدد عليه فى المراقبة ، مكلف أن يتحفظ ويحتاط .

ولم يحفظ الديوان لنا كثيراً من هذا الشعر الذى اختص الشاعر به نفسه فى مصر ، ولكن ما بقى منه خليق بالإعجاب كل الإعجاب . وهذه الميمية التى قالها حين أصابته الحمّى فى مصر سنه ثمان وأربعين وثلاثمائة من أرق الشعر العربى كله ، وأعذبه وأرقاه ، وأشدّه استثارة للحزن ، وتحريقاً للقلوب الحساسة الشاعرة . وقد أُعجب القدماء بهذه القصيدة ؛ لأن الشاعر قد برع فيها حين أراد وصف الحمّى ؛ وليس فى هذا شك . ولكنى حين أُحب هذه القصيدة وأكلف بها ، لا أكاد أحفل بهذه البراعة الفنية أو أقف عندها ؛ لأن حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار أعظم منه وأبعد مدى ، وأنفذ إلى القلوب والنفوس . فأنا لا أرى شاعراً يصطنع الشعر ليصور ما يجد من لوعة وحسرة ويأس ، وإنما أرى اللوعة والحسرة واليأس تتخذ الشعر لها لساناً لتبلغ أسماعنا وتنتهى إلى قلوبنا .

وما أشك فى أن لهذه القصيدة قيمتها الفنية الخالصة ، ولكنى لا أشك فى أنها لم تكلِّف الشاعر من الجهد والعناء ، ما تعوّد أن يتكلفه فى غيرها من قصائده ، وإنما

فاضت بها نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه فى غير تكلف ولا عسر .
واقرأ هذه الأبيات لترى فيها كيف كانت خيبة أمله فى الأصدقاء :

وَلَمَّا صارَ وُدُّ النـاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابتسامٍ بابتسامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الأنامِ
يُحِبُّ العاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِى وَحُبُّ الجاهِلِينَ عَلَى الوَسَامِ
وآنَفُ مِنْ أَخِى لأَبِى وأُمِّى إذَا مالَمْ أَجِدْهُ مِنَ الكِرامِ

أترى إليه كيف يصطنع النفاق والمداجاة على شدة بغضه للنفاق والمداجاة ؛ لأنه أصبح لا يجد من ذلك بدًّا ! وأين نحن من المتنبي الذى كان يقول بين يدى أبى العشائر :

فلا مُبـالٍ وَلاَ مُدَاجٍ ولا وانٍ ولا عاجِزٌ ولا تُكَلَهْ

لقد أصبح الآن يجزى على ابتسام بابتسام ، ويلقى نفاقاً بنفاق؛ لأنه عرف الناس واعترف بأن الجماعة أقوى من الفرد ، و بأن الحوادث أقوى من الإنسان ، و بأن الحياة أعظم قوة من الأحياء .

وانظر إليه كيف يصف سجنه فى مصر :

أقمْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ فَلاَ وَرَائِى تَخُبُّ بِىَ الرِّكابُ وَلاَ أَمَامِى
ومَلَّنِى الفِرَاشُ وكانَ جَنْبِى يَمَلُّ لِقَاءَهُ فى كلِّ عامِ
قَلِيلٌ عائِدِى سَقِمٌ فُؤَادِى كَثيرٌ حاسِدِى صَعْبٌ مَرَامِى

وأنا أدع وصفه الرائع للمرض والحمى ، فقد كثر فيه حديث القدماء ، وأصل إلى هذه الأبيات التى يصف فيها علة مرضه الصحيحة، وهى هذه البطالة التى فرضت عليه :

يَقُولُ لِىَ الطبيبُ أكلتَ شَيْئًا وداؤُكَ فى شَرابِكَ والطَّعامِ
وما فى طِبِّـــهِ أَنِّى جَوادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طُولُ الجمامِ
تَعَوَّدَ أنْ يُغَبِّرَ فى السَّرايا ويدخلَ من قَتَامٍ فى قَتامِ
فأُمسِكَ لا يُطالُ لهُ فيَرْعَى ولا هُوَ فى العَليقِ ولا اللجامِ

ثم انظر آخر الأمر إلى هذه الأبيات التى تصوّر إذعانه للقضاء وصبره على المحن ، ولـكنها تنتهى به إلى أنة هى اليأس القاتم الذى ليس وراءه أمل ولا رجاء :

فإنْ أمْرَضْ فما مَرِضَ اصطبارى   وإنْ أُحْمَمْ فما حُمَّ اعتزامى

وإن أسْلَمْ فما أبْقَى ولـكِنْ   سَلِمْتُ من الحِمامِ إلى الحِمامِ

تَمَتَّعْ من سُهـادٍ أو رُقادٍ   ولا تأمُلْ كَرًى تحتَ الرِّجامِ

فإنَّ لثالـثِ الحالَيْن مَعْنًى   سِوَى مَعْنَى انتباهِكَ والمَنامِ

والمتنبى فى هذه الأبيات الأخيرة يبلغ الفلسفة العليا ، ويرتفع عن نفسه وسجنه ومرضه وما يحيط به من الأحداث ، إلى التفكير فى طبيعة الموت وما يكون وراء القبر . وهو هنا يائس ، وما أراه إلا منكراً للبعث جاحداً للحياة الثانية ، ولـكنه يؤدِّى هـذا الإنكار فى تحفظ واحتياط شديدين . وأهون حاليه أن يكون شاكًّا مرتاباً ، كما رأيت فى بائيته التى رثى بها أخت سيف الدولة .

وليست هـذه هى المرة الوحيدة التى يتعمق المتنبى فيها فى أمور نفسه وأمور الناس حتى ينتهى به التعمق إلى تجاوز نفسه وتجاوز الناس ، وإذا هو يفكر فى فلسفة الأخلاق أو فلسفة الدين . فالنونية التى قالها فى مصر وحفظها لنا الديوان ، تحدثنا بكثير من تعمق المتنبى فى أمور نفسه وأمور الناس أحياناً ، وهى على قصرها خصبة كثيرة الدلالة .

وما أرى إلا أن طول تفكيره فى قصته عند سيف الدولة هو الذى ألهمه هـذه الأبيات المظلمة التى هى عندى من أسس الفلسفة العلائية :

صَحِبَ النـاسُ قَبْلَنا ذَا الزمانا   وعَناهُمْ من شـأنِهِ ما عنانا

وتَوَلَّوا بغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْـ   ـهُ وإنْ سَرَّ بعضَهُمْ أحيانا

رُبَّما تُحْسِنُ الصنيعَ لياليـ   ـهِ ولـكنْ تُـكَدِّرُ الإحسانا

فهو فى هـذه الأبيات يضع أساس التشاؤم المطلق واليأس الشامل ، والتشاؤم الذى لا موضع فيه للتفاؤل . فهو قد صحب الزمان فلم ير منه خيراً . والناس قبله قد

صحبوا الزمان فلم يروا منه خيراً . وهو لا ينكر أن اللذة قد تعرض للناس فى حياتهم بين حين وحين ، ولكنه لا يشك فى أنها لذة عارضة لا تلبث أن تزول ، وطارئة لا تقيم حتى تريم .

والناس جميعاً مهما تختلف حظوظهم من اللذات ، يتركون الحياة يائسين محزونين ، آخر حظهم هذه الغصة التى تنغص كل ما بَلَوْا من خير ولقوا من إحسان . فالأصل فى الزمان الشر ، به يبدأ حياة الناس وبه يختم حياة الناس ، وقد يخلى هذه الحياة من الخير ، وقد يشيع فيها بعض الخير ، ولكنه مُنْتَهٍ بها دائماً إلى الشر .

وليس الناس خيراً من الزمان ، ولكنهم شركاؤه فى الشر وأعوانه على السوء؛ كأنما تلقوا منه العدوى ، فأسرعوا إلى موافقته ومعونته .

وكأنّا لم يَرْضَ فينا بريْبِ الـ ـدَّهْرِ حتى أعانَه من أعانا
كلّما أنبتَ الزّمانُ قنـاةً رَكَّبَ المرْء فى القناةِ سِنانا
ومُرَادُ النفوسِ أصْغَرُ مِنْ أنْ تتعادَى فيـهِ وأنْ تتفانَى

وإذا كان الزمان كله شراً ، وإذا كان الناس أعواناً للزمان على ما يُصَبُّ عليهم من الشر ، فما عسى أن تكون السيرة التى ينصح بها المتنبى للرجل الذى يريد أن يكون حكيما كريماً ؟ هى أن يكون شجاعاً ، وألا يذعن للذل ، ولا يستسلم للهوان . فأقصى ما ينتهى أمره إليه حين يأبى الذل ويمتنع على الضيم ويثور على الجائرين ، إنما هو الموت ، والموت واقع لا محالة ، وهو نازل بالشجاع والجبان ، وبالقوى والضعيف ، وبالثائر والمستكين . وإذن فليس هناك معنى للخوف منه أو تهيب لقائه . إنما يُفْهَمُ الخوف من الموت لو أن للأحياء سبيلا إلى الخلود . فأما والحياة إلى موت ، والبقاء إلى فناء ، فاحتمال الضيم عجز ، والإذعان للهوان جبن .

وقد يخشى الناس ألم الموت ؛ لأنهم يقدرون أنه مؤلم ، ولكن قليلا من الروية يزيل من نفوسهم هذا الخوف ؛ فكل ما نراه صعباً قبل وقوعه نراه سهلا عند وقوعه . وإذن فليس للكريم خطة إلا الإقدام :

غَيْرَ أنّ الفَتى يُلاقى المنايا كالِحاتٍ ولا يُلاقى الهَوَانا
وَلَوَ أنّ الحيـاةَ تَبقى لِحَيٍّ لَعَدَدْنا أَضَلَّنا الشجْعانا
وإذا لم يَكُنْ من الموتِ بُدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أن تَكونَ جَبانا
كلُّ مالم يَكُنْ من الصَّعْبِ في الأنـ فُسِ سَهْلٌ فيها إذا هُوَ كانا

وما أرى إلا أن هذه الأبيات الأخيرة تدل على الخطة التي كان المتنبي يديرها فى رأسه حين استيأس من كافور وحين استيقن أنه أسير عند هذا الأمير ، وهى خطة الهرب من مصر .

والديوان يحدثنا بأن الشاعر استأذن كافورا فى الذهاب إلى الرملة ، ليقضى مالاً كتب له به ، فلم يأذن له الأمير ، وأقسم عليه لا يرحل ، وتكلف أن يقضى له ماله . ومنذ ذلك الوقت لم يشكّ المتنبى فى أنه سجين كافور ، ولم يفتر عن التفكير فى الإفلات من هذا السجن .

وكم كنت أحب أن أقف عند هذه النونية التى قالها المتنبى فى سيف الدولة وقد انتهت إليه الأنباء فى مصر بأنه نُعِى فى مجلس الحدانى . فهذه النونية ليست أقل روعة ولا جمالا من القصيدتين السابقتين . لكنى أذكر منها آخرها ؛ لأنه يصور لنا ألم المتنبى من الحرمان فى مصر والشماتة فى حلب . ولا أعرف شيئاً يؤلم و يؤذى مثل هذه التعِلّة التى يخدع بها الشامتين به ، و إن كان فيما بينه و بين نفسه لا ينخدع ولا يأمل ولا ينتظر شيئاً :

وإن تأخَّرَ عَنّى بعضُ مَوْعِدِهِ فما تأخَّرُ آمالى ولا تَهِنُ
هُوَ الوَفىُّ ولكِنّى ذَكَرْتُ لهُ مودّةً فَهْوَ يَبْلوها ويمتحِنُ

وأنا أحب لك أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ؛ فهى من أرق شعر المتنبى وأبقاه .

١٠

وكأن الزمان قد تأذّن أن يعاقب المتنبي على ما بلا عند سيف الدولة من راحة ولذة ونعيم ، أو أن يعاقبه على ما أظهر عند سيف الدولة من اعتداد بالنفس وازدراء للناس ، ومن بغى وطغيان وكفر للنعمة وجحود للجميل ، فأقسم لينغصن عليه حياته في مصر كلها تنغيصاً . فبينا هو شقيّ في الفسطاط بفراق سيف الدولة ، وإخلاف كافور ، وأخذِ الطرق عليه من كل وجه ، واضطراره إلى حياة السجناء ، وإذا أمل يبدو له ، فيرد عليه فضلا من حياة ، ويشيع فيه شيئاً من نشاط . فقد اتصل ، بعد جهد ومشقة ، بأمير من أمراء مصر ، هو أبو شجاع فاتك الرومي الذي كان يعرف بالمجنون . وكان فاتك هذا مولى من موالى الإخشيد مثل كافور ، وكان قائداً من قواده ، وكان مقدماً عنده وأثيراً في نفسه ، وكان يفضّل على كافور لأنه أبيض من الروم ، وكافور أسود نوبي أو زنجي ، ولأن فاتكا كان مقداما جريئاً يكاد يبلغ التهور أو الجنون . فأما كافور فقد كان كما رأيت من سيرته حازما عازما شجاعاً ، ولكنه معتدل يؤثر المكر والدهاء على الحرب والقتال ، ويصطنع في ذلك مذهب سيده الإخشيد . وكان فاتك مسرفاً في الكرم والجود ، إن صدق تصوير المتنبي له ، وصح ما يروى من إهدائه إلى الشاعر عن سعة وسخاء . ولم يكن كافور بخيلا ولا حريصاً ، ولكنه كان مدبراً يكره الإسراف وينأى عنه . ولعل المتنبي تقرّب إليه بقوله في الدالية المشهورة :

فلا ينْحَلِلْ في المَجْدِ مالُكَ كلُّه فينْحَلَّ مجدٌ كان بالمال عَقْدُهُ
وَدَبِّرْهُ تدبيرَ الّذى المجدُ كَفُّهُ إذا حارَبَ الأعداء والمالُ زَنْدُهُ
فلا مَجْدَ في الدُّنيا لِمَن قَلَّ مالُهُ وَلا مالَ في الدُّنيا لمن قَلَّ مَجْدُهُ

ولما مات الإخشيد قضت الظروف أن يكون تدبير الملك إلى كافور دون فاتك، فانحاز هذا إلى الفيوم ، وكانت إقطاعاً له ، وكانت أنباؤه وأحاديث الناس عنه تنتهى إلى المتنبي فتطمعه وتغريه ، ولكنه كان لا يجد إلى لقائه سبيلا ، لتضييق كافور عليه وتشديده فى المراقبة .

وقد اعتل فاتك وأقبل إلى القاهرة يستشفى ، سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، ولعله احتال فى لقاء المتنبي ، واحتال المتنبي فى لقائه ، وأتيح لهما هذا اللقاء فى الصحراء ، كما يقول ابن خلكان . ثم أهدى أبو شجاع إلى المتنبي فأحسن الإهداء ، وأعطاه فأجزل العطاء . واستأذن المتنبي كافورا فى أن يشكر لفاتك إهداءه وعطاءه ؛ فلم يجد كافور بدًّا من الإذن ، مجاملة ومصانعة أيضاً . وقال المتنبي فى فاتك لاميته المشهورة :

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها وَلا مالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

وكأن المتنبي لم يستطع أن يكف نفسه عن التعريض الخفى بكافور ، فقال فى البيت الثانى من هذه القصيدة :

واجْزِ الأميرَ الّذى نُعْماهُ فاجِئَةٌ بِغَيْرِ قَوْلٍ وُنعْمَى الناسِ أقوالُ

وهو كذلك لم يستطع أن يخفى تأذِّيه بهذا السجن الذى يمسكه فى الفسطاط ، فقال :

وإنْ تَكُنْ مُحْكَماتُ الشُّكْلِ تَمْنَعنى ظُهورَ جَرْىٍ فَلِى فِيهِنَّ تَصْهالُ

ثم اتخذ بعد ذلك فى مدح فاتك سبيلا سواء ، ليس فيها تعوُّج ولا التواء .

ولعل المتنبي كان يتحدث إلى نفسه بأن الظروف قد تتيح له الاتصال بفاتك فى غير احتياط ولا حرج . ومن يدرى ! لعله كان يجد عند فاتك ما يعزِّيه عما لم يظفر به من كافور . ولكن الزمان كان قد تأذّن ، كما قلت لك ، بأن ينغص على المتنبي حياته كلها فى مصر ؛ فقد مات فاتك بعد أن سمع هذه اللامية بوقت قصير ، وحزن المتنبي عليه كما يستطيع أن يحزن ، ورثاه كما يستطيع أن يرثى فى قليل من الإجادة والتأثر ، وفى كثير من الكلام . فقد رثاه ثلاث مرات فى ثلاث قصائد ، ولكنه

لم يُظهر هذا الرثاء فيما أُرجح إلا بعد خروجه من مصر . وأكبر ظنى أن المرثية الأولى قيلت فى الفسطاط نفسها . وأولى هذه المراثى عينيته التى مطلعها :

الحُزْنُ يُقلِقُ والتجمُّلُ يَرْدَعُ والدَّمعُ بَيْنَهُما عَصِىٌّ طَيِّعُ

والثانية ميميته التى أولها :

حَتَّامَ نحنُ نُسارِى النَّجْمَ فى الظُّلَمِ وما سُراهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ

وقد قيلت فى الكوفة .

والثالثة ميميته التى قالها فى الكوفة وقد ذكره ببعض هداياه ، وأولها :

يُذَكِّرُنى فاتِكاً حِلمُهُ وَشَىءٌ من النَّدِّ فيه اسمُهُ

وليس فى هذا الرثاء كله ما يميزه من رثاء المتنبى إلا ما يشتمل عليه من هجاء كافور ، كما أن مدح المتنبى لفاتك لا يمتاز من سائر مدائحه بشىء .

فلندع هذا الشعر الذى لا يكاد يصور من حياة الشاعر إلا بارقة أمل لم تلبث أن أخلفت الأيام فيها ظنون الشاعر اليائس الحزين .

١١

وقد انتهى المتنبي بعد طول الانتظار إلى اليأس من كافور وخيبة الأمل فيه . وإذا صدق الديوان فقد أقام سنة كاملة فى مصر لا يرى كافورا ولا ينشده . وإذا صدق ما يقوله بعض الرواة ، فقد كان يظهر فى القصر ويسير فى المواكب ، ولكنه لا يمدح الأمير طَوالَ سنة خمسين وثلثمائة . وأكبر الظن أنه كان يعيش عيشة المغضوب عليه ، الذى أُخذت عليه طرق الفرار ، فهو حر فى ظاهر الأمر سجين فى حقيقته .

فى ذلك الوقت جعل المتنبي يتهيأ للهرب من جهة ، ويقول الشعر فى هجاء كافور . والناس يكبرون هذا الهجاء ويكثرون الإعجاب به والكلام فيه . والمحدثون المعاصرون يختلفون فيه اختلافاً كثيراً : فمنهم من يرى أن المتنبي قد تجاوز كافورا بهذا الهجاء إلى مصر كلها والمصريين جميعاً . ومنهم من يرى أنه لم يرد مصر ولا المصريين ، وإنما أراد كافورا ، ومن كان إليهم الحل والعقد من قادة الإخشيديين . وهم بعد ذلك يختلفون ، فمنهم من يعذر المتنبي ، ومنهم من يمقته ويسرف فى مقته ، ويكره من أجل هذا الهجاء شعره كله . وربما كان من الناس من يرى شيئاً من الصدق فيما عاب المتنبي به المصريين . فمن الناس من يتمثل بقوله :

أغايةُ الدِّينِ أنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ ... يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِها الأُمَمُ

وأكثر الناس يتمثل بقوله :

وَماذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكاتِ ... ولكِنَّهُ ضَحِكٌ كالبُكا

وربما تمثل بعضهم بقوله :

نامَتْ نَوَاطِيرُ مِصرٍ عَنْ ثَعالِبِها ... فَقَدْ بَشِمْنَ وما تَفْنَى العناقيدُ

وأنا أعترف بأنى لا أرى كل هذه الخصومة إلا لغواً لا خير فيه . فقد غضب

شاعر من الشعراء على أمير من الأمراء فهجاه ، بعد أن رضى عنه فأثنى عليه . وهذا شىء يكون فى كل زمان ويكون فى كل مكان . وما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم ؛ لأنهم مدحوا أو هجوا ، ولأنهم مدحونا نحن أو هجونا ، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء .

وقد رأينا أن مدح المتنبى لكافور كان مدحاً معتدلا ، يجود حيناً ويتوسط حيناً آخر ، وكان جزل اللفظ ، رصين الأُسلوب ، أقرب إلى الرضا منه إلى السخط . وما أشك فى أن المتنبى قد وفق للاجادة فى هجاء كافور والمصريين أكثر مما وفق للاجادة فى المدح . وليس يطلب إلى الشاعر حين يهجو أن يقول حقا ، وإنما يطلب إليه أن يتقن الإساءة إلى من يهجو ، ويبرع فى التشهير به والتشنيع عليه . فأما أن يكون صادقاً أو كاذباً ، فأما أن يكون مرضياً للأخلاق أو مخالفاً عن أمرها وقانونها ، فهذا شىء لا يعنى الفن بحال من الأحوال . وقد كذب الفرزدق على جرير ، وكذب جرير على الفرزدق ، وكذب غير الشاعرين عليهما جميعاً ، وقُضِى لهؤلاء الشعراء بالبراعة فى الهجاء .

فاذا أنكر المتنبى من كافور؟ أنكر عليه خَلْقَه أولاً : رآه أسود دميما ، قبيح الشكل ، ضخم المشفر مشقوقه ، غليظ القدمين مشقوقهما أيضاً ، خصياً ، ثم عيره هذا كله فى شعر مضحك لاذع من غير شك . ولكنه كان يعرف هذا كله من كافور حين كان يمدحه ويتملقه ، ويسرف فى التقرب إليه . فهو قد أضحك الناس من كافور ، ولكنه قد غض من نفسه عند الناس. والناس قد يضحكون من الرجل الدميم ذى الخلقة البشعة والشكل القبيح ، ولكنهم مع ذلك يكبرون عقله ، ويُعْجَبون بأخلاقه ، ويحمدون مهارته فى السياسة ، وبراعته فى تدبير أمور السلطان . وكذلك ضحك الناس من كافور ، وما يزالون يضحكون منه إذا قرءوا أو سمعوا هجاء المتنبى له ، ولكنهم لا يزدرونه ولا يحقرونه ، وإنما يضحكون منه فى شىء من العطف وكثير من الإعجاب . فإذا أنكروا أحداً فهم ينكرون الشاعر

الذى أعطى ثم أخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذّب نفسه . وهم حين يضحكون من هذا الشاعر لا يبخلون عليه بالإعجاب والإكبار ؛ فهم يكبرون فنه وبراعته فى تصريف الكلام ، ولكنهم يصغّرون رأيه ويحقّرون خُلقه ، ولا سيما حين يكون هذا الرجل مكبراً لنفسه كما كان المتنبى يُكبرها .

والمتنبى يهجو كافورا بأصله ، وبأنه كان رقيقاً تلعب فى رأسه يد النخاس . وهذا كلام يُضحك الناس ويُرضى العامة ، ولكنه لا يغض من كافور ، ولا يضع من قدره . فقد كان المتنبى نفسه يُثنى عليه لأنه ارتقى من حاله تلك إلى أن أصبح يدبر ملكا واسعاً وسلطاناً بعيداً .

والمتنبى بعد هذا كله ينكر نفسه أشد الإنكار . فما ينبغى للفيلسوف الحكيم الذى أنفق شبابه الأول ثائراً على النظم الاجتماعية ، منكراً لما تقوم عليه من الجور ، مؤمناً بالمساواة بين الناس جميعاً ، أن يعيب رجلا بسواد الجلد ، أو أن يعيبه بهذا النظام الذى كان ينكره ويثور به ، والذى كان يقسم الناس إلى السادة والعبيد ، وإلى الأحرار والأرقاء ، وإلى الأغنياء والفقراء .

فالمتنبى فى قصته مع كافور كلها صغير حقا : صغير حين مدح ، وصغير حين هجا ، وصغير حين رضى ، وصغير حين غضب . ولكن صغره هذا لا يمنعه من أن يهجو فيجيد ، ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد . والحق بعد هذا كله أنه قد هجا كافورا فكان لاذع الهجاء . ولعله هجا المصريين فوفق لتصوير شىء من مواطن الضعف فيهم . ومن ذا الذى لا حظ له من ضعف ؟! وأنا أعتذر — إذا لم يكن بدٌّ من الاعتذار — من الإعجاب ببعض هجاء المتنبى للمصريين ؛ فكما أنه قد أحسن تصوير لون من ألوان الحياة المصرية حين ائتلف كافور ومولاه بعد اختلاف ، فهو كذلك قد أحسن تصوير لون من أخلاق المصريين حين وصف إذعانهم وخنوعهم لهذا الأسود الذى كانوا يرونه يضرب ويهان ويعبث به فى الأسواق ، ثم أصبحوا يرونه ملكا يدينون له بالطاعة والخضوع . وما أكثر الظروف التى تدفعنا

جميعاً إلى أن نتمثل فى شؤون أنفسنا بالأبيات التى ذكرتها آنفا من شعر المتنبى دون أن يمسنا من ذلك أذى أو يلحقنا منه عار . والشعب الكريم كالفرد الكريم خليق أن يعرف عيب نفسه ويجدّ فى إصلاحه ما وجد إلى ذلك سبيلا .

ولننظر فى نماذج من هجاء المتنبى لكافور، كما نظرنا فى نماذج من مدحه إياه . ولنبدأ بهذه المقطوعة اليائية التى جاءت على الوزن والقافية اللذين اصطنعهما فى أول قصيدة مدحه بها حين أنشده :

كَفَى بِكَ داء أن تَرَى الموتَ شافيا وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

ومن يدرى ! لعل المتنبى لو فرغ لكافور وكان منظَّم النفس منظم الحياة ، لقال فى هجائه بمقدار ما قال فى مدحه ، ولعارضَ كل قصيدة فى المدح بقصيدة فى الهجاء تشبهها فى الوزن والقافية ، وتنقض ما اشتملت عليه من ثناء .

ولكن المتنبى لم يفرغ حتى لهذا ؛ فهو كان مشغولا عن الفن الخالص ، لا يقول الشعر إلا حين يرغب أو يرهب ، وحين يحب أو يبغض . فأما الفراغ للفن من حيث هو فن ، فذلك شيء ليس من شأنه ، ولا هو من شأن كثير من شعرائنا ، ولا سيما فى هذا العصر العباسى .

قال المتنبى فى هجاء كافور :

أُريكَ الرِّضا لو أَخْفَتِ النفسُ خافيا وما أنا عن نَفْسى ولا عنْكَ راضيا

أَمَيْناً وإخْلافاً وغَدْراً وخِسَّةً وجُبْناً أَشَخْصاً لُحْتَ لى أمْ مَخازِيا

تَظُنُّ ابتساماتى رَجاء وغِبْطَةً وَما أنا إلاّ ضَاحِكٌ من رَجائيا

وقد أنصف المتنبى نفسه ، وأنصف منها فى هذه الأبيات حين لم يسخط على كافور وحده ، بل سخط على نفسه أيضاً ، وحين لم يضحك من كافور وحده ، بل ضحك مما ناط به من أمل وما عقد به من رجاء . ولكن المهم أن نعلم ماذا كان يقول المتنبى فى كافور لو أنه لم يخيِّب أمله ، ولم يُخلفه ما وعده : أكان يرى فيه كل هذه الخصال التى زعم أنه يراها فيه الآن ، وأنه كان يراها فيه حين كان ينشده المدح

ويرفع إليه الثناء ؟ ولكن البيت الثانى على كل حال جميل ، ولا سيما قوله :

أَشَخْصاً لُحْتَ لِى أَمْ مَخازِيا

ثم يقول :

وتُعجبُنى رِجْلاكَ فى النَّعْلِ إنَّنى رأيتُكَ ذا نَعْلٍ إذا كنتَ حافيا
وإنَّكَ لا تَدْرِى أَلَوْنُكَ أسْودٌ مِنَ الجَهْلِ أَمْ قد صارَ أبيضَ صافيا

وفى البيت الأول ظرف ، ولكن فى البيت الثانى مبالغة سخيفة ؛ فلم يكن كافور يُظَنّ به الجهل إلى هذا الحد .

ثم يقول :

ولولا فُضُولُ الناسِ جِئْتُكَ مادِحاً بما كُنْتُ فى سِرِّى به لك هاجيا
فأَصبحتَ مَسرُوراً بمـا أنا مُنْشِدٌ وإن كان بالإنشاد هَجْوُكَ غاليا

وهذا أبلغ فى تصوير الجهل ؛ فقد يُظَنُّ بالرجل الغفلة عن التفريق بين المدح والذم أكثر مما تُظَنّ به الغفلة عن التفريق بين البياض والسواد .

ثم يقول :

فإن كُنتَ لا خيْرًا أفَدْتَ فإنّنى أَفدتُ بِلَحْظِى مِشْفَرَيْكَ المَلاهِيا
ومِثْلُكَ يُؤْتَى من بلادٍ بَعيدَةٍ ليُضْحِكَ ربَّاتِ الحجالِ البَواكيا

وليس بهذين البيتين بأس ؛ فقد تكلف الشاعر فيهما عزاء عما احتمل من مشقة ، وما قطع من طريق ، وما أدرك من خيبة ؛ وكان عزاؤه أنه ضحك من مشفرى كافور كما ضحك من رجليه .

ومن أجود هجائه لكافور هذه الأبيات الميمية التى بدأها هازلاً ضاحكا ، ثم أخذ يجدُّ شيئاً فشيئاً حتى انتهى إلى حزن فلسفى عميق ، ثم إلى غضب حمله على أن يحرّض على كافور من يقتله . وذلك قوله :

من أيّةِ الطُّرْقِ يأتِى مِثْلَكَ الكَرَمُ أينَ المحاجِمُ يا كافورُ والجَلَمُ

جازا الألى مَلَكَتْ كفاكَ قَدْرَهُمُ فعُرِّفوا بك أنَّ الكَلْبَ فَوْقَهُمُ
لا شيءَ أقبحُ من فحْلٍ لهُ ذَكَرٌ تقودُه أمةٌ ليسَتْ لها رَحِمُ
ساداتُ كُلِّ أناسٍ من نفوسِهِمُ وسَادَةُ المُسلِمينَ الأعْبُدُ القَزَمُ
أغايةُ الدِّينِ أنْ تُحْفُوا شوارِبَكم يا أُمّةً ضَحِكَتْ من جهْلها الأُمَمُ
ألا فتًى يُورِدُ الهنـــديَّ هامَتَهُ كيما تَزُولُ شُكُوكُ الناسِ والتُّهَمُ
فإنّهُ حُجّةٌ يُؤذِي القُلُوبَ بها مَنْ دِينُهُ الدَّهْرُ والتَّعْطيلُ والقِدَمُ
ما أقدَرَ اللهَ أن يُخزِي خَليقَتَهُ ولا تُصَدِّقَ قوما في الذي زَعَمُوا

وللمتنبي في كافور مقطوعات أخرى يعرفها الناس ، يبلغ فيها الإجادة ، ولا يرتفع أحياناً فيها عن السخف . ولكني أقف عند قصيدته الدالية التي قالها عند خروجه من مصر في آخر سنة خمسين وثلاثمائة . وهي خليقة بالعناية حقا ، ولا سيما القسم الأول منها ، لما فيه من هذا الغناء الحزين الذي أجاده المتنبي في مصر كل الإجادة .

وانظر إلى هذه الأبيات الأولى ، وإلى هذه اللهجة القوية التي يملؤها الحزن واللهف والإشفاق ؛ فهو يستقبل العيد جاهلا بماذا يعود عليه : أبهذه الهموم والأحزان التي تعوّد أن يلقاها فيه منذ أقام بمصر ؟ أم بشيء آخر يغيِّر حاله السيئة هذه ، وينقله إلى حال خير منها ؟ وهو مع ذلك مبتئس بالعيد ، كاره له ، يتمنى لو بعد عنه ؛ لأن أحبّاءه منه بعيد ، وما يريد أن يستمتع وحده بالسرور . فمن هؤلاء الأحباء ؟ وأين يكونون ؟ أهم في قصر سيف الدولة بحلب ، حيث لا يستطيع أن يذهب ؟ أم هم بالكوفة حيث يريد أن يستقر ؟

يظهر أنهم ليسوا هنا ولا هنالك ، ولا في أي مكان آخر ، وإنما هم في نفس المتنبي ، أو هم في آماله التي لا يبلغها ، وأمانيه التي لا يستطيع لها تحقيقاً .

فانظر إليه كيف يقول :

لولا العُلَا لم تَجُبْ بي ما أجُوبُ بها وجناءُ حَرْفٌ ولا جَرْداءُ قَيدُودُ

وَكانَ أطْيَبَ من سَيْفِي مُعانَقةً أشباهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأماليدُ

فأحبّاؤه إذن ليسوا أشخاصاً يقيمون فى حلب أو فى الكوفة ، و إنما هى أطماعه وأمانى نفسه التى لم يظفر بها قط ، ولن يجد إلى الظفر بها سبيلا .

واقرأ هذه الأبيات التى لا أعرف أجمل منها ، ولا أصلح للغناء :

لم يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قلبى ولا كَبِدِى شيئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولا جِيدُ
ياساقِيَىَّ أخمرٌ فى كُؤُوسِكُما أم فى كُؤُوسِكُما هَمٌّ وَتَسْهِيدُ
أصَخرةٌ أنا مالِى لا تُحَرِّكنى هذِى المُدامُ ولا هذِى الأغاريدُ
إذا أرَدتُ كُمَيْتَ اللونِ صافِيةً وَجَدْتُها وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

أما أنا فمفتون بهذه الأبيات ، وبالثلاثة الأخيرة منها خاصة . وما أعرف أنى وجدت فى كل ما قرأت من الشعر العربى ما يشبهها جمالا وروعة ، ونفاذاً إلى القلب وتأثيراً فى النفس . ومهما أحاول فلن أستطيع تصوير ما يملأ نفسى من الحزن حين أسمع تحدثه إلى ساقييه وسؤاله إياهما عما فى كؤوسهما : أخمرٌ هو أم همٌّ وتسهيد ؟

ومهما أقل فلن أستطيع أن أصور إعجابى بهذا البيت الذى يسأل فيه عن نفسه : ما له لا يطرب للخمر ولا يطرب للغناء . وما أعرف بيتاً يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيراً من هذا البيت ، وهو على تصويره الرائع للسكون والجمود والموت ، من أشد الشعر تحريكا للنفوس وإثارةً للطرب الحزين فى القلوب .

ثم انظر إلى هذه الحسرة التى يصيح بها البيت الأخير ، صيحة اليأس والقنوط ، لأنه يبتغى المدام فيظفر بها ، ولكنه وحيد قد فقد حبيب نفسه ، فهو لا يستطيع أن يلهو وحده ، ولا أن ينعم بلذة وحيداً .

ثم اقرأ هذه الأبيات الأخرى ؛ فقد أخذ الشاعر يوضح عما فى نفسه ، ويبين أسباب حزنه شيئاً فشيئاً :

ماذا لَقِيتُ من الدُّنيا وأعجَبُهُ أنّى بما أنا باكٍ منه محسودُ

أمسَيْتُ أرْوَحَ مُثْرٍ خازِنًا ويَداً أنا الغَنيُّ وأموالِى المَواعِيدُ

وهذا الشطر الأخير جميل رائع بما فيه من هذا الإيجاز ومن هذا الشيء الذى يشبه الطباق؛ فهو غنى ولكنه فقير؛ لأن ثروته وعود لم تتحقق. هذا الشطر الجميل الذى سار مسير الأمثال كذبٌ كله. وكان المتنبي يعرف أنه كذب؛ لأن هذه الإبل التى كانت تُحْدَى بين يديه مثقلة بما كانت تحمل من الذهب والفضة والمتاع، والتي كان المتنبي حفيًّا بها، حريصاً عليها، لا يتردد فى أن يقترف الإثم ذياداً عنها، واحتفاظاً بها — هذه الإبل كانت خليقة، لو استطاعت، أن تردّ عليه شطره هذا، وأن تصيح به: إنه خرج من مصر، كما خرج من حلب، ومعه أموال أخرى غير المواعيد.

وقد وصل المتنبي إلى كافور وأصحابه، فهجاهم بالكذب والغدر و إخلاف الوعد، ومقتهم ومقت الجود معهم. ولكن انظر إليه بعد قليل كيف يقول:

أَكُلَّما اغتالَ عبدُ السَّوءِ سَيِّدَهُ أو خانَهُ فله فى مِصْرَ تَمهِيدُ

صارَ الخَصِيُّ إمامَ الآبِقِينَ بها فالحرُّ مُسْتَعْبَدٌ والعبدُ معبودُ

نامَتْ نَواطِيرُ مصرٍ عن ثَعالِبها فقد بَشِمْنَ وَما تَفْنَى العَناقيدُ

ولست أعرف أصدق فى مصر ولا أبرع فى تصويرها من هذا البيت الأخير.

وما أرى إلا أن المتنبي قد ألهم البلاغة والحكمة حقا، حين وفق لهذا البيت الذى يختصر لوناً من حياة مصر منذ أبعد عهودها بالتاريخ إلى هذا العهد الذى نحيا فيه. ولو أن التاريخ أراد أن يُحصى الثعالب التى عدتْ على مصر وأموالها، فأخذت منها ما أطاقت وما لم تطق حتى أدركها البشم وما هو فوق البشم، ونواطيرها نائمة، وقادتها غافلون، وأموالها مع ذلك لا تفنى ولا تنفد، ودول الثعالب يتلو بعضها بعضاً، ويقفو بعضها أثر بعض — أقول لو أراد التاريخ إحصاء هذه الثعالب، لما استطاع. ولست أدرى: أيأتى يوم يكذِب فيه هذا البيت من شعر المتنبي، فلا تنام نواطير

مصر ، ولا تبشَم الثعالب فيها ، ولا يعدو الماكرون الغادرون على أهلها الآمنين الغافلين ! ثم يقول المتنبي بعد قليل :

ما كنت أحسَبُنى أحيا إلى زمَنٍ ... يُسيءُ بي فيه كَلْبٌ وهْوَ محمودُ
ولا توهَّمْتُ أنَّ النَّاسَ قد فقِدُوا ... وأنَّ مِثلَ أبِي البيضاء موجودُ
وأنَّ ذا الأسْوَدَ المثقُوبَ مِشْفَرُهُ ... تُطيعهُ ذى العضاريطُ الرِّعادِيدُ
جَوعانُ يأكلُ مِن زادى ويُمْسِكُنى ... لِكَىْ يُقالَ عَظِيمُ القَدْرِ مَقصُودُ

ثم يبلغ الغضب من الشاعر أقصاه حين ينتهى إلى هذا البيت ، فإذا هو يعلن عزمه على الهرب فيه وقد أسبغ عليه اللون الحامى القاتم فى الشطر الأول ، ولكنه لا يلبث فى الشطر الثانى أن يستحيل إلى فكاهة تثير الضحك والاستهزاء . ثم يقول :

وَيْلُمِّها خُطَّةً وَيْلُمِّ قابِلِها

وإذن فالمتنبى ينكر هذه الخطة ويأبى ما تحمله من الضيم . ولكن كيف يكون إنكاره وكيف يكون إباؤه ؟ لن يكون مقاومة ولا امتناعا ، ولكنه سيكون هرباً وفراراً :

لِمثْلِها خُلِقَ المَهْرِيَّةُ القُودُ

والقصيدة متينة رصينة إلى آخرها ، ولعلها أجود ما قال المتنبى فى هذا الفن . ولم يتحدث عن هجاء المتنبى لكافور من لم يرو هذه الأبيات الخالدة التى جاءت فى آخر مقصورته ، والتى ما أحسب مثقفًا خليقاً بهذا الوصف جهلها أو يجهلها منذ شاع شعر المتنبى فى الناس :

ومَاذا بمصرَ منَ المُضحِكاتِ ... ولكِنَّهُ ضَحِكٌ كالبُكا
بها نَبَطِىٌّ مِنَ أهْلِ السَّوادِ ... يُدَرِّسُ أنسابَ أهْلِ الفَلا
وأسْوَدُ مِشفَرُهُ نِصفُهُ ... يُقالُ لَهُ أنتَ بَدْرُ الدُّجى

وشِعْرٍ مَدَحْتُ به الكَرْكَدَ نَ بَيْنَ القَرِيضِ وبينَ الرُّقَى
فما كانَ ذلك مَدْحًا لَهُ ولكنّه كان هَجْوَ الوَرَى
وقد ضَلَّ قومٌ بأصنامِهم وأمّا بزِقٍّ رِياحٍ فَلَا
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأى غيرُهُ مِنهُ مالا يرى

وسواء أردنا أم لم نرد ، فإن لمصر على المتنبي فضلاين لا يستطيع هو ولا نستطيع نحن أن ننكرهما . فهي قد رقّقَتْ غناءه وعلّمته الحزن الطويل العميق ، والتأمل الذى يكاد يرقى به إلى الفلسفة ، وأنطقته بأشد شعره حزناً وأبلغه في النفس أثراً ، في ميميته التي يذكر فيها مرضه ، وفي نونيته التي يشكو فيها الزمان . وهي قد علّمته الهجاء اللاذع الممضّ الذى يبقى على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة .

فالمتنبي مدين لمصر بكثير من حكمته ؛ لأنه لم يعرف الحياة الهادئة التي تملؤها الهموم الملحة كما عرفها في مصر . كان خليقاً أن يعرفها في السجن بعض الشيء ، ولكنه كان شابا قليل التجربة فأسرع إليه الضعف . وكان خليقاً أن يعرفها أثناء اضطرابه في شمال الشام بعد خروجه من السجن و بعد فراره من بدر ، ولكنه كان كثير الحركة قليل الاستقرار ، مباعداً بينه و بين التفكير الطويل العميق . فأما عند سيف الدولة فقد كان مشغولا بالقصر والحرب ، وبالكيد وجمع المال . فلما انتهى إلى مصر واستقر في ظل كافور أُتيح له السكون والهدوء ، ولم يعرض له أحد بكيد ولا حسد ، ولم يضيَّق عليه في حياته المادية ، و إنما وُضع على نار هادئة من الوعد والإخلاف ، فنضجت نفسه نضجاً بطيئاً ، ولكنه نضج صحيح ، وتعلم كيف يطيل التفكير في الحوادث والخطوب دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء ، وانتهى إلى الاستهزاء بالحوادث والخطوب وبالذين يسلّطون عليه هذه الحوادث و يغرون به هذه الخطوب، فنبغ في الهجاء ، واستطاع أن يرقى به من السخف والإقذاع إلى حيث يجعله أمثالاً سائرة وحكمة تنفع الناس .

١٢

ولم يكن بدٌّ للمتنبي ، حين أزمع الرحيل من مصر ، من أنْ يقصد إلى العراق . فسبيل الشام مأخوذة عليه ، فى جنوبها ملك الإخشيديين وسلطان كافور ، وفى شمالها الحمدانيون الذين فارقهم قالياً لهم ، والذين لايستطيع أن يصل إليهم حتى لو عاد بينهم و بينه الصفو ، إلا أن يمر بطريق مأهولة فى بلاد كافور يشتد فيها الطلب وتضيّق فيها المراقبة .

وقد كان من الجائز أن يباعد المتنبي فى أسفاره نحو الغرب ، فيقصد إلى الفاطميين فى شمال أفريقيا . ولكن هذا لم يخطر له لسبب واضح جدًّا ؛ لأنه لو فعل لنفى نفسه عن العراق والشام نفياً مؤبداً كما يقولون ؛ لأنه كان يجعل ملك كافور بينه و بين مأمنه فى العراق والشام . فلم يكن له بدٌّ إذن من أن يعود إلى العراق ، ومن أن يسلك إليه طريقاً غير الجادّة ، لا يمكن أن يدركه فيها الطلب أو يبلغه فيها البحث إلا بعد مشقة وجهد . وقد دبّر المتنبي أمره تدبيراً حسناً ، وأعانه على ذلك جماعة من أعراب مصر الذين يحسنون العلم بطرق الصحراء . فالديوان ينبئنا بأنه استعان برجل قيسى من بلبيس فأرسل إليه دليلا ، ومدحه المتنبي بالأبيات التى أولها :

جَزَى عَرَباً أمستْ بِبُلْبَيْسَ رَبُّها ... بمَسْعاتِها تَقْرَرْ بذاكَ عُيونُها

وليس من شك فى أن الشاعر جدّ فى الهرب حتى أمن طلب كافور ، ثم رفق بنفسه و إبله وخيله وعبيده بعد ذلك فسار معتدلا ، ولم يبخل على قافلته ببعض الراحة من حين إلى حين ، حتى انتهى إلى الكوفة ، وقال مقصورته المشهورة فى ربيع الأول من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة . وكان قد خرج من الفسطاط فى يوم

عرفات سنة خمسين وثلاثمائة ؛ فكأن هـذه الرحلة قد اقتضته ثلاثة أشهر أو أقل أو أكثر قليلا .

وما كنا لنقف عند هذا الهرب ، ولا لنتحدث عن هذه الرحلة ، لولا أن فيهما ظاهرتين خليقتين بالملاحظة والتفكير : فأما الظاهرة الأولى فنستنبطها من هذه الحادثة التي عرضت له حين نزل في بعض طريقه بأعرابي من طيئ يقال له وردان بن ربيعة ، فجعل هذا الأعرابي يُفسد عبيده ، وجعل العبيد يسرقون له من متاع سيدهم . فلما شعر المتنبي بذلك وعرف أعظم عبيده حظًّا من هـذا الشر ضربه بالسيف فأصاب وجهه وجدع أنفه ، ثم أمر غلمانه أن يُجهزوا عليه ففعلوا .

وقد ذكر المتنبي هـذه القصة في مقطوعتين حفظهما الديوان ، وقد هجا الطائيين في أولاهما وهو يقول فيها :

لَئِن تَكُ طَيِّئٌ كانَتْ لِئاماً فَأَلأَمُها رَبيعَةُ أَو بَنُوهُ

وقال الثانية يفخر فيها بتلك الضربة التي أصابت وجه العبد ، ويذمّه بعد موته ، وأولها :

أَعْدَدْتُ لِلغادِرِينَ أَسْيافا أَجدَعُ مِنهُمْ بِهِنَّ آنافا

وليس لهذا الشعر في نفسه خطر ، وإنما هو نحو من كلام الأعراب في مثل هذه الحوادث الهينة في ظاهر الأمر . إنما الشيء الخطير حقا ، هو إقدام المتنبي على القتل في سبيل ما كان يسرق هذا العبد من متاعه . فذلك لا يصور بخله وحرصه على المال فحسب ، وإنما يصور كذلك ما هو شر من هذا ، يصور استهانته بالحياة الإنسانية ، واستباحته الدم الإنساني في سبيل متاع يقوّم بالدراهم والدنانير .

وأقل ما يوصف به هذا الإثم أنه لا يصور نفساً شاعرة متحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة ، فضلا عن الدين الذي لا يبيح دماء الناس في مثل هذه الصغائر . ولو أن حياة المتنبي كلها خلت من النقائص والعيوب ، لكانت هـذه الحادثة وحدها خليقة أن تُسبغ عليها لوناً أحمر قانياً يبغِّضها ويبغِّض صاحبها إلى الناس .

والغريب أن المتنبي يفخر بهذا الإثم ، ويراه مظهراً من مظاهر البطولة والفتوة . وأغرب من هذا أن من الناس من أعجب بهذا الإثم ، و بشعر المتنبي فيه قديماً وحديثاً؛ كأنه يكفي أن يُقترَفَ الإثم ويُرتكب الفجور ليُحْمَد الآثم بإثمه ويُثْنَى على الفاجر بفجوره في بيئات تتخذ الإسلام ديناً ، وتتخذ الفلسفة والحضارة مقوِّما للعقل والقلب والشعور . ولكنها الفتنة بالمتنبي تصرف الناس حتى عن أبشع سيئاته وأشدها نكراً .

أما الظاهرة الثانية فنراها في هذه المقصورة التي أذاعها من الكوفة ، ووصف فيها طريقه وهجا فيها كافورا ، وهي أن استرداد الشاعر لحريته قد ردّ عليه فتوّته الأولى ومرحه القديم وقتاً ما ، وإذا نفسه الشابة تشيع في هذه القصيدة فرحة مرحة وخائلة تياهة لا تكاد تسع نفسها ولا يكاد يسعها الكون ، وإذا الشاعر يعود إلى غروره القديم ، فيفخر بنفسه في غير قصد ولا اعتدال ، ويقول هذا الفخر في شعر جميل سائغ محبّب إلى النفس .

وليس من شك في أن هذه المقصورة من أجود ما قال المتنبي من الشعر ، وقد أحبها الناس في عصره واستنشدوه إياها ، وأعجبوا بها إعجاباً شديداً . وهي خليقة بهذا الإعجاب؛ لأنها تلائم نفس الشاعر أصدق ملاءمة، وتلائم المعاني التي أراد الشاعر أن يذيعها فيها .

وأظهر ما يعجبني أنا من هذه القصيدة ملاءمة الشاعر بين موضوعها أو موضوعاتها وبين ما اصطنع فيها من الوزن والقافية ؛ فهو قد أراد أن يصف هرباً بعيداً ممعناً في السرعة ، ممعناً في البعد ، وأن يفخر بنفسه فخراً يجب ان يذيع ويشيع ويملأ الآفاق في أسرع وقت ، وأن يهجو عدوّه هجاء لاذعاً يجب أن يسير ويطير في أسرع وقت أيضاً . فاصطنع لهذا كله هذا البحر الذي يصور السرعة والعدو ، وهذه القافية المقصورة التي ينطلق بها حرف اللين إلى غير حد . وما أسرع ما سارت القصيدة وطارت حتى ملأت الآفاق ، وانطلقت بها الألسنة في كل مكان !

وأول القصيدة وصف بدوى للطريق ، أو قل تسمية بدوية للمواضع التى مر بها وأقام فيها من الفسطاط إلى الكوفة ، وليس له من الجمال إلا بداوة اللفظ وعذوبته ، وهذه الحركة السريعة التى تحسها فيه . وآخر القصيدة هجاء لكافور قد رأيته وعرفت قدره . فأما وسط القصيدة فهو هذا الفخر الذى ذكرته آنفاً ، والذى لا بد من روايته لتعجب بنشاطه وسرعته ، وبضخامته وخفته فى وقت واحد ، وإن كان درسه وتحليله ينتهيان إلى ما يؤلم ، ويثير العطف والإشفاق :

فيالكَ لَيْــلاً عَلَى أعكُــشٍ　　أحَمَّ البِلاَدِ خَـفِيِّ الصُّوَى
وَرَدْنَا الرُّهَيمَةَ فى جَوْزِهِ　　وباقيهِ أكْثَرُ مما مَضَى
فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَا　　حَ بينَ مَكارِمِنا والعُلَا
وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيافَنا　　ونَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ العِدَى
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ　　وَمَنْ بِالعَواصِمِ أَنِّى الفَتَى
وأَنِّى وَفَيْتُ وأَنِّى أَبَيْتُ　　وأَنِّى عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وما كلُّ مَنْ قال قَوْلاً وَفَى　　ولا كلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أَبَى
ومَنْ يَكُ قَلْبٌ كَقَلْبِي لهُ　　يَشُقُّ إلى العِزِّ قَلْبَ التَّوَى
ولاَ بُدَّ لِلْقَلْبِ مِنْ آلةٍ　　ورَأْيٍ يُصَدِّعُ صُمَّ الصَّفا
وكلُّ طَرِيقٍ أَتاهُ الفَتَى　　عَلَى قَدْرِ الرِّجْلِ فيه الخُطَا

فهذا الفخر الرائع البديع كله ينحلّ إلى شىء يسير ، وهو أن الشاعر قد فر من مصر فرار اللص ، واندفع فى الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل فى طريقه عبداً لأنه سرق بعض المتاع . فظاهر هذا الفخر معجب من غير شك ، وباطنه يحزن ويضحك من غير شك أيضاً . ولكننا قد نزدرى الرجل ، وقد ينتهى الازدراء إلى أن نرحمه دون أن يمنعنا هذا أن نعرف للشاعر حقه فى كثير من الإعجاب .

الكتاب الخامس

١

والمسألة التي تحتاج إلى بحث واستقصاء ، وتعجز النصوص ، إلى الآن ، في رأيي ، عن حلها على نحو يُرضي ويريح ، سواء في ذلك ما حفظ الديوان من الشعر ، وما تحدّث الرواة به من الأخبار ، هي: ماذا كان المتنبي قد أضمر في نفسه من رأي ، ورسم لنفسه من خُطّة حين فر من مصر قاصداً إلى العراق ؟

أما أحاديث الرواة فمختلفة مختلطة ، وما أحسب أنهم فكروا في إلقاء هذا السؤال ومحاولة الجواب عليه ، ولكنهم رأوا أن المتنبي قد استأنف الاتصال بسيف الدولة ، وذهب إلى بغداد وعاد إلى الكوفة واتصل بسيف الدولة مرة أخرى ومرة ثالثة، وقصد إلى ابن العميد ، ثم إلى عضد الدولة ، ثم قُتل . وتناقلوا أخبارا متفرقة حول هذه الحوادث كلها، فلم يحسنوا تلخيصها ولا استخلاص ما تدل عليه من المعاني ، إن كانت تدل من المعاني على شيء . وأما المُحْدَثون فقد اجتهدوا في أن يستخلصوا من شعر المتنبي وسيرته وأحاديث الناس عنه معنى متسقاً يلائم بعضه بعضاً ، فظنوا أن المتنبي كان يفكر في الرجوع إلى سيف الدولة ويريد هذا الرجوع ، وأن سيف الدولة أيضاً كان يتمنى هذا . ولكن الأحداث لم تتح للأمير والشاعر أن يلتقيا . وما أدري : أ كان هذا حقا أم لم يكن . ولكني أفهم سيرة المتنبي منذ عاد إلى العراق على نحو يخالف ما ذهب إليه القدماء والمحدَثون جميعاً .

وأحب قبل كل شيء أن تذكر ما ألممت به في بعض الحديث عن المتنبي عند سيف الدولة ، من أن الشاعر قد أساء في حلب إلى وليّ الأمر في العراق إساءة جارحة لم يكن من اليسير أن تُنْسَى في سرعة وسهولة ، والأشخاص الذين هجاهم تعريضاً أو تصريحاً كانوا ما يزالون أحياء ، وكان السلطان ما يزال إليهم . وقد

رأيتَ أن المتنبي هجا الخليفة وهجا مُعِزّ الدولة ، وعرّض بوزيره المهلبي . وأنت تعلم أنه كان قد عرّض بكافور أيضاً ، ولكن تعريضه بكافور كان يسيراً بالقياس إلى تعريضه بأولى الأمر فى بغداد . ومع ذلك فقد رأيت أن كافورا لم يأمن للمتنبى ولم يطمئن إليه ، وإنما أذلّه من جهة واستخدمه من جهة أخرى . وقد أظهرت تجربة كافور أن الثقة بالمتنبى سذاجة ، وأن الاطمئنان إليه حمق . طمع فى كافور، وكان الحق عليه ألا يفعل ، وألحّ على كافور وكان الحق عليه أن يفهم استعداده لأول مرة لقيه فيها أو بعد انتظار قصير . ثم غضب على كافور وظل يمدحه مع ذلك حيناً ، ثم فر من كافور فأطلق لسانه فيه وأنكر ما كان قد أسبغ عليه من ثناء .

فلم يكن من المنتظر ولا من المعقول أن ينخدع أولو الأمر فى العراق عن هذا كله. لم يكن من المعقول أن ينسوا ما قال فيهم ولا أن يتناسوه ، ولا أن يُطمعوا المتنبي كما أطمعه كافور وقد رأوا نتيجة هذا كله واضحة بشعة . والمتنبى نفسه على سذاجته واعتداده بنفسه لم يقدِّر أنه سيلقى من أهل العراق حفاوة به أو إقبالا عليه وقد قال فيهم ما قال . وما أحسبه كان مستعدًّا لأن يأمن لهم ويطمئن إليهم كما فعل مع كافور . فهو إذن كان يائساً من أن يستأنف حياة الشاعر المادح من أصحاب السلطان فى بغداد كما فعل فى الفسطاط . وما أراه كان يفكر تفكيراً صادقاً فى العودة إلى سيف الدولة ، فلعله كان يحب الأمير ويكبره ويثق به ، ولكنه كان يعرف سلطان الحاشية وكيد القصر وضيق أُسرة الأمير نفسها به ، وهو كان قد تعرّض للموت مرة وأفلت منه بعد جهد . فمن يدرى ! لعله كان يتعرض للموت ولا يفلت منه مرة أخرى .

وكانت أمور سيف الدولة قد أخذت تفسد ويسعى إليها الاضطراب والانحلال . فالروم يَظْهَرون عليه من ناحية ، والمرض يأكل صحته من ناحية أخرى . وإذن فأيسر الحزم كان يفرض على المتنبي ألا يفكر فى حلب ، وألا يطمع فى بغداد . وما أظن إلا أنه قد انتهى إلى الكوفة وهو يريد أن يحيا فيها حياة الرجل الهادئ

المطمئن ، الذى جمع من المال مقداراً ضخما يمكّنه من أن يعيش عيشة أصحاب الثراء والجاه . وما أظن إلا أنه كان يريد أن يستمتع بهذه الحياة حيناً من الدهر ، وأن ينتظر ما ستتكشف عنه الأحداث . ولست أدرى : أأحس شيئاً من الحنين حين عاد إلى وطنه . ولست أدرى : أثارت فى نفسه ذكريات الصبا ، ففكر فى نشأته البائسة ، وفى جدّته الكريمة ، كما يظن الأستاذ بلاشير . ولكن الذى نعلمه هو أننا لا نجد أثراً لشىء من ذلك فى شعره ؛ فهو لم ينشئ قصيدة ولا مقطوعة ، ولم يشر فى قصيدة ولا مقطوعة إلى هذا العهد القديم من حياته ، كما أنه لم ينبئنا فى قليل أو كثير من شعره بما أحدثت عودته إلى وطنه الأول من أثر فى نفسه .

والغريب أننا سنجد عنده حنيناً ولكن إلى الشام ، وادّكاراً ولكن لحمص ودمشق وصحارى الشام . فأما الكوفة وباديتها ، فقد رأيناه يذكرها شيئاً ما حين كان مع سيف الدولة ، أما بعد أن عاد إليها فقد أهملها الإهمال كله .

وإذن فقد نغلو إن ظننا ، كما ظن الأستاذ بلاشير ، أنه قد أحس شيئاً من الألم والحزن حين رأى هذه المدينة العظيمة وقد أخذ الخراب يسعى فيها ، والانحطاط يسرع إليها . ولعله أحس شيئاً من الكبرياء حين رأى نفسه يعود إلى الكوفة غنياً موفوراً بعد أن خرج منها بائساً معدماً ، لا يجد ما يحمله إلى بغداد . ولكن هذا أيضاً لا يظهر فى شعره ، ولعله شُغِل حتى عن هذا ، بغضبه على كافور وإذاعته الهجاء له .

على أنى أُرجح أنه لم يطمئن إلى حياته فى الكوفة ، ولم يرض لنفسه هذا الخمول الذى لم يُخْلَقْ له . فما هى إلا أشهر حتى ضاق بالكوفة ورحل عنها فى آخر سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة إلى بغداد .

رحل عنها ضيِّقاً بها من غير شك ؛ فليس فيها أمير يمدح ، ولا قائد يتقرب إليه ، ولا غنىٌّ يطمع فى ماله . ولعله كان من أغنى أهلها حينئذ ، وهو كان قد علل نفسه بحياة العزلة التى يستمتع فيها بالحرية والاستقلال ، وبالراحة وفراغ البال . ولكنه لم

يكد يذوق هذه العزلة حتى ضاق بها وفر منها أشد الفرار ؛ لأنه لم يكن يعرف نفسه حق المعرفة ، أو كان يعرفها ولكنه كان قوى الحس ، سريع التأثر ؛ فكان ذلك يخدعه عن نفسه ، ويغريه بالتغرب والاضطراب ، ويحول بينه وبين الهدوء والاستقرار .

وقد كان المتنبي في عنفوان قوته في الثامنة والأربعين من عمره ، لم يبلغ بعدُ السن التي يحيل نفسه فيها على المعاش ، كما يقول المعاصرون . فلا غرابة إذن في أن يضيق بالكوفة ويكره الإقامة فيها . وهو قد جرّب حياة الشاعر المتصل بالملوك والأمراء ، المنقطع إليهم ، وقد زهد الآن في هذه الحياة واستيأس منها . ولكن أمامه لوناً آخر من ألوان الحياة الحرة المستقلة التي يملؤها مجد من طراز جديد ، وهي حياة الشاعر الفني المستقل الذي لا يكسب عيشه بالمدح ، ولا يغضّ من نفسه بالانقطاع لأمير أو وزير . ولكنه مع ذلك يحيا ظاهراً نابهاً معروفاً ، يُنشد شعره للطلاب ، ويفسره لهم على نحو أوضح وأجلى وأكرم مما كان يصنع في حلب أو في الفسطاط . وهو قريب من بغداد دار الخلافة ، ومركز الحضارة الإسلامية ، والتي لا يتوّج المجد إلا فيها وقد زار بغداد بائساً طريداً ، ثم خرج منها خائفاً يترقب . فما له لا يعود إليها غنيا كريماً يحتاج الناس إليه ولا يحتاج هو إلى أحد ! وكذلك ارتحل المتنبي إلى بغداد سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة لا راغباً ولا راهباً ، لا مريداً بأحد شرًّا ، ولا مريداً من أحد خيراً . وما أظن إلا أنه أنفق الأشهر التي قضاها في الكوفة مدبراً أمره وأمر أسرته ، مفكراً في محنته المصرية ، منشئاً للشعر في هجاء كافور ورثاء أبي شجاع .

ولست أدري : أوصلت إليه هدية سيف الدولة فمدحه بقصيدته اللامية :

* مالَنا كُلُّنا جَوٍ يا رسولُ *

في هذا العام ، كما يظن الأستاذ بلاشير ، أم بعد رجوعه من بغداد ، كما يرى بعض الرواة . ولكني أميل إلى الرأي الثاني وأرجحه بما في هذه القصيدة من هجاء لأصحاب

السلطان فى بغداد . فقد كان المتنبى أحمق ، ولكنى أتردد فى أن أراه من الحمق بحيث يهجو أولى الأمر فى بغداد وهو يهم بالرحيل إليهم .

وإذن فلم تصل إليه هدية سيف الدولة فى هذا العام ، ولم يفكر هو فى استئناف الصلات مع الأمير فى هذا العام أيضاً . وهو كما رأيت لم يقل من الشعر فى هذه الأشهر إلا قليلا . ولم يكن فى حياته فى الكوفة ما يدفعه إلى قول الشعر . فالناس يرونه فيلسوفاً مفكراً حكيما . وكان خليقاً ، وقد خلا إلى نفسه وفرغ لفلسفته وتفكيره وحكمته ، أن يقول فى ذلك شعراً . ولكنك عرفت من كل ما قرأت إلى الآن أنه كان شاعراً ، وشاعراً لا يقول إلا عن رغبة أو رهبة ، ولا سيما بعد أن انتهى عهد الشباب .

٢

ودخل المتنبي بغداد ، فأقام فيها سبعة أشهر أو ثمانية ، ولكنه لم يُحدث فيها شعراً. ولولا أن الرواة تحدثوا بقدومه إلى بغداد وانصرافه عنها ، و ببعض ما جرى له من الأمر فيها ، لما عرفنا من قصته فى بغداد قليلاً ولا كثيراً . فهو كما رأيت لم يقل شعراً فى بغداد . ولما خرج منها لم يذكرها ، ولم يذكر إقامته فيها فيما قاله من الشعر . وقد يظن بعض الناس ، ومنهم الأستاذ بلاشير ، أنه صوّر بعض سخطه على بغداد فى الميمية التى رثى بها فاتكاً ، والتى أولها :

حَتَّام نَحنُ نُسارِى النَّجْمَ فى الظُّلَمِ ... وما سُراهُ عَلَى خُفٍّ ولا قَدَمِ

ولكنى أستبعد هذا كل الاستبعاد ، وأُرجح أنه قال هذه القصيدة قبل أن يزور بغداد ، وأن ما فيها من الحزن والشكوى و إيثار السيف على القلم ، وذم الزمان ، والإخبار بأنه قد أدرك الدهر فى أوقات هرمه ، وأدركه القدماء فى أوقات شبابه ، كل هذا لم تُثره بغداد ، و إنما أثاره إخفاقه فى مصر ، وغضبه على كافور ، وحزنه على فاتك ، وضيقه بحياة البَطالة والفراغ فى الكوفة . و إذا لم يكن بدٌّ من التماس إشارة إلى بغداد فى شعر المتنبي بعد خروجه منها ، فأنا ألتمس هذه الإشارة فى لاميته التى مدح بها سيف الدولة حين أهدى إليه ، والتى يحذّر فيها الحمدانى من الروم الذين يناصبونه الحرب من أمامه ، ومن أعدائه الذين خلف ظهره فى مصر والعراق ، والتى يقول فيها معرضاً بالسلطان فى بغداد :

ليس مَنْ عِنْدَه تُدَارُ المنـايا ... كالذى عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمولُ

فهذه القصيدة ، كما رأيت منذ حين ، لم تُقَلْ إلا سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، بعد أن رجع المتنبي إلى الكوفة .

فزيارة المتنبي لبغداد إذن لا تكاد تعنينا ؛ لأنها لم توح إلى الشاعر شيئاً ، ولم تترك فى شعره أثرا ما ؛ فكأنها بالقياس إلى فنه لم تكن . ومع ذلك فالناس يكثرون فيها القول ، وينوّعون فيها الأحاديث، ولا يكادون يفقهونها على وجهها ، أولا يكادون يفقهون ما جرى للمتنبي فيها على وجهه . والأمر مع ذلك أيسر من كل هذا ؛ فلم يقصد المتنبي كما رأيت إلى بغداد ليفيد بشعره مالا أو مجداً عند الخليفة أو الأمير أو الوزير ، وإنما قصد إليها ليعيش فيها عيشة الشعراء والعلماء والنابهين من الأغنياء . ويقال إنه زار الوزير المهلبي وشهد مجلسه ، ورأى فيه جماعة من الأدباء والعلماء ، وشارك فى بعض ما كان بينهم من حوار . ولكنه لم يمدح الوزير ؛ فأسرّها له ، وأغرى به الهجائين والمجادلين . ولست أدرى : أزار المتنبي الوزير المهلبي أم لم يزره ، ولكنى أرجح ، إن كانت هـذه الزيارة قد وقعت ، أنها لم تكن إلا زيارة رسمية ، كما يقول المعاصرون ، قد أبرأ الشاعر بها ذمته ليأمن الكيد والغدر ، وليعيش هادئاً مطمئنا فى بغداد . وما أظن أن المهلبي كان ينتظر منه مدحاً ، وما أظن أن المتنبي فكر فى أن يجدد تجربته مع كافور . ويجب أن نلاحظ أن المتنبي كان لبقاً مؤثراً للعافية ، ومسيطراً على نفسه أثناء إقامته فى بغداد ، لم يتح له أن يمدح معز الدولة ، ولا أن يمدح المهلبي ، ولا أن يصل إلى الخليفة . وما أشك فى أن كثيراً من سَراة بغداد وأشرافها كانوا يودون لو يمدحهم الشاعر . ولعل الشاعر نفسه كان يود لو يمدح بعض هؤلاء السراة والأشراف . ولكنه لم يفعل اصطناعاً للذوق — فما ينبغى أن يمدح أحداً من أهل بغداد وهو لم يمدح خليفتها وملكها ووزيرها — واحتفاظا بمكانته ، وضنًّا بمقامه أن يعيبه المقربون من السلطان بأنه لم يستطع أن يبلغ الرؤساء فاكتفى بمن دونهم .

آثر الشاعر العافية إذن ، وتجنّب السياسة لأنه لم يكن يستطيع أن يدنو منها ، وتجنب الساسة لأنه لم يكن يحبهم ولم يكونوا يحبونه . وقد يُظَنّ — والأستاذ بلاشير يرى هذا الرأى — أن المتنبي أعرض عن مدح الرؤساء فى بغداد إبقاء على ما كان

بينه و بين سيف الدولة من الود ، واحتفاظا بما كان قد دبّر من الشخوص إلى حلب . وكانت العلاقات سيئة بين الحمدانيين والبويهيين ؛ فكان مدحه للبويهيين يفسد عليه خطته التي دبّرها في نفسه . ولكني أستبعد هذا أيضا كل الاستبعاد ؛ لأني لا أقطع بأن المتنبي فكر حقا في الرجوع إلى حلب . وما أشك في أنه لو وجد سبيلا إلى الرؤساء في بغداد لما تردد في سلوكها ، ولكن هؤلاء الرؤساء احتملوا مقامه في العراق ، ودخوله بغداد و إقامته فيها ، وهذا منهم كثير ؛ فما كان للمتنبي أن يطمع في أكثر منه .

وقد ظن الأستاذ بلاشير أن المتنبي كان يفكر في السفر من بغداد إلى حلب ، ولكن غارة الروم على شمال الشام واقتحامهم حلب ، و إخراجهم سيف الدولة عنها و إقامتهم فيها وقتا ما — كل هذا رد المتنبي عما كان قد عزم عليه. وكل هذه فروض لا يرجحها نص ، بل لعل النصوص تباعد بينها و بين الحق . فقد دعا سيف الدولة شاعره إلى الرجوع إليه ، وأجابه المتنبي في آخر سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة في بائيته المشهورة بأنه سامع مطيع ، ولكنه لم يكد يمضي في القصيدة حتى عرّض بالاعتذار . وقد أنفذ القصيدة إلى سيف الدولة من الكوفة في ذى الحجة ، وخرج من الكوفة في المحرم ، ولكن لا إلى حلب حيث سيف الدولة ، بل إلى أرّجان حيث ابن العميد ، ثم إلى شيراز حيث عضد الدولة . فلم يكن المتنبي يقدّر الرجوع إلى حلب أو يفكر فيه ، و إنما كانت له خطة أخرى سنراها بعد حين .

إذن ففي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ، لم تكن نفس المتنبي قد أبلّت من ضيقها بالملوك والأمراء ، ولم يكن قد زهد في حياة الهدوء والاستقلال ، ولم يكن يريد في بغداد إلا هذا الهدوء والاستقلال ، ولكنه لم يظفر بهما لسبب يسير جدًّا ؛ فقد احتمله أولو الأمر في العراق ، ولكن على أن يقيم بعيداً عن بغداد ، لا على أن يأتي فيقيم بين أسماعهم وأبصارهم ، ويستقر على صدورهم كأنه الكابوس ، لا يريدون أن يُدْنوه ، ولا يريد هو أن يُدني نفسه منهم . ولكنه مع ذلك مقيم بين أظهرهم

يغدو و يروح ؛ و يختلف إليه العلماء يحدّثونه و يخوضون معه فى ألوان الجدال .

كل هذا كان كثيراً . والحق أن المتنبي قد استمتع أمام السلطان السياسى فى جميع الأقطار التى زارها وأقام فيها بحرية غريبة بالقياس إلى ذلك العصر، و بالقياس إلى ما كان مألوفا من الظلم والطغيان . فهو قد أغضب الأمراء ومَنْ دون الأمراء ولم يتعرض لعقوبة ظاهرة رسمية ، و إنما كان آمناً مطمئنا فى حلب حتى خرج منها . ولما ضاق به الحمدانيون لم يجاهروه بالعقوبة ، و إنما هموا باغتياله . ولجأ إلى مصر ، فلولا أنه طمع فى غير مطمع لما لحقه أذى من كافور . ومع ذلك فلم يُلْحِقْ به كافور أذى ، و إنما حاول أن يمنعه من ترك مصر ليرد عن ملكه لسانه الحاد الطويل . ثم عاد إلى العراق ، بعد أن قال فى أصحابه ما قال ، فلم يردّوه ولم يزعجوه ، وإنما تركوا له الحرية فى أن يقيم فى وطنه ما أراد . ثم هو لا يكتفى بهذا ، بل يذهب إلى بغداد نفسها وهو مع ذلك لا يتعرض فيها لأذى ؛ فليس دمه مهدراً ، وليس السجن يدعوه ، وليست المراقبة تفرض عليه ، ولكنه مع ذلك لم ينعم بالحياة فى بغداد ؛ لأن خصومه السياسيين خلّوا بينه و بين الشعراء والأدباء يحاربونه بالنقد ، أى يحاربونه بالسلاح الذى كان يحسن الحرب به لو أراد . فالشعراء البغداديون يهجونه فيسرفون فى هجائه ، وابن لَنْكَك فى البصرة يهجوه فيُقذع فى هجائه ، و بعض الأدباء والعلماء يتعرضون له فيجادلونه فى شعره متحدّين له ، مشنعين عليه .

والمتنبي يؤثر الصمت ، و يصطنع الحلم ، و يتكلف الكبرياء ، ولكنه فيما أعتقد كان حَذِراً محتاطا ، يخاف أن يطلق لسانه فيتجاوز حده ، و يخرج عن طوره ، و يُحْفِظ سلطاناً لا يحتمله إلا فى شىء كثير من الحلم المتكلف، والأناة المتصنعة. ولولا هذا لما صبر المتنبي على هذا الهجاء القبيح والتحدى الشنيع . وهو كما نعلمه ضَيِّق الصدر ، عاجز عن إمساك لسانه فى فمه . بل لولا هذا لما سكت المتنبي حتى بعد خروجه من بغداد عن هؤلاء الذين آذوه بأقوالهم وأعمالهم . ولكن المتنبي مصمم على أن يعيش فى العراق ، .

ولا بدّ له من أن يؤدى ثمن المعيشة فى العراق ، فيحتمل ما كان ينكره حين كان يقول ، بعد أن فر من بدر ابن عمار :

واحتِمالُ الأذَى وَرُؤْيَةُ جانِيهِ   غِذاءٌ تَضْوَى بهِ الأجْسامُ

فلا بدّ له من أن يحتمل الأذى، ويرى جُنَاته ولا يدفعهم عن نفسه بيد ولا لسان. وأخرى لا ينبغى أن ننساها ؛ فقد كانت السياسة مبغضة للمتنبى فى العراق ، وكان الأدباء الرسميون يصانعون السياسة . ولكن الأدب العراقى نفسه كان يضيق بهذا الشاعر الأجنبى الذى كسب فنه ومجده بعيداً عن العراق لأول مرة فى التاريخ الأدبى . فقد كان الشعراء فى القرون الثلاثة الأولى يظهرون وينبهُ ذكرهم فى العراق ، فإذا ظهروا فى قطر آخر ، فلم يكونوا يكسبون المجد ونباهة الشأن إلا فى العراق : فروان بن أبى حفصة كان يعيش فى اليمامة ، ولولا أنه وفد بشعره على علماء البصرة وخلفاء بغداد لما عرفه الناس . وأبو تمام نشأ فى الشام وشب فى مصر وقال الشعر فى الغرب ، ولكنه لم يُعرَفْ ولم يشتهر حتى وفد على العراق . والبحترى نشأ فى شمال الشام ، وقال الشعر فى مَنْبِج وما حولها ، ولكنه لم يصبح شيئاً إلا بعد أن وفد على العراق .

وهذا المتنبى يولد فى العراق وينشأ فيه ويبدأ فيه قول الشعر ، ولكنه يغرّب بشعره ويطيل الإقامة فى الغرب وينبغ هناك ، ثم يعود إلى العراق كامل الفن ذائع الصوت باهر المجد . فمن حق الأدب العراقي أن يضيق به ، ومن حق الأدباء العراقيين أن ينكروه ويعدّوه دخيلا .

وإذن فلم يكن التحالف بين السياسة والأدب على المتنبى غريباً فى بغداد ، وإنما كان الغريب ألا يتحالفا عليه . ومع ذلك فقد وجد المتنبى عند شباب بغداد وعند جماعة من أدبائها وعلمائها ، بل عند جماعة من أغنيائها وسراتها ، حبًّا وإجلالا ، فتلقّوه أحسن لقاء ، وأنزلوه أحسن منزل ، والتفوا حوله يسمعون منه ويكتبون عنه، ويقومون دونه ما وسعهم ذلك ، ولكنهم كانوا قلة وكانوا مستضعفين .

ولم يكن بدٌّ من أن ينتهي الأمر بالمتنبي إلى إحدى اثنتين: فإما أن يتوب ويثوب إلى الذين هجاهم وآذاهم وأساء إليهم . ومن يدرى ! لعلهم لا يقبلون توبته لأنهم لا يأمنونه ، وهل أمنه كافور ؟ وإما أن يترك بغداد ، ولكن إلى أين يتركها ؟ لا إلى سيف الدولة ؛ فهو لا يريد ، ولا يستطيع ، أن يعود إلى سيف الدولة لأنه لا يثق بقدرة سيف الدولة على حمايته من أعدائه وحاسديه .

ومن يدرى ! لعله لو هَمَّ بالعودة إلى حلب لوجد الطريق مأخوذة عليه ؛ فقد انتفع معز الدولة والمهلبي من قصة كافور . وما ينبغى أن يُخَلَّى بين المتنبي وبين الرجوع إلى الشام ليطلقَ فيهما لسانه كما أطلقه في كافور .

فليس له إذن إلا أن يعود إلى الكوفة ويستقبل أمره فيها بالروية والتفكير ؛ فإما أن يقنع بالحياة الهادئة ، وإما أن يجد طريقا إلى الصلح بينه وبين السياسة والساسة في بغداد .

٣

وقد عاد إلى الكوفة فى السنة نفسها ، وهناك وصلت إليه هدية سيف الدولة فشكرها باللامية المشهورة ، وهناك نُعيت له أخت سيف الدولة فرثاها بالبائية المشهورة . وانقضى هذا العام ولا يحفظ لنا الديوان من الشعر الذى قيل فيه إلا هاتين القصيدتين . أقال المتنبي شعراً لم يحفظ لنا ؟ أم أعرض المتنبي عن الشعر لأن دواعى الشعر لم تكن موجودة فنام شيطانه حتى أيقظته هدية سيف الدولة ، ثم عاد إلى النوم حتى أيقظه موت ستّ الناس ؟

هذا هو الذى أرجحه ؛ لأنى كما قدمت لا أرى المتنبي يقول الشعر إلا حين تدفعه إليه الدوافع ، ولعله كان يقول الشعر فى هجاء البغداديين كما كان يقوله بمصر فى هجاء كافور ، ولكنه كان أشد احتياطاً من أن يذيعه أو يُظهر عليه حتى أخصّ الناس به وآثرهم عنده من الذين تبعوه إلى الكوفة .

استقبل المتنبي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة محزوناً ، كاسف البال ، متدبراً فى أمره . ولكن الحوادث أبت إلا أن تمتحنه امتحاناً ليس أقل عسرا من الامتحانات المختلفة التى تعرّض لها فى الشام ومصر . فهذه دعوة القرامطة تعود إلى الظهور فى الكوفة ، ويكثُر فيها الحديث ، وينشأ عنها لغط كثير ، وإذا فقراء المدينة والبائسون من أهلها يسرعون إلى الدعوة ويستجيبون للدعاة ، وإذا أغنياء المدينة وأوساط الناس فيها ينكرون الدعوة ويقاومون الدعاة . والمتنبي من الأغنياء طبعاً ، ولكنه كان قرمطى النشأة ، قرمطى الشباب ، وهو الآن كاره للسلطان العراق ، كما كان مبغضاً له فى صباه وشبابه . فإلى أى جانبيه يميل : أيميل إلى القرامطة فيرضى شهوته إلى الحركة والحرب ؟ أم يميل إلى السلطان فيحفظ ماله ، ولعله يصلح أمره مع

هؤلاء الساخطين عليه فى بغداد ؟ مال المتنبى إلى السلطان ، وجحد القرمطية فى هذه المرة ، كما جحدها من قبل ، وإذا هو مع أغنياء الكوفة وأوساط الناس فيها يقاومون دعوة القرامطة ، وإذا هو يبدأ هذه المقاومة بلسانه ، فيهجو داعية بدويًّا من دعاتهم ، ضبة بن يزيد الكلابى ، بقصيدته البائية المشهورة التى أولها :

ما أَنْصَفَ القَوْمُ ضَبَّهْ وأُمَّـهُ الطُرْطُبَّهْ

وهى من أقبح شعر المتنبى وأقذع ما قال من الهجاء . ولكن دعوة القرامطة هذه لا تلبث أن تقوى ، ويخيّل إلى الداعين أن الكوفة قد نضجت ، وإذا هم يغيرون عليها . وهنا تتم خيانة المتنبى للقرامطة ؛ فهو لا يكتفى بما قدّم من المقاومة باللسان ، ولكنه ينهض ومعه غلمانه ، فيقاوم بالسيف والرمح ، وينجح فى هذه المقاومة ، ويشق لنفسه ولغلمانه طريقاً حتى يتصل بحاكم المدينة .

وتعود الغارة على المدينة ، فيعود المتنبي وغلمانه إلى الاشتراك فى ردّ المغيرين ، وتوفق المدينة لإبعاد المغيرين عنها . ولكن الخبر كان قد وصل إلى بغداد ، وإذا هى ترسل جيشاً على رأسه أحد قوادها ، دِلّير بن لَشْكَرَوَز . فلا يكاد هذا القائد يصل إلى الكوفة حتى يعرف الذين أبلوا فى رد القرامطة ، فيخلع عليهم ، ومنهم المتنبى . فإذا وصلت إليه الخلعة أنشأ قصيدة فى مدح القائد ، ثم ذهب فأنشده إياها ، وهى اللامية التى أولها :

كَدَعْواكَ كلٌّ يَدَّعِي صِحَّةَ العَقْلِ وَمَنْ ذَا الَّذِى يَدْرِى بِمافيهِ مِنْ جَهْلِ

والتكلف أظهر شىء فى هذه القصيدة ؛ كأن الشاعر كان خجلا ، مستخذياً أمام نفسه وهو ينشئها . ومهما يكن من شىء ، فقد أتم المتنبى انقلابه على القرامطة : أطلق فيهم لسانه ، وأعمل فيهم سنانه ، ومدح عدوهم ، وتلقّى منه الجائزة . وهو بهذا قد صان ماله من جهة ، وخطا الخطوة الأولى إلى إرضاء السلطان العراقى من جهة أخرى .

ثم تريد الظروف ، التى تحب المزاح أحياناً ، أن تمتحن المتنبى للمرة الأخيرة ، فيصل إليه فى وقت واحد أو فى وقتين متقاربين ، كتابان : أحدهما من صديقه القديم سيف الدولة ، وقد كتبه بخطه يدعوه إلى حلب . والثانى من فارسى صميم ، هو ابن العميد يستزيره فى أرّجان .

وأكبر الظن أن المتنبى نظر فى الكتابين ، ثم نظر فيهما ، ثم رد عليهما بعد قليل من الروية . فأما سيف الدولة فقد أرسل إليه بائيته :

فهِمتُ الكِتَابَ أبَرّ الكُتُبْ ‌‌ فسَمْعاً لأمْرِ أميرِ العَرَبْ

وأما ابن العميد فلم يرسل إليه كتاباً منظوماً ولا منثوراً ، وإنما أرسل إليه نفسه ، وسافر من الكوفة فى المحرم سنة أربع وخمسين مُوَجِّهاً نحو أرّجان .

٤

وأى الرجلين بدأ بالكتابة إلى صاحبه ، أو التماس الوسيلة إلى صاحبه ، إن أردنا التعبير الصحيح : أهو ابن العميد أم المتنبي ؟ أما إجماع الناس قديماً وحديثاً فمنعقد على أن ابن العميد هو الذى كتب إلى المتنبي يستزيره . والناس يقولون أيضاً : إن ابن عباد كتب إلى المتنبي يستزيره الرىّ حين كان الشاعر ببغداد ، ولكن المتنبي لم يحفل به ولم يرد عليه ، ولم يتأخر عن الاستجابة لابن العميد حين دعاه إلى أرّجان .

وقوام هذه الأحاديث كلها أن المتنبي كان شديد الكبرياء مزهوًّا بنفسه ، يترفع عن مدح الوزراء والكتّاب ، ولا يريد إلا أن يمدح الملوك والأمراء الممتازين الذين لا يقلون امتيازاً عن سيف الدولة وكافور .

ولكن هذا كله فيما أعتقد إن صوّر شيئاً فإنما يصور حب أصحاب المتنبي للمتنبي وتصديق الناس لكل ما يقال ، فقد مدح المتنبي فاتكاً فى مصر . ولو امتدت بفاتكٍ الحياة لاتّصل مدح المتنبي له ، ولجاز أن يستجيره المتنبي وينقطع إليه . ولم يكن فاتك أميراً ولا ملكا ولا وزيراً ولا كاتباً ، وإنما كان قائداً غاضباً ، قد حُرِم السلطان فانحاز إلى إقطاعه فى الفيوم .

وكان ابن العميد عظيم الشأن نابه الذكر ، ولكنه على كل حال لم يكن ملكا ولا أميراً ، وإنما كان وزيراً لأمير من أمراء الفرس أو سلطان من سلاطينهم . وقد رأيت أنى لا أعتقد أن المتنبي ترفّع عن مدح الوزير المهلبى ، وإنما أرجح أنه لم يجد سبيلا كريمة إلى هذا المدح . وطبيعة المتنبى وسيرته تصوران لنا الأمر على غير ما فهمه أصدقاء الشاعر ومؤرخوه . وأكبر ظنى أن الشاعر هو الذى سعى فى التقرب

من عظماء الفرس ، ليصلح بهم أمره فى الشرق الإسلامى ، بعد أن فسد عليه أمره فى الغرب الإسلامى ، وأن المتنبى رغب فى أن يتقرب من ابن العميد ليقرّبه ابن العميد من ركن الدولة أو من عضد الدولة ، حتى إذا مدح هؤلاء العظماء وظفر برضاهم أولا ، وبجوائزهم بعد ذلك ، استطاع أن يتقرب بهم إلى أصحاب السلطان فى بغداد أو أن يستغنى بهم عن أصحاب السلطان فى بغداد . وهذا من غير شك فرض من الفروض ليس فى النصوص ما يدل عليه ، ولكنه ملائم كل الملاءمة لطبيعة المتنبى وسيرته . فقد رأينا كيف ترك أرض الإخشيديين بعد خروجه من السجن ، وأنفق ما أنفق من الوقت فى شمال الشام ، ثم اتصل ببدر عدو الإخشيديين ، ثم فر منه وظل حيناً مضطرباً فى الأرض . فلما عاد السلطان فى الشام إلى الإخشيديين جعل المتنبى يبتغى إليهم الوسائل متقرباً من حكامهم وقادتهم ، حتى اتصل بأمير من أمرائهم . ثم رأيناه ينتهز ظفر الحمدانيين فى شمال الشام فيسعى فى الاتصال بهم ، ويوفق لما كان يريد من الانقطاع إلى سيف الدولة . فإذا أخفق فى حلب لم يتردد فى أن يستأنف السعى ليعود إلى الإخشديين . وهو يظفر بما كان يريد أيضاً ، فيتصل بكافور بعد أن كان قد عرّض به وشنّع عليه . وهو قد أخفق عند كافور ففر إلى العراق . وما أشك فى أنه لم يدخله إلا بعد أن استأمن لنفسه فأعطى الأمان . وقد كان يظن أنه يستطيع أن يحيا فى العراق حياة الهدوء والاستقلال ، فرأى بعد التجربة أنه ما زال شاعراً محتاجاً إلى من يظله ويتلقى مدحه . ولم يتيسر له ذلك فى بغداد ، فالتمسه أو التمس المعونة عليه فى الشرق . ولم يتردد ابن العميد فى أن يتلقّى هذا الطامع فيه ، اللاجىء إليه ، المستعين به . فقد كان المتنبى أكبر الشعراء المعاصرين وأبعدهم صوتاً من غير مراء . وكان شعره ، كما قال لكافور ، قد شرّق حتى ليس للشرق مشرق ، وغرب حتى ليس للغرب مغرب . وقد أغضبه الأميران المتسلطان فى الشام ومصر ، ولم يحسن اصطناعه الأمير المتسلط فى بغداد . وما ينبغى أن تضيع هذه الفرصة ، ولا أن يموت أكبر شعراء العصر ولم يتغن البويهيين ، ولم يُذع ذكرهم فى الأقطار العربية . وما

ينبغى أن يخلّى بين هذا الشاعر العظيم الضعيف و بين صاحب حلب الذى كان يغريه ويزيّن له العودة إليه .

انتهز ابن العميد إذن هذه الفرصة ، ولعله هيأ أسبابها وهوّنها على الشاعر تهويناً. وهذا المتنبى يرحل من العراق مشرّقاً فيصل إلى أرّجان فى شهر صفر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . وقد تلقّاه ابن العميد أحسن لقاء ، ومنحه من ظاهر الود والإكبار والإجلال ومن الهدايا والهبات ، ما أرضى كبرياءه وطمعه معاً . وأقام المتنبى عند ابن العميد ومعه غلمانه وجماعة من أصحابه شهرين أو ما يقرب منهما . وخرج من عنده وقد ظفر من المال بشىء كثير ، ولكنه ظفر بما هو خير من المال ، ظفر بالاتصال بعضد الدولة . والرواة يحدثوننا هنا أيضاً بأن عضد الدولة دعا الشاعر فتردد ، ثم اعتذر ، ثم قبل . وهم يحدثوننا كذلك بأن ابن العميد أوحى إلى ابنه أبى الفتح أن يرغّب الشاعر فى مدينة الرىّ حيث يقيم هو فى خدمة ركن الدولة ، فآثر بعد التردد مدينة شيراز حيث يقيم عضد الدولة . وقوام هذا الحديث أيضاً إظهار الشاعر مظهر الذى يتنافس فيه الملوك والامراء ، فيمتنع عليهم ولا يستجيب لهم إلا كارهاً .

ولكنى أعتقد أن ابن العميد لم يكن إلا واسطة يراد منه أن يقرّب المتنبى إلى أمراء البويهيين . ولعل ابن العميد قد تردد فى تقديم الشاعر إلى ركن الدولة الشيخ أو إلى ابنه عضد الدولة الشاب، فاستقر رأيه على الثانية،لشباب الأمير المقيم فى شيراز ، ولما كان هذا الأمير يدبّر لنفسه وما كان يدبّر له من خطة فى العراق . فقد كان هذا الأمير الجرىء الذكى الطموح محتاجاً إلى من يدعو له فى البلاد العربية و يمهد لقدومه على العراق حين تتاح له فرصة القدوم على العراق . وكان المتنبى أنفع أداة لهذه الدعوة وأقدر الناس على هذا التمهيد ؛ فوجّه إذن إلى شيراز ، ولم يوجه إلى الرىّ .

على هذا النحو وحده أفهم تاريخ المتنبى فى العام الأخير من حياته . ويخيّل إلىّ أن من السذاجة أن نقبل الأمور كما نقلها إلينا القدماء من رواة الشعر والأدب ، وأن

نُهمل أثر السياسة فى حياة شاعر كالمتنبى قد ارتفع شأنه وعظم أمره ، وأصبح عنصراً لا يقوَّم أثره الممكن فى نشر الدعوة السياسية . ونحن نرى الآن ما تصنعه الحكومات مع الصحف . وقد رأينا فى أول التاريخ الإسلامى ما كانت تصنعه الحكومات مع الشعراء ، بل رأينا ما صنعته الحكومات الغربية مع المتنبى نفسه . فمن السذاجة أن نظن أن ابن العميد لم يرغب إلا فى شعر المتنبى ، وأن البويهيين المقيمين فى الفرس لم يريدوا إصلاح الخطأ الذى تورّطت فيه بغداد حين تجهمت لهذا الشاعر العظيم .

٥

وقد مدح المتنبي ابن العميد بقصائد ثلاث ، أولاها الرائية التي أولها :

بادٍ هَواكَ صَبَرْتَ أو لم تصبِرا وَبُكاكَ إن لم يَجْرِ دَمعُكَ أو جَرى

والثانية الدالية التي أولها :

جاءَ نيروزُنا وأنتَ مُرَادُهْ وَوَرَتْ بالّذى أراد زِنادُهْ

والثالثة الدالية التي أولها :

نَسِيتُ وما أَنْسَى عِتاباً عَلَى الصدِّ وَلا خَفَرًا زادَتْ بهِ حُمْرَةُ الخـدِّ

وقد قالها مودِّعا للوزير حين ارتحل عنه إلى شيراز . وقال المتنبي لابن العميد مقطوعة سينية ارتجلها في مجمرة حشيت بالآس والنرجس ، فلم تكن تُرى نارها إلا من خلال هذا الزهر ، وأولها :

أَحَبُّ امْرِئٍ حَبَّتِ الأَنفُسُ وأَطيَبُ ما شَمَّـه مَعْطِسُ

وقال المتنبي أيضاً مقطوعة داليـة لأبي الفتح ابن الوزير حين كتب إليه يدعوه إلى الريّ ، وأولها :

بِكُتْبِ الأنامِ كِتابٌ وَرَدْ فَدَتْ يَدُ كاتبِهِ كلُّ يَدْ

وقراءة هذا الشعر كله تُلقي في رُوع القارئ أن المتنبي كان ضيقاً بإنشائه ، يكلِّف نفسه منه ما لا تحب ، ويحملها منه على ما لا تكاد تطيق . وأكبر ظني أن ابن العميد كان عظيما في نفس المتنبي ، عظيما من ناحيته العقلية والأدبية والفنية معا ، عظيما بحيث ينبغي أن يحسب الشاعر له حساباً ، وأن يتقي نقده ويجتهد في إرضائه . وقد يكون هذا سبباً في إجادة الشاعر وظفره بالإتقان ؛ لأنه يدعوه إلى التأنق والتحفظ وتجويد الصنعة ، ولـكنه قد يكون سبباً أيضاً في إخفاق الشاعر وعجزه

وتهالكه . فالطبع الفنى لا يستجيب إلى التكليف كلما دعى إليه ، ولا يعطيك الإجادة كلما سألته إياها . وواضح جداً أن طبع المتنبي عصاه وامتنع عليه حين أخذ فى إنشاء الرائيــة ، فلم يصنع شيئاً ، ولم يأت بما يلائم ابن العميد ولا بما يرضيه . وقد أشعر ابن العميد صاحبنا بأن هذه القصيدة لم تعجبه ، ولم ترض حاجته من شعر المتنبي . والرواة يزعمون لنا — معتذرين عن المتنبي فى أكبر الظن — أن الشاعر كان قد أنشأ هذه القصيدة فى مصر يمدح بها وزير كافور ابن الفرات ، ولـكنه لم ينشده إياها ، فصرفها عنه إلى ابن العميد مع تغيير يسير فى بعض الأبيات . ولـكني أستبعد هذا كل الاستبعاد ، وأعتقد أن المتنبي كان أمهر وأشد احتياطاً من أن يصنع هذا بابن العميد ، و إنما يصنع هذا بالجهال وأشباه الجهال ، لا برجل اعترف له الشرق الإسلامى بالتفوق فى العلم والأدب ، والفن والنقد .

والذى يعنينى من هذه القصيدة الضعيفة السخيفة قول المتنبي فيها :

مَنْ مُبْلِـغُ الأعراب أَنِّى بَعْدَهَا ... جالَسْتُ رَسْطاليسَ والإسْـكَنْدَرا
وَمَلِلتُ نَحْرَ عِشــارِها فأضافَنى ... مَنْ يَنْحَرُ البِدَرَ النُّضارَ لِمَنْ قَرَى
وسَمِعتُ بَطْلَيمُوسَ دَارِسَ كُتْبِهِ ... مُتَمَلـكاً مُتَبـدِّياً مُتَحَضِّرا
ولَقِيتُ كُلَّ الفاضِلِينَ كأنَّما ... رَدَّ الإلٰهُ نُفُوسَهُمْ وَالأعْصُرا
نُسِقُوا لنا نَسَقَ الحِسابِ مُقَدَّما ... وَأَتَى فذلِكَ إذْ أتيتَ مُؤَخَّرا

فالمتنبي فى هذه الأبيات يتكلف ازدراء الأعراب والغض منهم ، و يظن أنه يمدح ابن العميد بما يرضيه . والأعراب هنا هم سيف الدولة وأصحابه فى شمال الشام . ومن المحقق أن ابن العميد قد ابتسم لهذا الـكلام الذى لا يدل على شىء ولا يغنى شيئاً ، ولا يمتاز إلا بما فيه من التكلف السخيف فى المعانى والألفاظ جميعاً . وأجود ما قال المتنبي فى ابن العميد من غير شك إنما هى الدالية التى هنأه فيها بالنيروز . و إذا قلنا إنها أجود ما قال فى ابن العميد فنحن نريد ما نقول .

فالقصيدة جيدة ، ولـكنها ليست من روائع المتنبى . وقد أظهر الشاعر فيها جهداً وتأنقاً نحسهما ونرثى له منهما ، وقد ارتفع فى قصيدته هذه عما كان قد انتهى إليه فى الرائية ، فلم يضعف ولم يُسِفّ ، وأعانته متانة القافية ورصانة الوزن على هذا الارتفاع . ولعله وفق بعض التوفيق فى وصف العيد ، وافتخاره بالوزير ، وفى المقارنة بين هذا اليوم و بين غيره من أيام السنة . ولـكن المهم فى هذه القصيدة اعتراف المتنبى بتقصيره فى الرائية ، واعتذاره من هذا التقصير ، وذلك حيث يقول :

هل لِعُذْرِى عِنْدَ الهُمَامِ أبِى الفَضْ ... لِ قَبُولٌ سَوادُ عَيْنِى مِدَادُهْ
أنا مِن شِدَّةِ الحياءِ عَلِيلٌ ... مَكْرُماتُ المُعِـلِّهِ عُوَّادُهُ
ما كَفَانِى تَقْصِيرُ ما قُلْتُ فِيــه ... عن عُلاهُ حَتَّى ثَنَـاهُ انتقادُهُ
إنَّنِى أَصْيَدُ البُزاةِ ولكِـ ... نَّ أجَلَّ النُّجُومِ لا أصطادُهُ
رُبَّ ما لا يُعَبِّرُ اللفظُ عَنْهُ ... وَالذى يُضْمِرُ الفؤادُ اعتقادُهُ
ما تَعَوَّدْتُ أنْ أرَى كأبِى الفَضْ ... لِ وَهذا الذى أتاهُ اعْتِيادُهُ
إنَّ فِى المَوْجِ لِلغريقِ لَعُذْرًا ... وَاضِحاً أنْ يَفُوتَهُ تَعْدَادُهُ
لِلنَّدَى الغَلْبُ إنَّهُ فاضَ وَالشِّعْـ ... رُ عِمادِى وَابنُ العَميد عِمادُهُ

فأما الدالية التى ودّعه بها فليست أقل تـكلفاً وتصنعاً من الرائية ، وإن كانت أقل منها ضعفاً وتهالـكاً وإسفافاً . والإنصاف يقتضينا أن نقول إن المتنبى أخذ من ابن العميد أكثر مما أعطاه ؛ فقد قصر الشاعر من غير شك عن مدح هذا الرجل الذى كان بعقله وأدبه وسياسته وكرمه زينة لمعاصريه .

٦

على أن المتنبي لم يكد يتقدم فى طريقه إلى شيراز حتى زال عنـه الحرج وانحط عنه الثقل ، وحطم القيد الذى كان يمسك خياله ويمنعه أن يطير ، وإذا هو يبلغ من الشعر طبقة خليقة باسمه ، وخليقة بمكانه ، وخليقة بما قال من شعره الرائع فى سيف الدولة . لمـاذا ؟ ألأن عضد الدولة ألهمه أكثر مما ألهمه ابن العميد ؟ أم لأنه كان يحس الغربة فى بلاد الفرس ، ولم يكن له بد من بعض الوقت ليذوق هذه الحياة الجديدة ويسيغها ويتمثلها ، ويضطرب فيها حرًّا غير مقيد ولا مغلول ؟ أم لأن طبيعة البلاد الفارسية والحياة الفارسية قد أظهرته على لون جديد من الحياة والطبيعة ، لم يكن قد عرفه من قبل ، فألهمته شعراً قيماً لم يقل مثله منذ عهـد بعيد ، ولعل منه ما لم يقل مثله قط ؟ أم لأن عضد الدولة كان أشد إطماعاً للشاعر من ابن العميد ؛ لأنه ملك ، ولأن الشاعر قد عوّدنا أن يستجيب للطمع أكثر مما يستجيب لأى شىء آخر ؟

أما أنا فأعتقد أن هذه الأسباب كلها قد تعاونت على إطلاق الشاعر من عقاله ، وردِّه إلى الجو الطلق الحر الذى تعوّد أن يحلِّق فيه .

ولم يُقم المتنبي عند عضد الدولة إلا ثلاثة أشهر ، ولـكنه مدحه فأكثر المدح . والغريب أنه وفق للإجادة فى كل ما قال . وقد حفظ الديوان لنا من شعره فى عضد الدولة ست قصائد وأرجوزة ومقطوعة .

فأما القصائد فأولاها الهائية التى أولها :

أوْهِ بديلٌ من قوْلَتى واها ... لِمَنْ نأتْ والبـديلُ ذِكراها

والثانية النونية التى أولها :

مغانى الشِّعبِ طِيباً فى المَغانى ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبيعِ مِنَ الزمانِ

والثالثة اللامية التى أولها :

اثْلِثْ فإنّا أيها الطَّلَلُ ... نَبْكى وَتُرْزِمُ تحتَنا الإِبلُ

والرابعة الدالية التى يقول فيها :

أزائِرٌ يا خيالُ أَمْ عائِدْ ... أَمْ عِنْدَ مَولاكَ أنّنى راقِدْ

والخامسة البائية التى رثى بها عمة الأمير ، وأولها :

آخِرُ ما المَلْكُ مُعَزًّى بِهِ ... هـذا الّذى أثَّرَ فى قَلْبِهِ

والسادسة الكافية التى ودعه بها ، وهى آخر ماقال من الشعر ، وأولها :

فِدًى لكَ مَن يُقَصِّرُ عن مَداكا ... فَلَا مَلِكٌ إذَنْ إلاَّ فَداكا

وأما الأُرجوزة فطردية يقول فيها :

ما أَجْدَرَ الأيَّامَ والليالِى ... بِأَنْ تَقُولَ مالَه وَمالِى

وقال المقطوعة فى عيد الورد ، وأولها :

قَدْ صَدَقَ الوَرْدُ فى الّذى زَعَما ... أنّكَ صَيَّرْتَ نَثْرَهُ دِيَما

فهذا الإحصاء اليسير يُظهر كثرة ما قال المتنبى من الشعر فى عضد الدولة أثناء هذا الوقت القصير الذى أقامه فى شيراز . وما أعرف عهداً من عهود الشاعر فى حياته كلها نشِط فيه شيطانه هذا النشاط ، إلا أن يكون عهد ثورته فى الشباب . ومع ذلك فلم يحفظ لنا الديوان من شعر ذلك العهد مثل ما حفظ لنا من شعر هذا الطور الأخير. ونشاط الشاعر لا يمتاز فى هذه الأشهر الثلاثة بالخصب وكثرة الإنتاج فحسب ، ولكنه يمتاز أيضاً بالتنوع والاختلاف ؛ فقد طرق المتنبى فى هذا الطور أكثر فنون الشعر من المدح والوصف والسياسة والرثاء والطرد . ومن الحق أنه لم يتعمق فى شعره سياسة عضد الدولة ، كما تعمق سياسة سيف الدولة وسياسة كافور ، ولكنه مع

ذلك قد ألمّ بطرف من أطرافها ، فوصف فى قصيدتين ثورة الأكراد على البويهيين وانتصار هؤلاء عليهم

وما أعرف أن المتنبى أتقن وصف الطبيعة فى طور من أطوار حياته ، كما أتقنه فى هذا الطور . فوصفه لشِعْب بوّان رائع حقا ، ولكنه إلى الغناء أقرب منه إلى الوصف الخالص ، على حين تلتمس الغناء فلا تجده فى أُرجوزته اللامية التى وصف فيها الصيد ، والتى أشرت إليها آنفا . وهذه الأرجوزة لها عندى خطر عظيم حقا ؛ فهى التى ارتقى فيها الشاعر إلى أرفع ما أُتيح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة ، وهى التى امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة المادية امتزاجا مدهشاً كاد ينسيه نفسه على قلة ما ينسى نفسه ، وكاد يصرفه عن عضد الدولة ، لولا أنه يقول الأرجوزة لعضد الدولة . وما رأيت طبيعة الشاعر أخذت بحظ من الخصب والغزارة ، والسهولة والجزالة ، والاندفاع معا ، كما رأيتها فى هذه الأرجوزة . وقد استعار الشاعر إطار القدماء ، فسلك وصفه فى نظم الرجز كما كان يفعل أبو نواس وابن المعتز ، وكما فعل هو عند الأوراجى وعند صاحب الرملة الإخشيدى ، ولكنه تجاوز ما كان مألوفاً عند القدماء من فن الطرد ، واندفع مع الصائد والمصيد ، كأنه الريح أو النسيم الذى كان يضطرب فى تلك المروج ، فيشهد ما كان يجرى فيها من طراد وصراع . ثم يحتمله خياله العنيف القوى إلى أبعد من مروج فارس ، و إذا هو يعود إلى نجد و يرى وحشها خائفة تلتمس الأمان .

وليس يكفى أن أُلِمّ بهذه الأرجوزة إلماماً سريعاً كهذا ، ولكن هذا الحديث لا يتسع للدرس المفصل والبحث الدقيق ؛ فلعلى أعود إلى هذه الأرجوزة فى غير هذا المكان.. إنما أردت أن أدل على أن نفس الشاعر وملكاته قد استردت فى هذه الأشهر الأخيرة من حياته قوتها كلها ، وأضافت إليها قوة لم تكن تعرفها من قبل . وأكبر ظنى أن نفس الشاعر لم تمتلئ بالأمل فى وقت من الأوقات كما امتلأت به فى ذلك الوقت . وما أستبعد أن يكون الشاعر قد وثق بالفوز آخر الأمر ، واطمأن

إلى أنه بعد اتصاله بعضد الدولة قد أصبح شاعر الدولة الإسلامية غير مدافَع ، لا شاعر أمير فى شمال الشام أو فى مصر ، بل شاعر السلطان الأعظم . وما أستبعد أنه قد تمثل المستقبل المشرق ، فإذا هو يرى نفسه وقد ظفر من عضد الدولة بالمال الذى لا يكاد يبلغه الإحصاء ، والتأييد الذى لا حد له ، وعاد إلى بغداد مقرَّباً إلى معز الدولة برغم المهلبي وأشياع المهلبي ، وإذا هو الشاعر الإسلامى الفذ ، الذى يقول من بغداد فيدوِّى صوته فى أرجاء الدولة الإسلامية كلها شرقاً وغرباً ، وإذا هو يملى على الدهر قصائده حقا .

هذا الأمل الواسع العريض هو الذى يفسر لى اندفاع الشاعر فى نشاط غريب لا تراه حتى فى مدحه لسيف الدولة ، لا نكاد نستثنى من هذا المدح إلا بعض قصائده الروميات . وأغرب من هذا كله أن هذا النشاط قد محا عن الشاعر محواً تامًّا ما كان يشعر به من ضيق وحرج عند ابن العميد ، بل رد إليه حريته كاملة ، وإذا هو لا يتحرج من أن يتغنى عربيته فى صراحة وجراءة لا حدّ لها ولا رقيب عليهما . فهو يتغنى خِمْصَ وما حولها فى فتوة تذكِّر بشبابه العنيف ، وهو يحمد شِعْبَ بوّان ويصف جماله ، ولكنه لا يتردد فى أن يعلن حنينه إلى دمشق وغُوطتها ، وإلى الشعب العربى النازل فى الشام ، وفى أن يُؤْثِرَ هذا الشعب الفصيح الكريم على الشعب الفارسى الأعجمى ، الذى لا يقدُر الضيافة ولا يحسن القرى .

بل هو يتجاوز هذه الحرية الشخصية ، إن صح هذا التعبير ، إلى حرية أُخرى لغوية ، كان تعوّدها فى عصوره الأولى ، ولكنه يسرف فيها الآن ، كأنه يريد أن يتخذها قاعدة . فاقرأ داليته التى أولها :

أَزَائِرٌ يا خَيَالُ أَمْ عائِدْ   أَمْ عِنْدَ مَوْلاكَ أَنَّنى رَاقِدْ

وأحص إعراضه فيها عن المألوف فى نصب الاسم المصروف ، فسترى أنه تجاوز المعقول واتخذ الضرورة أصلا . ولا تقل : إنه استجاز هذا متبعاً للغة من اللغات أو مذهب من مذاهب النحويين ؛ فإن الرجل لم يحفل فى حقيقة الأمر بشىء من هذا ،

و إنما أطاع فنه وأرسل نفسه على سجيتها ، واستذل النحو واللغة للشعر ، وأعرض عما قد يكون من غضب النحويين أو رضاهم .

ثم قف عند هذه القصيدة نفسها ، فسترى أنه اصطنع فيها الحرية لا مع النحو وحده ، بل مع أصول العروض والقافية أيضاً . فقلما يصرّع الشعراء فى القصيدة الواحدة أكثر من مرة ، والمتنبى يصرّع فى القصيدة الواحدة مرة أو مرتين ، أما فى هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات عدة ، كأنما هو يتبع فيه وحى الفن ، وكأنما لا يريد أن ينتقل من معنى إلى معنى دون أن يستأنف التصريع ؛ ليشعر بهذا الانتقال ، ولينبئ السامع بأنه سيخرج به من حديث إلى حديث .

وأخرى لا نكاد نجدها إلا فى شعر هذا الطور ، وهى تحرر الشاعر من القيود التى يأخذ الشعراء بها أنفسهم فى نظم القصيد . فهو ينسب حيناً و يصف حيناً ، وهو يتغنى دائماً فى أوائل قصائده فى عضد الدولة . ولكن انظر إلى لاميته التى يصف فيها انتصار الفرس على الأكراد ، والتى أولها :

اثْلِثْ فإنَّا أيُّها الطَّلَلُ   نَبْكى وتُرْزِمُ تَحْتَنا الإبِلُ

فسترى كيف تبسّط واصطنع حرية فى الحوار لم يكن يألفها . ثم امض فى القراءة وانظر كيف خلص إلى الأمير من طريق بديعة فى شعره حقًّا ، حين تصوّر صاحبته وحيدة قد تحمّل أهلها وحرّاسها ، ودهم الأمير ديارها ، و إذا هو يسألها ما يريد أن يسألها : أفتراها كانت تمنحه ما تعودت أن تضن به ، أم تراها كانت تبخل عليه بما يطلب إليها ، مع أن هذا البخل محال ؛ لأنه لا يكون حيث ينزل الأمير ؟ وما أتردد فى الجهر بأن المتنبى لو أطال الإقامة فى فارس والاستمتاع بما كان يستمتع به فيها من الخفض والأمن والنعيم ، لتغير مذهبه الشعرى تغيراً قويًّا جدًّا ، ولجاز أن يُحْدِث فى الشعر العربى فنًّا جديداً لم يُسْبَقْ إليه ، ولم يُتَحْ لأحد من العرب بعده أن يحدثه ؛ لأن نبوغه واستعداده لم يتاحا لشاعر عربى من الذين زاروا بعده هذه البلاد .

ومن هنا يدهشنى حقا ألا يكون النقاد قد التفتوا إلى ما يمتاز به شعر المتنبى فى

شيراز من سائر شعره، وأن ينظروا إليه كما تعودوا النظر إلى الشعر العادى لايلتمسون فيه إلا ما تعوّدوا أن يلتمسوا من ألوان الجمال المألوف .

وأغرب من هذا أن الأستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذى أحدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس فى شعره ، مع أن الأستاذ بلاشير أوربى ، وكان خليقاً أن يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبى و بين العقلية الأوربية والفنية الأوربية من تقارب ليس شديداً ، ولـكنه واضح كل الوضوح .

ولَشدّ ما أحببتُ أن أطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبى ؛ فهو من الناحية الفنية الخالصة آثره عندى ، وأعجبه لى وأحبُّه إلى ، وهو خليق أن نقف عنده قصيدة قصيدة ، وأن نفصِّله ونستخرج دقائقه ، ونضع أيدينا على مواضع التطور فيه . ولـكن هـذا شىء لا نفرغ منه إن أخذنا فيه إلا بعد إطالة لم يعد يحتملها هذا الـكتاب .

وكل هذا الشعر مختار، قد تُصادف فيه بين حين وحين بيتاً لا يعجبك ، ولكنك لا تستطيع أن تُلغى منه قصيدة أو جزءاً طويلا من قصيدة . وإذا كان لنا أن نأسف لشىء لا يغنى الأسف له ، فقد كنا نتمنى لو فر المتنبى فى شبابه إلى فارس لا إلى الشام . وقد كنا نتمنى لو سار عضد الدولة مع الشاعر سيرة كافور ، فأمسكه فى شيراز ولم يأذن له بالعودة إلى العراق ، وذاد عنه ، مع ذلك ، الشعور بأنه أسير لا يستطيع أن يذهب ويجىء كما يحب . إذن لتغير شعر المتنبى تغيراً تامًّا ، ولوثب الشعر العربى فى القرن الرابع وثبة بعيدة المدى ، ولَفُتِّحتْ للشعراء بعد المتنبى أبواب جديدة يلتمسها الشباب من الشعراء الآن فلا يكادون يظفرون منها بما يبتغون .

٧

ولـكن عضد الدولة لم يرد أن يشق على الشاعر ولا أن يمسكه فى شيراز ويحبسه عن العراق ، بل أضاف عطاء إلى عطاء ، و إحساناً إلى إحسان ، وخلى بين الشاعر و بين حريته . فاستأنف الشاعر سفره إلى العراق وهو يُقسم جهد أيمانه ليعودنّ إلى الأمير . أ كان صادقاً فى هذا ، أم كان يذهب فيه مذهب الشعراء ، ومذهبه هو مع الذين ودّعهم من الممدوحين ؟ مسألة ليس من اليسير أن نجيب عليها ، ولـكنى كما عرفتَ من سياق هذا الحديث أميل إلى اعتقاد أن الشاعر لم يكن كاذباً ولا متكلفاً ، وأنه كان يقدر فى نفسه أنه سيلقى الأمير مرة أخرى فى شيراز أو فى غير شيراز . والشيء الذى لا أشك فيه ، هو أن نفس المتنبي كانت قد خلصت للبويهيين ، ولعضد الدولة منهم خاصة . وما أرتاب فى أنه لم يَفْصِل من شيراز وفى نفسه الذهاب إلى الـكوفة أو إلى حلب ، وإنما فصَل منها وفى نفسه الذهاب إلى بغداد ، والاتصال بمعز الدولة والانتصار على خصومه كما قدّمت .

وهنا يحسن أن نقف لحظة قصيرة لنستخلص فى كثير جدًّا من الإيجاز ، هذا التطور الأخير الذى طرأ على حياة المتنبي ، فانحرف بها عن طريقها وقلبها رأساً على عقب ، إن كان للحياة رأس وعقب . فقد رأينا الشاعر بعد محنته فى شبابه يدفع شيئاً فشيئاً إلى طريق الشعراء من قبله ، ويتهاون شيئاً فشيئاً فى الاحتفاظ بما كان له من مذهب ورأى . رأيناه يُفرِط فى القرمطية ، وإن احتفظ بشيء من الحنين إليها . ثم رأيناه يمدح غير العرب حين تدعوه الضرورة إلى ذلك . ثم رأيناه يتكلف الشعوبية فى مدح الروزبارى بدمشق . ثم رأيناه يعود إلى عربيته حين يتصل بالحمدانيين . ثم رأيناه بعد ذلك يُعْرِض عن هذه العربية ، وينقطع إلى عبد زنجى أو نوبى فى

الفسطاط ، فيمدحه ما امتدت له أسباب الطمع فيه . ثم رأيناه يسترد عربيته ويعود إلى العراق . وقد آثر الحيدة والهدوء . ثم رأيناه آخر الأمر يغلب على قرمطيته وعلى عربيته معاً ، فإذا هو يهجو القرامطة ويقاتلهم بالسيف والرمح من جهة ، وإذا هو يمدح دلّير ، ويُؤثِر ابن العميد وعضد الدولة على صديقه الحمداني القديم من جهة أخرى . هو يعود الآن إلى العراق ، وقد ضحى في سبيل المال والمجد الشخصي بالقرمطية والعربية معاً تحت أقدام البويهيين .

٨

وقد انتهى إلى واسط ، فيما يقول الرواة ، فى شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، بعد أن ألمّ بالأهواز . فلما انتهى إلى واسط نزل على صديق له يعرف بأبى نصر محمد الجبلى ، وهذا الصديق هو الذى كتب إلى الخالديين بما عرف من جلية أمر المتنبى ، بعد أن فارقه وخرج من واسط قاصداً إلى بغداد . وليس عندى ما يحملنى على الشك فى خبر أبى نصر الجبلى هذا ؛ فالصدق ظاهر فيه ، وهو ملائم كل الملاءمة لطبيعة الأشياء . وخبر أبى نصر الجبلى هذا معروف ؛ فهو قد أنبأ الخالديين فى كتابه بأن فاتكاً الأسدى، خال ضَبّة القرمطى ، الذى هجاه المتنبى فى الكوفة قبل رحيله إلى ابن العميد ، قد نزل به قبل مقدم المتنبى على واسط بأيام ، وجعل يسأل عن المتنبى حتى ارتاب الجبلى بسؤاله ، ثم لم يشك فى أنه يريد به السوء لينتقم لابن أخته ويردّ عنه وعن نفسه عار ذلك الهجاء القبيح . وجعل الجبلى يرد فاتكاً عن هذا الشر الذى أضمره ، فلم يبلغ منه شيئاً . فلما وصل المتنبى إلى واسط حذّره الجبلى من فاتك هذا ، ونصح له أن يستصحب الأحراس ، فأبى مستكبراً ، وعرض عليه أن يتولى هو حراسته بإرسال نفر من أصحابه يسيرون بمسيره ، وينزلون بنزوله ، فأبى مستكبراً أيضاً ، وخرج وليس معه إلا ابنه وغلمانه . فلما كان فى بعض طريقه إلى بغداد ، قريباً من دير العاقول ، تلقّاه فاتك وأصحابه من الأعراب ، فكان بينهم شىء من قتال ، ثم كَثَره فاتك بأصحابه فقتلوه وقتلوا ابنه وغلمانه جميعاً ، وأخذوا ما كان معهم من متاع وكتب ومال .

أكان فاتك ثائراً لابن أخته ولعرضه فحسب ، أم كان ثائراً لعرضه ولشىء آخر ؟ أما القدماء فلم يترددوا فى قبول الأمر كما قبله أبو نصر الجبلى ، وكما قبله الخالديان.

فهم يرون، و يرى معهم المحدَثون، أن المتنبي ذهب ضحية لسانه، وتلقى الموت ثمناً لهذه القصيدة البائية التي هجا بها ضبة في الكوفة على كره منه ، فيما يقولون . وقد يكون هذا حقاً؛ فهو ملائم للمألوف من عادات الأعراب . ولكني أحس من نفسي تردداً في قبوله ، وأراها تنبو عنه ولا تطمئن إليه ، وأرى خاطراً يلح عليّ ولا يكاد يفارقني منذ درست شعر المتنبي وحياته في شيء من التدقيق والتفصيل . وأنا أعرض عليك هذا الخاطر كما يعرض نفسه عليّ ؛ فإن شئت فاقبله ، و إن شئت فارفضه ؛ فإني لا أجد بين النصوص ما يمكنني من ترجيحه فضلا عن القطع به . وهذا الخاطر يُلْقِي في نفسي أن المتنبي لم يذهب ضحية لهذه القصيدة ، ولا ضحية لجشع الأعراب فيما كان يسوق من مال ومتاع ، و إنما أدى بموته ، إلى القرامطة من جهة ، و إلى العرب من جهة أخرى ، ثمن هذه الخيانة التي اقترفها في الكوفة ، وسجّلها في نفسه في شيراز ، وعاد وفي نفسه أن يمعن فيها ويباهي بها ، و يملأ بها الأرض إذا انتهى إلى بغداد .

أما أن الذين قتلوه كانوا من القرامطة ، فشيء لا أستبعده[1]؛ فقد كان الأعراب منتشرين في بادية العراق لذلك الوقت، متأثرين بدعوة القرامطة أشد التأثر ، يُظهرون ذلك إن أمكنتهم الفرصة فيغيرون على المدن والسواد ، ويُخفون ذلك إذا ظهر بطش السلطان . وما أدرى ! إذا كان ضبة الكلابي داعية من دعاة القرامطة في الكوفة ، فما الذي يمنع خاله الأسدى أن يكون متأثراً بهذه الدعوة أيضاً ؟

والشيء الذي لا ينبئنا به الرواة هو مصير أصحاب المتنبي الذين رافقوه إلى أرّجان ، ثم إلى شيراز . فقد كان معه جماعة من البغداديين ، منهم ابن جني . فأين ومتى تفرّق عنه هؤلاء الناس ؟ أرحلوا معه من شيراز ثم تخلفوا في واسط ؟ أتأخروا في شيراز ؟

(١) لعل نصا ، فيما نقله البغدادى في خزانة الأدب من كتاب «إيضاح المشكل لشعر المتنبي من تصانيف أبي القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني ، يقرب هذا ويؤيده . فهو يحدثنا بأن فاتكا لما أبى المتنبي ماعرض عليه من خفارته في الطريق جمع له سبعين من رتوت الأعراب الذين يشربون دماء الحجيج فقتلوه وقتلوا من معه . وإنما كثر الاعتداء على الحجيج وفحش ، وهان على الأعراب أن يستبيحوا دماءهم ويشربوها ، بعد أن اشتد تأثر البادية العراقية بدعوة القرامطة (انظر خزانة الأدب الجزء الأول صفحة ٢٨٩)

أسبقوه إلى بغداد ؟ لا ندرى ، ولكنا نعلم أنهم حزنوا عليه أشد الحزن ، وقالوا فيه كثيراً من الرثاء ، وعُنُوا بشعره يذيعونه ويفسرونه ، ولم يشهدوا موته ، ولم يعرفوا من لحظاته الأخيرة أكثر مما كتب به أبو نصر الجبلى إلى الخالديين .

وكذلك أراد الله أن يعيش وحيداً ويموت وحيداً ذلك الشاعر الذى ملأ الدنيا وشغل الناس .

سالنش فى ١٥ يوليو سنة ١٩٣٦
كبلو فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٦

بعـــد الفراغ

... والآن وقد فرغت من إملاء هذا الكتاب منذ أشهر ، وأتمت المطبعة صفحاته الأخيرة منذ ساعات ، أحب أن أسجل أشياء من الخير ألا تضيع . أولها : أنى حين أقبلت على صحبة المتنبي فى الصيف الماضى لم أكن جادًّا ولا صاحب بحث ولا تحقيق ، وإنما كنت عابثا ، أريد أن أداعب المتنبي أو أداعب خصومه وأصدقاءه جميعاً . وليس أدل على ذلك من هذه الصفحات التى تقرؤها فى صدر هذا الكتاب . فهى لا تصور جدًّا ولا بحثا ، وإنما تصور عبثا ولهوا . ولكنى لم أكد ألقى المتنبي وآخذ فى الحديث معه ، أو الحديث عنه ، حتى صرفنى عن اللهو والعبث ، واضطرنى إلى محاولة البحث والتحقيق . وأى غرابة فى ذلك ولم يكن المتنبي صاحب راحة ولا ميالا إلى اللهو ، وإنما كانت حياته كلها جِدًّا ، وجدا ثقيلا ، ينتهى به و بقرائه إلى الملل أحيانا !

ولست أدرى: ماذا صنع المتنبي بى ، أو ماذا صنعت أنا بالمتنبي ! فقد كنت أريد أن أمضى معه متباطئا، وأتحدث إليه أو أتحدث عنه متثاقلا . ولكنى لم أكد آخذ فى الإملاء حتى دفعت إليه ، ودفعت فيه دفعا عنيفا ، لم أستطع له مقاومة ولا عليه امتناعا ، وإذا أنا أجرى فى الإملاء أو أعدو فيه أشد العدو ، حتى لا يتابعنى صاحبى إلا بجهد كل الجهد ومشقة كل المشقة ، وإذا أنا أملى إذا أصبحت ، وأملى إذا أمسيت ، وأملى بين ذلك ، وأبغض الراحة أشد البغض، ولا أكاد أنصرف عن المتنبي إلى أحد غيره أو إلى شىء غير حديثه ؛ حتى إذا انتهيت إلى حيث انتهيت ، وجدتنى مكدودا قد انتهى بى الإعياء إلى أقصاه ، ووجدتنى لم أقل للمتنبي ولم أقل عنه كل ما كنت أريد أن أقول ، فطويت الصحف، وأرجأت الحديث حتى أعود إلى القاهرة .

وكنت أريد أن أستأنف الحديث متى عدت ، فأفصّل القول فى فن المتنبي بعد أن فرغت من تفصيل القول فى حياته ، وأقف بنوع خاص عند أشياء لم أزد على أن ألممت بها إلماما . ولكن الحياة المصرية ، كما قلت فى غير موضع ، لا تلائم البحث الهادئ ولا الدرس المطمئن ، ولعلها لا تلائم بحثا ولا درسا . فما أكاد أبلغ القاهرة حتى تتلقانى الأعمال الجامعية ، فتستغرق أكثر جهدى ووقتى ، والحياة الاجتماعية ، فتستنفد ما بقى لى من وقت أو جهد ، وإذا أنا أُصْرَفُ عن المتنبي صرفاً عنيفاً كما دفعت إليه دفعاً عنيفاً ، وإذا المعنيون لا يكادون يظفرون بى لحظة ، بين حين وحين ، ليسألونى عن هذه الكلمة أو تلك ، وليقرءوا علىّ هذا الفصل أو ذاك .

ومع ذلك فما أكثر ما بقى فى نفسى من المتنبي . والله وحده يعلم : أيتاح لى أن أشفى من حديثه نفسى ، أم تحول بينى وبين ذلك الحوائل والخطوب !

والأمر الثانى : أنى أبعد الناس عن حسن الرأى فيما أمليت . ولا تظن أنى أريد أن أصطنع التواضع ، أو أن أغض من هذا الجهد الذى أنفقته حين كان ينبغى أن أستريح . وإنما أريد أن الاحظ أن هـذا الكتاب إن صور شيئاً ، فهو خليق أن يصورنى أنا فى بعض لحظات الحياة ، أثناء الصيف الماضى ، أكثر مما يصور المتنبي . وإنه لمن الغرور أن يقرأ أحدنا شعر الشاعر أو نثر الناثر ، حتى إذا امتلأت نفسه بما قرأ أو بالعواطف والخواطر التى يثيرها فيها ما قرأ ، فأملى هذا أو سجله فى كتاب ، ظن أنه صوّر الشاعر كما كان ، أو درسه كما ينبغى أن يدرس ، على حين أنه لم يصور إلا نفسه ، ولم يعرض على الناس إلا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء .

وأكثر من هذا أنى أخذت أرى رأياً ما أظن إلا أن كثيراً من الناس سيضيقون به ، ولعلهم أن ينكروه علىّ . وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسى ، ولكنى لم أزدد إلا إيماناً فيه واطمئناناً إليه ، وتعجباً من أنى قد انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة ، قبل أن أفطن له أو أطيل التفكير فيه ، وهو أن شعر المتنبي لا يصور المتنبي ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويراً كاملا صادقا يمكّننا من أن نأخذهم

منه أخذاً مهما نبحث ، ومهما نجدّ فى التحقيق . وما أُريد أن أُطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أن أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التى يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضاً ، وإنما أريد أن ألفتك إلى شىء يسير ، وهو أن ديوان المتنبى إن صوّر شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبى ، لا أكثر ولا أقل ، كما أن هذا الكتاب الذى بين يديك إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياتى أنا ، لا أكثر ولا أقل . فكما أنك لا تستطيع أن تزعم أنك تستخلص من هذا الكتاب صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، بل لا تستطيع أن تزعم أنك قادر على أن تستخرج من كتبى كلها صورة صادقة لى تطابق الأصل وتوافقه ، فأنت كذلك عاجز عن أن تُخرج من ديوان المتنبى صورة صادقة تلائم حياة المتنبى كما كانت فى النصف الأول من القرن الرابع للهجرة .

وما أكثر ما أعجب ، وما أضحك أيضاً ، حين أقرأ ما يكتبه الناس عنى بعد أن يفرغوا من قراءة هذا الكتاب أو ذاك من كتبى؛ لأنهم يحلّلون لأنفسهم ، ويَعْرِضون على الناس صوراً يزعمون أنها تمثّلنى . ولست أدرى، وليس المتصلون بى من قريب ، يرون أن بينها وبينى سبباً . وما أشك فى أن المتنبى لو أُنشر اليوم وقرأ هذا السخف الكثير الذى نكتبه عنه منذ قرون ، لأنكر نفسه أشد الإنكار ، أو لأنكر هذا السخف أشد الإنكار ، ولرأى أننا لم نكتب عنه وإنما كتبنا عن أنفسنا ، ولم نصوره وإنما صورنا أنفسنا .

وإذن فقد يكون من الخير أن نقتصد ، وألا نتشدد فى هذه النظرية التى يحبها المحدَثون ويشغفون بها ، وهى أن الشعر مرآة الشاعر ، وأن الأدب مرآة الأديب .

صدّقنى أنى أصبحت لا أطمئن إلى هذه النظرية . ولست أشك فى أن الشعر مرآة لشىء ، ولكنى لا أدرى: أهذا الشىء هو نفس الشاعر أم هو شىء آخر غيرها ! ومهما أغلو فى تصديق هذه النظرية وفى الثقة بنقد النقاد وبحث الباحثين ، فلن أتجاوز أن أقول : إن نقد الناقد إنما يصور لحظات من حياته قد شُغِل فيها بلحظات

من حياة الشاعر أو الأديب الذى عُنِي بدرسه .

وإذن فما أقل ما نظفر به حين نخصص لحظات من حياتنا للحظات من حياة شاعر أو أديب ! وإذن فما أعرضه عليك فى هذا الكتاب ليس حياة المتنبي كما كانت ، ولا هو حياة المتنبي كما أعتقد أنها كانت ، وإنما هو حياة المتنبي — أستغفر الله — بل لحظات من حياة المتنبي كما تصورتها فى أثناء شهر ونصف شهر من الصيف الماضى . ومن المحقق أنى كنت أرى فى المتنبي قبل إملاء هذا الكتاب آراء عدلت عنها أثناء الإملاء . ومن يدرى ! لعلى أرى فى المتنبي غداً أو بعد غد أو اليوم آراء غير ما أثبتُّه فى هذا الكتاب . إنما نحن عبيد اللحظات لا نملكها ولا نستطيع تصريفها ولا دعاءها ولا ردها عنا حين تُقبل علينا . وهى تقبل علينا بشىء كثير لا نحصيه . ولِمَا تقبل علينا به آثار لا تحصى فى تهيئة مزاجنا للفهم والحكم وللتأثر والتأثير .

ما أحقَّ فكرة اللحظات هذه بشىء من العناية ! وما أجدر العناية بها أن تردَّ النقاد والأدباء الباحثين إلى شىء من التواضع ، هم فى حاجة إليه .

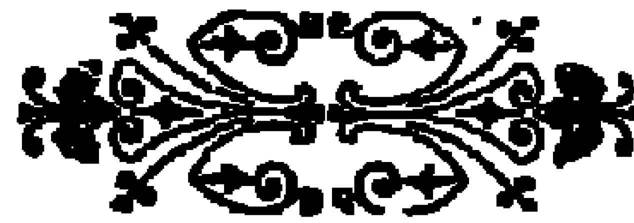
وشىء ثالث لابد من تسجيله ، وهو أنى مدين بأخلص الشكر وأجمله لصديقين ، أرى من الجحود ألا أُسجل اسميهما فى آخر هذا الحديث . ومن يدرى! لعلى أتخفف عليهما من بعض التبعات . ولعلى أُسجل اسميهما إيثاراً لنفسى بالعافية لا وفاء لهما ببعض الحق .

فأما أولهما فريد شحاتة ، الذى تكلف فى هذا الكتاب جهداً ليس من اليسير تصوره ، فقد ضحى فى سبيله براحة الصيف كلها : كان يكتب حين كنت أملى أكثر النهار وطرفا من الليل ، وكان يختلس من ساعات نومه ما ينسخ فيه الصحف ليهيئها للمطبعة .

والآخر صديقى عبد العزيز أحمد الذى قام على الطبع ونهض بأعباء التصحيح ، وإنها لثقال .

وقد قلدت أبا العلاء[1] منذ أعوام طويلة فى شكر الذين أعانوه على الكتابة والتأليف . فلأُجَدِّد هذا التقليد ، إن صح هـذا التعبير ، ولأشكر هذين الصديقين فأنا كأبى العلاء رجل مستطيع بغيره ، وأنا مدين لهما بظهور هذا الكتاب .

الزمالك ٦ يناير سنه ١٩٣٧



(١) ذكرى أبى العلاء صفحة ١١ الطبعة الثانية .

فهرس

الكتاب الأول

صبى المتنبى وشبابه

صفحة

الكتاب الثانى

فى ظل الأمراء

الكتاب الثالث

فى ظل سيف الدولة

الكتاب الرابع

فى ظل كافور

الكتاب الخامس

غنيمة الإياب

١٩٤٩/٢٦٢١